فصلية
القدس





81/82 ربيع وصيف 2021

معرض

فلسطين من الأعلى

تصوير المشهد من خلال المراقبة وصنع الخرائط

مؤسسة الدراسات الفلسطينية



كتاب معرض فلسطين من الأعلى هو تجميع للعددين 81 و82 من فصلية القدس، اللذين تم تحريرهما خصيصاً للمعرض.

للاشتراكات المحلية في فصلية القدس، التواصل من خلال:
P.O. Box 21649، القدس9121501
مؤسسة دراسات القدس
هاتف: 9722989108
فاكس: 9722950767
البريد الإلكتروني: sales-ijs@palestine-studies.org

للحصول على اشتراكات دولية أو أميركية، التواصل من خلال:
مؤسسة الدراسات الفلسطينية
M Street NW 3501
واشنطن، D.C. 20007
الولايات المتحدة الأمريكية

أو يمكنكم التواصل عبر موقع المؤسسة الإلكتروني:
www.palestine-studies.org/en/journals/jq/about



الربيع/ الصيف 2020 - العدد (81-82)

مقدّمة

روايات فلسطين من الأعلى

يزيد عناني، محرر ضيف

يتناول هذا العدد الخاص من حوليات القدس[1] استخدام تكنولوجيا الترسيم والتصوير لوصف المشهد الفلسطيني من ارتفاعات مختلفة لأغراض عدة منها: رسم الخرائط والرصد والفن والتخطيط وعدد من المجالات الأخرى. وتتناول المساهمات الموجودة في هذا العدد طيفاً من المواضيع ابتداء بصور فلسطين وجغرافيتها وحتى مفهوم المهم وغير المهم في عيون الاستعمار وما تم إغفال تمثيله أو تصويره والسبب من وراء ذلك. كما يدرس الكُتّاب المساهمون في هذا العدد استخدامات الصور الجوية لتوثيق سكك الحديد والمنشآت العسكرية والمطارات والطرق وغيرها من البنى التحتية، وتحليل نماذج التخطيط الحضري من خلال الصور، وتمحيص مسألة تحول المشهد ومسبباتها الطبيعية/البشرية. تركز مقالات عدة على تكنولوجيا الرصد والاستخبارات التي تطورت تاريخياً لتجمع مواداً بصرية حساسة وتُحدد موقعها لتضمن في النهاية السيطرة على الأرض.

تطرح هذه المقدمة روايات تاريخية ومعاصرة وتقدم تفسيراً لمعنى النظر من السماء إلى «القارة الصغيرة» –وهو المصطلح الذي استخدمه الإثنوغرافيون الألمان للإشارة إلى فلسطين– والتكنولوجيا التي استخدمت لتحقيق الغرض من هذا النوع من الاطلاع. وتمثل هذه الروايات مقدّمة لنقاشات بين عدد من المؤلفين والفنانين حول كيفية فك رموز الطبقات المتعددة للأيديولوجيا التي وقفت وراء التصوير الجوي ورسم خرائط فلسطين منذ القرن الماضي ولغاية الآن.

(1)

ففي كتابها «نظرة قريبة عن بعد: رسم الخرائط والتكنولوجيا والسياسة»،[2] تشير لورا كورغان إلى صورة مميزة جداً التقطتها الناسا غيّرت المنظور العالمي للأرض –الرخام الأزرق– التي التُقطت في 7 كانون الأول 1972. تبدو الصورة مربكة نوعاً ما بسبب تجريدها لتصبح خريطة دائرية مسطحة. فهي صورة تستفز الحواز حيث تُبيّن كوكب الأرض في حالة تناغم تام، دون أي أثر للحدود أو النزعات القومية أو الفقر أو المجاعات أو

الطغيان أو الحروب أو الأديان أو النزاعات أو التكنولوجيا. لعبت هذه الصورة دوراً مهماً في زيادة الشعور بوحدة الكوكب وصعود العالمية في قضايا الإنسانية والبيئة.

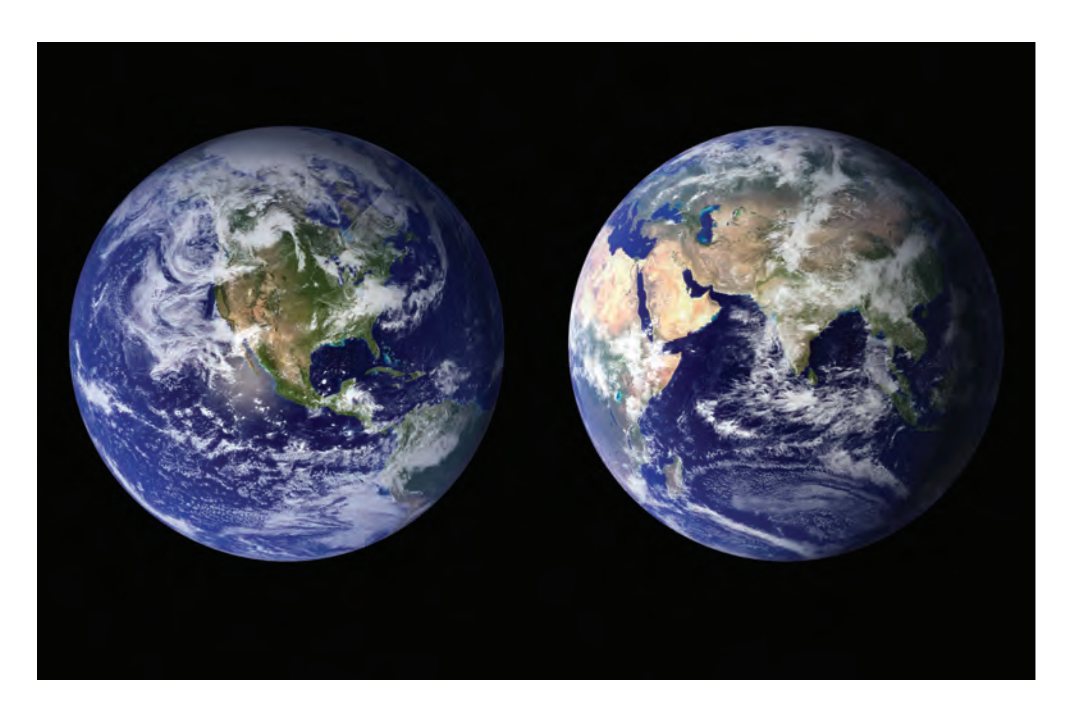
وتمت إعادة إنتاج اللوحة نفسها باستخدام الصور التي التقطتها ناسا عبر قمر تيرا الصناعي سنة 2002، ولكنها كانت مختلفة هذه المرة، حيث تألفت اللوحة من عدد من الصور المنسوجة مع بعضها البعض من تسجيلات الأقمار الصناعية الربعية بدقة فراغية تصل إلى 1كم^2 لكل بكسل. وأصدرت ناسا نسخة أخرى سنة 2005، وسمتها بالرخام الأزرق، الجيل الجديد.[3]

وفي 2012، ظهرت صورتان جديدتان لنصفي الكرة الأرضية الغربي والشرقي، سميت بالرخام الأزرق 2012، التي تم تجميعها من البيانات المأخوذة عن طريق مستشعر (Imager Infrared/Visible Suite Radiometer) المعروف باختصار (VIIRS) باستخدام القمر الصناعي (NPP Suomi) من ستة مدارات على مدى ثماني ساعات.

لم تعد صور الرخام الأزرق مجرد صور بسيطة يلتقطها رواد الفضاء، ولكنها أصبحت توليفاً من كميات كبيرة من البيانات المستشعرة عن بعد، التي يتم جمعها من خلال مجسات الأقمار الصناعية. يُلخص الفرق بين أجيال صور الرخام الأزرق التغير في نماذج الطرق الكلاسيكية للتعامل مع الصورة وما



الرخام الأزرق، صورة للأرض التقطت في 1972/12/7 من قبل طاقم المركبة الفضائية أبولو 17 وهي في طريقها إلى القمر عن بعد 29,000 كيلومتر. وتظهر فيها قارات إفريقيا والقطب الجنوبي وشبه الجزيرة العربية. ناسا



أنتجت ناسا هاتين الصورتين كصور مركبة عالمية بدقة عالية للبيانات التي جمعت باستخدام Resolution Moderate of Imaging Spectroradiometer (MODIS). ناسا.

تمثله، والبيانات والمعلومات التي تكشف عنها، وطرق تفسيرها. تزودنا نسخة الرخام الأزرق لسنة 2012، التي تشبه نوعاً ما النسخة المتقدمة التي يستطيع المرء أن يختبرها من خلال تطبيق Earth Google بصور لا يستطيع الإنسان أن يراها بعينه المجردة بسبب تركيبتها ثلاثية الأبعاد. فهي مكوّنة من طبقات من البيانات التي تم جمعها وتجميعها عبر الزمن على إطار كروي مصنوع من الأسلاك لإنتاج نموذج قابل للدوران للأرض بدقة نصف كيلومتر/بيكسل على الأقل. وتتطور هذه الصور مع مرور الوقت لتتحول إلى قاعدة بيانات أكثر تعقيداً، تضاف إليها البيانات التاريخية ويتم تحميل البيانات الجديدة عليها.

ويثير التغير في صناعة الصورة من سنة 1972 سلسلة من الأسئلة الأساسية حول التداخل ما بين المساحة الفيزيائية وتمثيلاتها، والمساحة الافتراضية وتجسيداتها. فالقدرة على الوصول لحجم ضخم من المعلومات من الأقمار الصناعية وتجميعها بشكل صورة مصغرة ثلاثية الأبعاد للأرض، أصبح متاحاً باستخدام أي هاتف نقال. وتتيح تطبيقات مثل Earth Google للمستخدمين لف الأرض على طرف أصبعهم، في محاكاة للقوى الإلهية، وبما يتعارض مع جميع قوانين الفيزياء. كذلك أصبح من الممكن من خلال المواقع المخصصة لتحليل الغطاء النباتي أو مراقبة أعمال المناجم الحصول على صور بدقة 30 سم في غمضة عين.

(2)

وتتضمن الميثولوجيا والأديان العديد من الأمثلة التي تصف القدرة على الإشراف من المرتفعات العالية على مناطق جغرافية محددة لأغراض السيطرة والهيمنة. تُبيّن هذه الأمثلة العديد من مزايا القوة المكتسبة من التمتع بميزة الإطلال من السماء على مساحة ممتدة من الأرض. ومن المثير للدهشة، أن العِبر الموجودة في هذه الأساطير تُشّكل أساساً منطقياً يتشكل عن قراءة الإطلال التاريخي والمعاصر على الأرض ومشهدها من الأعلى.

ومن القصص التوراتية المعروفة عن امتحان الإغراء بتملك الأراضي والتربُّع على العرش قصة السيد



لوحة لجيمس تيسو (فرنسي، 1836–1902)، (إغواء المسيح في البرية)، 1886–1894، ألوان مائية معتمة على الجرافيت، الصورة: 8 8/7 5 13 x/16 cm 33.8 x 22.5) .in). متحف بروكلين، الموقع الإلكتروني (tinyurl.com/vzzb5pz), (brooklynmuseum.org) (تم الدخول إلى الصفحة في 2020/3/16).

المسيح والشيطان على جبل القرنطل. فبعد أن فشل في استدراج المسيح لتحويل الحجارة إلى خبز، وإلقاء نفسه عن ظهر مبنى عال في القدس، كانت حيلة الشيطان الأخيرة هي نقل المسيح إلى جبل القرنطل في أريحا، وعرض جميع الممالك عليه غرباً حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وشرقاً حتى البحر الميت وغور الأردن الخصيب.

أغوى الشيطان المسيح بأن عرض عليه جميع ثروات الممالك التي يستطيع أن يراها من قمة الجبل، لو وافق فقط على الركوع للشيطان وعبادته. قاوم المسيح إغراء غور الأردن الأخضر اليانع وسط محيطه المقفر، وهو المكان نفسه الذي اختار هيرود أن يبني قصره الفاره فيه، والذي بنى فيه فيما بعد الخليفة الأموي، هشام بن عبد الملك، قصراً فخماً آخر، وحيث أهدى الجنرال الروماني ماركوس أنطونيوس كليوباترا بساتين الشوح والتمر في أريحا كعربون لحبهما. فلهذا الموقع المطل، الذي يمكن للعين فيه أن تحفظ المشهد المنبسط أمامها، والذي لا تستطيع أن تراه بالعادة من القمم الأقل ارتفاعاً أو خلال الحياة اليومية داخل المستقرات البشرية، القدرة على الإغواء بالسيطرة والتحكم، الأمر الذي قاومه المسيح على الرغم من الطبيعة البشرية الطماعة والمتملكة.

وسواء من مناطيد القرن السادس عشر أو الاستشعار عن بعد باستخدام الأقمار الصناعية، هناك تاريخ تكنولوجي طويل لزرع عيون في السماء للتجسس ورسم الخرائط والحفاظ على التحكم والسيطرة على مساحات شاسعة لا يمكن رؤيتها من الأرض

(3)

وليس الشعور العميق بإغراء السيطرة والتملك وحده الذي يستحوذ على المرء عندما يرنو إلى المنظر من أعلى، ولكن يلفت نظره كذلك عدم وضوح التفاصيل والعمليات البشرية اليومية التي تخفى



يـري رايسـبير، المنظـر مـن جبـل آربـل. 2013. الموقـع الإلكترونـي tinyurl.com/t9jwnb3، (ccsearch.creativecommons.org) (تمـت زيـارة الموقـع فـي 19 آذار 2020).

علـى العيـن مـن ذلـك الارتفـاع. ويمكـن القـراءة عـن الشـعور نفسـه الـذي يُفقِـد الحـدود والتقسـيمات التـي صنعهـا البشـر معناهـا فـي كتـاب رجـا شـحادة «صـدع فـي الزمـن»، حيـث قـال واصفـاً شـعوره وهـو يطـل علـى وادي الأردن مـن قمـة جبـل آربـل:

> «تسـمى التلـة التـي وقفنـا عليهـا أنـا وزوجتـي، بينـي، فـي ذلـك اليـوم الصافـي البـارد فـي نهايـة العـام 1996 بجبـل آربـل، وهـي إحـدى أعلـى القمـم علـى هضبـة الجليـل. وتحتنـا كنـت أرى بوضـوح جغرافيـة الأرض الجديـدة تمتـد أمامـي]... [فمـن هـذا السـفح شـديد الانحـدار الـذي يمكـن وصفـه بأخـدود عريـض تحيـط بـه تـلال عاليـة، كنـت أرى روعـة الصـدع العظيـم (حفـرة الانهـدام) بمـا فيـه بحيـرة طبريـا ومـا بعدهـا وصـولاً إلـى لبنـان شـمالاً. وفـي الأفـق، كنـا نـرى جبـل الشـيخ، الـذي اكتسـب اسـمه مـن الشـبه مـا بيـن قمتـه المكسـوة بالثلـوج وعمامـة الشـيوخ البيضـاء.
>
> تتيـح هـذه البقعـة فهـم انسـياب حفـرة الانهـدام، التـي تمتـد مـن جبـال طـوروس جنـوب تركيـا وحتـى موزمبيـق شـرق إفريقيـا. وحتـى فـي هـذه المسـاحة الصغيـرة نسـبياً، يسـتطيع المـرء أن يـرى أن حـوض الـوادي يتضمـن بحيـرات وأشـجاراً محاطـة بـأراضٍ أعلـى مـن الجانبيـن، مشـكّلةً فـي بعـض المناطـق مـا يشـبه الجـدران الصخريـة]....[وتمتلـئ الأراضـي المحيطـة بالمـكان بالصخـور البركانيـة والحمـم المتصلبـة بشـكل بازلـت. وبالقـرب مـن المـكان الـذي كانـت تقـع فيـه قريـة حطيـن، نجـد مـا يـدل علـى التصـدع المسـؤول عـن هـذا الشـرخ الكبيـر بيـن التـل الصخـري الـذي أقـف عليـه، وذلـك الموجـود إلـى يسـاره، ووادي الحمـم بينهمـا».[4]

تحـول منظـور شـحادة للجغرافيـا مـن خرائـط وصـور إلـى مفهـوم مختلـف للعلاقـات مـن الأعلـى، حيـث دبـت الحيـاة فـي الصـدع وخصائصـه ليتحـول مـن مجـرد خطـوط علـى خريطـة إلـى امتـداد جغرافـي ينبسـط علـى مرمـى البصـر. فلـم تعـد الخطـوط تُرسّـم الحـدود، ولـم تعـد النقـاط تحـدد مواقـع القـرى والمـدن، الأمـر الـذي يثيـر إحساساً بالعالميـة يتخطـى النزعـات القوميـة والحـدود، ويماثـل -إلـى حـد كبيـر- المشـاعر التـي تسـتثيرها صـورة الرخـام الأزرق التـي التقطـت سـنة 1972.

(4)

وتصـور رحلـة المنطـاد زبليـن إلـى مـدن الشـرق سـنة 1929 التـي توجهـت إلـى مصـر مـن خـلال فلسـطين زاويتيـن تكمـلان بعضهمـا البعـض للمشـهد التوراتـي مـن الأعلـى علـى الرغـم مـن اختلافهمـا.[5] فمـن ناحيـة، تمكـن الضيـف اليهـودي الصهيونـي مـن رؤيـة «أرض الميعـاد» بمخيلتـه التوراتيـة التـي تدعـم الادّعـاءات الصهيونيـة والهجرة المسـتمرة إلـى فلسـطين. ومـن ناحيـة أخـرى، انبهـر الضيـوف الألمـان الإنجيليـون بالغمـوض والرومانسـية التـي تحيط بفلسـطين والمشـرق فـي محاولـة للربـط مـا بيـن الماضـي التوراتـي والماضـي التاريخـي لـلأرض وشـكلها الحالـي.

اسـتلم القنصـل الألمانـي فـي القـدس فـي 1929/3/20 رسـالة مـن حكومـة الانتـداب البريطانـي يسـمح فيهـا لمنطـاد زبليـن القـادم مـن برليـن أن يحلـق فـوق فلسـطين، إلا أن الرسـالة شـدّدت علـى أن الهبـوط محظـور تمامـاً إلا فـي الحـالات الطارئـة.



منطـاد زبليـن يحلـق فـوق بـرج القلعـة، 1931/4/11. مجموعـة صـور ج. إريـك وإديـث ماتسـون، مكتبـة الكونغـرس، قسـم المطبوعـات والصـور، واشـنطن العاصمـة. متوفـرة علـى الموقـع الإلكترونـي (tinyurl.com/v4o8nco)، (loc.gov)، تمـت زيـارة الموقـع فـي (2020/3/10).

كان علـى متـن المنطـاد الألمانـي، غـراف زبليـن (Zeppelin Graf 127-LZ)، سـنة 1929 –الـذي حلـق فـوق القـدس مرتيـن؛ خـلال رحلـة مـدن الشـرق فـي 1929/3/26، ورحلـة مصـر فـي 1931/4/11– طاقـم مؤلـف مـن 41 عضـواً، و28 ضيفـاً. كان مـن بينهـم د. وولفغانـغ فـون فيزيـل، أحـد مؤسسـي الحركـة الصهيونيـة التصحيحيـة وقائـد النضـال الصهيونـي لإنشـاء الدولـة اليهوديـة؛ ود. إيوجيـن بولـز رئيـس ولايـة فورتيمبيـرغ؛ وثيـودور فـون غيـراد وزيـر النقـل السـابق فـي ألمانيـا، وابنـة الكونـت فردينانـد فـون زبليـن الكونتيسـة براندينشـتاين؛ والسـيدة طونـي زانـدر عضـو برلمـان الرايـخ الألمانـي؛ وإريـك كوكبايـزر وزيـر العـدل فـي حكومـة الرايـخ؛ وبـول لوبيـه رئيـس برلمـان الرايـخ الألمانـي؛ وألبـرت فلوغيـر رئيـس برلمـان ولايـة فورتيمبـورغ؛ ود. هيرمـان باديـت، مسـؤول رفيـع المسـتوى فـي وزارة الداخليـة البروسـية وأحـد أعضـاء البرلمـان؛ وفيلهيلـم كايـل وجـوزف خوزيـة؛ والليـدي درامونـد هـاي ممثلـة تكتـل صحـف هيرسـت، ومسـؤولون آخـرون رفيعـو المسـتوى مـن وزارات التجـارة والماليـة والاقتصـاد فـي بروسـيا، وممثـل عـن البحريـة الألمانيـة.

وعلـى ظهـر المركبـة، تـم أخـذ الضيـوف إلـى غرفهـم، حيـث كانـت غـرف الضيـوف الصغيـرة فـي الدرجـة الأولـى الفارهـة مجهـزة بأثـاث أنيـق. عـرض الطاهـي الشـهير قائمـة طعـام العشـاء المؤلفـة مـن شـرائح لحـم الخنزيـر المطهـو بنبيـذ بيرغنـدي مـع تشـكيلة مـن الخضـار، متبوعـاً بطبـق مـن مختلـف أنـواع الجبـن والزبـدة، بينمـا تجمـع الضيـوف فـي صالـة العشـاء ملتفيـن ببطانيـات مـن صـوف الجمـل، طُـرز عليهـا شـعار زبليـن، ورفعـوا كـؤوس الجعـة والنبيـذ إيذانـاً ببـدء الرحلـة إلـى الأراضـي المقدسـة ومـدن المشـرق المذهلـة. بالنسـبة لبعـض الضيـوف، وبخاصـة د. ولفغانـغ فـون فيـزل، كانـت الرحلـة إلـى القـدس، فرصـة لتفحـص «أرض الميعـاد» مـن السـماء، ولتخيـل فلسـطين كوطـن قومـي لليهـود.

وفـي يـوم الثلاثـاء 1929/3/26 السـاعة الرابعـة بعـد الظهـر، وصـل منطـاد زبليـن إلـى خليـج حيفـا بسـرعة 130 ميـلاً فـي السـاعة. ولاقـى ركاب المنطـاد بعـد 40 سـاعة طيـران ترحيبـاً حافـلاً مـن الأرض نظمـه سـكان الحـي الألمانـي[6] الذيـن تجمعـوا علـى سـفح جبـل الكرمـل منـذ الظهـر. ومـن الأعلـى لـوّح الـركاب للجماهيـر التـي كانـت فـي اسـتقبالهم حاملـة الشـرائط والأعـلام. حلقـت الطائـرة بشـكل دائـري فـوق كلمـة أهـلاً وسـهلاً باللغـة الألمانيـة "Willkommen" التـي رسـمت علـى قطـع خشـبية مدهونـة باللـون الأبيـض، ومـن ثـم انطلقـت جنوبـاً نحـو السـاحل، محلّقـة فـوق قلعـة عتليـت الصليبيـة، ومـن ثـم قريـة قيسـاريا الفلسـطينية وآثـار القلعـة الرومانيـة هنـاك. واسـتمرت رحلـة المنطـاد فـوق الحقـول المزروعـة حديثـاً بالكينـا فـي مسـتوطنة الخضيـرة ومسـتوطنة زخـرون يعقـوب، ومـن ثـم تابعـت رحلتهـا إلـى مسـتوطنات نتانيـا وهرتسـليا. ومـن ثـم ظهـرت أمامهـم فـي الأفـق مـن بيـن الرمـال مدينـة تـل أبيـب، جوهـرة تـاج الحلـم الصهيونـي، وهـي تعـج بالجماهيـر المحتفيـة بوصـول المنطـاد. كان العديـد مـن هـؤلاء سـياحاً عربـاً مـن مصـر وسـوريا، وآخـرون مـن نابلـس وجنيـن والقـدس. وحيثمـا كان يسـمع هديـر محـركات منطـاد الزبليـن، كانـت السـيارات تتوقـف فـي الشـوارع، ويحييـه النـاس ويصفقـون ويلوحـون بقبعاتهـم. كانـت الشـوارع تعـج بالنـاس، وكُلفـت بعـض المركبـات بمرافقـة المنطـاد خـلال تحليقـه فـوق تـل أبيـب حيـث تـم إيقـاف المحـركات وإسـكات صوتهـا. كمـا تـم إفـراغ ثلاثـة أكيـاس كبيـرة مـن قصاصـات الـورق الملـون مـن المنطـاد لتتسـاقط علـى الأرض فـي تحيـة للجماهيـر المحتفيـة بـه.

وصف ليمان، أحد ملاحي المركبة وصول المنطاد إلى القدس في يومياته قائلاً:

> بعـد ذلـك توجهنـا إلـى القـدس، ولكننـا -للأسـف- كنـا قـد تأخرنـا بضـع سـاعات. وفيمـا وصلنـا مشـارف القـدس، ارتفـع البـدر بلونـه الأحمـر ملقيـاً بضوئـه السـحري فـوق المدينـة. ولـم يكـن بإمكاننـا أن نقـوم بشـيء سـوى أن نطـوف مـرات عـدة فـوق المدينـة المقدسـة، ونلقـي التحيـة عليهـا. وأعتقـد أننـا كنـا نبـدو للنـاس فـي الأسـفل كعربـة ملتهبـة بالنيـران.[7]



هوغو إيكنر ولودفيك دوير، مصمم منطاد الزبلين (LZ-126)، على متنه، 1924.
الموقع الإلكتروني (airships.net) (tinyurl.com/uyowqzr) (تمت زيارة الصفحة في 2020/3/10).

قُدم العشاء مع تشكيلة خاصة من النبيذ، بينما كان الركاب في انتظار مغيب الشمس على ظهر المنطاد الذي كان يحلّق نحو القدس. وفيما كانوا يتناولون نبيذاً خاصاً للمناسبة، كانوا يشاهدون بهاء بزوغ أول شعاع من الضوء فوق المناطق التاريخية. وكانت أكبر حقيبة بريدية في تاريخ منطاد زبلين هي تلك التي أسقطها فوق القدس؛ حيث راقب الركاب إنزال 4 حقائب بريدية في الهواء، فيما كان صوت هدير محرك الزبلين يدوي في أحياء المدينة.

وحول توجيه المنطاد إلى البحر الميت، يقول الكابتن هوغو إيكنير في مذكراته:

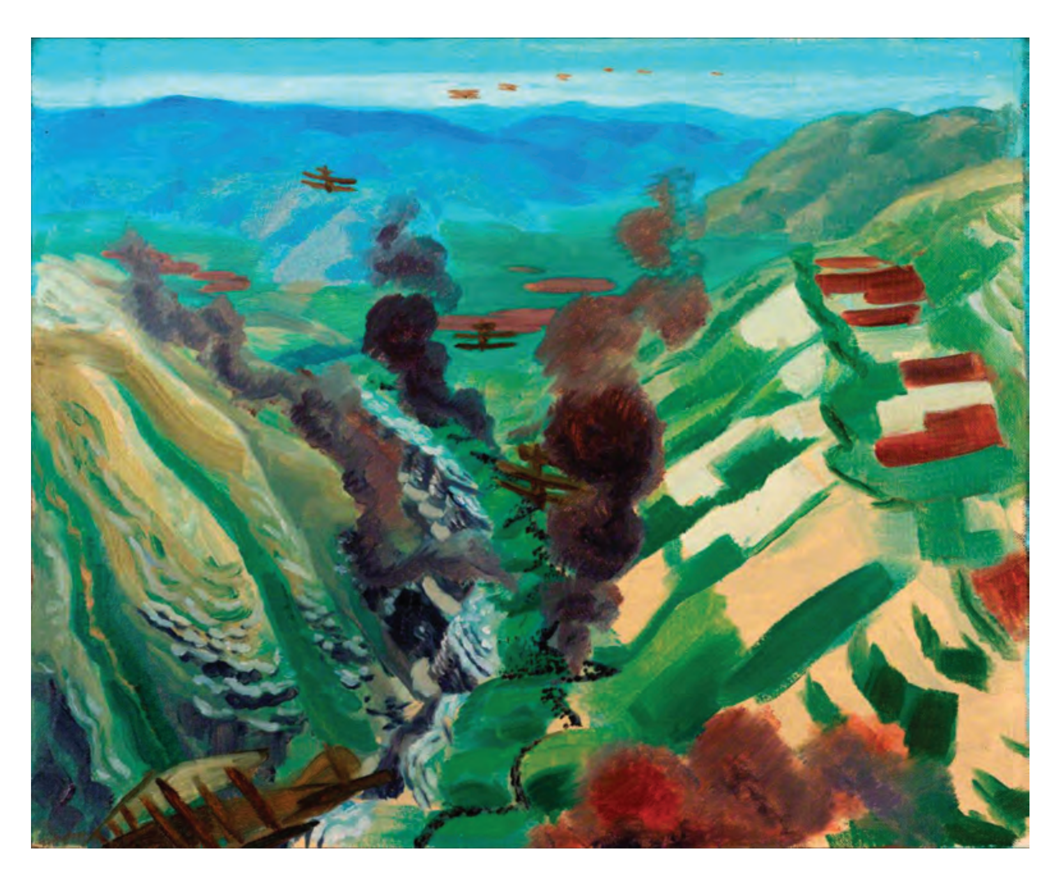
> يقع البحر الميت على ارتفاع حوالي 1,300 قدم تحت سطح البحر. أغرتنا إمكانية التحليق بالمنطاد على ارتفاعات أدنى من مستوى سطح البحر. تقع القدس على ارتفاع 2,600 قدم، وخلال 15 دقيقة كنا فوق طرف الهضبة التي يبدأ من بعدها الانحدار الحاد نحو حفرة الانهدام التي يقع البحر الميت في قاعها. كان الوقت ليلاً، وكان البدر بضوئه الباهت بالكاد منيراً. امتدت البحيرة الكبيرة في الظلام غير الدامس، غامضة غمض العالم السفلي. بدأنا نهبط تدريجياً، حتى أصبحنا نحلق على ارتفاع بضع مئات من الأقدام فوق الماء. نظرنا إلى قمم الجبال المطلة علينا من الأعلى، كأننا نقبع في تسوية. كان من الغريب أن نكون على متن مركبة تحلق بالعادة فوق مستوى سطح البحر، لكنها تطير حالياً على ارتفاع 1000 قدم تحت سطح البحر. وفتحنا بضع زجاجات من نبيذ الراين احتفالاً بهذه المناسبة ... .[8]

وبعد 81 ساعة و5000 ميل، عاد منطاد الزبلين أدراجه إلى مدينة فريدريش هافين. وحُفرت رحلة مدن المشرق، وتجربة الطيران فوق الأراضي المقدسة تحديداً، في ذاكرة جميع ركابه.

(5)

كان للحرب العالمية الأولى أصداء مهمة في المخيلة البريطانية والأسترالية. خدم العديد من الفنانين في الحرب، وحارب بعضهم بجانب زملائهم من الجنود، بينما شارك البعض الآخر في الأعمال غير القتالية، حيث عملوا على توثيق وتصوير تجربتهم في الحرب. قامت الحكومة البريطانية من خلال وزارة الإعلام ومتحف الحرب الإمبراطوري الأسترالي رسمياً بتوظيف فناني حرب، عملوا من خلال رسوماتهم ولوحاتهم على تشكيل سرد بصري للحرب وتمثيلات جغرافية للأماكن التي وقعت فيها الحرب لنقل هذه التجربة للأجيال القادمة. تم تكليف معظم هؤلاء الفنانين من قبل سياسيين ليبراليين شجعوهم على رسم ما يرغبون وتمثيل وتسجيل ما يرونه.[9] ولم يكن هناك الكثير من الرقابة أو السيطرة العامة على ما يرسمه الفنانون. ولا يصف هذا الإرث من أعمال الفنانين خلال الحرب في فلسطين ومذكراتهم ورسائلهم وكتبهم وجهات نظرهم الوطنية والقومية حول الحرب فحسب، ولكنه تشكل، أيضاً، بالمعتقدات الأنجلو-إسرائيلية والحق السماوي المعطى للبريطانيين لتنظيف الأرض من المعتدين العثمانيين.

تم إرسال الأخوين كارلين من قبل الفيلق الجوي الملكي لفلسطين وسوريا ليسجلوا من خلال أعمالهم الفنية أدلة على الدور الذي تلعبه القوات الجوية الملكية وكتائب القوات الجوية الملكية الأسترالية في



سيدني ويليام كارلين، تدمير المواصلات التركية في وادي الفارعة في فلسطين، 1919، لوحة زيتية على القماش، H 33.8 x W 41.7. متحف الحرب الإمبراطوري. الموقع الإلكتروني (tinyurl.com/kg6u2gl) (iwm.org.uk) (تمت زيارة الموقع الإلكتروني في 2020/3/16).

تدمير القوات العثمانية خلال حملة ألنبي في سيناء وفلسطين في أيلول-تشرين الأول 1918. وبعد أن تم استدعاء الأخوين كارلين مرة أخرى في تشرين الثاني 1919، نظم سيدني معرضاً في لندن العام 1920 عرض فيه أكثر من 300 عمل عن إيطاليا والشرق الأوسط.

تتناول الجماليات الجوية الجديدة التي وصفها الأخوان كارلين في أعمالهما المناظر الجوية كمشاهد خام مجردة من أي إشارة للثقافة المحلية. وكنسر ينقض على فريسته، تمجد اللوحات القوات الجوية الملكية والقوات الجوية الأسترالية كحماة للأراض المقدسة، يعملون على تطهيرها من «الغزاة العثمانيين» في محاولة لطمس ثقافتهم واستبدالها بثقافة المالكين الحقيقيين.

(6)

تاريخياً، كانت فلسطين من الأعلى دائماً مكاناً للإطلال على المشهد المقدس انطلاقاً من ضروريات ومواقف أيديولوجية مختلفة.[10] وتعتبر المواد المكتوبة والمصورة والمرسومة التي أُنتجت بكثافة عن فلسطين من الأعلى مورداً ثرياً ينقض فكرة النوايا المتجانسة لأولئك الذين يمتلكون القوة والتكنولوجيا اللازمة لمشاهدة فلسطين من السماء. فمن الأمثال التي تتحدث عن شعور الأنبياء والأبطال باندفاع الدم في عروقهم عند النظر إلى المشهد من الأعلى، مغرياً إياهم بالسيطرة على الجغرافيا التي يرونها، وحتى لحظة مشاهدة الأرض من القمر لأول مرة، تبرز أسئلة أساسية حول البيئة وإزالة الحدود. كانت قدسية فلسطين لعنة على سكانها، حيث اعتبروا أنهم تشويه لقدسيتها أو جزء من المشرق الغامض الذي يرزح تحت سيطرة الاستعمار. ولكن في جميع الأحوال، ما زالت تكنولوجيا السماء مستمرة بمهمتها في الاستطلاع وجمع البيانات من الأعلى لأغراض الرصد والتحكم.

وتعد فلسطين من السماء، تاريخياً، جزءاً من الحرب الاستعمارية المباشرة للإخضاع والسيطرة، التي تُشّن باستخدام أحدث أساليب التصوير ورسم الخرائط والاستشعار عن بعد، والرصد الجوي، والتي



«المُسّيرة هيرون TP وهي مركبة هجومية (إسرائيلية). تصل سرعتها إلى 370 كم في الساعة وتُحلق على ارتفاع 7,400 كم، ويمكن أن تطير لمدة 70 ساعة على ارتفاع 14 كم». (Debkafile)، 2015/8/15، الصفحة الإلكترونية (com.debka) (wh6jgqa/com.tinyurl) (تم الدخول إلى الصفحة في 2020/3/10).

ترافقها عمليات الجيوش على الأرض. ولكن في الوقت المعاصر، تحولت إلى تكنولوجيا معقدة للحفاظ على الأمن والوقاية. تستخدم تكنولوجيا الطيران الإسرائيلي الاستشعار عن بعد والرصد الجوي والبيانات الجغرافية المضغوطة وتحفظها في قواعد بيانات رصدية تزيد بشكل كبير من قدرة إسرائيل على مراقبة واستخراج بيانات كمية عن الفلسطينيين. وباستخدام الخوارزميات المحوسبة وتقنيات التعرف على الملامح والتنصت عن بعد، ومقارنتها مع طبقات البيانات الوصفية المأخوذة من القطاعات الصحية والاجتماعية والتعليمية على الأرض، إضافة إلى وسائل التواصل الاجتماعي، تقوم الحكومة الإسرائيلية بمراكمة قواعد بيانات مدمجة ومعقدة تهدف إلى تحليل أنماط السلوك المجتمعية والتنبؤ فيها لأغراض أجهزتها الأمنية وسياساتها الحيوية.

يزيد عناني معماري وقيّم فني، ويشغل حالياً منصب مدير البرنامج العام في مؤسسة عبد المحسن القطان. كان يعمل سابقاً محاضراً في جامعة بيرزيت والأكاديمية الدولية للفنون في رام الله.

الهوامش:

1 يحمل كلا العددين من حوليات القدس عنوان «فلسطين من الأعلى»، وهما باعتبار مقدمة للمعرض الذي يحمل الاسم نفسه، الذي سيقام في مؤسسة عبد المحسن القطان برام الله في آب 2020.

2 لورا كورغان. نظرة قريبة عن بعد: رسم الخرائط التكنولوجيا والسياسة، (New York: Zone Books, 2013).

3 جُمعت بيانات سطح الأرض في الفترة ما بين حزيران وحتى أيلول 2001. تم جمع معلومات عن الغيوم في يومين منفصلين: 2001/7/29 لنصف الكرة الشمال، و2001/11/16 لنصف الكرة الجنوبي. ثم أصدرت الصور بشكل صورة كهربائية وتم تجميعها باستخدام برنامج آدوبي فوتوشوب في نهاية كانون الثاني 2002.

4 رجا شحادة، صدعٌ في الوقت (عنوان القصة بتصرف)، رحلة مع عمي العثماني (نيويورك، دار نشر أور، 2011)، 31.

5 أُخذ هذا النص من مرجعين رئيسيين: Leder, Wenn es doch Tag gewesen wäre! (Meersburg: Topo-Verlag, 2007) and Fred F. Blau and Cyril Deighton, The Orient Flight of LZ 127 Graf Zeppelin (Chesterfield: Germany Philatelic Society, 1980).

6 تم إنشاء الحي الألماني في حيفا سنة 1868 من قبل الهيكليين البروتستانتيين الألمان. وكان واحداً من أحياء عدة أنشأتها هذه المجموعة في الأراضي المقدسة، حيث تم إنشاء أحياء أخرى كحي سارونا قرب يافا، وأحياء أخرى في الجليل والقدس.

7 هيوجو إيكنير، الربلن الخاص بي (نيويورك، صحافة بوتنام، 1959).

8 هيوجو إيكنير، الربلن الخاص بي (نيويورك، صحافة بوتنام، 1959).

9 جون فيرلي، أحصنة الحرب العظيمة، القصة في الفن (بارنسلي، المملكة المتحدة، دار نشر Pen & Swords، 2015).

10 دبليو جي تي ميتشيل، الأرض المقدسة: إسرائيل، فلسطين، والبرية الأمريكية، تساؤلات نقدية، العدد

عملية مشتركة

التصوير الجوّيّ والمشهد الحضريّ في فلسطين بين الحربين العالميتين

ندي أبو سعادة
طالب دكتوراه, جامعة كامبريدج

مقدمة

لم يُحدِث طرح التصوير الجوي في بداية القرن العشرين ثورة في طبيعة الحرب، على النحو الذي تجلّى في الحربين العالميتين الأولى والثانية فقط، ولكن أيضاً في طريقة تمثيل المشاهد الظاهرة في هذه الصور وتصويرها. فبالنسبة لفلسطين - وهي دولة طالما صوّرها المستشرقون والأكاديميون التوراتيون على أنها مشهد توراتي - مثّل ظهور الصور الجوية في الحرب العالمية فرصة لنشوء أُطُر جديدة لتفسير المشهد من الخارج وعن بعد. فمنذ الحرب العالمية وحملات التوثيق الجوي تُنَظّم كنتاج لجهود الحرب الهادفة لخدمة المطامع الإمبريالية البريطانية في فلسطين فترة الانتداب. ولذا، وعلى الرغم من استمرارية استخدام الوصف الاستشراقي لفلسطين على أنها الأرض التوراتية المقدسة، كمّلت الصور ذات الطبيعة التقنية والعلمية التي أنتجتها الحرب هذا الوصف بتمثيلها للخصائص الطبوغرافية والجغرافية وخصائص الإنشاءات في المشهد الفلسطيني، بما فيه البيئة الحضرية وإنشاءاتها.

يهدف هذا المقال، بناء على هذا الأساس، وعلى تأكيد جين هافنر على أن المنظر من الأعلى، بحسب ما صورته الطائرات، جلب معه «علماً جديداً عن الفضاء الاجتماعي»،[1] لتتبع بعض التطبيقات الرئيسية للنفوذ الجوي، وخصوصاً الصور الجوية، في فلسطين ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وهي الفترة التي ظهرت فيها الصور الجوية لفلسطين لأول مرة، واندلعت فيها الثورة العربية الكبرى في فلسطين في الفترة ما بين 1936 – 1939 إبّان الانتداب البريطاني. ينقسم المقال إلى ثلاثة أجزاء رئيسية؛ يتتبع الأول التجارب المبكرة في التصوير الجوي لطرفي الحرب البافاري - العثماني والبريطاني - الأسترالي على الجبهة الفلسطينية، وبعض الابتكارات في علوم رسم الخرائط والجغرافيا التي ظهرت مع هذه التجارب؛ بينما يحدد الجزء الثاني مواقع قمع الثوار خلال الثورة العربية الكبرى في فلسطين، خصوصاً مع ظهور الإستراتيجيات البريطانية الإمبريالية «للسيطرة الجوية» بعد الحرب العالمية؛ وأخيراً يدرس القسم

الثالـث حالـة البلـدة القديمـة فـي يافـا، التـي هدمتهـا القـوات البريطانيـة فـي الفتـرة مـا بيـن أيـار – حزيـران 1936 ووثّقـت العمليـة بسلسـلة مـن الصـور الجويـة. كذلـك سـنعرض واحـدة مـن أكثـر الصـور قسـاوة، وتبعـات المشـهد مـن أعلـى إلـى حـدّ مـا.

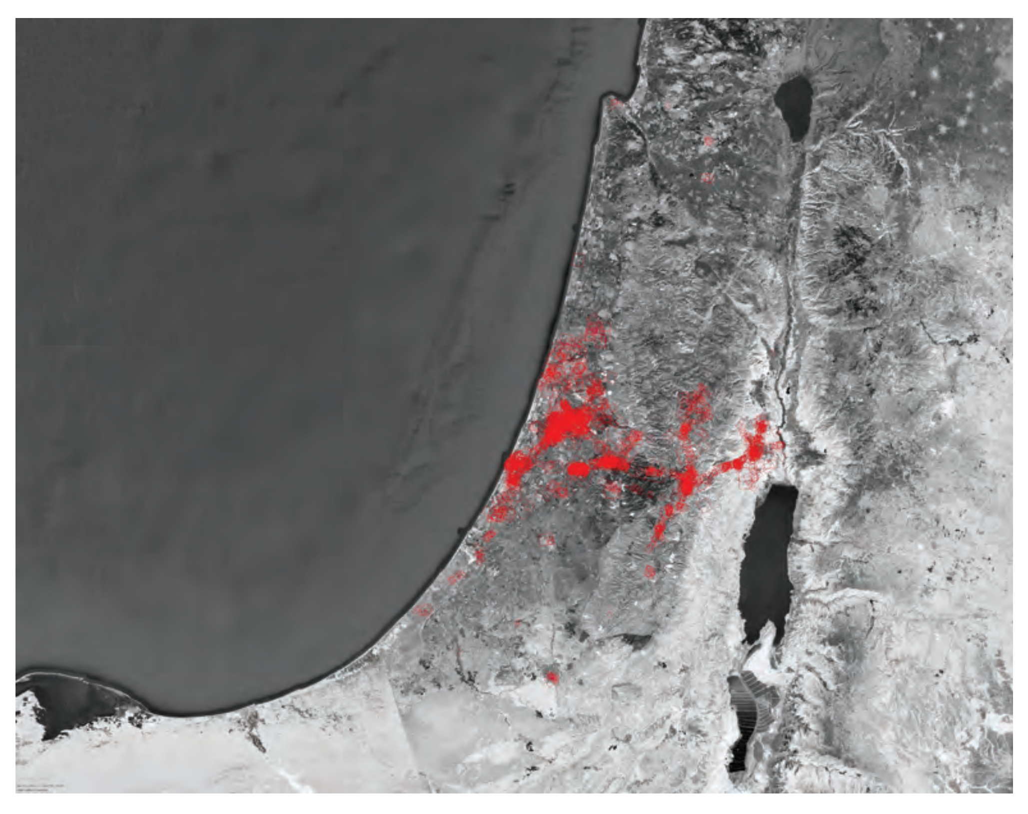
واعتمـدت فـي كتابـة هـذا المقـال، لأتمكـن مـن دراسـة هـذه العناصـر، علـى البحـث فـي الأرشـيفات والمجموعـات الموجـودة فـي متحـف الحـرب الأسـترالي وأرشـيف ولايـة بافاريـا والمكتبـة البريطانيـة وأرشـيف دولـة إسـرائيل، حيـث توجـد العديـد مـن الصـور الجويـة للمشـهد الحضـري فـي فلسـطين فـي الفتـرة مـا بيـن الحـرب العالميـة والثـورة العربيـة الكبـرى فـي فلسـطين. كمـا اعتمـدت فـي أبحاثـي علـى سلسـلة مـن الإصـدارات التـي نُشـرت فـي الفتـرة نفسـها، أهمهـا أعمـال الكابتـن هامشـو تومـاس وغوسـتاف دالمـان، اللذيـن أسـهما إلـى حـدّ كبيـر فـي توسـيع مجـال اسـتخدام صـور الحـرب الجويـة، التـي التقطتهـا القـوات البريطانيـة والبافاريـة للجبهة الفلسـطينية، ليتخطـى الأغـراض الحربيـة المباشـرة، ويتنـاول عـدداً مـن الأغـراض الأخـرى. كمـا اعتمـدت علـى تقريـر الحكومـة البريطانيـة الـذي حمـل عنـوان «دروس عسـكرية مـن ثـورة العـرب فـي فلسـطين» والمنشـور سـنة 1938، والـذي نـادراً مـا اسـتُخدم فـي الدراسـات الأكاديميـة حـول الثـورة، باعتبـاره أحـد الوثائـق الأساسـية فـي دراسـة النشـاط البريطانـي خـلال الثـورة العربيـة الكبـرى فـي فلسـطين. ومـع إدراك الطبيعـة الاسـتعمارية لمعظـم هـذه المصـادر والأرشـيفات، يسـتجيب هـذا المقـال لدعـوة آن سـتولر لقـراءة الأرشـيفات الاسـتعمارية بطريقـة «تتتبـع تفاصيـل المـواد المؤرشـفة» لتحليـل وفهـم «المنطـق الاسـتعماري» الـذي يتجلـى فـي نظرتهـم الجويـة وصورهـم المتغيـرة والتعديـلات علـى المشـهد فـي فلسـطين.[2]

«الواقع كما يظهر من الأعلى»

جلبـت الحـرب العالميـة لفلسـطين، كمـا فَعَلـت فـي أماكـن أخـرى، وفـرة مـن التقـدم التكنولوجـي فـي مجـال الحـرب. وكان مـن أهـم هـذه التقنيـات تطـور التصويـر الجـوي، الـذي جمـع مـا بيـن الابتـكارات الحديثـة فـي تكنولوجيـا الطيـران والتصويـر. وعلـى الرغـم مـن أن الصـور الجويـة الأولـى ظهـرت قبـل سـنوات مـن الحـرب، إلا أن اسـتخدامها المُنّظـم لـم يبـدأ إلا فـي الحـرب العالميـة. ففـي فلسـطين، وابتـداء مـن 1915، وفيمـا احتـدت المواجهـات مـا بيـن القـوات البريطانيـة – الأسـترالية والعثمانيـة – البافاريـة، وفيمـا بـدأت المعـارك تنتقـل مـن بئـر السـبع وغـزة فـي جنـوب فلسـطين إلـى المراكـز الحضريـة فـي شـمالها، بـدأت السـرايا البافاريـة والأسـترالية تلعـب دوراً مهمـاً فـي جهـود الحـرب. وبينمـا تضمـن هـذا الـدور شـن الغـارات الجويـة المباشـرة، كالغـارة التـي نفذتهـا سـرية القـوات الجويـة الأسـترالية الأولـى علـى القـوات العثمانيـة علـى طـول خـط غـزة – بئـر السـبع فـي آذار 1917 وغيرهـا مـن العمليـات المماثلـة، إلا أن دورهـا الأساسـي كان الاسـتطلاع الجـوي لأغـراض تتبُّـع تحـركات الأعـداء ودراسـة مخيمـات العـدو لتوفيـر المعلومـات للتخطيـط الإسـتراتيجي.[3]

كانـت الطائـرات البافاريـة والأسـترالية فـي نهايـة الحـرب، قـد التقطـت آلاف الصـور الجويـة لفلسـطين، وهـي موجـودة اليـوم فـي أرشـيف ولايـة بافاريـا ومتحـف الحـرب الأسـترالي (الشـكل 1). تقاطعـت هـذه الصـور فـي كثيـر مـن الأحيـان مـع بعضهـا بعضـاً، وركـزت بشـكل أساسـي، علـى الأقـل البافاريـة منهـا، كمـا يبـدو واضحـاً فـي خرائطهـم الجغرافيـة، علـى سـاحل فلسـطين ووسـطها، والمناطـق المحيطـة بخـط سـكة الحديـد الواصـل مـا بيـن يافـا – القـدس عابـراً اللـد والرملـة، والـذي كان أحـد أهـم الطـرق الإسـتراتيجية ومواقـع القتـال خـلال الحـرب، إذ تظهـر علـى بعـض الصـور، علامـات مرسـومة باليـد تشـير إلـى مواقـع ومرافـق مخيمـات العـدو. ولكـن التحليـل الأعمـق لمحتـوى الصـور الجويـة تـم بمسـاعدة الكتيبـات العسـكرية، التـي أتاحـت تقديـر مواقـع العـدو ومرافقـه وأعـداد الأفـراد فـي كل مخيـم عـن طريـق تضميـن إرشـادات حـول خيـام الأعـداء وقدراتهـم وشـبكات النقـل والبنـى التحتيـة.[4] وبالتالـي، وعلـى العكـس مـن الحـروب السـابقة التـي كان العـدو يظهـر فيهـا مـن الأرض وسـاحة المعركـة فقـط، اعتمـدت العمليـات والإسـتراتيجيات العسـكرية فـي الحـرب العالميـة إلـى حـدّ كبيـر علـى القـدرة

المزدوجـة علـى فـرض القـوة الجويـة والتقـاط الصـور مـن أعلـى، والقـدرة علـى تفسـيرها واسـتخدامها لتقديـر حجـم العـدو والتنبـؤ بتحركاتـه.



الشـكل 1. خريطـة للصـور الجويـة البافاريـة فـي فلسـطين خـلال الحـرب العالميـة الأولـى، 1916 – 1918 (خريطـة مـن إعـداد المؤلـف. مصـادر البيانـات: أرشـيف ولايـة بافاريـا، خرائـط غوغـل).

وإضافـة لاسـتخدامها لتحديـد مواقـع قـوات الأعـداء، كانـت صـور الحـرب الجويـة مفيـدة فـي اسـتحداث طـرق جديـدة لإنتـاج رسـومات الخرائـط. وكانـت الجبهـة الفلسـطينية أحـد أول المواقـع التـي ظهـرت فيهـا هـذه الابتـكارات خـلال الحـرب العالميـة، ولـم يحتـج البريطانيـون لوقـت طويـل، بعـد تقدمهـم لوسـط فلسـطين، ليدركـوا التغيـرات المهمـة فـي طبيعـة هـذه الجبهـة. فعلـى العكـس مـن سـيناء والنقـب، حيـث كانـت المنطقـة مفتوحـة وغيـر مأهولـة بالسـكان تقريبـاً، كان علـى البريطانييـن فـي فلسـطين أن يواجهـوا خطـوط الدفـاع فـي المـدن الرئيسـية، ويتكيفـوا مـع حـرب الخنـادق الجديـدة والحواجـز والمناطـق المأهولـة بالسـكان.[5] وبالتالـي أصبحـت الخرائـط التـي أعدهـا صنـدوق استكشـاف فلسـطين قبـل الحـرب، والتـي اسـتخدمها البريطانيـون منـذ بدايـة الحـرب، غيـر كافيـة، ونتيجـة لذلـك قـرروا تنفيـذ حمـلات جديـدة لرسـم الخرائـط، اضطـروا فيهـا للاعتمـاد بشـكل كبيـر علـى التصويـر الجـوي بسـبب عـدم قدرتهـم علـى الوصـول إلـى المناطـق التـي يسـيطر عليهـا الأعـداء.

ومـع بدايـة عـام 1918، بـدأت ابتـكارات مهمـة فـي مجـال ممارسـات رسـم الخرائـط تتجسـد على أسـاس الاسـتطلاع الجـوي علـى الجبهـة الفلسـطينية. قـاد كابتـن هامشـو تومـاس هـذه الابتـكارات، حيـث اسـتفاد ممـا توفـر لديـه مـن مقاتلـي بريسـتول وخمسـة مـن طيـاري السـرية 1 فـي الفيلـق الجـوي الأسـترالي المدرب

جيـداً، والذيـن جازفـوا بالتحليـق علـى ارتفاعـات منخفضـة، واسـتحدثوا أسـاليب جديـدة لرسـم الخرائـط تتناسـب مـع الطبيعـة الجبليـة والكثافـة السـكانية العاليـة فـي وسـط فلسـطين. تضمنـت هـذه الأسـاليب الجديـدة تقنيـات لالتقـاط صـور متداخلـة فـي الجـو بهـدف الحـدّ مـن التشـويه، وتقنيـات لتجميـع الصـور مـن قبـل مسـؤول المسـح علـى الأرض الـذي يقـارن الصـور الجويـة بالنقـاط الثابتـة علـى الخرائـط القديمـة (الشـكل 2).[6] وتـم رسـم خرائـط لمسـاحة 3000 كـم2 مـن البـلاد باسـتخدام هـذا الأسـلوب الجديـد فـي إنتـاج الخرائـط بمقيـاس 1:20,000 و 1:40,000.[7] وبعـد عودتـه إلـى وظيفتـه كمحاضـر وأسـتاذ زميل في كليـة داونغ كامبريـدج بعـد الحـرب، نشـر تومـاس العديـد مـن الأوراق الأكاديميـة حـول «الـدروس القيّمـة»[8] المسـتفادة مـن الجبهـة الفلسـطينية فـي مجـال رسـم الخرائـط، واقتـرح أن الصـور الجويـة وتقنيـات رسـم الخرائـط التـي تـم تطويرهـا خـلال الحـرب، بمـا فيهـا الجبهـة الفلسـطينية، «سـتتيح الكثيـر مـن الاحتمـالات إن اسـتُخدمت كأداة للبحـث العلمـي»،[9] خصوصـاً فـي مجـالات الجغرافيـا والجيولوجيـا وعلـم النباتـات وعلـم الأرصـاد الجويـة والآثـار.

الشـكل 2 «أمثلـة عـن الخرائـط الاسـتطلاعية التـي رُسـمت بنـاء علـى الصـور المتداخلـة»، مـن كابتـن هامشـو تومـاس، «الاسـتطلاع الجغرافـي باسـتخدام الصـور الجويـة مع الإشـارة بشـكل خـاص للعمـل الـذي تـم علـى الجبهـة الفلسـطينية»، المجلـة الجغرافيـة 55، رقـم 5 (أيـار 1920): 349 – 70، الصفحـة الإلكترونيـة 1780446/at doi. org/10.2307 (تـم الدخـول إلـى الصفحـة فـي 2020/2/19).

وفـي الوقـت ذاتـه الـذي كان فيـه تومـاس ينشـر أوراقـه فـي بريطانيا حـول الاسـتخدامات العلميـة للصـور الجويـة بنـاء علـى نشـاط بريطانيـا الحربـي علـى الجبهـة الفلسـطينية، كان غوسـتاف دالمـان فـي ألمانيـا يعـد كتابـه ʻمئـة صـورة جويـة لفلسـطينʼ، والـذي نُشـر سـنة 1925، علـى أسـاس مجموعـة الصـور الجويـة التـي التقطتهـا القـوات البافاريـة خـلال الحـرب. وكمـا تومـاس، كان دالمـان مهتمـاً بالإمكانيـات التـي تتيحهـا الصـور الجويـة بعيـداً عـن العمليـات الحربيـة والعسـكرية. ونظـراً لاهتمامـه الكبيـر بعلـم الآثـار التوراتيـة وخبرتـه الطويلـة بالعمـل فـي فلسـطين، كان دالمـان مهتمـاً بشـكل خـاص بالطريقـة التـي يمكـن فيهـا للصـور الجويـة الحربيـة أن تُسـتخدم لتفسـير المشـهد الفلسـطيني مـن منظـور الجغرافيـا والتنميـة الحضريـة. وليسـت هـذه النظـرة جديـدة علـى الألمـان، حيـث كان الهـدف مـن بعـض الصـور الجويـة البافاريـة التـي التُقطـت فـي جنـوب فلسـطين مسـاندة عمـل ثيـودور فيغانـد فـي مجـال الآثـار، ولكـن دالمـان كان يسـعى للذهـاب أبعـد مـن ذلـك.[10] ففـي كتابـه يرفـض دالمـان تمثيـلات المشـهد

الفلسطيني التي سبقت الصور بسبب مغالاتها في الرومانسية والتوراتية، ولأنها بنيت على تشويهات أيدولوجية، وليس على دراسة جغرافية تاريخية. وإضافة إلى ذلك، وبينما يحتفي دالمان بالأعمال المبكرة للمصورين المحترفين في المنطقة كاستوديو بونفيلس في بيروت، فهو ينتقد ميلهم لتلبية طلب السوق والسياح وتصويرهم 'الآثار' ومواقع أثرية معينة، بدلاً من تصويرها بهدف دراسة المشهد تاريخياً وجغرافياً.[11]



67. Jaffa mit Vorstädten. UR. Nordost. RA.

Fl. 300, Nr. 1375. 19/3. 1917, 9^{30} vorm. H. 200 m.

Eine Klippenreihe bildet einen kleinen, nach N. offenen Naturhafen ($10^{e}-13^{f}$), der zusammen mit dem an ihm liegenden Hügel die Veranlassung zur Entstehung der Stadt Japho, jetzt jāfa, gab, deren ältester Teil diesem Hügel entspricht ($6^{e}-10^{f}$). Moderne Seeschiffe müssen freilich auf der Reede ankern, Boote vermitteln durch die Klippen den Verkehr vom Lande mit ihnen. Franziskanerkloster und Kirche (9^{e}) seewärts, Moschee im N. (8^{g}). Die Südvorstadt ($1-4^{d}$) ist weniger bedeutsam als die Nordvorstadt ($10^{g}-17^{k}$) mit dem Bahnhof ($14, 15^{kl}$) und der deutschen Kolonie ($7-9^{kl}$) mit Kirche (8^{k}). Die Fahrstraße nach Jerusalem ($6-1^{g}$) wird durch die neue Dschemal-Pascha-Straße ($1^{g}-9^{i}$) mit dem Bahnhof verknüpft. Die Nordoststraße nach Haifa, bezw. nāblus, beginnt $9^{g}-11^{m}$, die Oststraße mit zwei Zweigen ($6^{i}-1^{km}$) geht nach selme, die Südstraße nach Gaza $1, 2^{e}$. Orangengärten mit einigen Palmen umfassen die Stadt auf der Landseite.

الشكل 3. صورة من الصور الجوية البافارية تحمل عنوان «يافا مع ضواحيها» وَوَصفُ دالمان لها، بما فيها المراجع الرقمية لمواقع الأماكن الرئيسية التي تظهر في الصورة، بما يشمل دير الفرنسيسكان ومحطة سكة الحديد والحي الألماني والطريق المؤدي إلى القدس وجادة جمال باشا والشارع الجنوبي الواصل لغزة، إضافة إلى عدد من المعالم الأخرى (المصدر: غوستاف دالمان، 1925).

وجد دالمان في الصور الجوية التي التقطتها السرايا البافارية 300 و304 للجبهة الفلسطينية فرصة للذهاب أبعد من التوجهات السائدة؛ فبالنسبة له «لا يمكن استبدال الصور الصناعية لـ (المشهد) إلا بالصور الجوية فقط، حيث يمكن رؤية الواقع من أعلى، وتحديداً الأماكن وما يحيط بها، والظروف الخارجية لوجود هذا المكان، وخطوط التواصل الحالية والمحتملة».[12] أضاف دالمان لكل صورة من الصور الفوتوغرافية الجوية التي نشرها في كتابه نَصاً يصف المعالم الجغرافية والطبوغرافية الظاهرة في الصورة، إضافة إلى الأحياء وشبكات الشوارع والمباني والمواقع المهمة. وعلى العكس من الروايات التوراتية للمشهد الفلسطيني الحسيّ، التي كانت منتشرة بين معاصريه من المستشرقين والأكاديميين التوراتيين، أو في ألبومات صور الأرض المقدسة التي كانت تباع للسياح، اعترفت الأوصاف «العلمية» التي كتبها دالمان بملامح الحداثة المدنية والتغير الحضري الذي شهدته البلاد منذ منتصف القرن 19 على الأقل. سلط وصف دالمان للمراكز الحضرية الرئيسية، بما فيها القدس وحيفا ويافا، الضوء على تحولات هذه المدن الملموسة وتطورها الحضري الحديث الذي تمثّل بشوارع واسعة، وشبكة سكة حديد، وموانئ جديدة وأحياء خارج الأسوار، ووضع لكل من هذه الخصائص في نصوصه مرجعاً رقمياً لموقعها المحدد في الصورة (الشكل 3).

وبشكل ما، تشير إصدارات ما بعد الحرب، كمؤلفات دالمان وتوماس، إلى أن استخدام الصور الجوية، خلال الحرب العالمية وبعدها، تجاوز استخدامات العمليات العسكرية بكثير. تمثّل أحد الآثار الأساسية لظهور الصور الجوية وقت الحرب في التغيرات التي أحدثتها في تمثيل المشهد الحضري وتفسيره باستخدام أنظمة جديدة للتقدير والحساب. كانت الجبهة الفلسطينية موقعاً رئيسياً تجسدت فيه هذه التغيرات الرئيسية، وخصوصاً الابتكارات البريطانية في إنتاج رسم الخرائط باستخدام الصور الجوية، واستخدام الألمان لهذه الصور لغرض مسوحات الآثار، وقيادة تطبيق أساليب «علمية» جديدة في تفسير الجغرافيا المادية وبيئة المنشآت الحضرية. وفي كلتا الحالتين، مكّنت المسافة التي التُقطت منها الصور الجوية تجريد المشهد أدناه وتجسيده لسلسلة من المعالم التي يسهل تمييزها، الأمر الذي أتاح دراستها والسيطرة عليها كذلك. وإضافة لأهميتها الكبيرة في الحرب العالمية وتداعياتها المباشرة، ثبت أن هذه التجريدات والتجسيدات الجوية يمكن أن تستخدم بشكل راديكالي أكثر، كما تجلّى في سعي الإدارة البريطانية لقمع الثورة العربية الكبرى 1936 – 1939 إبان فترة الانتداب.

«عملية مشتركة»

كانت الحرب العالمية بالنسبة للبريطانيين بداية لتجارب فرض النفوذ الجوي في «الشرق»، وليست نهايتها. وكانت أكثر العمليات راديكالية هي تلك التي قام بها البريطانيون بعد الحرب مباشرة في العراق، حيث قاموا باستحداث إستراتيجية جديدة «للسيطرة من الجو» كانت تهدف بالأساس لخدمة مصالحهم الإمبريالية ضد الثورة العراقية سنة 1920. تُبيّن بريا ساتيا في عملها المهم حول جهود بريطانيا لوقف الثورة العراقية، أن سبب ملاءمة الإستراتيجيات الجديدة التي اعتمدتها القوات الجوية الملكية لبلاد ما بين النهرين تحديداً، بحسب رأي الخبراء البريطانيين، لا يكمن فقط في الجانب المالي (لأن العمليات الجوية كانت أقل كلفة من العمليات الأرضية)، ولكن أيضاً في الدوافع الثقافية القائمة على اعتقادهم بأن «الطيران يمكن أن يحكم الصحراء».[13] حيث توضح ساتيا:

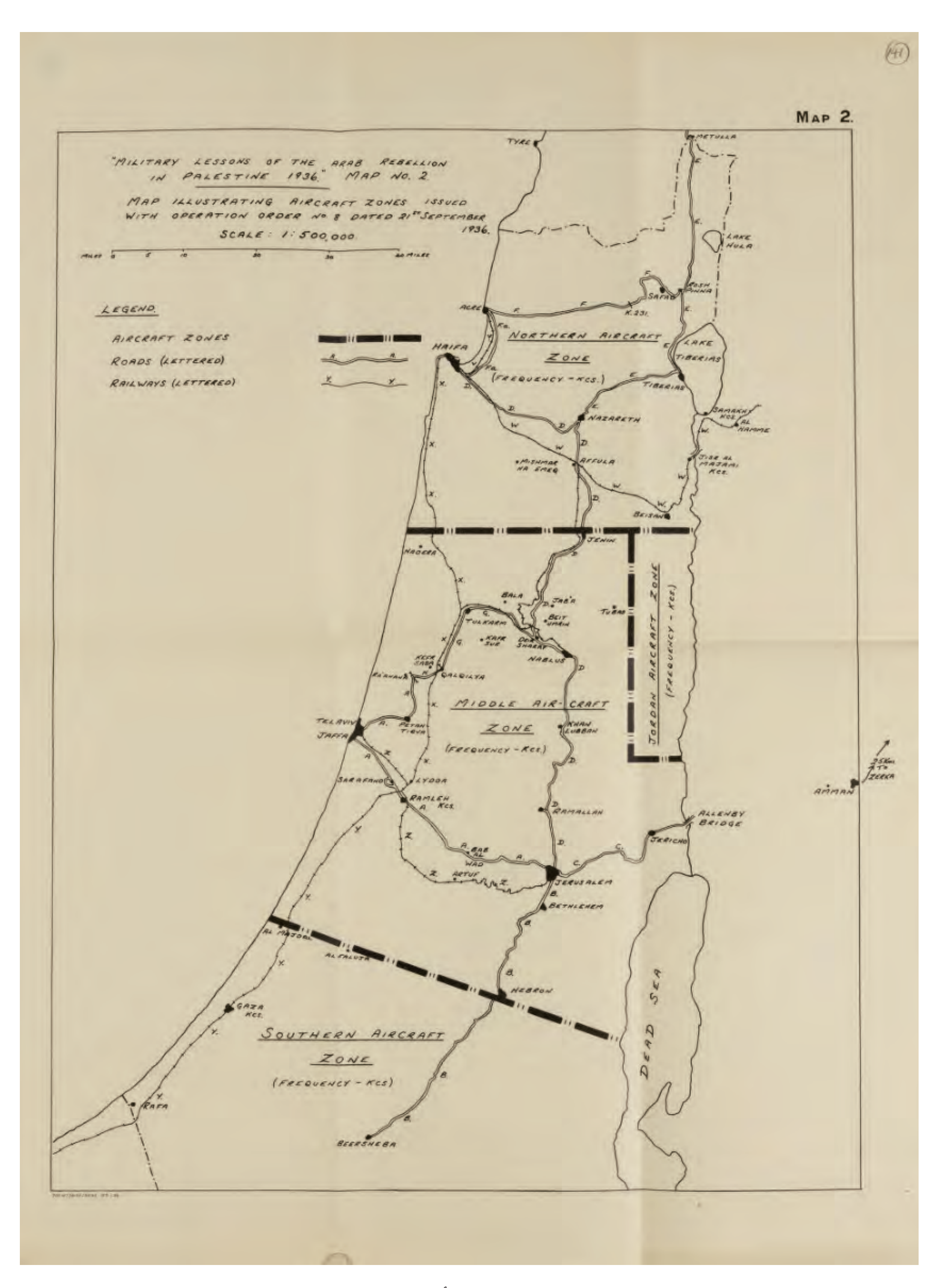
«يرى الخبراء على اختلافهم أن بلاد ما بين النهرين تحديداً مناسبة للعمليات الجوية، فهي أفضل من أوروبا لأسباب جمالية وطبوغرافية على حدّ سواء: ومن المعتقد أن طبيعتها المستوية تَعِد بالعديد من الأماكن المناسبة لهبوط الطائرات، ولا توفر الكثير من التغطية للثوار، كما أنها تتيح

«نشـر» النفـوذ البريطانـي فـي البـلاد باسـتخدام عـدد مـن القواعـد الموزعـة فـي أماكـن مناسـبة، بينمـا توفـر الطبوغرافيـا المتنوعـة والمتغيـرة، عنـد إدراكهـا، مكانـاً ملائمـاً لتدريبـات القـوات الجويـة الملكيـة، وتعريضهـا لجميـع أنـواع التضاريـس – الجبـال فـي كردسـتان، والأهـوار فـي الجنـوب والمناطـق النهريـة فيمـا بينهمـا، وغيـر ذلـك مـن المناطـق. كمـا جعلـت صعوبـة التنقـل فـي العـراق «فكـرة اسـتخدام الطائـرات» «مغريـة للغايـة»، فهـي تتيـح قطـع مسـافات كبيـرة فـي سـاعات معـدودة».[14]

وبسـبب خصوصيـة عمليـات «السـيطرة الجويـة» البريطانيـة فـي بـلاد مـا بيـن النهريـن، لـم يكـن بالإمـكان تكرارهـا فـي سـياق قمـع الثـورات الأخـرى فـي المـدن ذات الكثافـة السـكانية العاليـة فـي بريطانيـا وإيرلنـدا، وحتـى فـي فلسـطين فـي سـياق قمـع الثـورة العربيـة الكبـرى 1936 – 1939.[15] حيـث يقـول السـير آرثـر هاريـس فـي مذكراتـه، والـذي أعطـاه دورُه كقائـد للقـوات الجويـة الملكيـة خـلال الحـرب العالميـة الثانيـة لقـب هاريـس «ملقـي القنابـل»، والـذي انضـم لفتـرة قصيـرة لعمليـات القـوات الجويـة الملكيـة فـي فلسـطين خـلال الثـورة الكبـرى بعـد خدمتـه فـي العـراق: «لـم يقتـرح أحـد أبـداً ممارسـة النـوع نفسـه مـن السـيطرة الجويـة علـى فلسـطين كمـا تـم فـي العـراق [sic].»

ولا يعنـي ذلـك أن العمليـات الجويـة لـم تكـن مهمـة بالنسـبة للبريطانييـن خـلال الثـورة الكبـرى فـي فلسـطين؛ بـل يعنـي أنـه كان مـن الضـروري تنفيـذ هـذه العمليـات بطريقـة أخـرى، لتأخـذ بعيـن الاعتبـار الطبيعـة الجبليـة والكثافـة السـكانية العاليـة فـي طبوغرافيـة فلسـطين، إضافـة لطبيعـة الثـورة نفسـها والسياسـة البريطانيـة فـي فلسـطين فـي ذلـك الوقـت. حيـث كان عليهـا، فـي سـياق الإدارة المدنيـة، أن تـوازن مـا بيـن الاعتبـارات المدنيـة والعسـكرية. وكان الجانـب العسـكري سـبب توتـر رئيسـي بيـن الجيـش البريطانـي والقـوات المدنيـة فـي فلسـطين، كمـا كان واضحـاً فـي لقـاء هاريـس وبيرنـارد مونتغومـري (المعـروف «بمونتـي») مسـؤول قسـم المشـاة خـلال الثـورة الكبـرى، لـدى وصولهمـا إلـى المقـر فـي حيفـا. حيـث يقـول هاريـس مسـتذكراً المواجهـة أن مونتـي اسـتقبله قائـلاً «الطيـران، الطيـران، هـذه ليسـت مهمـة الطيـران، إنهـا مهمـة الشـرطة».[16] ورد هاريـس قائـلًا: «أنـا أعـرف أن هـذه مهمـة الشـرطة وليسـت مهمـة الطيـران ولا حتـى الجنـود، إلا أن قـوة الثـوار وإصرارهـم ونقـص العـدد والعتـاد لـدى الشـرطة هـي بحـدّ ذاتهـا أسـباب كافيـة للجـوء للمـوارد العسـكرية والجويـة القليلـة المتوفـرة».[17]

وتـم طـوال فتـرة الثـورة، خصوصـاً مـع تنظيـم العصابـات العربيـة المسـلحة، تنفيـذ معظـم العمليـات البريطانيـة بتنسـيق عـال مـا بيـن القـوات الجويـة والأرضيـة، أو كمـا يسـميها البريطانيـون «العمليـات المشـتركة».[18] اختلفـت طبيعـة المواجهـات البريطانيـة فـي فلسـطين خـلال الثـورة الكبـرى بشـكل كبيـر عمّـا كانـت عليـه خـلال الحـرب العالميـة. فعلـى العكـس مـن القـوات العثمانيـة – الألمانيـة، لـم تكـن للعصابـات المسـلحة مقـرات رئيسـية أو خطـوط نقـل يمكـن اسـتهدافها، حيـث كانـت العصابـات المسـلحة دائمـة التحـرك واعتمـدت علـى قدرتهـا العاليـة علـى التملـص وعـدم إمكانيـة التنبـؤ بتحركاتهـا. وبالنسـبة للبريطانييـن، كان التحـدي الأكبـر هـو أن تحشـد قواتهـا بأسـرع وقـت ممكـن للهجـوم علـى العصابـات العربيـة قبـل أن تتمكـن مـن التحـرك، وبالتالـي اعتُبـرت الطائـرات «السـلاح الأنسـب»[19] للقيـام بهـذه العمليـة. ولكـن، وعلـى الرغـم مـن ذلـك، لـم تتمكـن الطائـرات مـن اسـتهداف العصابـات دون كفـاءة فـي التنظيـم والتواصـل مـع الأرض – وكلاهمـا أمـران كانـا يشـكلان مصـدر قلـق فـي قلـب الإسـتراتيجيات المصممـة لقمـع الثـورة العربيـة فـي فلسـطين. ومـن ضمـن الإسـتراتيجيات التـي اعتمدهـا البريطانيـون تقسـيم البـلاد إلـى أربـع مناطـق للطيـران، حيـث تتولـى كل سـرية أو مفـرزة أمـر منطقـة معينـة، وتركيـب عـدد مـن الأجهـزة اللاسـلكية المتنقلـة للقـوات الجويـة فـي الشـاحنات (كانـت تعـرف بمركبـات روديكـس) وتوزيعهـا بشـكل واسـع علـى مفـرزات الجيـش. وبمجـرد الاتصـال مـع مركبـة الروديكـس أو الطائـرة، وتأكيـد تـردد منطقـة وجـود الطائـرة، كان يتـم طلـب التعزيـزات للمنطقـة علـى الفـور مـن قبـل القـوات الجويـة الضاربـة (الشـكل 4).[20]



الشـكل 4. «خريطـة توضـح المسـائل المتعلقـة بمناطـق الطائـرات وأمـر التشـغيل رقـم 8 بتاريـخ 1936/9/21» (المصـدر: الـدروس العسـكرية المسـتفادة مـن الثـورة العربيـة فلسـطين 1936'، 1938 104 16/16/IOR/L/MIL/17، المكتبـة البريطانيـة: مكتـب الهنـد وأوراق خاصـة: 104).

تمكّن البريطانيـون مـن خـلال التقسـيم الجـوي لفلسـطين ونظـام الاتصالات الجويـة – الأرضيـة الـذي اسـتحدثوه خـلال الثـورة الكبـرى مـن تنفيـذ أربعـة أشـكال مـن «العمليـات المشـتركة». أولا العمليـات الهجوميـة ضـد العصابـات المسـلحة، والتـي كانـت فـي معظمهـا نتيجـة اتصـال مـن الأرض اسـتجابت لـه القـوات الضاربـة مـن الجـو، وتُعـد العمليـة التـي نُفـذت فـي 1936/7/28 فـي بـاب الـواد، والتـي أسـفرت عـن مقتـل 11 عربيـاً، وعمليـة أكبـر نُفـذت فـي 1936/9/24 فـي جبـال نابلـس أسـفرت عـن مقتـل أكثـر مـن 50 عربيـاً، قُتِـل 41 منهـم بالغـارات الجويـة، وإسـقاط 33 قنبلـة، أمثلـة واضحـة علـى الطبيعـة العنيفـة لهـذه العمليـات.[21] أمـا النـوع الثانـي مـن العمليـات فهو عمليـات الاسـتطلاع الجويـة؛ التي شـملت الاسـتطلاع لإيجـاد مواقـع العـدو، والاسـتطلاع الأرضـي، والاسـتطلاع لإيجـاد المخربيـن علـى طـرق النقـل الرئيسـية. أمـا النـوع الثالـث مـن العمليـات فهـو اسـتخدام الطائـرات لمرافقـة قوافـل المركبـات العسـكرية، وأحيانـاً القطـارات التـي تنقـل الجنـود والمعـدات. وأخيـراً النـوع الرابـع، وهـو اسـتخدام الطائـرات للنقـل الداخلـي، وتزويـد القـوات بالإمـدادات والـذي اضطـرت لـه القـوات البريطانيـة مـرة واحـدة أو مرتيـن طـوال فتـرة الثـورة. وبالنسـبة للبريطانييـن، كانـت هـذه الأشـكال مـن «العمليـات المشـتركة» مهمـة بشـكل خـاص فـي تنفيـذ الإسـتراتيجيات الإمبرياليـة لقمـع الثـورة، حتـى أن تقريـراً أُعـد سـنة 1938 ذكـر: «قليلـة هـي العمليـات المسـجلة التـي أثبتـت أهميـة التعـاون بيـن الطيـران والمفـرزات العسـكرية الصغيـرة بشـكل أوضـح وأكثـر فعاليـة مـن تلـك التـي نُفـذت فـي فلسـطين».[22]

«عملية المرساة»

تميـزت الآثـار الماديـة للإسـتراتيجيات البريطانيـة لمحاربـة الثـوار فـي فلسـطين خـلال الثـورة الكبـرى بازدواجيـة البنـاء والتدميـر. فمـن ناحيـة، قـام البريطانيـون ببنـاء 77 مركـز ونقطـة شـرطة ضخمـة مـن الحديـد المسـلح، أو كمـا أصبحـت تُعـرف لاحقـاً بــ «حصـون تيجـارت»، نسـبة إلـى تشـارلز تيجـارت، وهـو ضابـط شـرطة نُقـل مـن الهنـد إلـى فلسـطين فـي كانـون الأول 1937 ليخـدم كمفتـش عـام فـي الشـؤون الأمنيـة.[23] ولقـد غيـرت هـذه الحصـون الإسـمنتية الضخمـة والمكلفـة بشـكل كبيـر مـن المشـهد فـي البـلاد، وأثبتـت فائـدة فـي الحفـاظ علـى سـيطرة البريطانييـن علـى المراكـز الحضريـة، وأدت دور جبهـات إسـتراتيجية أعاقـت حركـة الثـوار العـرب. واعتمـد البريطانيـون، مـن جانـب آخـر، بشـكل كبيـر علـى هـدم المبانـي كنـوع مـن الإجـراءات العقابيـة، وخصوصـاً فـي المـدن الرئيسـية، وبحسـب ادعـاء البريطانييـن فإنهـم لـم يقومـوا سـوى بهـدم المبانـي التـي كانـت تـأوي الثـوار أو التـي كانـوا يطلقـون منهـا النـار.[24] وكانـت عمليـات الهـدم فـي معظمهـا مهـام عسـكرية مطلقـة، علـى الرغـم مـن أن الجيـش كان يطلـب بالعـادة نصيحـة رجـال الشـرطة بشـأن المنـازل التـي سـيتم هدمهـا.[25] وكان يتـم فـي بعـض الحـالات اسـتدعاء خبـراء الألغـام، وهَـدم المبنـى علـى الفـور، بينمـا يتـم فـي حـالات أخـرى تحديـد المنـازل بدوائـر كبيـرة مرسـومة بالطـلاء الأبيـض، وتأجيـل عمليـة الهـدم للوقـت الـذي «تصبـح فيـه العقوبـات الإضافيـة ضروريـة».[26] وكانـت أكثـر هـذه العمليـات وحشـية هـي سلسـلة مـن العمليـات نُفـذت فـي مدينـة يافـا السـاحلية، ذات الأغلبيـة العربيـة، فـي الفتـرة مـا بيـن 30 أيـار – 30 حزيـران 1936، والتـي أخـذ الصهاينـة يشـيرون إليهـا لاحقـاً بــ «عمليـة المرسـاة».

فبحلـول الثلاثينيـات، تجـاوز التوسـع الحضـري خـارج حـدود أسـوار يافـا - بشـكلها المعـروف قبـل القـرن التاسـع عشـر -مؤشـرات التوسـع الأوليـة التـي كانـت ظاهـرة فـي الصـور الجويـة البافاريـة التـي التقطـت خـلال الحـرب العالميـة والمنشـورة فـي كتـاب دالمـان (الشـكل 3)، ولكـن، فـي عمليـة المرسـاة كان اهتمـام البريطانييـن منصبـاً علـى البلـدة القديمـة، وليـس الأحيـاء الجديـدة كالمنشـية أو العجمـي التـي كانـت تتوسـع علـى شـواطئ المدينـة الشـمالية والجنوبيـة. وكان الخطـر الـذي تمثلـه البلـدة القديمـة بالنسـبة للبريطانييـن مرتبطـاً بالوضـع الاجتماعـي – الاقتصـادي للسـكان، الذيـن كان معظمهـم مـن البحـارة، والذيـن كان البريطانيـون يرونهـم كـ«رجـال يائسـين ليـس لديهـم مـا يخسـرونه والكثيـر ليكسـبوه مـن اللجـوء للقـوة».[27] فيوضحـون:

> «كانـت البلـدة القديمـة فـي يافـا بـؤرة للخارجيـن علـى القانـون والمتمرديـن، وبالتالـي فإنهـا كثيـراً مـا كانـت منبعـاً لنشـاطات التمـرد التـي تحتـذي بهـا باقـي المـدن. وكان سـكانها معروفيـن

بأنهم من العرب الأشدّاء، ومعظمهم بحارة من أصول يونانية يكسبون رزقهم من تحميل الصنادل(*) في ميناء يافا، وهي مهنة صعبة وخطيرة. وازدادت كراهيتهم الطبيعية للسلطة بسبب معاناتهم من تدفق المهاجرين اليهود الذي أثّر عليهم أكثر من أي من المجتمعات العربية الأخرى. حيث شاهدوا تل أبيب تنمو على عتبة بابهم لتصبح أكبر مدينة في البلاد، وبدأت يافا تخسر أمجادها التجارية مع تحوّل الأعمال لتتمركز في تل أبيب شيئاً فشيئاً».[28]

ولم تكن المشكلة بالنسبة للبريطانيين في سكان البلدة القديمة فقط، ولكنها كانت تكمن أيضاً في الطابع المعماري للمدينة وتصميم مبانيها:

«سيطرت يافا التي بُنيت على تل منخفض يغمره البحر من جانب واحد بشكل كامل على الميناء، وعلى مبان كمركز الشرطة والثكنات ومكاتب مفوض القضاء، التي كانت موجودة في المدينة الجديدة. إضافة لذلك، كانت منازلها تشبه جحر أرنب فعلي تتخلله وتلتف فيه شوارع مظلمة وضيقة، ما جعلها متاهة يكون فيها مستوى شارع في كثير من الأحيان سطح منزل في شارع آخر، ولا يتجاوز عرض بعض ممراتها ذراع رجل، ما جعلها في الواقع نظاماً معقداً من الخنادق ذات جدران جانبية عمودية يصل ارتفاع بعضها إلى 40 قدماً، يمكن أن تتحول بسرعة إلى حصن منيع».[29]

وبالتالي، اعتبر نسيج المباني الكثيف في البلدة القديمة، والذي يصعب على القوات العسكرية المرور فيه، وميزتها الطوبوغرافية على المدينة الجديدة، عائقاً كبيراً أمام قدرة القوات البريطانية على إخضاع السكان دون اللجوء إلى عمليات هدم كبيرة.

تم تنفيذ العملية في المدينة القديمة على أربع مراحل متتابعة. ففي المرحلة الأولى تبادلت القوات البريطانية إطلاق النار مع المنازل في البلدة باستخدام بنادق فيكرز والبنادق القاذفة للقنابل، ورد الثوار العرب في المدينة القديمة باستخدام عدد من الأسلحة، بما فيها الأسلحة الأوتوماتيكية.[30] وفي المرحلة الثانية، طلبت القوات البريطانية جميع الأفندية العرب وأصحاب المحلات والمنازل في المنطقة المتأثرة وأجبرتهم على تنظيف أطراف البلدة القديمة بالتعاون مع عمال البلدية.[31] وأجبر البريطانيون الثوار في هاتين العمليتين على التراجع إلى قلب المدينة القديمة، الأمر الذي يسّر تنفيذ عمليات الهدم في المرحلتين الثالثة والرابعة، والتي تضمنت قطع طريق يعبر المدينة القديمة من الشرق إلى الغرب جيئة وذهاباً بغرض الهدم، والقيام بالشيء ذاته على شارع آخر يعبر المدينة من الشمال إلى الجنوب بشكل هلال.[32]

وفي 16 حزيران، حلقت الطائرات فوق المدينة القديمة، ملقية بمنشورات على سكان المدينة تُعلمهم فيها بضرورة إخلاء منازلهم قبل الساعة 7 مساء؛ أي موعد بدء عمليات الهدم التي وصفتها الحكومة بأنها تهدف «لتحسين البلدة القديمة».[33] أثارت هذه المنشورات الفزع ما بين السكان المحليين، حيث بيّن مقال عربي نُشر في جريدة الدفاع في اليوم التالي:

«استيقظ سكان يافا صباح أمس على صوت الطائرات تُحلق فوق أسطح المدينة، والتي سرعان ما بدأت بإلقاء أعداد من المنشورات على البلدة القديمة (....) والتي طُبعت في مطبعة الحكومة في القدس، وبمجرد أن قرأ السكان محتوى المنشورات أصابهم الذعر، وبدأ الأطفال برمي كل ما كانت تلقي به الطائرات في ساحة السرايا بين مقر الحكومة الرسمي وثكنات الشرطة».[34]

(*) قارب صغير من خشب يستخدم للشحن والتفريغ

رفض سكان المدينة العملية، واعتبروا أن «تحسين المدينة» هي حجة لما هو واضح أنه عملية عسكرية ذات دوافع سياسية. وبحسب جريدة الدفاع، قرر السكان المتضررون في ذات اليوم الذي استلموا فيه المنشورات إرسال شكاوى للمفوض الأعلى ومحافظ القضاء الجنوبي يعترضون فيه على طبيعة العملية، ويعبرون عن النتائج المريعة التي ستترتب على سكان البلدة القديمة، ومعظمهم من الفقراء وغير القادرين على دفع إيجار مؤقت أو كلفة الانتقال إلى مكان آخر.[35] ولكن، وعلى الرغم من ذلك، باشرت الحكومة البريطانية بالمرحلتين الثالثة والرابعة بحسب المخطط.

وعلى العكس من التغطية المكثفة لأحداث يافا في جريدة الدفاع وغيرها من الصحف المحلية التي تابعت ما يحدث عن كثب، وعبّرت عن انهيار أهالي البلدة القديمة، لم تذكر التقارير البريطانية الرسمية التي غطت الأحداث شيئاً تقريباً عن سكان المدينة سوى أنهم «عناصر متمردة». بل على العكس، أوردت صفحات تقرير الدروس العسكرية المستفادة لسنة 1938، تحت الجزء المتعلق بـ «الإجراءات العقابية» توضيحاً للوصف المختصر للإستراتيجية البريطانية العسكرية في يافا





الشكل 5. صورتان جويتان ليافا تظهران في التقرير البريطاني لسنة 1938، ومعهما ملاحظة توضيحية «انتهاء عمليات الهدم في 18 حزيران بين النقطتين أ و ب»، و«المرحلة الثانية من عمليات الهدم – إكمال الطريق الدائري ما بين النقطتين ج و د في 30/20 حزيران» على التوالي (المصدر: الدروس المستفادة من ثورة العرب في فلسطين 1939، 1938 16/16/IOR/L/MIL/17، المكتبة البريطانية: سجلات مكتب الهند وأوراق خاصة).





الشكلان 6 و7. صورتان أرضيتان للبلدة القديمة في يافا بعد عمليات الهدم التي نفذتها القوات البريطانية خلال الثورة الكبرى. (المصدر: أرشيف دولة إسرائيل 4/4141/12).

بسلسلة من 6 صور جوية. كانت السرية 6 التابعة للقوات الجوية الملكية قد التقطت هذه الصور، وكانت قد كلفت إلى جانب توثيق العملية بالقيام بعمليات استطلاعية جوية في المنطقة للكشف عن أي تحركات يمكن أن تدل على محاولة لـ «التدخل الخارجي».[36]

وتُظهر الصور التي التقطت من زاوية عمودية وزاوية عين الطائر المدينة قبل عمليات الهدم وبعدها (الشكل 5)، وتظهر عليها نقاط محددة بالأحرف أ، ب، ج، د ويظهر خط ما بين النقطتين أ- ب يُبيّن عمليات الهدم التي تمت في المرحلة الثالثة، وخط على شكل هلال ما بين النقطتين ج - د يبين عمليات الهدم التي تمت في المرحلة الرابعة. ولذا، تبدو العمليات التي تمت في المدينة القديمة في الصور الجوية على أنها عملية تقنية؛ حيث أن الرسم الميكانيكي لخط ما بين نقطتين تُرجم على الأرض إلى فتحة إستراتيجية فتحت «شوارع جيدة عريضة في متاهة الطرقات القديمة».[37] ولكن في الواقع، وكما يبدو في سلسلة الصور الأرضية التي التُقطت بعد عمليات الهدم، شوهت العملية بشكل صارخ البنية المادية لنسيج البلدة القديمة وهجّرت سكانها (الشكل 6 و7).[38] كانت العملية في غاية الوحشية لدرجة أن البريطانيين ادعوا أنها «مثلت نهاية المقاومة المنظمة في البلدات الفلسطينية»، وكانت السبب الرئيسي في تراجع عمليات الثوار للتلال ابتداء من سنة 1936.[39]

الخلاصة

يتضح عند دراسة الحالات المذكورة أعلاه من تطبيقات النفوذ الجوي والصور الجوية في فلسطين ما بين الحربين، على الفور، أن طبيعة هذه التطبيقات اختلفت بشكل كبير بين الحرب العالمية والثورة الكبرى، وهذا يعود جزئياً إلى الفرق في طبيعة «العدو» في الحالتين. ففي الحالة الأولى، كانت الحرب بين قوات مسلحة لها مقرات عسكرية وبنى تحتية للنقل، أما حالة «العملية البريطانية المشتركة» في فلسطين فنُفذت لخدمة المصالح الإمبريالية ضد سكان البلاد الذين رفضوا السياسات البريطانية الاستعمارية، وأحياناً نظّموا أنفسهم في مجموعات مسلحة. وبما أن طبيعة «العدو» تغيّرت، تغيّرت معها طبيعة عمليات الاستطلاع الجوية والغرض منها، حيث لم يعد الهدف من حملات الاستطلاع الجوية إيجاد قواعد العدو العسكرية ودراستها، أو تحديد مواقع مهابط الطائرات وخطوط النقل الرئيسية. فابتداء من المرحلة الثانية من الثورة وتحديداً من حزيران 1936، كان على القوات البريطانية أن تجد أهدافاً متحركة لا يمكن التنبؤ فيها، ولذا استحدثت إستراتيجية جديدة تماماً للتنسيق ما بين العمليات الأرضية والجوية والتواصل فيما بينها، اعتمدت بشكل كبير على تقسيم البلاد إلى أربع مناطق جوية مختلفة.

ولم تتسبب الصور الجوية في تغيير طبيعة العمليات العسكرية فقط، ولكنها أوجدت أيضاً أشكالاً جديدة لتجسيد البيئة المنشأة في المدن باستخدام أشكال ومبادئ جديدة من التجريد. وفي بعض الأحيان، وكما كان الحال في العملية التي تمت في البلدة القديمة في يافا، ساندت الأخيرة الأولى. وفيما قد لا يكون تحديد النقاط والخطوط على الصور الجوية هو السبب في تدمير البلدة القديمة تماماً، إلا أن نفس مبادئ التجريد وحساب المسافة بين المراكز الحضرية الواقعة ضمن هذه العلامات، هي نفسها المبادئ التي استخدمتها بريطانيا لتبرير الحاجة لعمليات الهدم وتحويل السكان المتأثرين إلى مجرد «عناصر متمردة صعبة». تتجذر مبادئ حساب التقديرات التي بُنيت عليها التفسيرات البريطانية للمشهد الحضري، والتي كانت ضرورية لتبرير عمليات هدم البلدة القديمة وتنفيذها، في تقاليد قديمة مشابهة وازت التصوير الجوي منذ الحرب العالمية على الأقل. وسواء في كتابات توماس حول الاستخدامات المحتملة للصور الجوية في رسم الخرائط وغيرها من الأغراض العملية غير الحربية، أو في دراسة دالمان العلمية لطبوغرافية وجغرافية فلسطين، كما تظهر من أعلى، لم تعد فلسطين

كما كانت. وعلى الرغم من حقيقة أن ابتكاراتهم حملت معها ممارسات قديمة في رسم الخرائط وعلم الآثار والجغرافيا، إلا أنهم أدركوا أن التصوير الجوي قادر على أكثر من مجرد توسيع نطاق «علم» المشهد الحضري، بل هو في الواقع قادر على إحداث ثورة فيه.

الهوامش:

1 جين هافنر، المنظر من الأعلى: علم الفضاء الاجتماعي (مطبعة معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، 2013).

2 مايكل مولكينتين، نار في السماء: الفيلق الجوي الأسترالي في الحرب العالمية الأولى (آلين وأنوين، 2010).

3 بنجامين ز. كيدار، الأرض المتغيرة: بين الأردن والبحر: الصور الجوية من 1917 وحتى الوقت الحاضر (مطبعة جامعة ولاية وأين، 1999).

4 دوف غافيش، مسح لفلسطين تحت الانتداب البريطاني، 1920 – 1948 (مطبعة سايكولوجي، 2005): 13.

5 هـ هامشو توماس، 'الاستطلاع الجغرافي عن طريق التصوير بالطائرات، مع إشارة خاصة للعمل الذي تم على الجبهة الفلسطينية'، المجلة الجغرافية 55، رقم 5، 70 – 349 :(1920) https://doi.org/10.2307/1780446

6 هـ هامشو توماس، 'الاستطلاع الجغرافي عن طريق التصوير بالطائرات، مع إشارة خاصة للعمل الذي تم على الجبهة الفلسطينية'، المجلة الجغرافية 55، رقم 5 (1920): 349 – 70، https://doi.org/10.2307/17804461948

7 غافيش، مسح لفلسطين تحت الانتداب البريطاني، 1920 – 1948.

8 توماس، 'الاستطلاع الجغرافي عن طريق التصوير بالطائرات، مع إشارة خاصة للعمل الذي تم على الجبهة الفلسطينية'.

9 هـ هامشو توماس، 'التصوير بالطائرات من أجل خدمة العلم'، الطبيعة 105، رقم 2641 (1 حزيران 1920): 457-59.

10 ثيودور فيغاند وأحمد جمال باشا، النصب القديمة من سوريا وفلسطين وغرب البلاد العربية: 100 لوحة مع نصوص توضيحية (ج. رايمر، 1918)؛ ثيودور فيغاند، سيناء، الإصدارات العلمية لقوات حماية النصب التذكارية الألمانية – التركية؛ المجلد 1 (برلين: و. دي غرويتر، 1920).

11 غوستاف دالمان، 100 صورة من فلسطين (بيرتيلسومان، 1925): 3.

12 ترجمة المؤلف، نفس المصدر السابق: 4.

13 بريا ساتيا، جواسيس في البلاد العربية: الحرب العالمية والأسس الثقافية لإمبراطورية بريطانية الخفية في الشرق الأوسط (مطبعة جامعة أوكسفورد، 2008): 241.

14 المرجع السابق نفسه: 241

15 المرجع السابق نفسه: 241.

16 المرجع السابق نفسه: 30.

17 المرجع السابق نفسه: 30.

18 'الدروس العسكرية المستفادة من الثورة العربية في فلسطين 1936'، 1938 16/16/IOR/L/MIL/17، المكتبة البريطانية: سجلات مكتب الهند وأوراق خاصة: 104.

19 المرجع السابق نفسه : 106.

20 المرجع السابق نفسه : 109 – 111.

21 المرجع السابق نفسه: 108 – 109.

22 المرجع السابق نفسه: 109 – 111.

23 المرجع السابق نفسه: 108 – 109.

24 'الدروس المستفادة من ثورة العرب في فلسطين في 1936': 156.

25 المرجع السابق نفسه : 156.

26 المرجع السابق نفسه: 156.

27 المرجع السابق نفسه: 156.

28 المرجع السابق نفسه: 157.

29 المرجع السابق نفسه: 158.

30 المرجع السابق نفسه 158.

31 المرجع السابق نفسه: 158.

32 نالمرجع السابق نفسه: 158.

33 المرجع السابق نفسه: 158.

34 'المشروع الذي أفزع يافا'، الدفاع، 17 حزيران 1936:4.

35 المصدر السابق نفسه: 4.

36 الدروس العسكرية المستفادة من ثورة العرب في فلسطين 1936: 159.

37 نفس المرجع السابق نفسه: 159.

38 كانت هذه الصور جزءا من التقييم البريطاني لما بعد العمليات واستخدمت لتوثيق التقدم المحرز في عملية إزالة الحطام من قبل المهندسين المسؤولين، راجع أرشيف دولة إسرائيل 4/4141/12, 12 5/4141/ISA.

39 الدروس المستفادة من ثورة العرب في فلسطين 1936: 159.

واقع الأرض ... واقع الحال

إيال وايزمان

لحين موعد نشر هذا النص، سيكون سكان قرية العراقيب، التي تقع بضعة كيلومترات شمال بئر السبع على الأطراف الشمالية لصحراء النقب، قد سجلوا تدمير قريتهم للمرة 174. شارك في أكبر عمليات الهدم هذه، التي نُفذت سنة 2010، حوالي ألف رجل شرطة إسرائيلي، جاؤوا على ظهور قوافل من الشاحنات والجرافات، واستخدموا العصي، والغاز المسيل للدموع، والرصاص المطاطي، لطرد السكان بالقوة من مساكنهم العشوائية المتداعية. وصل أكبر عدد للسكان في هذه القرية إلى 400 نسمة، معظمهم من عشيرة الطوري، أما الآن فلا يعيش فيها سوى نواة صغيرة من السكان لا يتجاوز عددهم بضع عشرات، يسكنون أراضي مقبرة الطوري القديمة بمحاذاة القبور مباشرة. بدأت عمليات الهدم الأخيرة في بداية القرن ال 21، ولكن محاولات طردهم من القرية بدأت فعليا سنة 1951؛ أي بعد ثلاث سنوات من حرب 1948، عندما سلّط الجيش الإسرائيلي اهتمامه على البدو وبدأ بطردهم، حالهم حال بقية الفلسطينيين.

فقد طُرِد حوالي 90 ألف بدوي؛ أي 90% من سكان النقب، إلى ما بعد الحدود المصرية والأردنية، بينما تشتت من تبقى منهم في الداخل، وانحصر تواجدهم في المناطق الأكثر جفافاً من الصحراء. وفي سنة 1953، أصدر الجيش أوامره لعائلات عدة تسكن العراقيب، منها عائلتا العقبي والطواري، بإخلاء أراضيهم لفترة ستة أشهر، والانتقال 15 كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي، بحجة إجراء تدريبات عسكرية. وفي العام 1954، بعد أن رُفضت مطالباتهم المتكررة بالعودة لأراضيهم، أخذ الشيخ سليمان محمد العقبي عائلته إلى العراقيب في محاولة أولى للعودة. ولكن سرعان ما تم تدمير المساكن البسيطة التي بنوها، وطردهم من المنطقة مرة أخرى باستخدام العنف. ومنذ ذلك الحين، وسكان العراقيب الأصليون وأبناؤهم يمارسون «حقهم المادي بالعودة» بإصرار وبشكل مستمر على الأرض خلال فترات متفرقة، تباعد بينها أشهر عدة أحياناً وعقود عدة أحيانا

أخرى، وفي كل مرة يعيدون بناء مساكنهم المهدمة بإصرار وتصميم على الاستمرار في التواجد على الأرض. وبالتالي، فإن آثار تواجدهم الباقية على الأرض –كالآبار والمباني، وبقايا الدمار، والأهم من ذلك المقبرة – تُبقي الأمل في العودة إمكانيةً حية.

ولكن انتهت جميع محاولات العودة حتى الآن بالطرد مرة أخرى، ما يجعل نكبة البدو مستمرة.

∞∞∞

وابتداء من العام 1973، قاد حملات العودة للعراقيب نوري العقبي، ابن الشيخ سليمان، الذي أنشأ جمعية الدفاع عن حقوق البدو، وهي منظمة صغيرة غير حكومية (يديرها في كثير من الأحيان رجل واحد)، ولكنها الأولى من نوعها في التزامها بالدفاع عن نضال البدو من أجل الأرض. تصاعدت دورة عمليات العودة والهدم والمواجهات في بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، بعد أن عادت عائلة الطوري لتبني قريتها بالقرب من مقبرة أجدادها. وخلال هذه السنوات، نصب نوري العقبي خيمة اعتصام على بعد كيلومتر تقريباً إلى الغرب، بجانب ما تبقى من منزل والده. ولكن بحلول ذلك الوقت، كانت المنطقة قد تحولت، بشكل كبير، حيث لم تعد العراقيب جزءاً من الحدود المفتوحة لطرف الصحراء، ولكنها أصبحت، بدلاً من ذلك، «جزيرة» داخلية صغيرة محاطة من جميع الجهات بمستوطنات زراعية يهودية، وغابات، وقواعد عسكرية، وطريق سريع، وخط سكة حديد ومكب نفايات رئيسي.

تُشكّل دورات الهدم الأخيرة، التي تتعرض لها، أيضاً، تجمعات سكانية بدوية أخرى تعتبرها إسرائيل غير قانونية، الفصل الأحدث فيما تسميه المؤسسة الإسرائيلية والإعلام الإسرائيلي «بمعركة النقب»: وهي حملة منظمة تديرها الدولة لاقتلاع البدو من أراضيهم، وحشرهم في بلدات، بُنيت خصيصاً لهذا الغرض، في المناطق الأكثر جفافاً من الصحراء، وتسليم أراضيهم الأصلية لأغراض الاستيطان اليهودي.

في العام 2009، رفع نوري العقبي قضية يطالب فيها رسمياً بأراضيه في محكمة منطقة بئر السبع، مع أنه كان متوجساً من فكرة التعامل مع النظام القانوني الإسرائيلي، حيث إنه رأى بنفسه كيف رفضت المحاكم الإسرائيلية حماية مطالبه ومطالب غيره من البدو. ففي جميع الحالات السابقة، حكمت المحاكم لصالح الدولة والتزمت بسياستها، ورفضت مطالب أصحاب الدعاوى من البدو، كما كان العقبي مدركاً أن اللجوء إلى المحاكم الإسرائيلية للفصل في هذه المطالب، سيعطيها ويعطي دولة إسرائيل هالة من الشرعية. ولكنه جمع الكثير من الأدلة التي تثبت ملكية عائلته للأرض؛ كالصور الجوية، وسندات بيع الأراضي، ووصولات الضرائب، والمراسلات مع المسؤولين في الدولة العثمانية والبريطانية والإسرائيلية، إضافة إلى الأوامر العسكرية التي تثبت أن لعشيرته وغيرها من العشائر البدوية ممارسات في الاستقرار والفلاحة على الطرف الشمالي لصحراء النقب منذ 150 سنة، والتي كان يعتقد أنه لن يكون بوسع أحد أن يطعن فيها. وكان العقبي يتأمل أن ينجح، إضافة إلى استعادة ممتلكات عائلته، في تحدي أسس النظام القانوني الذي أتاح تجريد البدو من ممتلكاتهم في المنطقة. وكانت هذه القضية، وهي واحدة من عشرات القضايا التي تكشفت هناك، أساس حملة عامة من الاعتصامات والمظاهرات حظيت بدعم مجموعة ملتزمة، وإن كانت صغيرة، من الناشطين في إسرائيل والخارج.[1]

إلا أن ثقة العقبي بالقانون لم تكن في محلها، حيث تحطمت آماله تحت سلاسل الجرافات. نظرت المحكمة في قضية العقبي ضد دولة إسرائيل في العام 2009، وفي 2010/3/15، رفضت المحكمة دعواه. ولا تزال المعركة مستمرة خارج نظام المحاكم الإسرائيلي، حيث تناضل لجان شعبية من البدو والإسرائيليين والناشطين الدوليين، لحماية 46 قرية أخرى تواجه خطر الهدم.[2]

صورة الأرض

سأناقش هنا جانباً واحداً من القضية، وهو الجانب الذي يخص تفسير الصور الجوية.

على الرغم من أن التداخل في استخدامات الأرض والسياسة والنزاعات والتغير المناخي يحدث على سطح الأرض، فإن المنظور الجوي هو الذي يوضح الصورة بالشكل الأفضل.[3] فسطح الصحراء يختلف باختلاف الفصل الذي تُلتقط فيه الصورة. ففي أواخر الصيف، يكون الغطاء النباتي قد تلاشى تقريباً عن السطح، وتبدو المنطقة شفافة كاشفة عن سمات موجودة على الأرض وتحتها، تواريها بالعادة الحشائش الموسمية. ويمكن أن تكشف الظلال المحسنة في الصباحات المبكرة أو المساءات المتأخرة عن تموجات طفيفة على السطح الطوبوغرافي، وآثار طمس لا تظهر من الأرض. فالجفاف النسبي للتضاريس، يحفظ الآثار بشكل أفضل بكثير من أي بيئة أخرى، وبالتالي يصبح سطح الأرض أشبه بقيد فوتوغرافي يتأثر بشكل مباشر وغير مباشر بالقوى المناخية بطرق تشبه -إلى حد كبير- الطريقة التي يتعرض فيها الفيلم للضوء، ما يجعل الصور الجوية أدوات ذات واجهة مزدوجة: فهي صورة عن صورة[4]. وبالنسبة لأولئك الراغبين والقادرين على قراءة سطحها عن قرب، يمكن أن تكشف الصحراء أكثر مما هو موجود على الأرض، فهي قد تبيّن، كذلك، الآثار الخفية لما تم طمسه: آثار المنازل المهدمة والمنشآت الزراعية الصغيرة، إضافة إلى الحقول والآبار التي يمكن أن تُرى في بعض الأحيان تحت شبكة الغابات التي تمت زراعتها حديثاً، إضافة إلى البقع الداكنة التي ما زالت تدل على حظائر المواشي التي تمت إزالتها منذ زمن.

وما بعد عتبة الصحراء، يتفاعل المناخ والتصوير بطرق مختلفة كذلك، فهناك علاقة عكسية بين الرطوبة ووضوح الرؤية: فكلما طرنا جنوباً، أصبح الهواء أكثر جفافاً، ما ساعد على الرؤية والتصوير أكثر. ولهذا السبب بالذات، يقع مرقب النجوم الوحيد في إسرائيل في المنطقة الجافة من صحراء النقب، حيث تجتاز مناظير المرقب الوسط ذاته من الهواء الصحراوي، ولكن من الجهة المقابلة[5]. وعلى ارتفاع 15,000 قدم، لا يتم تصوير سطح الأرض فقط، ولكن يتم، أيضاً، تصوير الهواء الموجود ما بين الأرض والعدسة. وكلما زادت كثافة الهواء ورطوبته، أصبحت صور الأرض أقل وضوحاً. ولكننا يجب ألا نعتبر هذه الغشاوة الجوية والتشويش عوامل تحد من المعلومات، فهي على العكس من ذلك، يمكن أن تكون بحد ذاتها مصدراً للمعلومات، ومؤشراً تقريبياً لمستوى الرطوبة.

ولكن قراءة الصور الجوية لا تُعنى فقط بقراءة صور الأسطح التي تُلتقط رقمياً أو على فيلم، فهي تُعنى كذلك بالتكنولوجيا والسياسات التي وضعت الكاميرا بالأساس، والتي يكون وراءها، في كثير من الأحيان، الجيش أو غيره من مؤسسات الدولة التي أنتجت هذه الصور. وتُعد صحراء النقب، حالياً، أكبر منطقة تدريب لسلاح الجو الإسرائيلي وأكثرها انشغالاً، فهي أحد أكثر الأجواء اكتظاظاً في العالم. تنقسم هذه الأجواء إلى طبقات عدة، مقسمة إلى حلقات ومربعات وممرات هوائية مخصصة لمختلف المنصات العسكرية: ابتداء من قاذفات القنابل وحتى المروحيات والمُسيّرات.

ولكن قوات الجو الإسرائيلية ليست وحدها من التقطت الصور الجوية في تلك المنطقة، فهناك مجموعتان أخريان من الصور الجوية التي أثبتت أهمية في سياق مطالبة البدو بالأرض. التقطت قوات جو ألمانيا القيصرية المجموعة الأولى في صيف سنة 1918 في نهاية الحرب العالمية الأولى، بينما التقط سلاح الجو الملكي البريطاني المجموعة الثانية في شتاء 1945 قرابة نهاية الحرب العالمية الثانية. وسبب تحليق كلا الجيشين في سماء المنطقة، هو أن العتبة الصحراوية كانت جبهة عسكرية وساحة حرب خلال الحرب العالمية الأولى، أما في الحرب العالمية الثانية، فكان من المتوقع أن تكون كذلك. ولم يكن الهدف من سلسلة الصور التي التُقطت بالأبيض والأسود توثيق حياة البدو، وممارسات الزراعة والفلاحة في الصحراء، ولكنها حققت هذه النتيجة على الرغم من ذلك، وبخاصة على أطراف المواقع العسكرية الظاهرة في هوامش الصور، على الرغم من أنها ظهرت دائماً خارج نطاق التركيز البؤري للعدسة. وثّق هذان المصدران وضع صحراء النقب خلال فترات مختلفة، وفي مواسم متعاكسة؛ أي إن هذه الصور

تعكس حالة عتبة الصحراء في كل من حالاتها المتغيرة؛ حالتها وقت الجفاف (صيف 1918)، وحالة وقت الفلاحة (شتاء 1945)، وبالتالي فإنها تُعد مصادر مهمة تُؤكد تواجد البدو واستخدامهم للأرض عبر الأزمان والفصول المختلفة.

ولنفهم ما تبيّنه هذه الصور يجب أن نضعها في سياقها ونقارنها بالصور الجوية المعاصرة والصور المأخوذة من الأرض. يستطيع المرء اليوم بسهولة أن يطّلع على صور الأقمار الصناعية للمنطقة، ولكن جودة صور إسرائيل المتوفرة للجمهور العام متردية نوعاً ما نتيجة جهود إسرائيل للحصول على موافقة الحكومة الأمريكية على ألا تتجاوز دقة الصورة متر واحد لكل بيكسل، وبالتالي تكون معظم المباني الموجودة في قرية البدو أقل من عتبة الرؤية. ولكن ذلك لا يعني أنها غير مرئية لمؤسسات الدولة التي تُجري مسوحات جوية مستمرة بدقة عالية لهذه المواقع، وتراقب توسعها عن كثب، ولكنه يعني ببساطة أن هذا المنظور الجوي غير متاح لسكان هذه القرى. ولا يبين تطبيق ' غوغل إرث 'وغيره من برمجيات رسم الخرائط، القرى التي لا تعتبرها السلطات الإسرائيلية قانونية، ولا حتى الطرق المؤدية إليها، وذلك بحسب سياسة دولة إسرائيل وراسمي الخرائط منذ سنة 1948. كما إنها شُطبت عن خرائط السفر، لدرجة أن المسافرين الذين يستخدمون أجهزة نظام التموقع الجغرافي كثيراً ما يتفاجؤون بهذه التجمعات السكانية أمامهم دون سابق إنذار.

قام مجلس قرية العراقيب بالتعاون مع مؤسسة 'Public Lab'و 'Zochort' و'Forensic Architecture' بالتقاط صور جوية للمنطقة باستخدام الطائرات الورقية.

وذهب هذا المسح الذي أُجري باستخدام الطائرات الورقية إلى أبعد من إيجاد توثيق قيّم للعراقيب قبل دفن آخر بقاياها –من منازل حجرية وآبار وسدود- تحت أعمال تشجير الأرض؛ كما إنها ساعدتنا في قراءة المجموعات القديمة من الصور الجوية. يتضمن أرشيف ولاية بافاريا الموجود في ميونيخ 2872 صورة جوية لفلسطين تعود لسنة 1918. التُقطت معظمها من قبل السرية 304 البافارية، التي كانت، مع خمس سرايا ألمانية أخرى (حوالي 85 طائرة)، جزءاً من قوة استطلاعية تابعة لألمانيا القيصرية، عملت على مساندة الجيش العثماني. وكان ذلك بداية عمليات الاستطلاع الجوي، وهي تكنولوجيا لم ينتشر استخدامها حتى نهاية الحرب.

وكان السياق هو الهجوم البريطاني على الإمبراطورية العثمانية، ففي سنة 1917، وفيما كانت قوى الاستطلاع البريطانية في مصر تتقدم شمالاً من سيناء، عززت الجيوش العثمانية تواجدها على الخط الذي اعتقدت أنه يمثل عتبة الصحراء، الذي يمتد من غزة مروراً ببئر السبع وينتهي بالخليل، ويتراوح طوله ما بين 15-20 كيلومتراً على مقياس خط تساوي المتر المستخدم اليوم (200 ملم). كانت حساباتهم بسيطة: استنزاف الأوروبيين على طرف الصحراء سيبقي جنودهم في المناطق القاحلة، ما سيحد من قدرتهم على الوصول إلى المياه والمراعي اللازمة لسقاية وإطعام الخيل والبغال التي اعتمدت عليها حملتهم العسكرية (والتي كان يصل عددها إلى عشرات الآلاف). أثبتت الاستراتيجية نجاحها، حيث تعثّر تقدم قوات التجريدة المصرية (التابعة للجيش البريطاني) جنوب غزة، ولكنها تمكنت في النهاية من المرور من خلال بئر السبع، واحتلال المدينة بعد أن شنت هجوماً كبيراً في اليوم الأخير من تشرين الأول 1917. تمكنت بعض الوحدات العثمانية من الهرب والتراجع بضع كيلومترات شمالاً، وتمكنت من تأسيس خط ثانٍ للحماية مرّ في سهول العراقيب. وفي الفترة ما بين 1–6 تشرين الثاني، خاضت الجيوش «عدداً من المناورات العنيفة الصغيرة»[6]، وتمكنت قوات التجريدة المصرية من صد الهجمات العثمانية المعاكسة على طول سيل العراقيب. وتزامنت المعركة مصادفة مع تطور سياسي مهم آخر؛ ألا وهو توقيع وعد بلفور –الذي وعد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين- في 2 تشرين الثاني، ونُشر في 9 تشرين الثاني بينما كانت قوات الإمبراطورية البريطانية تحارب على خط الجفاف في العراقيب.

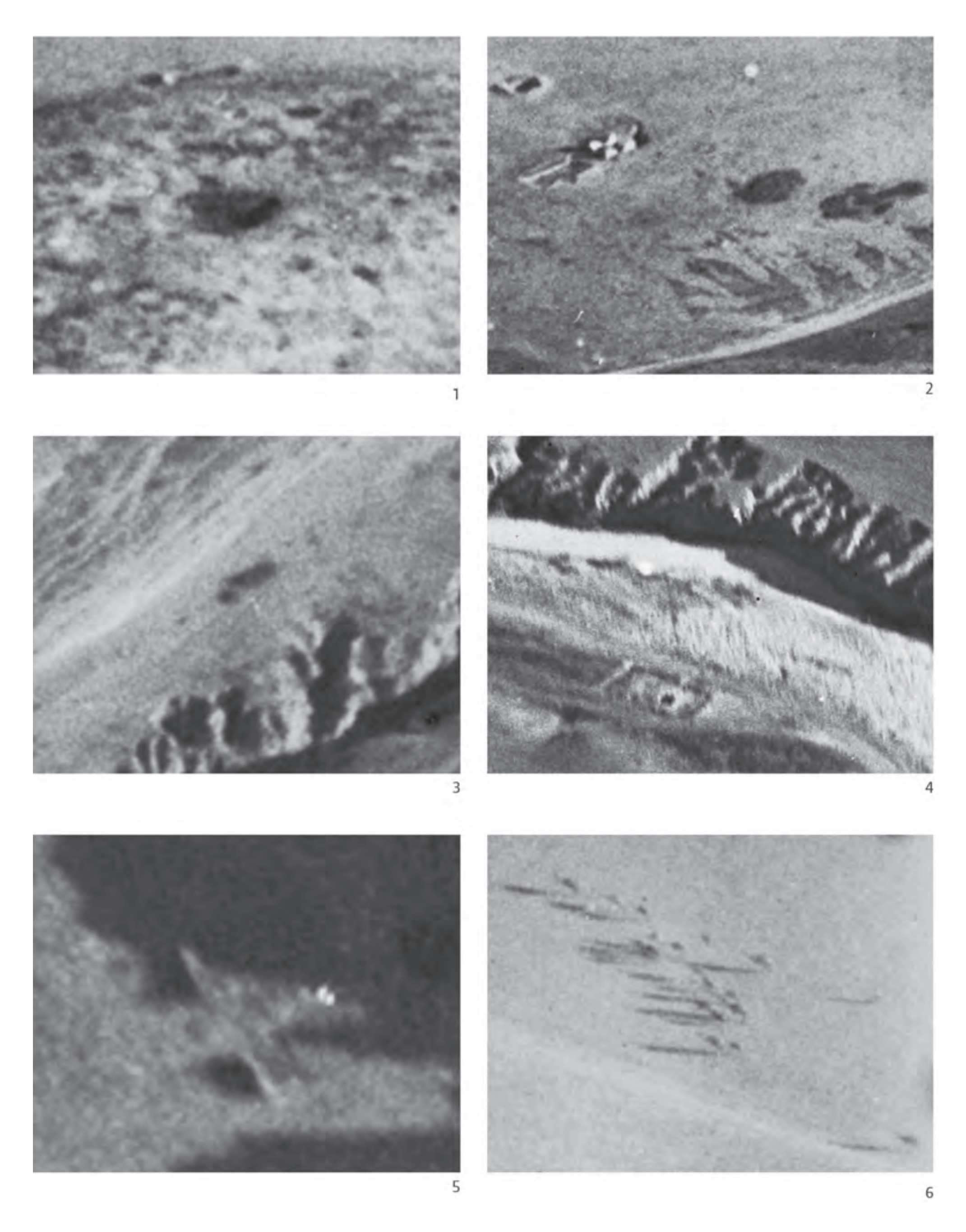
انضم الطيارون البافاريون التابعون للسرية 304 إلى الجيش العثماني المتراجع. ومع إدراكهم بأنهم يخوضون حرباً خاسرة، بدأ الطيارون، أيضاً، بالتقاط صور للمواقع الأثرية والدينية التي لم يكن لها أي أهمية استراتيجية، ما جعلهم من أوائل من التقط صوراً جوية لأغراض دراسة الآثار[7]. وكانت مهمتهم

الأخيـرة فـي صيـف 1918، الـذي كان عـام خسـائر وانسـحابات، هـي العـودة والتحليـق فـوق مواقـع الجيـش البريطانـي فـي النقـب، وكانـت معظـم الصـور التـي التُقطـت وقتهـا صـوراً مائلـة أُخـذت بآلـة تصويـر يدويـة، فيمـا كانـت الطائـرة تميـل بأجنحتهـا. وفـي 20 أيلـول 1918 بعـد بضعـة أيـام مـن آخـر صـورة موثقـة التُقطـت فـي ذلـك العـام، أعلـن الألمـان استسـلامهم للقـوات البريطانيـة علـى مهبـط العفولـة فـي الـوادي الشـمالي. والمفاجـئ أن الجيـش البريطانـي وقتهـا -علـى الأرجـح بسـبب عـدم إدراكـه لأهميتهـا- سـمح للقـوات الألمانيـة بالاحتفـاظ بشـرائح الصـور الزجاجيـة، وبالتالـي تـم نقـل الصـور إلـى ميونيـخ، حيـث لا تـزال موجـودة فـي الأرشـيف هنـاك.[8]

وعلـى الرغـم مـن أنـي بحثـت بدقـة فـي الأرشـيف واستفسـرت مـن الباحثيـن فيـه، فـإن أقـرب صـور تمكنـت مـن إيجادهـا لسـهول العراقيـب كانـت تبعـد كيلومتـراً كامـلاً تقريبـا فـي كل اتجـاه. ولأن سـطح الصحـراء يظهـر قاحـلاً فـي هـذه الصـور، تـم تقديـم الصـور البافاريـة مـن قبـل محامـي الدولـة بهـدف إثبـات أن البـدو لـم يسـتقروا أبـداً فـي تلـك المناطـق[9]. التُقطـت الصـور فـي أشـهر الصيـف فـي نهايـة الحـرب، وكان العثمانيـون قـد طـردوا العشـائر البدويـة مـن المنطقـة بعـد سـقوط العقبـة فـي يـد القـوات البدويـة بقيـادة عـودة أبـو تايـه وتومـاس إدوارد لورنـس فـي تمـوز 1917، مـا دفـع العثمانييـن إلـى الاعتقـاد، عـن وجـه حـق، أن بـدو النقـب يُكنّـون العـداوة للإمبراطوريـة العثمانيـة ويتعاطفـون مـع البريطانييـن.

قـراءة هـذه الصـور تتطلـب دراسـة دقيقـة لسـطحها وتكبيرهـا بأكبـر شـكل ممكـن، فعندهـا فقـط تبـدأ هـذه الصـور بالكشـف عـن عناصـر متعـارف عليهـا فـي حيـاة البـدو علـى عتبـة الصحـراء، منهـا مبـانٍ وأنقـاض، وحقـول مزروعـة بجانـب السـيول، والأهـم الآثـار نفسـها التـي تـدل علـى وجـود حظائـر مسـتديرة للمواشـي كتلـك الموجـودة اليـوم.





الأرقـام. 1 و2. تـل الشـريعة، السـرب البافـاري 304، 24 آب 1918. يقـع هـذا الموقـع علـى بعـد حوالـي ألـف متـر شـمال غـرب العراقيـب. تحتـوي صـورة التـي التقطـت عـام 1918 علـى آثـار الخنـادق والتحصينـات العثمانيـة المهجـورة. تـم وضـع علامـة داخـل الإطـارات البيضـاء (رقـم 1-6) وإعـادة إنتاجهـا فـي التوسـعات المقابلـة، وهـي آثـار محتملـة لتجمعـات بدويـة متسـقة مـع اسـتخدام الأراضـي البدويـة علـى عتبـة الصحـراء

حياة على حافة التكشُّف

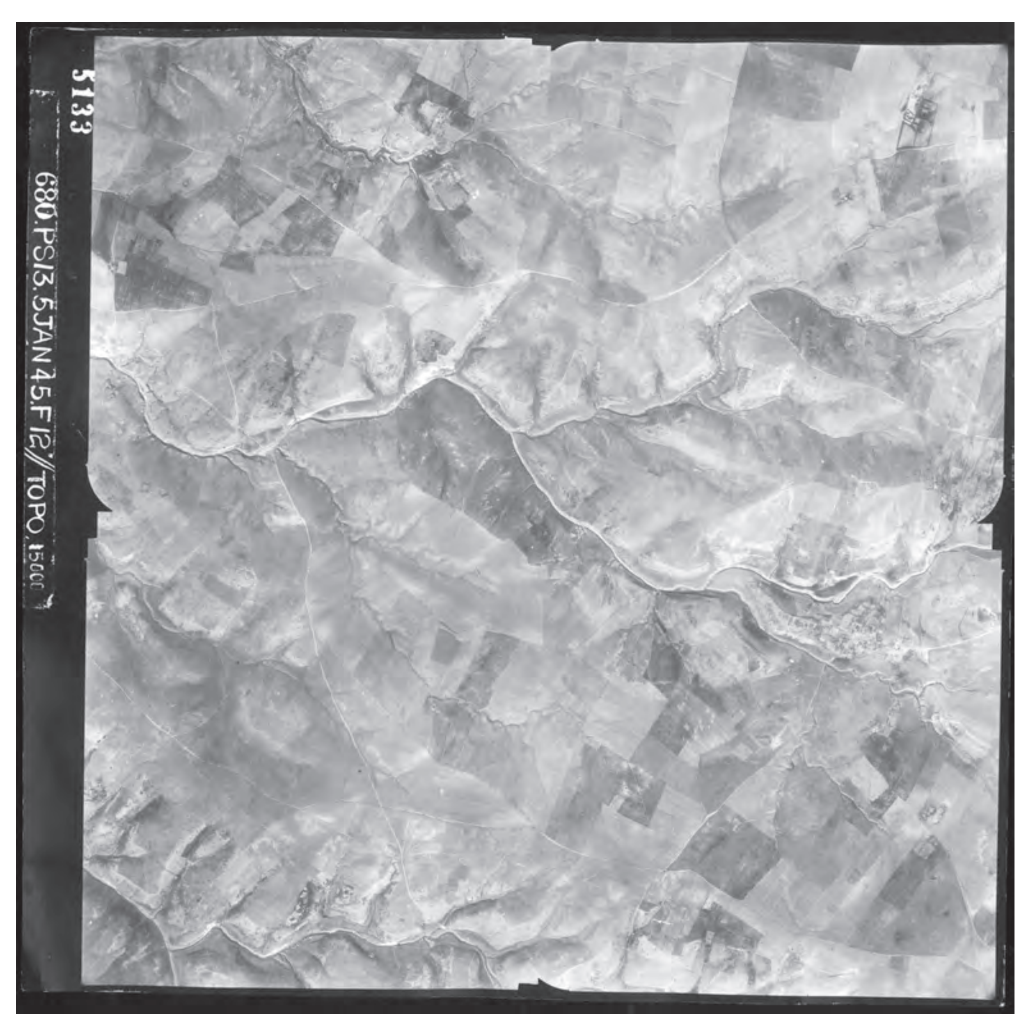
تـم المسـح الجـوي الأول المنظـم لفلسـطين قرابـة نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة، عندمـا تـم تطويـر التقنيـات والتكنولوجيـا اللازمـة لإنتـاج سلسـلة صـور يمكـن وضعهـا فـي جـداول مخططـات الخرائـط، كجـزء مـن الجهـود الحربيـة، حيـث تـم إصـدار سلسـلة بـور سـعيد (PS series) (نسـبة إلـى مطـار بـور سـعيد شـمال قنـاة السـويس الـذي انطلقـت منـه الطائـرات، ولكـن كثيـراً مـا يعتقـد خطـأ أن PS ترمـز لفلسـطين) فـي الفتـرة مـا بيـن كانـون الأول 1944 وأيـار 1945، والتقطتهـا سـرايا سـلاح الجـو الملكـي التـي تـم نقلهـا مـن الجبهـة الأوروبيـة[10]. وخـلال الحـرب العالميـة الثانيـة، أصبحـت طائـرات الاسـتطلاع قـادرة علـى التحليـق لفتـرات أطـول، والوصـول إلـى ارتفاعـات أعلـى، كمـا تـم تركيـب أجهـزة التصويـر فـي هيـكل الطائـرات.

تقدمـت بعثـة التصويـر مـن الجنـوب إلـى الشـمال، وحلقـت طائـرات الاسـتطلاع فـوق العراقيـب فـي 5 كانـون الثانـي 1945[11]. وبعـد اسـتكمال المسـح، تمكنـت عصابـات الهاجانـاة، وهـي أكبـر قـوات شـبه عسـكرية صهيونيـة، آنـذاك، أن تقنـع مسـؤول أرشـيف متعاطـف معهـا بتهريـب الصـور الفوتوغرافيـة السـلبية مـن أرشـيف القـوات الجويـة الملكيـة. وقامـت بطباعتهـا وإعـادة الصـور الأصليـة قبـل أن يلاحـظ أحـد اختفاءهـا. أُدرجـت بعـض هـذه النسـخ فـي «ملفـات القـرى العربيـة» -وهـي وثائـق اسـتخبارية تتضمـن معلومـات عـن المجتمعـات العربيـة المحليـة اسـتخدمتها عصابـات الهاجانـاة سـنة 1948 لاحتـلال القـرى وتهجيـر سـكانها[12]، وهـي موجـودة الآن فـي المركـز الإسـرائيلي لرسـم الخرائـط فـي تـل أبيـب- وتعـد سـجلاً مرجعيـاً عـن الأوضـاع فـي فلسـطين قبـل إنشـاء دولـة إسـرائيل، والمفارقـة، هنـا، أن هـذا الملـف أصبـح دليـلاً علـى وجـود هـذه القـرى قبـل قيـام دولـة إسـرائيل.

يعـد شـهر كانـون الثانـي ذروة موسـم الأمطـار، وتظهـر الصـور التـي التُقطـت بالأبيـض والأسـود الحـد الشـمالي لصحـراء النقـب محروثـاً ومغطـى بالكامـل تقريبـاً برقعـة مـن الحقـول الزراعيـة الصغيـرة. تـم اسـتخدام الصـور فـي قضايـا سـابقة[13] كجـزء مـن تقريـر متخصـص أعـده الخبيـر شـلومو بـن يوسـف، وهـو مفسـر سـابق للصـور الجويـة كان يعمـل فـي الاسـتخبارات الإسـرائيلية، اسـتعان بـه فريـق العقبـي القانونـي. وأكّـد بـن يوسـف فـي تقريـره «أن الصـور تتضمـن مـا يُظهـر وجـود اسـتقرار زراعـي مسـتمر فـي المنطقـة المتنـازع عليهـا»، وحـدد وجـود خيـام وهيـاكل مسـاكن فعليـة وطرقـات، ولكـن القاضـي دوفـارت أخـذ بمزاعـم الدولـة بـأن الصـور لا يمكـن أن تعتبـر دليـلاً قاطعـاً، معتمديـن فـي دحـض حجـة المدعـي علـى حقيقـة أن الحيـاة البدويـة تتـرك آثـاراً طفيفـة علـى الأرض، لا يمكـن التقاطهـا بشـكل واضـح فـي الصـور أو بالطريقـة نفسـها التـي تظهـر فيهـا المسـتقرات الزراعيـة الغربيـة.

كمـا يتطلّـب تحليـل الصـور الجويـة، أيضـاً، قـدراً مـن الفهـم للخصائـص الماديـة للصـور الفوتوغرافيـة السـلبية. فعـن ارتفـاع 15,000 قـدم، غطـت كل مـن الأفـلام المربعـة (23 سـم/9 إنـش) التـي اسـتخدمتها قـوات الجـو الملكيـة، منطقـة تمتـد لحوالـي 3.5 كـم2. وتقـاس دقـة الصـور الجويـة التناظريـة بوحـدة تُعـرف «بـالأزواج الخطيـة لـكل ملـم (lp/mm)» (أزواج الخطـوط لـكل ملـم)، التـي تحـدد عـدداً مـن أزواج الخطـوط بالأبيـض والأسـود التـي يمكـن أن تلتقطهـا آلـة التصويـر ضمـن كل واحـد ميليمتـر مـن الفيلـم. وكان لفيلـم كـوداك آروكـون الكروماتيكـي المصمـم للتصويـر مـن ارتفاعـات عاليـة، الـذي اسـتُخدم للتصويـر مـن الجـو فـي ظـروف مشمسـة فـي نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة، دقـة بلوريـة عاليـة تصـل إلـى lp/mm 35، أي إنـه كان يسـتطيع أن يبيـن 70 خطـاً (نصفهـا أبيـض والنصـف الآخـر أسـود) فـي كل ملميتـر مـن الصـورة السـلبية. ويصـل عـرض البلـورة –وهـي النقطـة الأرفـع فـي الخـط– إلـى حوالـي 70/1 ميليمتـر علـى الصـورة السـلبية، التـي تُترجـم إلـى 214 ميليمتـر- أي حوالـي 20 سـم، أو 0.2 متـر علـى الأرض.[14] ولكـن مسـافة 15,000 قـدم مـن الجـو بيـن سـطح الأرض وسـطح الفيلـم أثـرت سـلباً علـى الدقـة الفاعلـة للفيلـم لتصـل إلـى 50 سـم، مـا يعنـي أن البلـورات تمثـل قطـراً يصـل طولـه إلـى مـا معدلـه نصـف متـر علـى الأرض.[15] قريبـة مـن «عتبـة قابليـة الكشـف»[16] للصـورة. فـي هـذه الدقـة،

كانـت ثقـوب الآبـار وأكـوام القبـور اللطيفـة - عناصـر مهمـة يجـب تحديدهـا - قريبـة مـن حجـم حبـة واحـدة فـي الجانـب السـلبي. لذلـك كان مـن الضـروري النظـر فـي كل مـن ماديـة الأشـياء الممثلـة، بئـر أو حفـرة، ومـادة السـطح الـذي يمثلهـا، الصـورة السـلبية.



الرقم (3) منطقة العراقيب، صورة 5133، سلاح الجو الملكي البريطاني 5 يناير 1945.

تـم التقـاط الصـور فـي بدايـة كانـون الثانـي 1945، فـي الوقـت نفسـه الـذي كان فيـه الحلفـاء يسـتعدون للهجـوم علـى الحـدود فـي محاولـة للسـيطرة علـى المناطـق الواقعـة تحـت سـيطرة الرايـخ الألمانـي.

اعتبـر محللـو الصـور أن فعاليـة دقـة الصـور الجويـة للنقـب هـي نفسـها، وبالتالـي بـرزت مشـكلة تحديـد العناصـر القريبـة مـن «عتبـة الانكشـاف». ففـي الصـور التـي التقطتهـا قـوات الجـو الملكيـة فـي النقـب، كانـت حُفـر الآبـار وأكـوام الحجـارة الصغيـرة المسـتخدمة لتحديـد مـكان القبـور، وهـي عناصـر فـي غايـة الأهميـة، قريبـة مـن حجـم البلـورة فـي الصـورة. وهنـا، أيضـاً، يجـب أن نفكـر فـي ماديـة الأجسـام الظاهـرة، كبئـر أو حفـرة، وماديـة السـطح الـذي يمثلهـا؛ أي الصـورة الفوتوغرافيـة السـلبية.

واقع الأرض

ويشـار إلـى ترجمـة الصـورة مـن سـطح التضاريـس إلـى سـطح الفيلـم «بالتحقـق الأرضـي»؛ وهـي عمليـة يسـتخدمها خبـراء الأرصـاد الجويـة والاستشـعار عـن بعـد، أو مفسـرو الصـور الجويـة، لمعايـرة تحليـل الصـور، حيـث لا يمكـن أن تكـون هنـاك علاقـة مباشـرة أبـداً (1:1) بيـن الصـور الجويـة –أو بيـن أي صـور فوتوغرافيـة– والحقيقـة التـي تمثلهـا.

سـعى تفسـيرنا لطريقـة «الحقيقـة الأرضيـة» إلـى إقامـة علاقـة بيـن حبيبـات الملـح الفضيـة المظللـة بشـكل مختلـف، أو بيـن وحـدات البيكسـل ذات الألـوان المختلفـة، ورُقعـة الأرض التـي تمثلهـا مـن خـلال قـراءة الصـور الجويـة بصبـر مـن الألـف إلـى اليـاء. عكـس عمليـة تفسـير الصـورة الجويـة، سـعينا أولاً لدراسـة عنصـر مـا علـى الأرض، ثـم التحقـق مـن كيفيـة تسـجيله فـي الصـورة الجويـة التاريخيـة، ثـم اسـتنتاج كيفيـة قيـام جميـع العناصـر الأخـرى بذلـك.

تعـاون - بيـن مجلـس قـروي العراقيـب. معماريـة الطـب الشـرعي (وكالـة تحقيـق أدرتهـا فـي لنـدن)؛ ذاكـرات، Public Labجمعيـة مكرسـة لإحيـاء ذكـرى النكبـة. و

سـعيا إلـى تأسـيس وإضفـاء الطابـع الاجتماعـي علـى إنتـاج «الحقيقـة الأرضيـة» فيمـا يتعلـق بصـور سـلاح الجـو الملكـي البريطانـي مـن عـام ١٩٤٥.

فعلنـا ذلـك مـن خـلال دراسـة العناصـر المختلفـة علـى الأرض، وتصويرهـا، ثـم أخـذ نـوع مختلـف مـن المسـح بالصـور الجويـة باسـتخدام كاميـرات مثبتـة علـى الطائـرات الورقيـة. الطريقـة التـي تحققـت بهـا المهمـة الأخيـرة كانـت عـن طريـق توصيـل كاميـرا رقميـة قياسـية بالجـزء السـفلي مـن طائـرة ورقيـة باسـتخدام أشـرطة مطاطيـة. نظـرًا لأن هـذه العمليـة تُشـرك المجتمعـات فـي مهمـة التصويـر الجـوي، يُشـار إليهـا أيضًـا بواسـطة Public Lab باسـم «أقمـار المجتمـع».



الرقم (4) صورة لمسح التصوير بالطائرة الورقية*، اريال كين وهاجيت كايسار 2016.



الرقـم (5) الصـف العلـوي: صـورة جويـة لسـلاح الجـو الملكـي البريطانـي مـن ينايـر 1945؛ الصـف الأوسـط: الصـورة الجويـة المأخـوذة مـن الطائـرات الورقيـة عـام 2016؛ الصـف السـفلي: صـور الأرض (2014-16). العمـود الأيسـر: مقبـرة الطـوري. العمـود الأوسـط: منـزل سـليمان محمـد العقبـي فـي العراقيـب. يقـول الحجـر فـي الصـورة أدنـاه: «هـذا منـزل سـليمان محمـد العقبـي (1914-1993). تـم بنـاء المنـزل عـام 1936 وهـدم بعـد طـرده هـو وعشـيرته عـام 1951. العمـود الأيمـن: بئـر سـليمان محمـد العقبـى، جـد نـوري العقبـي لأبيـه.

يمكـن بعـد ذلـك معالجـة الصـور الفوتوغرافيـة لنفـس العنصـر المأخـوذة مـن وجهـات نظـر متعـددة مـن الطائـرة الورقيـة باسـتخدام عمليـة خاصـة تسـمى «القيـاس التصويـري» فـي نمـوذج دقيـق ثلاثـي الأبعـاد للمنطقـة[17].

يمكن لهذا المسح بدوره أن يتم فرضه فوق الصور الجوية التاريخية.

لـم يقـدم المسـح بالطائـرة الورقيـة فقـط سـجلاً ثمينًـا للعراقيـب قبـل إزالـة آخـر بقاياهـا - منـازل حجريـة،

سدود، آبار - أو تدميرها أو دفنها في ظل عمليات تطوير جديدة أو تشجير؛ لقد ساعدنا المسح أيضًا في قراءة المجموعة القديمة من الصور الجوية. أتاحت عملية استخدام «الأقمار الصناعية للمجتمع» للتصوير بالطائرة الورقية مهمة «الحقيقة الأرضية» لأن المسح الجوي تم إجراؤه بينما تكون أقدام أولئك الذين يلتقطون الصور الجوية ثابتة على الأرض وكل عنصر تم التقاطه في الصورة الجوية يمكن تجربتها على الأرض في وقت واحد. وهكذا فإن عملية تأسيس «الحقيقة الأساسية» تجمع بين علم الآثار لآثار المواد على الأرض مع تحليل الخصائص المادية للصورة.

المقبرة:

كما ذكرنا سابقاً، كان مرساة عودة عائلة الطوري مقبرة قديمة موجودة على أراضيهم. الادعاء بأن مقبرة الطوري لم تكن موجودة في صور عام 1945 جاء من قبل مترجمي الصور الجويين العاملين لدى مترجمي الصور الجويين المفوضين من الدولة.

في تقرير صادر عن منظمة إسرائيلية تدعى ريجافيم، ممولة من قبل الهيئات الحكومية «لتأسيس سيادة الدولة وسيطرة الحكومة على أراضي الدولة والعمل ضد «الاستيلاء غير القانوني على الأراضي» من قبل الفلسطينيين» في النقب يركز على «البدو المعتدين»[18].

في كانون الأول 2013، نشرت الجماعة تقريرًا استخدم فيه سلسلة من الصور الجوية والأقمار الصناعية، أقدمها صورة 5 كانون الثاني (يناير) 1945 السالفة الذكر، للادعاء بأن مقبرة الطوري لم تكن موجودة في الموقع قبل قيام الدولة. وطالب التقرير الدولة على الفور بإجلاء باقي أفراد عائلة الطوري الذين ما زالوا يعيشون هناك.[19]

أثناء عملي في هذه القضية القانونية كشاهد خبير لعائلة الطوري، طلبت الصور ذات الصلة لعام 1945 بأقصى دقة من المركز المساحي الإسرائيلي (الصور السلبية الأصلية موجودة في أرشيف سلاح الجو الملكي البريطاني في إدنبرة لكنها غير متاحة للباحثين). في Forensic Architecture، قمنا بتركيب صورة عام 1945 مع مسح الطائرة الورقية من خلال مطابقة التقلبات* وتشغيل تيار العراقيب - الميزة الوحيدة التي يمكن تحديدها على الموقع بعد ما يقرب من سبعين عامًا من التطوير والتحول.

سافرنا مع عزيز الطوري على الأرض حاملين بين أيدينا مسح الطائرات الورقية المعاصر وصور عام 1945. فحصنا ذهابًا وإيابًا بين عام 1945 ومسح الطائرة الورقية، وما رأيناه على الأرض أظهر استمرارية بين الصورة الجوية والصورة الأرضية. لكن مثل هذه الاستمرارية ليست مسارًا بسيطًا للترجمة - فالصور لا «تتصالح» بسهولة - فهي تتطلب عملية معقدة من الترجمة والطرح المضاد. من خلال عملية الترجمة هذه، حددنا العناصر التي لا تزال قائمة.

من خلال عملية الترجمة هذه، حددنا العناصر التي لا تزال قائمة. كانت معظم الآبار لا تزال في مكانها - في الصورة الجوية تم تسجيلها فقط كنقاط سوداء مفردة، وحبة ملح فضية واحدة غير معرضة للضوء المنعكس - كانت بعض المنازل الحجرية التي تعود إلى السنوات الماضية موجودة الآن على شكل أطلال حجرية، وشرفات والسدود التي بناها سكان هذه المنطقة على طول الجداول الصغيرة كانوا في الغالب في نفس المكان الذي رأيناه في صورة عام 1945، مما يدل على استمرارية الممارسة الزراعية عبر الأجيال. الأهم من ذلك، أن العديد من الطرق البيضاء الرفيعة التي يمكن أن نراها في صورة عام 1945، والتي تمثل مسارات مشهورة، تتطابق مع تلك المسارات التي تم التقاطها اليوم. يتم إنشاء مسارات الطرق الترابية من خلال الاستخدام المتكرر، وتسجيل استمرارية الحركة. إنها شهادة على العلاقة المستمرة بين الموقع على الأرض وبالتالي من أجل استمرار العادات الثقافية وأنماط الحياة.

كما علق مايكل سفراد الذي كان يمثل العائلات البدوية عندما لفتنا انتباهه إلى هذه المسارات - إلى إحدى المدن الموصوفة في كتاب المدن غير المرئية لإيتالو كالفينو حيث تم تمثيل الارتباطات المختلفة بين الناس بخيوط مرتبطة من منزل إلى آخر تمثل العلاقة بين الناس والأشياء التي تشكل الحياة الحضرية[20].

في العراقيب هناك شبكة كثيفة ومستمرة من الممرات الترابية المربوطة ببعضها عبر الأجيال. هناك مناطق سكن الخيام وأماكن الآبار والحدائق الصغيرة بجانب السدود، وبالفعل المقبرة، مما يدل على استمرار حركة المرور.

بعد التكبير، تمكنا من تحديد موقع المقبرة في صورة عام 1945. في جزء صغير من المكان الذي يمكن العثور فيه على مقبرة الطوري على الأرض اليوم. في صورة عام 1945، توجد مساحة صغيرة من السطح الفاتح، وعادة ما تكون نتيجة أرضية مملوءة جيدًا كما يتوقع المرء من مكان يتردد عليه. برزت على النقيض من المناطق المحيطة بها. مساحة السطح الأخف أصغر من النطاق المعاصر للمقبرة*، ولكن في عام 1945، من الواضح أن المقبرة كانت أصغر.

في زيارة للموقع في سبتمبر 2014، قادني صياح الطوري إلى أقدم جزء من المقبرة، حيث تم تمييز القبور فقط بأكوام صغيرة من الحجارة. منذ عدة عقود فقط بدأت العائلات البدوية في المنطقة باستخدام شواهد القبور الحجرية. وأوضح الطوري أن إحدى هذه الأكوام كانت أول قبر في الموقع، مؤرخًا عام 1914. وبحلول وقت التقاط صورة عام 1945، كان هناك بالفعل حوالي خمسة عشر أو عشرين قبرًا عليها علامات مماثلة بأكوام من الحجارة. كانت أكوام الحجر التي استطعت رؤيتها في الموقع تتراوح بين متر ومتر ونصف المتر، وعرضها حوالي نصف متر. في صورة عام 1945، كانت تشغل حجم حبة واحدة، أو على الأكثر، حبتان من هاليدات الفضة جنبًا إلى جنب. وبالفعل، في المنطقة الأخف وزناً والمرتدة بشكل واضح في المقبرة، كان هناك عدد من الحبوب الداكنة التي تشير إلى أشياء مميزة.

تسمح لنا عملية تأسيس «واقع الارض» بإعادة قراءة القبور في شكل الحبوب الفوتوغرافية. من ناحية أخرى، تشير أيضًا إلى أن خبراء الدولة في الصور الجوية، والذين يدعون أنه لا توجد مقبرة يمكن رؤيتها على الأرض - مثل المسافرين ورسامي الخرائط الاستعماريين الآخرين - مارسوا شكلاً نشطًا من «عدم الرؤية»، من الإنكار البصري الذي تم القيام به سواء في الصورة أو على الأرض.

كانت البقع البيضاء التي تركت على الخرائط الاستعمارية في القرنين السابع عشر والثامن عشر وسيلة للمحو: أعمال «التبييض» التي أدت إلى محو الثقافات الأصلية بأكملها. يميل أولئك الذين يروجون للصور الجوية والأقمار الصناعية على رسم الخرائط إلى المجادلة بأن الأولى هي تصورات موضوعية ومحايدة للسطح تلتقط كل الأشياء دون التحيز الثقافي للخرائط المرسومة، حيث يمكن لرسام الخرائط أن يقرر ما هو مهم بما يكفي لإظهاره وما الذي يجب تركه..

لكن الصور الفوتوغرافية، سواء من الجو أو من الأرض، تتطلب قراءة دقيقة وعملًا تفسيريًا، يمكن تكييفهما سياسيًا وثقافيًا. تتطلب هذه القراءة وضع معلومات من أنواع مختلفة في العلاقة والاهتمام الشديد بالتفاصيل والحبوب وبالتالي قراءة عكسية للصور الجوية من الألف إلى الياء.



الرقـم (6) مقبـرة الطـوري، العراقيـب. مشـروع تصويـر قريـة العراقيـب، حجيـت كيسـار / المختبـر العـام، الطـب الشـرعي، آرييـل كيـن، ذاكـرات.

إيـال وايزمـان هـو مديـر *Forensic Architecture*. وهـو أسـتاذ فـي *Goldsmiths* وزميـل فـي الأكاديميـة البريطانيـة. فـي عـام *2007*، أسـس مـع سـاندي هـلال وأليسـاندرو بيتـي، *DAAR* الجماعيـة فـي بيـت سـاحور.

الهوامش:

1 العقبي ضد دولة إسرائيل، نُظر فيه عام 2009.

2 محكمة العدل العليا الإسرائيلية القضية المدنية 06/7161 [بالعبرية].

3 نوري العقبي، مقابلة، 20 تموز / يوليو 2014.

4 في عام 1913، كان فريدريك لوز أول من قام بذلك تطويـر ممارسـة الاسـتطلاع الجـوي للجيـش البريطانـي. بالنظر مـن طائـرة خفيفـة إلـى رقعـة رطبـة مـن العشـب فـي قاعـدة القـوات الجويـة فـي جنـوب شـرق إنجلتـرا والتـي أقلعـت منهـا طائرتـه الخفيفـة، يمكـن للقوانيـن أن تحـدد بصمـة «كلـب، بعـد اسـتعراض للجنـود، يطـارده الرقيـب «بعـد فتـرة وجيـزة مـن انتقالهـم جميعًـا. F. C. V. Laws، "Look Back،" Photogrammetric Record 3.13 (April 1959)، 28–29.

5 دونالـد آرينـز، الأرصـاد الجويـة اليـوم: مقدمـة فـي الطقـس والمنـاخ والبيئـة، الطبعـة الثامنـة. (بلمونـت، كاليفورنيـا: طومسـون للتعليـم العالـي، 2007)، 110. ظاهـرة مماثلـة لاحظهـا باتريسـيو جوزمـان فـي فيلمـه Nostalgia for the Light (Nostalgia de la Luz), 2010. العلاقـة بيـن الرطوبـة والدقـة يتـم التقاطهـا مـن خـلال مصطلـح فوتوغرافـي يُعـرف باسـم «ثبـات الأبعـاد»، والـذي يقيـس تغيـرات حجـم الأشـياء الناتجـة عـن الانحرافـات الصغيـرة الناتجـة عـن مسـتويات مختلفـة مـن الرطوبـة ودرجـة

الحرارة. وبالتالي، يتطلب التصوير الفوتوغرافي عالي الارتفاع ومتطلبات تفسير الصور وسائط خاصة.

6 ماكمون وشلالات سيريل، العمليات العسكرية مصر وفلسطين، المجلد. 2، الجزء 2 (لندن: HM Stationery Office، 1930)، 84-85. تشير التقارير العسكرية عن هذه المعركة الواردة في هذا النص إلى نقص المياه ومشكلة الحصول على مياه الشرب لثلاثين ألف حصان وبغال وجمال يعملون في مؤسسة التعليم الاقتصادي. تم تأخير بعض الرسوم حتى يمكن إعادة الخيول إلى بئر السبع لسقيها. في مناسبات أخرى، تم إلقاء الخيول في المعركة دون أن تشرب لمدة ثلاثة أيام.

7 لقد وصلوا إلى بئر السبع في أوائل أكتوبر 1917 - كانت طائراتهم معبأة في أجزاء في قطارات الشحن - في الوقت المناسب تمامًا لرؤية العاصفة البريطانية عبر البلدة في 31 أكتوبر. تمكن السرب من الطيران والهبوط في مطار غزة، ولكن بعد أيام قليلة، سقطت المدينة أيضًا. تمكن الطيارون من الهروب مرة أخرى، وانتقلوا هذه المرة إلى شمال فلسطين. أسقط بعض الطيارين، ومن بينهم عدة يهود، ودفنوا في المقبرة العسكرية الألمانية في الناصرة. كان السرب 304 من أوائل السرب الذي سجل بشكل منهجي المواقع الأثرية من الجو. وشملت المواقع كنائس مسيحية في القدس وبيت لحم والناصرة، بالإضافة إلى أطلال قديمة في أريحا وقيصرية وعكا والبحر الميت. كانت الطلعات الجوية أيضًا جزءًا من Heritage Commando (Denkmalschutzcommando)، التي أجرت العديد من المسوحات العلمية للآثار القديمة. قاد المنظمة ثيودور ويغان، الذي استخدم أيضًا صورًا جوية تم الحصول عليها من طائرات ورقية مجهزة خصيصًا. أصبحت الصور مهمة لعلم الآثار الجوية، لأنه تم بناء العديد من الأماكن في لبنان وسوريا وإسرائيل والأراضي الفلسطينية منذ ذلك الحين. انظر Image Collection Palestine، ed. لوثار ساب (ميونيخ: أرشيف ولاية بافاريا، 2010)، صور فوتوغرافية لفلسطين سجلت 1917-1918 بواسطة السرب البافاري 304.

8 ندى الأطرش، "Mapping Palestine: The Bavarian Air Force WWI Aerial Photography،" Jerusalem Quarterly 56 (Winter-Spring 2014): 95, online at tinyurl.com/s4n2x4y (palestine-studies.org) (تم الدخول في 12 مارس / آذار 2020).

9 يشير ألون تال إلى هذا العرض في «التلوث في أرض الميعاد: تاريخ بيئي لإسرائيل» (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2002)، 350. قدم الصور أفيفا رابينوفيتش، عالم نباتات في الصندوق القومي اليهودي.

10 لقد كتبت خطأً أن «PS» تعني مسح فلسطين في؛ فضل شيخ وإيال وايزمان، خط شواطئ الصراع: الاستعمار كتغير مناخي في صحراء النقب (غوتنغن: Steidl، 2015). كان للمسح دور حاسم في تاريخ المنطقة: بعد أقل من عام على التقاط الصور، استخدمت لجنة التحقيق الأنجلو أمريكية هذه الصور الجوية لحساب أعداد السكان ومستويات الزراعة من أجل صياغة واحدة من خطوط التقسيم المقترحة لفلسطين الانتدابية. في منطقة بئر السبع وحدها، حددوا 8722 خيمة و 3389 منزلا حجريا (البيكات) تعود إلى قبائل البدو في المنطقة. ساندي كيدار وأحمد عمارة وأورن يفتاشيل، الأراضي الفارغة: جغرافيا قانونية لحقوق البدو في النقب (مطبعة جامعة ستانفورد، 2018). تم تجميع خريطة «توزيع السكان البدو في منطقة بئر السبع الفرعية» من المعلومات التي تضمنت الصور الجوية لعام 1945. ويمكن العثور على معلومات أساسية حول تجميع هذه الخريطة في الملحقين 3 و 4 من الأمم المتحدة، الجمعية العامة، اللجنة المخصصة المعنية بالقضية الفلسطينية، تقرير اللجنة الفرعية 2 (1947)، A / AC.14 / 32، على الإنترنت على tinyurl.com/w3dmb67 (unispal.un.org) (تم الوصول إليه في 12 مارس 2017).

11 دوف جافيش، مسح لفلسطين تحت الانتداب البريطاني 1920-1948 (لندن: روتليدج، 2005)، 245–48.

12 انظر: إيان بلاك وبيني موريس، حروب إسرائيل السرية: تاريخ خدمات المخابرات الإسرائيلية (لندن: هاميش هاميلتون، 1991)، 129؛ جيل إيال، خيبة الأمل في الشرق - خبرة في الشؤون العربية والدولة الإسرائيلية (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، 2006)، 85. للحصول على مقدمة جيدة يسهل الوصول إليها للتصوير الجوي ودقة الصورة في الحرب العالمية الثانية، انظر دينيس كوسجروف و ويليام إل فوكس، التصوير الفوتوغرافي والطيران (لندن: كتب Reaktion، 2010).

13 أوصف بن شلومو، «تقرير الخبراء لتحليل الصور الجوية»، 15 سبتمبر 2009، أرسل إلى نوري العقبي.

14 فيما يلي شرح تقني أكثر تفصيلًا: لعمل سلسلة مسح بورسعيد، كانت طائرات الاستطلاع التابعة لسلاح الجو الملكي تقوم بالتصوير على ارتفاع 15000 قدم. كان البعد البؤري للعدسة 12 بوصة أو 1 قدم. يتم الحصول على مقياس الفيلم بقسمة الارتفاع على البعد البؤري. وبالتالي، فإن مقياس الفيلم السلبي هو 1: 15000، مما يعني أن كل ملليمتر في الفيلم يمثل 15 مترًا على الأرض. لأن حجم الفيلم السلبي هو 9 بوصات أو 228.6 ملم، المساحة تم التقاطها على كل فيلم سلبي منفصل حوالي 3.4 × 3.4 كيلومتر، أو 11.5 كيلومتر مربع. دقة الفيلم المستخدمة من قبل سلاح الجو الملكي البريطاني هي 35 زوج خط لكل مليمتر. تقيس

هـذه الوحـدة، lp / mm، عـدد أزواج الخطـوط المتناوبـة بالأسـود والأبيـض التـي يمكـن أن تتناسـب مـع مليمتـر علـى السـالب. إذا كان هنـاك 35 زوجًـا مـن الخطـوط، كل منهـا عـرض حبـة واحـدة علـى الأقـل، ثـم فـي ملليمتـر واحد علـى الفيلـم هنـاك 70 حبـة. يبلـغ حجـم حبـة الملـح الفضيـة 0.014 ملـم. بمقيـاس 1: 15000 يمثـل حجـم الحبـوب 214 ملـم مـن الأرض. ومـع ذلـك، نظـرًا للغـلاف الجـوي، فـإن الدقـة الفعالـة هـي 50 سـم لـكل حبـة.

15 مقابلة مع إيلي أتزمون، 29 أبريل 2014.

16 إيـال وايزمـان، «مسـألة ضـد الذاكـرة» فـي Forensis: The Architecture of Public Truth، محـرر. هندسـة الطـب الشـرعي (برليـن: سـتيرنبرغ 365 ،78–361 ،(Press، 2014.

17 انظـر مقـال أرييـل كيـن، «حبيبـي الواقعيـة: الممارسـات السـائدة والمضـادة للتصويـر المكانـي فـي النقـب» فـي هـذا العـدد مـن JQ.

18 انظـر: ريجافيـم، «الخرافـة البدويـة رقـم 2 - هـل القـرى البدويـة تاريخيـة؟» 16 ديسـمبر 2013، عبـر الإنترنـت على tinyurl.com/rym6ujl (regavim.org) (تـم الدخـول فـي 12 مــارس / آذار 2020)؛ Regavim، "The Truth About the Bedouin in the Negev," عبـر الإنترنـت علـى tinyurl.com/vhx8yod (regavim.org) (تـم الدخـول فـي 12 مـارس / آذار 2020). يوضـح المنظـران السياسـيان نيكـولا بيروجينـي ونيفـي جـوردون أنـه «وفقًـا لروايـة حقـوق الإنسـان للمنظمـة، فـإن المسـتوطنين اليهـود هـم ضحايـا للتمييـز والفلسـطينيون المسـتعمرون هـم» الغـزاة «و» الفاتحـون الصامتـون «للأراضـي الوطنيـة الإسـرائيلية بالإضافـة إلـى مرتكبـي حقـوق الإنسـان. انتهـاكات الحقـوق ضـد المواطنيـن اليهـود فـي إسـرائيل». نيكـولا بيروجينـي ونيفـي جـوردون، حـق الإنسـان فـي الهيمنـة (أكسـفورد: مطبعـة جامعـة أكسـفورد، 2015). يمكـن العثـور علـى مـورد جيـد للتفكيـر فـي سياسـات المنظمـات غيـر الحكوميـة فـي السياسـة غيـر الحكوميـة، محـرر. ميشـيل فيهـر (نيويـورك: زون بوكـس، 2007).

19 بالإضافـة إلـى صـور عـام 1945، قـدم تقريـر ريجافيـم أيضًـا صـورًا لسـلاح الجـو الإسـرائيلي مـن 1956 و 1965 و 1987 وصـورة أقمـار صناعيـة مـن عـام 2010. فقـط فـي صـورة عـام 1965، ومنـذ ذلـك التاريـخ، ادعـى تقريـر ريجافيـم أنـه كان مـن الممكـن ملاحظـة المقبـرة فـي مراحلهـا الأولـى وبجوارهـا خيمـة واحـدة. اسـتنتاج ريجافيـم هـو أن «قريـة العراقيـب» التاريخيـة «التـي ادعـى البـدو أنهـا أُنشـئت فـي العهـد العثمانـي، بُنيـت فـي نهايـة التسـعينيات ومـا بعدهـا». وكتبـوا أنـه فـي «المنطقـة التـي توجـد فيهـا العراقيـب اليـوم، عـام 1945، لـم تكـن هنـاك قريـة أو مقبـرة [موجـودة] علـى الإطـلاق». ريغافيـم، «حقيقـة البـدو فـي النقـب.»

20 إيتالـو كالفينـو، المـدن غيـر المرئيـة (1985)، «فـي إرسـيليا [. . .] يمتـد السـكان خيوطًـا مـن زوايـا المنـازل، أبيـض أو أسـود أو رمـادي أو أبيـض وأسـود وفقًـا لمـا إذا كانـوا يمثلـون علاقـة دم أو تجـارة أو سـلطة أو وكالـة. عندمـا تتعـدد الخيـوط بحيـث لـم يعـد بإمكانـك المـرور بينهـا، يغـادر السـكان: يتـم تفكيـك المنـازل؛ فقـط الأوتـار ودعمهـا تبقـى. مـن سـفح الجبـل، والتخييـم مـع أغراضهـم المنزليـة، ينظـر لاجئـو إرسـيليا إلـى متاهـة مـن الخيـوط والأعمـدة المشـدودة التـي ترتفـع فـي السـهل».

الأرشيف الرقمي لحارة المغاربة ومبادرة مجسم إيلليه الافتراضي

ماريفيلما سميث أونيل

«أتريد أن تقول أن هناك خطيئة أصلية؟ نعم هناك، تقبل ذلك»
ميرون بنفينستي (2013)

قليلة هي الأماكن التي ترمز للقدس كما ترمز لها ساحة الحائط الغربي، لكن القليل جداً من المقدسيين - الفلسطينيين منهم والإسرائيليين - يعرفون أن هذه الساحة أُنشئت بعد هدم حارة المغاربة.

كانت حارة المغاربة في القدس، لثمانية قرون، موطناً للعرب من شمال إفريقيا والأندلس وفلسطين، ولكن دولة اسرائيل مسحت، في بحر يومين فقط، بعد حرب عام 1967 (10 - 12 حزيران 1967)، الحارة التاريخية في الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة بالقرب من الحائط الغربي للحرم الشريف عن وجه الخريطة تماماً، في انتهاك سافر للمادة 53 من اتفاقية جنيف الرابعة التي تنص على يلي:

> «يحظر على دولة الاحتلال أن تُدّمر أي ممتلكات خاصة ثابتة أو منقولة تتعلق بأفراد أو جماعات، أو بالدولة أو السلطات العامة، أو المنظمات الاجتماعية أو التعاونية، إلا إذا كانت العمليات الحربية تقتضي حتماً هذا التدمير».[1]

تم تحويل القدس، قبل عقدين من هدم حارة المغاربة، إلى «كيان مستقل» بغرض عزلها عن التأثير السياسي من خلال تدويلها تحت نظام خاص تديره الأمم المتحدة، كما تم تأكيده في قرار الأمم المتحدة 181 (1947) و194 (1948). وتم قبل قرنين من ذلك، تقنين ما يعرف بترتيبات الوضع الراهن للمقدسات في المدينة من خلال مراسيم عثمانية لمنع النزاعات ما بين الأديان والطوائف الدينية على المواقع الدينية المختلف عليها. تضمن هذه الالتزامات القانونية لجميع الطوائف الدخول إلى مقدساتها، وتشترط موافقتها أولاً قبل إحداث أي تغييرات سواء في الإجراءات أو الجوهر. وعلى الرغم من أن السيادة على المقدسات المسيحية



الشكل 1. منظر عام لمسجد عمر، روبرتسون، بياتو وشركاه، 1857. الصورة: مكتبة صور العلوم والاجتماعيات.

كانت هي المحرك الرئيسي وراء ترتيبات الوضع الراهن هذه، إلا أنها احتضنت الحائط الغربي (الذي يطالب به اليهود كحائط المبكى، بينما يطالب به المسلمون كحائط البُراق)، وبدأ اليهود بتحدي الوضع الراهن في نهاية العهد العثماني، واستمروا في التصعيد خلال العشرينيات من القرن الماضي، ووصل هذا التصعيد أوجه في المواجهات التي اندلعت سنة 1929 وقتل فيها الكثيرون.

ويشكل تدمير حارة المغاربة انتهاكاً لترتيبات الوضع الراهن، حيث كان خطوة حاسمة في إطلاق برنامج صهيوني لا يزال مستمراً «لفرض واقع جديد على الأرض» في القدس الشرقية – واقع سلب الحارة أوقافها لصالح توسيع حارة اليهود لتتضاعف مساحتها أربع مرات مقارنة بما كانت عليه سنة 1948.[2] قامت دراسة جديدة بالتقصي عن عمليات الهدم والمصادرة المنظمة للتراث غير اليهودي الذي بدأ بتدمير هذه الحارة، وتدعم الوثائق والتفسيرات الجديدة – للأثر المتوسط والطويل الناشئ عن هدم حارة المغاربة - نقاشاً في غاية الأهمية. ويعد هذا النقاش أكثر إلحاحية الآن بالذات في ظل الخطط الإسرائيلية التي تهدف للاستطراد في «تهويد» المدينة، وبما يتضمن عمليات تنقيب وحفر أنفاق غير قانونية، تهدد السلامة البنيوية للحرم الشريف في قلب القدس. كما تتسبب الاستفزازات المنظمة للوضع الراهن عند المسجد الأقصى المصحوبة بخطط الحكومة الإسرائيلية للبناء في المنطقة، والنقاش المحتدم حول السيطرة على عتبة المغاربة، مدخل غير المسلمين للحرم الشريف، بتفاقم هذا النزاع المحتدم.[3]



الشكل 2. ساحة الحائط الغربي وحائط المبكى/ البراق، 2020/2/5. الصورة: سني زغير.

وعلى الرغم من أن حارة المغاربة محيت عملياً سنة 1967، إلا أنها لا تزال موجودة – وإن كانت بصورة مصغرة – كجزء من مجسم إيلليه للقدس (1873)، وهو صورة طبوغرافية مميزة للمدينة القديمة. سكن ستيفان إيلليه، صانع المجسم، وهو مجلد كتب هنغاري كاثوليكي من بيرسبورغ (براتيسلافا حالياً)، القدس مدة عقد من الزمان تقريباً (1864 – 73). وبعد أن أحدث المجسم ضجة في الجناح العثماني في معرض فيينا العالمي سنة 1873، جال مجسم إيلليه في أوروبا، حتى اشترته في النهاية جمهورية جنيف سنة 1878 وعرضته في مركز المدينة. ولكن في سنة 1984، أعار متحف الإصلاح الديني في جنيف المجسم بشكل دائم لمتحف داوود في القدس، حيث لا يزال موجوداً اليوم. ويوحي موقع هذا العمل الموجود في غرفة قديمة لا تشجع على الزيارة، وقلة اهتمام القيمين على المتحف به وجود تنافر مع السياسات الثقافية للمؤسسة.

سيصبح مجسم إيلليه قريباً، بعد سنوات من الإهمال، متاحاً للجمهور العالمي على الإنترنت – على شكل نسخة رقمية تفاعلية – تتيح دراسة المجسم واستكشافه دون عوائق.[4] ويعد هذا المسح الضوئي للمجسم ذا أهمية خاصة، لأنه حفظ رقمياً عملاً تاريخياً نادراً ذا أهمية ثقافية عالمية مميزة.

تبدأ مبادرة مجسم إيلليه الافتراضي، الذي سنصفه بالتفصيل لاحقاً، بالاسترجاع الرقمي لحارة المغاربة من خلال أرشيف افتراضي على الإنترنت. وبالتالي، فإنه سيتيح للزوار استكشاف الحارة المهدمة من خلال

تكنولوجيا التصور عن طريق الشاشة. وبهذا، ستُعرّج عملية إعادة تخيل حارة المغاربة النابضة بالحياة بالشغف الأوروبي بالخرائط المجسمة في نهاية القرن التاسع عشر، وصولاً إلى النسخة الافتراضية من مجسم إيلليه.

وسيتم بعد إكمال إعادة البناء الرقمي لحارة المغاربة، إطلاق مبادرة بحث عالمية لرسم خريطة رقمية لمجسم إيلليه ثلاثي الأبعاد بالكامل. وسيتعاون الباحثون الدوليون وخبراء الحاسوب لإنتاج طرس رقمي تفاعلي مفصل لمدينة القدس، يتم تركيب النسخ المتعددة من الأحداث والظواهر التاريخية عليه، بما فيها الخرائط والصور ومقاطع الفيديو والنصوص والتاريخ الشفوي. ويعد هذا الجهد الرائد لرسم خريطة رقمية للنسخة الافتراضية من مجسم إيلليه عملاً تعاونياً تدخل فيه عدة تخصصات، ومصدراً مفتوحاً يسعى لتحقيق هدف مزدوج هو: تشجيع الاستفسارات الجديدة، والترحيب بالمساهمات الجديدة على حدّ سواء.

حارة المغاربة تحت الحكم الإسلامي

يرتبط الحجاج من المغرب (منطقة شمال غرب إفريقيا التي تألفت مما يعرف حالياً بالمغرب والجزائر وتونس وأحياناً ليبيا) بصلة أزلية بالقدس، ذُكرت أول مرة في عهد الإخشيديين (935 – 69)، حيث استقر عدد من الأمازيغيين البارزين (البربر) في القدس إبان حكم الفاطميين (909 – 1171).[5] ويقول ابن جبير (1145 – 1217) إن كلّ مسلم في مملكة الفرنجة في سوريا أوصى بتحرير السجناء المغاربة المحتجزين في مملكة الصليبيين في القدس (1099 – 1187).[6]

وبعد تحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي (1187) واستعادة الحرم الشريف، قام نجله الأكبر، الملك الأفضل، بإنشاء حارة المغاربة قرابة 1193 كوقف إسلامي (صندوق خيري ثابت بحسب الشريعة الإسلامية). وكانت شروط هذا الوقف شاملة بشكل خاص، حيث وقفها «على جميع طائفة المغاربة على اختلاف أوصافهم وتباين حرفهم، ذكورهم وإناثهم، كبيرهم وصغيرهم، فاضلهم ومفضولهم ليسكنوا في مساكنها وينتفعوا بمرافقها على قدر طبقاتهم».[7] وبذا كان لكل مغربي يختار العيش في الحارة الموقوفة دار فيها – «الأمر الذي لم يكن مسبوقاً في التاريخ الإسلامي».[8] كما موّل الأفضل إنشاء حارة الشرف الطويلة الضيقة (الملاصقة لحارة المغاربة) وحارة الميدان، والتي صادرتهما دولة إسرائيل بشكل غير قانوني مع عشرات الحارات الأخرى لتدمجها في حارة اليهود الموسعة بعد حرب 1967.[9]

كما أنشأ الأفضل مدرسة الأفضلية في القدس (1193 0 96) لنشر المذهب المالكي. وكانت هذه المدرسة، التي يشار إليها في كثير من الأحيان بالقبة نظراً لقبتها المنحوتة، منارة لأتباع المذهب المالكي من المغرب والأندلس. كما كانت مقاماً للشيخ عيد، أحد شيوخ الصوفية الذين ارتبط المسجد بهم بعد وفاته في القرن السابع عشر. ولقد أصاب بنجامين ز. كيدار، بروفسور التاريخ المتقاعد في الجامعة العبرية ورئيس مجلس سلطة الآثار في إسرائيل (2000 – 2012)، والذي قيّم الأهمية المعمارية للمسجد بالتعاون مع فريق من سلطة الآثار الإسرائيلية، عندما وصف تدمير المسجد سنة 1967 بـ «جريمة في حق الآثار.»[10]

سافر المغاربة خلال العصور الأوروبية الوسطى إلى القدس كحجاج و/ أو للمشاركة في الحياة العلمية النابضة هناك. وكانت حارة المغاربة داراً لمجموعة متنوعة من المهاجرين من المغرب (المرينيون والحفصيون والبربر) إضافة لبني نصر (وهم آخر سلالة مسلمة في إيبيريا، حكمت إمارة غرناطة ما بين 1230 – 1492). وجمع القاضي والفقيه المالكي، أبو بكر بن العربي الإشبيلي أقدم

وصف مغربي لرحلة إلى القدس خلال إقامته التي استمرت لثلاث سنوات هناك (1093 – 96).[11] وكان للمغاربة إضافات مميزة للقدس كما ذكر المتصوف الأندلسي المعروف محيي الدين بن عربي خلال زيارته سنة 1206:

> ستذكر هذه المدينة المغاربة جيداً لاستبسالهم في الدفاع عن المسلمين. أموالهم هنا، والناس يستخدمونها كثيراً. البسط المغربية الأجمل من الحرير معروفة لدى الجميع هنا. أما اللباد المغربي الأحمر فهو مرغوب من الخدم والأفاضل على حدّ سواء، وذكر الجاهز ذلك في كتابه عن التجارة.[12]

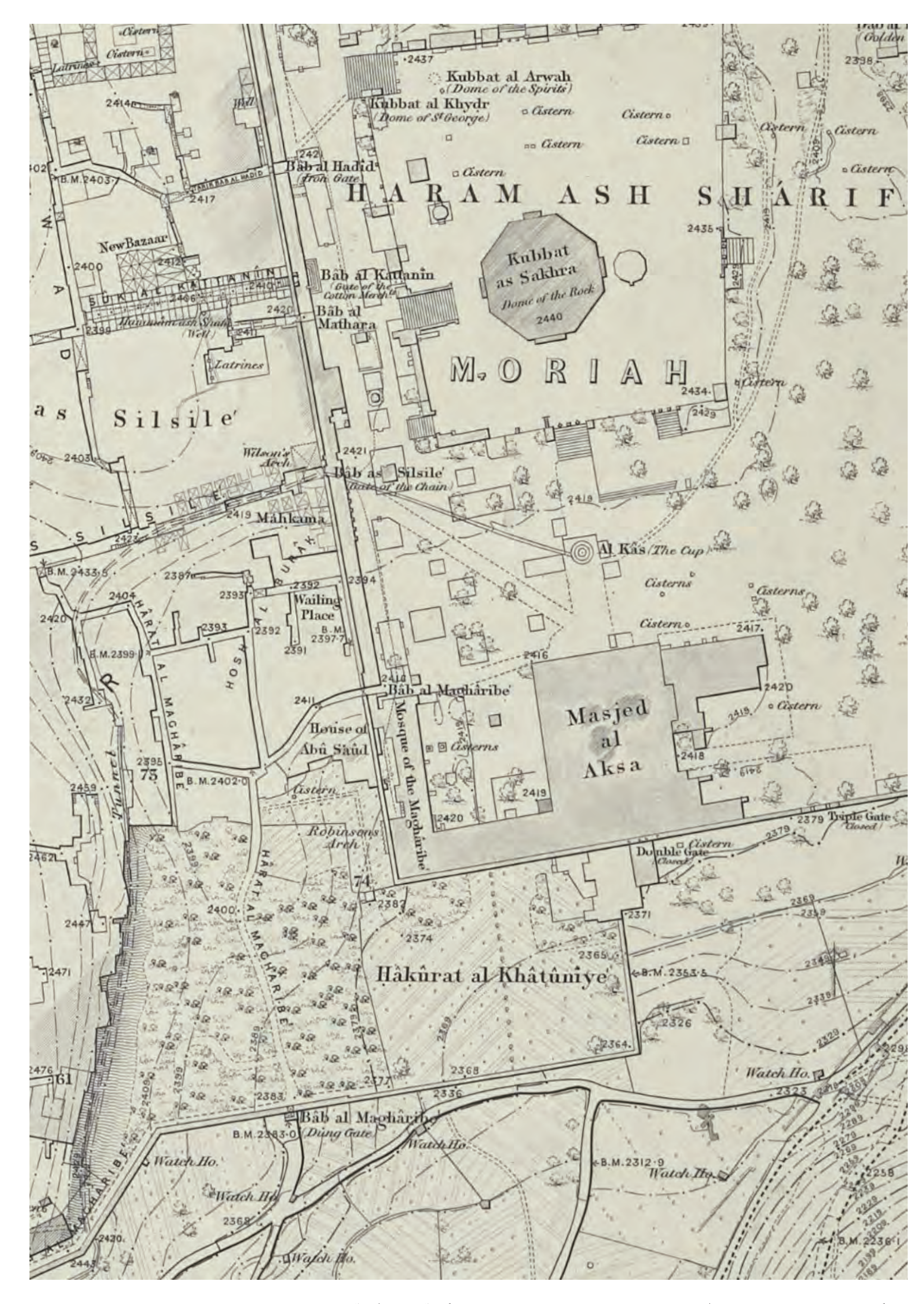
أما جان دو تورناي، وهو تاجر أقمشة فرنسي زار القدس سنة 1488، وكانت له نظرة خاصة في اللباس، فقال: «يرتدي المغاربة اللون الأبيض مع عمائم من القطن الخالص أو القماش الهولندي».[13]

وتضاعف عدد سكان حارة المغاربة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر أربع مرات، وتعززت مكانتها الروحانية خلال العقد التالي مع وصول شيوخ الصوفية البارزين الذين انضموا إلى موظفي الدولة الذين كانوا يقطنون المنطقة أصلاً. وكان معظم المغاربة من أتباع المذهب المالكي، ولكن كان من بين دعاة المذاهب الفقهية الأخرى الشيخ محمد بن محمد الطيب الطلفاني من المغرب الذي عين مفتياً للقدس سنة 1777. ولا يوجد سوى بضع مخطوطات نادرة موجودة في ثلاث مكتبات خاصة في القدس (هي مكتبة المسجد الأقصى ومكتبة الخالدية ومكتبة البديري) تحتفظ بأسماء 20 قاضياً مغربياً خدموا في القدس، إضافة لأسماء الفقهاء المغاربة الذين سكنوا المدينة أو أقاموا فيها.[14]

وكانت تتم استضافة الحجاج المغاربة لدى وصولهم في زاويتين متقابلتين تقريباً من الحارة؛ الزاوية المملوكية (قنطرة إمام البنات)، وهي نزل صوفي أوقفه الفقيه عمر بن عبدالله بن عبد النبي المصمودي المجرد سنة 1303، وكانت تلك أول مرة يقوم بها مغربي بإنشاء وقف لخدمة المغاربة في القدس. أما حفيده المتصوف شعيب أبو مدين الغوث، فأوقف زاوية أخرى بالقرب من باب السلسلة (التي أصبحت الآن شارع ها- كوتيل) وأوقف أراضي عين كارم لتمول الزاوية وتُعين المغاربة.[15] ولا تزال القمرات الصغيرة التي كان يستخدمها الحجاج موجودة في الطابق العلوي من المبنى الذي نجا من الهدم، والذي يعود لأواخر العهد العثماني (ويشار إليه بالمحكمة المغربية في التاريخ الشفوي)، إضافة لمسجد ومقام. وتُذّكر اللوحة الموجودة على واجهة المبنى بوقف الشيخ عمر المجرد المسعودي (أحد أحفاد الشيخ عمر المذكور أعلاه) (1901) الذي أوقفه لتمويل مائدة للرحمن «لإطعام الفقراء والمحتاجين». كانت الأوقاف العائلية تشكل الجزء الأكبر من حارة المغاربة (70%).[16]

ولكن، أصبحت عين كارم بعد 1948 على الجانب الآخر من الخط الأخضر، وحُرم الوقف بذلك من موارده المدرة للدخل. وتدخلت وقتها الحكومة الكولونيالية الفرنسية لتتولى مسؤولية جزئية في إعالة المغاربة والجزائريين والتونسيين، وكان يتم توزيع هذه المساعدات من خلال القنصل العام في القدس.[17]

امتدت حارة المغاربة، والتي كانت جزءاً من الفسيفساء الحضرية المؤلفة من حارات القدس القديمة، على مساحة حوالي 10,000 متر مربع. ويوثق الأرشيف العثماني الدور الأساسي الذي لعبته الحارة في حياة المدينة الاقتصادية والاجتماعية والروحانية والثقافية.[18] حيث كان الحرفيون المغاربة يقومون بصنع الورق اليدوي والأحزمة والسجاجيد والأعمال المعدني، وتفوح فيها روائح الفلفل الحلو والحار والكمون وصلصة الهريسة. وكانت الحارة تضم إضافة للصروح الدينية البارزة ومدرسة الكتاب بالقرب من باب المغاربة محكمةً وعدداً من المشاريع التجارية المحلية ومطحنة وأفراناً عامة والعديد من أشجار الفواكه في بساتين العائلات. وتبين العديد من الخرائط التاريخية حدود حاكورة الخاتونية التي كانت تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، والتي كانت مزروعة بأشجار الفواكه والخضروات والبقوليات. وتبين صور القرن التاسع عشر الكثير من أشجار الإجاص الشائك التي جاءت من الأندلس بعد سنة 1492. كما كان في



الشكل 3. تفاصيل، مسح فلسطين/ ويلسون (1864 – 65)، الصورة: المكتبة البريطانية

الحارة بقايا أثرية من العصر الروماني والبيزنطي، وبقايا القصور الأموية الفارهة. وصف الصحافي الفرنسي سايمون بيير الحارة ببعض من المبالغة بأنها: «مدينة مغربية مكتملة في قلب القدس».[19]

وعندما زار شاتوبرياند القدس في بداية القرن التاسع عشر أثنى على المغاربة الذين كانوا «مطلوبين لذكائهم، وكانوا سعاة معروفين بسرعتهم. ماذا يمكن أن يقول صلاح الدين وريتشارد لو تمكنا فجأة من العودة إلى هذا العالم، ووجدا أن الأبطال المغاربة تحولوا إلى حراس لكنيسة القيامة؟»[20] كما حرس المغاربة الأسواق والمرافق العامة وأسوار المدينة، وحرسوا الأثرياء والمتنفذين. واختارهم السكان أئمة للجامع المغربي لسعة اطلاعهم واستقامتهم وحكمتهم.[21]

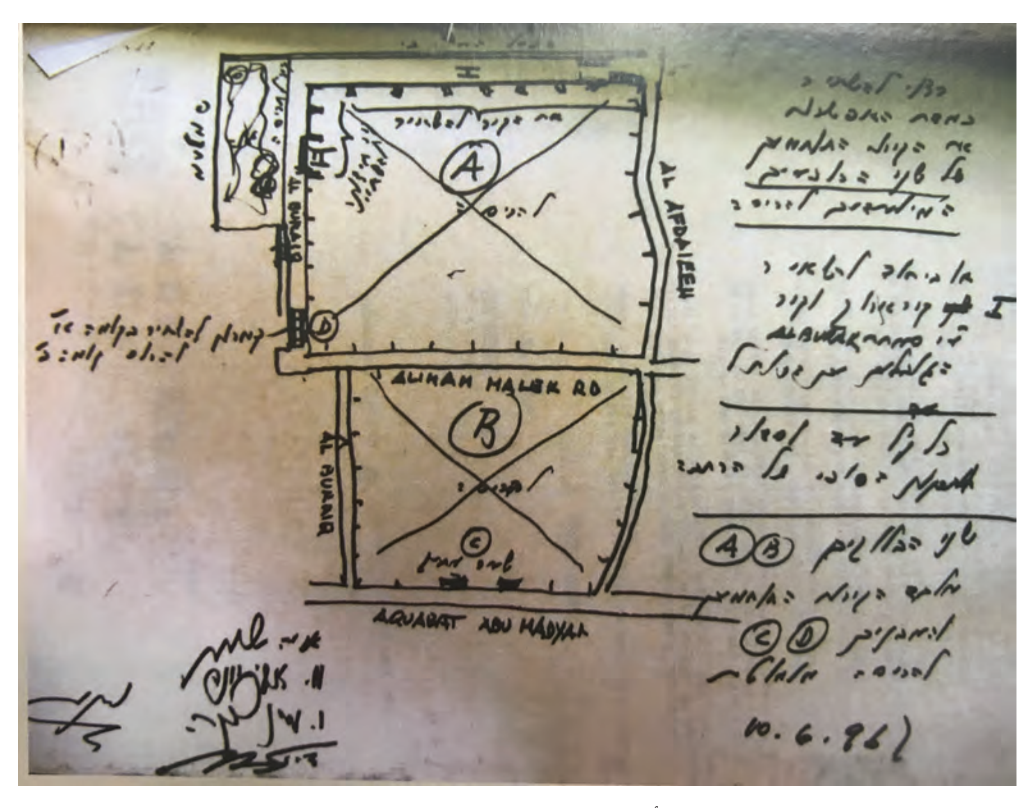
تدمير حارة المغاربة

ننتقل الآن سريعاً إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما بدأت أطماع الحركة الصهيونية العلمانية الصاعدة تهدد الحارة بشكل حقيقي. باءت محاولات عدد من الصهاينة الموسرين شراء الحائط الغربي بالفشل، منهم البارون روتشيلد، الذي حاول سنة 1887 شراء الحارة بأكملها ليقوم بهدمها وبناء ساحة مكانها، والحاخام حاييم هيرشينسون وشركة تطوير الأراضي الفلسطينية الصهيونية الذين حاولوا شراء الحائط سنة 1895. وبعدها في سنة 1914، عندما واجهت الإمبراطورية العثمانية الإفلاس وتورطت في الحرب العالمية الأولى، عرض الوالي التركي للقدس، زكي بيه، بيع الحارة مقابل 20,000 جنيه إسترليني، ولكنه لم ينجح. وفي 1919، وبعد أن أقرت عصبة الأمم الانتداب البريطاني في فلسطين، سعى الزعيم الصهيوني، حاييم ويزمان، لجمع 75,000 جنيه إسترليني لشراء حارة المغاربة وهدمها ونقل سكانها إلى مكان آخر، ولكن البريطانيين احترموا ترتيبات الوضع الراهن. وفاقمت محاولات الصهاينة لانتهاك الوضع الراهن من التوترات في عشرينيات القرن الماضي. وفي سنة 1926 عرض المليونير اليهودي الأمريكي، ناثان شتراوس، أن يستأجر مبدئياً الحارة ومن ثم يشتريها، ولكن البريطانيين رفضوا هذا العرض مرة أخرى احتراماً لترتيبات الوضع الراهن. وبعد ثلاث سنوات، اندلعت مواجهات في آب 1929 بين اليهود والمسلمين على الوصول إلى الحائط الغربي، بعد أن قامت مجموعة من اليهود برفع العلم الصهيوني وغناء النشيد الوطني الصهيوني، أدت إلى مقتل الكثيرين.[22] وفي تحدّ للمنع الرسمي الذي فرضته سلطات الانتداب، استمرت المسيرات العسكرية الصهيونية في الثلاثينيات والأربعينيات.

حققت الجهود التي امتدت على مدى عقود هدفها بعد انتصار إسرائيل في حرب 1967 والاحتلال العسكري للقدس الشرقية، وتم هدم حارة المغاربة أخيراً. ففي 1967/6/8 أعلن بن غوريون بحزم من هناك لتيدي كوليك، رئيس بلدية القدس الغربية، ومسؤول سلطة الحدائق الوطنية الذي كان يصحبه: «يجب إخلاء المنطقة ليظهر الحائط».[23] وبدأ الإخلاء القسري بعد يومين فقط. فقد وصل في الساعة العاشرة من يوم السبت 1967/6/10 فريق هدم متطوع من المقاولين الفرديين، الذين اتفق معهم زالمان بروشي بإيعاز من كوليك، في قافلة عبرت من خلال باب النبي داوود؛ وطلب منهم مواراة الردم تحت ستار الظلام. واعتمد فريق بروشي في عمله على رسم يدوي خطه المعماري آريه شارون، وهو رئيس جمعية المعماريين والمهندسين، وموظف في سلطة الحدائق الوطنية. وقع عدد من كبار المسؤولين التعليمات الرئيسية وكانت تنص على: «تدمير المربع (أ) والمربع (ب) واستثناء الجدران المحيطة والمباني التي يظهر عليها الحرفان (ج) و(د).»[24]

صدرت الأوامر لسكان حارة المغاربة بإخلاء منازلهم عبر مكبرات الصوت، ويستذكر سكان الحارة السابقون كيف جمعوا على عجل ما يمكن حمله من متاع خلال بضع ساعات. ويذكر التاريخ الشفوي التجارب الشخصية والجماعية الناشئة عن هذه الصدمة. استمرت عمليات الهدم طوال ليلتين متعاقبتين؛ حيث عملت الحفارات والجرافات دون كلل أو ملل تحت أضواء الكشافات على هدم المنازل الحجرية المؤلفة من طابق أو اثنين وقبابها الطوبية التي كانت متراصة على طول الممرات الضيقة وتسويتها بالأرض. ومنع طوق أمني فرض على الحارة السكان من العودة لأخذ وثائقهم وذكرياتهم – التي دفنت تحت الأنقاض. كانت العملية عبارة عن عملية تطهير عرقي منظمة، كما يروي أحمد الجريدي، أحد المهجرين من حارة المغاربة:

«كان هنـاك حافـلات تنتظرنـا عنـد بـاب العامـود، بإيعـاز مـن الإسـرائيليين، وكانـت جاهـزة لنقـل أولئـك الذيـن يرغبـون بالذهـاب للجسـر ومنـه إلـى عمـان. وكانـوا يوزعـون الشـوكولا علـى أولئـك الذيـن يسـتقلون الحافلـة».[25]



الشكل 4. مخطط تدمير حارة المغاربة، الصورة: أرشيف دولة إسرائيل 3847 - 4/GL.

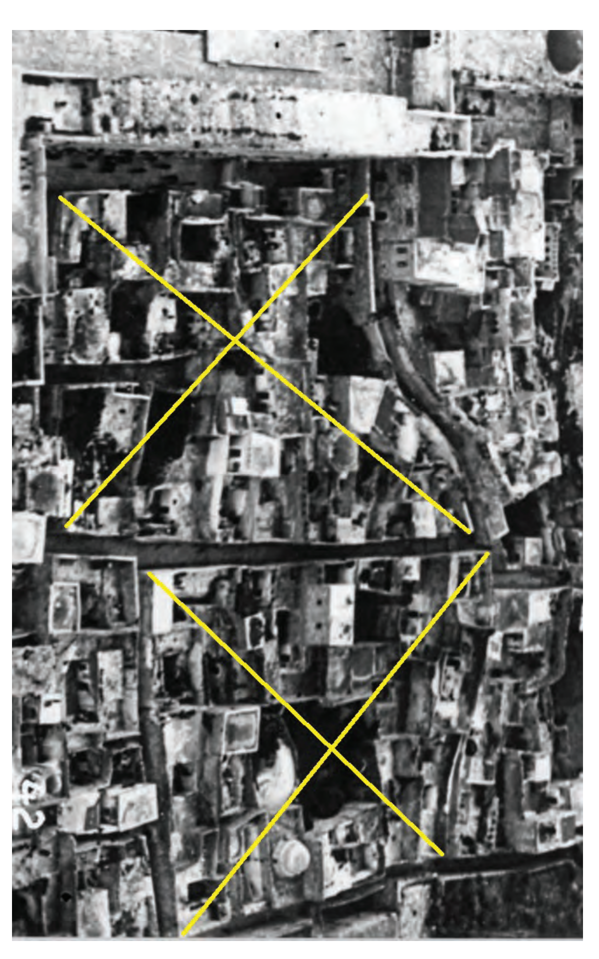
كانـت الحـارة التاريخيـة ببـزوغ فجـر 1967/6/12 قـد سـويت بـالأرض. وأفـاد شـهود عيـان أن المنـازل بـدت وكأنهـا انهـارت بعضهـا فـوق بعـض كبيـت مـن ورق، وتحدثـوا عـن امـرأة مسـنة وُجـدت ميتـة فـي سـريرها وانتشـال عـدد مـن الجثـث مـن تحـت الـركام، ولكـن مـن المسـتحيل تأكيـد هـذه القصـص رسـمياً الآن. اختفـت الحـارة تمامـاً، واختفـت معهـا العديـد مـن المعالـم التاريخيـة، منهـا مسـجدان، والعديـد مـن الممتلـكات الوقفيـة التـي تهدمـت. وتـم إخـلاء حوالـي 650 شـخصاً مـن 138 منـزلاً. وفـي نهايـة تمـوز، كتـب كوليـك لبروشـي يشـكره علـى قيادتـه الكفـؤة لهـذه المهمـة الهادفـة «لاسـتعادة مجـد القـدس».[26] أمـا مقاولـو بروشـي، الذيـن شـكلوا «رابطـة حائـط المبكـى» خـلال اسـتراحة أخذوهـا السـاعة الثالثـة صباحـاً مـن تشـغيل آليـات الهـدم، فحرصـوا علـى الاجتمـاع سـنوياً لتخليـد ذكـرى مـا اعتبـروه «عمـلاً بطوليـاً» للتحريـر والتطهيـر.[27]

جمـع مـا بيـن أفـراد هـذا التحالـف الخـاص المؤلـف مـن حوالـى 80 مسـؤولاً عسـكرياً ومدنيـاً، دافـع أساسـي، بـرره تيـدي كوليـك فيمـا بعـد بأنـه «فعـل حـرب».[28] وأشـيع وقتهـا عـن عمـد أن حـارة المغاربـة تدمـرت خـلال حـرب 1948، وشـاركت الصحافـة المحليـة فـي حملـة الكـذب والتضليـل هـذه. وزعـم مقـال نشـرته صحيفـة جويـش هيرالـد (1967/7/13) «قبـل إتاحـة المنطقـة للمدنييـن اليهـود (سـنة 1948) فجـر المهندسـون العسـكريون الإسـرائيليون منـزل الحـارس العربـي وعـدداً مـن المبانـي الأخـرى لفتـح سـاحة واسـعة أمـام الحائـط المبكـى –تتسـع لحوالـي 100,000شـخص».[29]

أما أصحاب القرار الرئيسيون فحرصوا على تجنب أي مسؤولية فردية قد تترتب عليهم بحسب المادة 53 من اتفاقية جنيف، ولذا تعمد المتواطئون إخفاء معظم الأدلة التي تثبت تورطهم في هذا المخطط. وبحسب شومويل باهات، كان الجنرال أوزي ناركيس، قائد وحدات قوات الدفاع الإسرائيلية، المسؤول الأعلى رتبة من بين أولئك الذين أعطوا الأوامر بالهدم.[30] وصرح ميرون بنفينستي، نائب كوليك (ذا الأصول اليهودية المغربية) بجفاء «كانت الاعتبارات العملية عاملاً أساسياً في هدم مباني الحارة العربية».[31]

وفي رد غاضب على هذا التعبير الجريء عن عقيدة إثنية – قومية متخفية برداء البراغماتية، أرسل روحي الخطيب، رئيس بلدية القدس الشرقية آنذاك، مذكرة للدكتور إرنستو ثالمان، مبعوث الأمم المتحدة في القدس في 1967/8/26 وصف فيها بحزن واضح المأساة الإنسانية التي لحقت بالمدينة:

> تم تلغيم 135 منزلاً في حارة المغاربة الملاصقة لحائط المبكى والمجاورة لمسجد عمر والمسجد الأقصى، وكليهما من المقدسات الإسلامية، وهدمها باستخدام الجرافات، مما أدى إلى اقتلاع 650 مسلماً، جميعهم من الفقراء الأتقياء المجاورين للمقدسات الإسلامية من منازلهم وطردهم منها، ولم يُسمح لهم بأكثر من ثلاث ساعات لإخلاء منازلهم خلال فرض حظر التجوال. ولك أن تتخيل حالة الذعر التي أصابت هذه العائلات، التي كان عليها أن تجمع ما أمكن من متاعها وتتدبر أمر أطفالها وشيابها في ذات الوقت. ومن ضمن المباني التي هدمت عدد من المنازل ومسجدان صغيران مملوكان للوقف الإسلامي، أما المباني الأخرى فهي ملكيات خاصة ليس لليهود حقّ فيها.[32]



الشكل 5. صورة زيبلين مقصوصة، 1931. تمت إضافة الخطوط الصفراء من قبل المؤلف. صورة: أرشيف شركة زيبلين لصناعة المناطيد الهوائية، فريدريش هافن، 008/193.

وعبر رينية مايو، المدير العام السادس لليونسكو بعد بضع سنوات عن أسفه لهذه الحادثة قائلاً: «تسببت الأعمال التي جرت في المدينة القديمة [. . .] بما يشبه الجرح النازف،[33] والذي تمت تغطيته بساحة مستوية من 20,000 بلاطة حجرية رُصفت على أنقاض حارة المغاربة، ولكن الندوب النفسية التي نتجت عن هذا التهجير القسري لم تُشف بعد».

ندوب الدمار

والتمس أهل الحارة المشتتين بعد تدميرها المأوى لدى أقاربهم وأصدقائهم في المدينة القديمة وجبل الزيتون وسلوان ومناطق أخرى. بعدها، عاد بعضهم إلى المغرب، بينما انتقل آخرون إلى الأردن أو الضفة الغربية، واستقر جزء آخر منهم في مخيمات اللاجئين في القدس وشعفاط وجنوب قلنديا (الرام). وبذا تشتتت الجالية المغربية وبعثرتها الرياح.[34]

تتنافى مزاعم كوليك الكاذبة بأن «السكان المغاربة لم تربطهم مشاعر خاصة بالمكان» بوضوح مع ذاكرتهم والواقع الذي عاشوه.[35] حيث يبدو الألم الذي نشأ عن عملية التهجير واضحاً في الشهادات المصورة الموجودة في أرشيف حارة المغاربة الرقمي. حيث عبرت نوال قاسم الدراجي، زوجة المختار المغربي محمود أحمد المصلوحي، التي كانت حاملاً بطفلها الأول آنذاك عن حنينها «للحياة القديمة وصحبة الجيران، وخصوصاً الاحتفالات والمناسبات الخاصة، وحماية المحتاجين» - كأخت المختار التي كانت تعاني من الصرع، حيث تقول «كنا مجتمعاً متكاتفاً – كما العائلة الكبيرة».[36] أما عائشة أحمد المصلوحي فتتذكر كيف كانت النساء المسنّات يقمن بإعداد الكسكسي المغربي التقليدي، «والعلاقات القوية التي لم تعد موجودة والتي نفتقدها كثيراً».

وكثيراً ما يزور محمد عبد الجليل عبد المولودي المغربي (1933) شقة العائلة الموجودة في الطابق العلوي لزاوية عمر المجرد المسعودي (المحكمة المغربية) في شارع ها-كوتيل، التي كانت بالأصل تعود لجده. وتضم الحجرة الدافئة المغلقة متحفاً صغيراً للذاكرة لحارة المغاربة: حيث علق على جدرانها وثائق تعود للعائلات، وصوراً قديمة للحارة وسكانها، وكتباً تاريخية عن العرب في القدس. يعتبر محمد نفسه بفخر «أفضل مؤرخ لحارة المغاربة» لأنه يتذكر العديد من الجيران بشكل جيد.[37] ويؤكد وهو يتلو أسماءهم الواحد تلو الآخر أنهم جميعاً يستحقون من يتذكرهم بسبب المصير المجحف الذي ألحقته بهم دولة الاحتلال.[38]

ألحق تدمير حارة المغاربة ضرراً كبيراً بأساسات إنشاءات وصفتها السيدة كاثلين كينيون بأنها «أجمل فن معماري إسلامي من العصور الوسطى موجود خارج القاهرة».[39] وفي سنة 1968، كتب حسن طهبوب، مدير الوقف الإسلامي، رسالة رسمية لكوليك رئيس البلدية يحتج فيها على انتهاك البلدية لسلطة الوقف: حيث منع الخبراء من الدخول لفحص حالة المدافن والأقواس الموجودة تحت مدرسة التنكزية لإعداد تقرير فني حول الأضرار التي لحقت بالمكان. إضافة لذلك، استمرت أعمال الحفر والهدم من دون أي إنذار «بالرغم من حقيقة أن دائرة الأوقاف هي المالك الفعلي لهذه المباني والعقارات».[40]

وبعد سنة واحدة فقط، وفي 1969، دمرت السلطات الإسرائيلية مجمعاً معمارياً فريداً من نوعه كان ملاصقاً لعتبة المغاربة التاريخية، وكان يتألف من 14 مبنى ذا أهمية تاريخية وثقافية عظيمة.[41] كان المجمع يعرف بمجمع أبو السعود (نسبة للعائلة التي سكنت هناك لقرون تخدم المسجد الأقصى)، والذي كان يضم جامع المغاربة المملوكي، إضافة إلى زاوية الصوفية الفخرية الملاصقة للمسجد الأقصى، والتي أوقفها القاضي فخر الدين عبدالله قرابة سنة 1332، والذي كان قبطياً متدنياً اعتنق الإسلام فيما بعد.[42] كما سكن ياسر عرفات هذا المجمع لبعض الوقت في طفولته (1933 – 36) إثر وفاة أمه المبكرة.[43]

ومن المؤكد أن أولئك الذين يعرفون بهاء حارة المغاربة وضجيجها، والطريقة غير القانونية التي مسحت بها عن وجه الأرض، يشعرون بنفور كبير لدى دخولهم إلى ساحة الحائط الغربي عبر إحدى نقاط التفتيش الإسرائيلية، حيث تحث اللافتات الزوار على احترام المكان «الذي يرقد فيه الوجود الإلهي» وتذكرهم الملصقات الكبيرة المحيطة بالساحة والتي تحمل رموزاً دينية وآيات من التوراة – بصلة اليهود الأبدية بهذا المكان.

ساهم بنفينستي، نائب كوليك رئيس بلدية القدس، الذي شارك في تدمير الحارة التي يمتد عمرها لثمانية قرون، والتي تم إنشاؤها كوقف ثابت، في عمليات التضليل هذه، عندما قال لاحقاً إن هذه الصلة الأبدية بررت هذا الانتهاك السافر، فعندما لمح مخرج إسرائيلي شاب لمسؤولية كوليك الأخلاقية في مقابلة أجراها معه في الساحة سنة 2013، رد قائلاً: «أتريد أن تقول إن هناك خطيئة أصلية؟ نعم هناك، تقبل ذلك».[44]



الشكل 6. شعار مخبز الصفوة المملوك لمحمد بن محمود الصواف الذي كان يبيع الكعك والقرشلة في باب حارة الشرف، حوالي 1960. الصورة: ماريفيلما سميث أونيل.

ولا يعرف الكثير من المقدسيين – الفلسطينيين منهم والإسرائيليين – أن سياسياً إسرائيلياً مخضرماً من أصل مغربي، وصف طرد المغاربة من حارتهم القديمة بـ«الخطيئة الأصلية.» ولا يعرف الفلسطينيون الذين ولدوا بعد سنة 1967 الكثير عن الكارثة التي وقعت هناك، على الرغم من أن الشتات المغربي لا يزال يعيش وسطهم، وعلى الرغم من أن عتبة المغاربة هي موقع متنازع عليه، لا يدرك الكثيرون الصلة بين اسمها والحارة التي يعود عمرها لثمانية قرون – وهي خسارة كبيرة للذاكرة الجمعية للفلسطينيين وهويتهم المشتركة.

تم بناء ممر خشبي فوق العتبة الترابية المؤدية للحرم الشريف بعد انهيارها في شتاء 2004 القاسي، فهي مدخل غير المسلمين الوحيد للحرم، وعليها حراسة أمنية مشددة. كانت عتبة المغاربة واحدة من خمسة مواقع متنازع عليها في ‹معرض الوضع الراهن: هيكليات التفاوض›، الذي نظم في الجناح الإسرائيلي في بينالي فينيسيا 2018. صور المعرض هذه المواقع من عدسة اتفاقيات الوضع الراهن التي يجب على إسرائيل الالتزام بها، ولكنه ركز بشكل خاص على الاستخدام المهم للهندسة المعمارية كنظام للإدارة التنظيمية اليومية وكوسيلة للهيمنة. وتضمن المعرض عدة نماذج لحارة المغاربة المدمرة، والذي اعتبره أحد النقاد «أوضح تعبير ملموس للأكاديميين والمعماريين الإسرائيليين عن هدم الحارة الذي كتب عنه الكثيرون».[45]

وزاد بناء الحكومة الإسرائيلية لمنحدر مؤقت بجانب عتبة المغاربة في بداية آب 2014 من التوترات السياسية والدينية في القدس والمنطقة باعتباره محاولة انتهاك لترتيبات الوضع الراهن المتعلقة بالمسجد الأقصى. وعلى الرغم من أن السلطات أزالت هذا المنحدر نزولاً عند رغبة المجتمع الدولي، إلا أن هذا الممر يبقى أحد أكثر المواقع المشحونة سياسياً والمتنازع عليها في المدينة القديمة والمنطقة بسبب محاولات قوات الاحتلال الإسرائيلية المتكررة لتغيير ترتيبات الوضع الراهن، إضافة لهجمات المستوطنين الاستفزازية. وأفاد القيّمون على معرض الوضع الراهن: «الجسر الخشبي «بوقتيته الدائمة» يوفر حلاً سياسياً مؤجلاً، ويبرز المعالم كعوامل نشطة في الصراع المناطقي».

ففي وجه ما يعتبر حالة ركود سياسي دائم، يتيح الأرشيف الافتراضي لحارة المغاربة لسكان الحارة السابقين، الذين قدموا شهاداتهم الشفوية، وجميع الذين هجروا من الحارة، الاضطلاع بدور نشط في الدفاع عن عتبة المغاربة. وتؤكد الوثائق التاريخية حقهم في المشاركة في إيجاد حل سياسي سريع في وجه مخطط الهيمنة على الحارة التي كانوا يعيشون فيها.



الشـكل 7. نمـوذج حـارة المغاربـة، فـي 'معـرض الوضـع الراهـن: هيكليـات التفـاوض'، الجنـاح الإسـرائيلي، بينالـي فينيسـيا، 2018. الصـورة: مـاري بيليتييـر.

تاريخ مجسم إيلليه، 1873 - 78

مـن حسـن حظنـا أن مجسـم إيلليـه يتضمـن صـورة مصغـرة لحـارة المغاربـة، ويعـد المجسـم تحفـة مميـزة ومصـدر معلومـات أساسـياً ذا قيمـة توثيقيـة عاليـة.[46] فكنسـخة تناظريـة مـن غوغـل إرث، يوفـر النمـوذج نظـرة ثلاثيـة الأبعـاد - وإن كانـت منبثقـة - لمـا كان وقتهـا المقـر الإقليمـي لـلإدارة العثمانيـة، والـذي كان يسـمى بمتصرفيـة القـدس، والتـي كان يشـار لهـا بشـكل عـام بفلسـطين، وتحولـت إلـى لـواء مسـتقل فـي 1872.[47] نُسـب المجسـم (قيـاس 1:500 لثمانيـة عشـر متـراً مربعـاً) لصاحبـه، سـتيفان إيلليـه، الـذي وصـل إلـى القـدس سـنة 1864. عمـل فـي البدايـة كمجلـد كتـب فـي ديـر المخلـص للفرنسيسـكان قبـل أن يفتـح محترفـاً خاصـا بـه. وكان شـغوفاً جـدا بالمدينـة، الأمـر الـذي بـدا واضحـاً بعينـه الدقيقـة، وجهـوده فـي عكـس جميـع الاحتمـالات وحرفيتـه العاليـة. والمجسـم هـو عبـارة عـن مجسـم مصغـر يتضمـن التفاصيـل الدقيقـة للقلعـة الواقعـة علـى تـل صخـري ناتـئ تحيـط بهـا الجبـال، وتلفهـا الوديـان العميقـة.



الشكل 8. مجسم إيلليه، متحف برج داوود. الصورة ARCH Jerusalem

نصـب مجسـم إيلليـه علـى إطـار خشـبي مقسـم إلـى ثمانيـة أقسـام. عمـل إيلليـه ومسـاعداه بجدّ علـى قص آلاف قطـع الزنـك وتذويبهـا وتشـكيلها؛ وبعدهـا عملـوا علـى لحـم المجسـم ولصقـه وتلوينـه، واسـتخدموا الألـوان

لترميـزه: حيـث تـم تمييـز صخـور القـدس الجيريـة القديمـة باللـون الرمـادي، والمبانـي الحديثـة بلـون القـش الأصفـر، بينمـا لونـت المناطـق الطبيعيـة باللـون الأخضـر. أمـا الشـوارع الموجـودة خـارج الجـدران فحـددت باللـون الأبيـض، والأسـطح المهمـة باللـون الأحمـر، والقبـاب المعدنيـة باللـون الأسـود.

اسـتخدم إيلليـه مسـح القـدس الـذي قـام بـه المسـاح البريطانـي الجنـرال تشـارلز ويلسـون (1836 – 1905) خـلال ثمانيـة أشـهر مـا بيـن 1864 – 65 كالخريطـة الأساسـية الطبوغرافيـة لهـذا النمـوذج. وقـام بعكـس الطبوغرافيـة الطبيعيـة ومسـاحة السـطح والبيئـة المنشـأة مـع حاراتهـا المتشـابكة التـي تعكـس هويـة جماعيـة مشـتركة، بمـا فيهـا الأصـول المشـتركة أو الديانـة أو الإثنيـة. وعلـى الرغـم مـن أن المدينـة كانـت بالأسـاس عربيـة فـي مشـهدها الاجتماعـي، إلا أنـه كان هنـاك الكثيـر مـن التداخـل مـا بيـن الطوائـف، ولـم يتـم تعريـف الحـدود مـا بيـن هـذه الطوائـف سـوى فـي عهـد الانتـداب البريطانـي بذريعـة إيجـاد تـوازن طائفـي حديـث. يصـور النمـوذج القـدس مـن جبـل الزيتـون (والـذي يخلـو تقريبـاً مـن المنشـآت باسـتثناء كنيسـة القيامـة) فـي الشـرق وحتـى المجمـع الروسـي فـي الغـرب؛ ومـن عيـن روغـل فـي الجنـوب الشـرقي إلـى بـاب العامـود فـي الشـمال. ولـم يكـن بـاب السـاهرة وبـاب الجديـد قـد بنيـا بعـد. (سـيتم ترسـيم هـذه الإضافـات والتغيـرات التـي تلتهـا منـذ سـنة 1873 رقميـاً).

بنـى إيلليـه باهتمـام كبيـر التفاصيـل المميـزة للنسـيج الحضـري والتـراث المعمـاري فـي المدينـة القديمـة التـي ارتبطـت ببعضهـا بعضـاً بشـبكة قديمـة مـن 140 شـارعاً وممـراً وعتبـة. ويمتـد منظـوره الجـوي أبعـد مـن الجـدران العثمانيـة ليضـم الضواحـي الأوروبيـة الحديثـة. وتبيـن الأعـلام الوطنيـة مواقـع القناصـل حديثـة الإنشـاء ومنـازل السـكان الأجانـب الذيـن كانـوا يتصلـون بالعالـم مـن خـلال أعمـدة التلغـراف الجديـدة (1865) خـارج بـاب الخليـل. كمـا ضـم المجسـم حيّ ميشـكينوت شـانانيم – وهـو الحـي اليهـودي الأول الـذي أنشـأه المصرفـي والمحسـن البريطانـي، موسـى مونيفيوريـه، بأمـوال موروثـة مـن المليونيـر جـودا تـورو مـن نيـو أورلينـز.

وكان مجسـم إيليـه، مـدة سـتة أشـهر، نجـم الجنـاح العثمانـي فـي معـرض فيينـا العالمـي سـنة 1873،[48] حيـث كانـت نمـاذج المـدن المجسـمة دارجـة فـي أوروبـا فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر. وتـم تصميـم المجسـم المكـون مـن ثمانيـة أجـزاء بـذكاء لتيسـير نقلـه وعرضـه فـي الجولـة الأوروبيـة التـي اسـتمرت خمـس سـنوات. ففـي الفتـرة مـا بيـن 1873 حتـى 1878، تهافـت الـزوار مـن لنـدن وميونيـخ وكولـون، كالطيـور المهاجـرة، للاسـتمتاع بالمنظـر البانورامـي للمدينـة المقدسـة. واسـتقبل المجسـم بحفـاوة، خصوصـاً فـي المـدن السويسـرية (زيوريـخ ولـوزرن وبيـل)، حيـث كانـت المجسـمات طريقـة دارجـة لتعزيـز الشـعور الوطنـي وتوحيـد الأصـول الإثنيـة المختلفـة والأديـان واللغـات المختلفـة فـي البـلاد بعـد تطبيـق الدسـتور الفدرالـي سـنة 1848.[49] وفـي هـذا الصـدد، كتـب قـس نيوشـاتيل، فيلكـس بوفيـه، وهـو أسـتاذ معـروف فـي علـم اللاهـوت ومعلـم وقـارئ نهـم فـي 1878/2/14، «ليـس مـن المبالغـة أن نقـول إن منظـر هـذا المجسـم يحـل محـل زيـارة القـدس – خصوصـاً مـع العواطـف الدينيـة والشـاعرية (التـي يثيرهـا) ....».[50]

ووصـف الكتيـب الـذي طُبـع فـي بيـل سـنة 1878 للإعـلان عـن الجولـة السويسـرية للمجسـم بأنـه: «أول نمـوذج دقيـق للقـدس مـن زاويـة عيـن الطائـر فـي الغـرب». وتـم التأكيـد أكثـر علـى قيمتـه التوثيقيـة والفنيـة بالقـول: «يعطـي المجسـم الطبوغرافـي تمثيـلاً دقيقـاً ومفصـلاً للقـدس ومحيطهـا؛ حيـث تفتقـر الأعمـال المشـابهة لعيـن الفنـان، وبالتالـي فهـي لا تعطـي تمثيلاً حقيقيـاً مفصـلاً للقـدس كمـا هـي اليـوم».[51]

وأكـد فريـق مـن الخبـراء الذيـن تحققـوا مـن دقـة المجسـم فـي كتيـب بيـل علـى دقـة تصويـره للقـدس كمـا كانـت فـي ذلـك الوقـت. حيـث أثنـى الأب مـاري – ألفونـس راتيسـبون، الـذي تمتـع «بمنظـر المدينـة القديمـة الرائـع» مـن شـرفة مسـكنه ديـر رهبـان سـيدة صهيـون (والموجـود فـي ديـر هـوذا الرجـل فـي درب الآلام) علـى «الدقـة المذهلـة للمجسـم فـي أصغـر تفاصيلـه»، واعتبـره «عمـلاً عظيمـاً [. . .] وصـورة

مجسـمة للقـدس».[52] أمـا د. تيتـوس توبلـر، الطبيـب السويسـري الألمانـي الـذي أكسـبته منشـوراته الأكاديميـة، التـي كانـت ثمـرة أربـع فتـرات أقـام فيهـا بالأراضـي المقدسـة (1835، 1845 – 46، 1857، 1965) لقـب «أبـو الاستكشـافات الألمانيـة فـي فلسـطين»، والـذي قـدم النصـح لإيلليـه خـلال صناعتـه للمجسـم فقـال:

> أنصحكـم بالذهـاب لرؤيـة الخريطـة المجسـمة لمدينـة القـدس ومشـارفها التـي أعدهـا السـيد إيلليـه لدقتـه المتناهيـة فـي القياسـات الطبوغرافيـة والشـوارع والمبانـي [. . .] وأتأمـل أن يسـتمتع بـه الآخـرون كمـا اسـتمتعت بـه أنـا فـي كلّ مـرة فحصـت تفاصيلـه. أتأمـل مـن كل قلبـي أن يهتـم عـدد كبيـر مـن النـاس بهـذا العمـل الفنـي والتعليمـي فـي الوقـت ذاتـه».[53]

وكان توبلـر واحـداً مـن مجموعـة مـن المسـيحيين الأوروبييـن الذيـن سـافروا إلـى القـدس فـي النصـف الثانـي مـن القـرن التاسـع عشـر لتحديـد المواقـع الأثريـة باسـتخدام الإنجيـل كإطـار مرجعـي وحيـد لبحثهـم الميدانـي. وكان عالـم الآثـار الفرنسـي، شـارل – جـان – ميلشـيور دو فـوغ (1829 – 1916) الوحيـد الـذي يمتلـك خبـرة علميـة فـي مجـال الآثـار، أمـا الآخـرون فاكتسـبوا خبـرة عمليـة فـي فلسـطين بقـوة العمـل الجـاد والمهـارات العمليـة التـي أكسـبتهم معرفـة واسـعة بالطبوغرافيـة وتاريـخ العمـارة. وكان توبلـر علـى معرفـة جيـدة بغيـره مـن ذوي التعلـم الذاتـي ككونـراد شـيك (1822 – 1901)، وهـو مبشـر ألمانـي اسـتقر بشـكل دائـم فـي القـدس سـنة 1846، والـذي قـال عنـه نظمـي الجعبـة، «يمثـل كونـراد شـيك إجمالـي الاهتمـام الأوروبـي المتعاظـم فـي القـدس خـلال النصـف الثانـي مـن القـرن التاسـع عشـر، حيـث مثـل هـذا الرجـل العلـوم التاريخيـة والاجتماعيـة المختلفـة ممتزجـة بشـخصية فريـدة لا مثيـل لهـا».[54]

تجلـى نضـج مهـارة شـيك فـي صناعـة النمـاذج فـي عـدد مـن الأمثلـة المهمـة، حيـث حصـل علـى إذن خـاص مـن الأوقـاف الإسـلامية لدراسـة الحـرم الشـريف مـن الداخـل، وبنـاء علـى ذلـك صنـع نموذجـاً خشـبياً نـادراً عُـرض إلـى جانـب مجسـم إيلليـه فـي الجنـاح العثمانـي فـي معـرض فيينـا العالمـي الشـهير.[55] بـرزت خبـرات شـيك فـي صناعـة النمـاذج مـن البدايـة، ففـي 1859 طلـب منـه تحسـين الخريطـة المجسـمة الهندسـية الجبسـية التـي أعدهـا هــ. و. آلتمولـر، واشـتهر اسـمه بأنـه «حسّـن وصحـح» جـودة ودقـة هـذه الخريطـة.[56] ولحسـن الحـظ أنـه لـم يحـذف الإشـارة التـي تـدلّ علـى مقهـى بالقـرب مـن ديـر سـانت جـورج اليونانـي (الـذي كتـب بهـذه التهجئـةCoffe House) كان فـي الأغلـب ملتقـى للأجانـب فـي القـدس، والـذي يبـدو أن آلتمولـر كان كثيـر التـردد عليـه. وقـد يكـون شـيك وإيلليـه وويلسـون قـد التقـوا هنـاك لتبـادل الخبـرات خـلال إقامـة ويلسـون التـي اسـتمرت ثمانيـة أشـهر فـي القـدس لإنجـاز المسـح البريطانـي للقـدس.[57] وتصـف سـيرة ويلسـون عمليـات الحفـر الأثريـة، خصوصـاً عمليـات الاستكشـاف «الصعبـة تحـت الحـرم الشـريف» (والتـي تأتـت عـن عـدة اكتشـافات)، والأعمـال الميدانيـة التـي سـاهم فيهـا فـي الوقـت ذاتـه.[58] وقبـل وفـاة شـيك سـنة 1901 بخمسـة أشـهر، كتـب لويلسـون مطالبـاً بدفعـة عـن العمـل المنجـز، إضافـة إلـى دفعـة مقدمـة عـن الرسـومات الهندسـية للحديقـة الجثمانيـة.[59] وتـدل التصحيحـات والاكتشـافات الجديـدة التـي أرفقـت بنسـخة سـنة 1876 مـن المسـح البريطانـي علـى وجـود مسـتوى عـالٍ مـن التعـاون بيـن الأوروبييـن.[60]

ويسـتحق مشـروع مسـح ويلسـون دراسـة جـادة، خصوصـاً التسـميات العربيـة للأماكـن وأسـماء الشـوارع التـي اختارهـا كارل سـاندركزكي.[61]



الشكل 9. مجسم آلتمولر، الموجود لدى المرسلين الفرانسيسكان لخدمة الأرض المقدسة، أرشيف المرسلين الفرانسيسكان في دير المخلص في القدس. الصورة: روبرت دوسون.



الشكل 10: مسح ويلسون، 1865. الصورة: المكتبة البريطانية

مجسم إيلليه من جنيف إلى القدس

وبعد تجواله في أوروبا، وجد مجسم إيلليه أخيراً مستقراً دائماً له في جمهورية جنيف، حيث قاد غوستاف موينيير، مدير الصليب الأحمر الدولي، وأحد مناصري حركة «روح جنيف» الإنسانية، المبادرة الهادفة لشراء المجسم، حيث تم إطلاق التماسين في نيسان 1878، وبدأت الأموال تتدفق من أكثر من 100 متبرع منفرد، معظمهم كانوا من عائلات المدينة العريقة. كما تجاوب أهل جنيف، من مختلف الخلفيات الاجتماعية مع الالتماس بكرم كبير، وتم جمع 6000 فرانك خلال شهر، معظمها كانت تبرعات عامة. وتبرع المجلس الإداري لجمعية غرب النهر بمبلغ 4600 فرانك أخرى، ما أتاح شراء المجسم بمبلغ 9,500 فرانك في 1878/10/26 (والذي يساوي في اقتصاد اليوم 220,000 فرانك سويسري). أما باقي المبلغ فتم تخصيصه لتركيب المجسم ونصبه في مكتبة كالفين في متحف الإصلاح الديني، والذي هو جمعية دينية خاصة في جنيف تولت الملكية القانونية للمجسم. وفي 1879/1/16 تم نصب المجسم.

وكان بالإمكان، لأربع وأربعين سنة (1879 – 1919)، زيارة المجسم مرتين في الأسبوع، ومن ثم تمت في سنة 1920 إزالته من القاعة لإفساح المكان للوفود المشاركة في اجتماع تدشين عصبة الأمم. وبعدها مثّل إيجاد مكان مناسب لعرض المجسم تحدياً. وبعد عرضه لفترة وجيزة في متحف جنيف للفن والتاريخ سنة 1963، تم نقله إلى عدة أماكن، حتى انتهى به المطاف في مخزن مقفل في قصر ويلسون. وفي 1984/4/6، قام أستاذ لتاريخ الفن في جامعة جنيف بفتح المخزن لديفيد ج. ليتمان وزوجته وابنته، وهناك وجدوا التحفة الفنية التي كان ليتمان، وهو طالب في الجامعة العبرية، يبحث عنها.[62]

تم في 1984/9/20، توقيع اتفاقية أمام كاتب العدل في جنيف بين مسؤولين من متحف الإصلاح الديني وليتمان بصفته ممثلاً عن رئيس بلدية القدس، تيدي كوليك. ولكن أصحاب المجسم عبروا عن مسؤوليتهم المدنية بحماية ممتلكات مواطني جنيف غير القابلة للتصرف. ونص عقد الإعارة على إعارة المجسم مبدئياً مدة 10 سنوات لبلدية القدس، قابلة للتجديد تلقائياً كل خمس سنوات – إلا في حال نص العقد على غير ذلك، أو لم يتم احترام بنود العقد.[63] ومن المفترض أن يتم تجديد العقد مرة أخرى في 2024/9/20.

مبادرة مجسم إيلليه الافتراضي

سيكون الجمهور العالمي قريباً قادراً على استكشاف القدس وتفحّصها كما صورها إيلليه، ابتداء من حارة المغاربة المهدمة بفضل عملية الرقمنة التي جرت مؤخراً للمجسم كجزء من مشروع مبادرة مجسم إيلليه الريادي. وتتألف المبادرة من ثلاثة أجزاء: أولا الأرشيف الرقمي لحارة المغاربة، وهو عبارة عن موقع إلكتروني ثري بالمحتوى يتم العمل حالياً على تطويره بهدف استرجاع ماضي الحارة؛ ثانياً: العمل على رسم خريطة رقمية لكامل المجسم الافتراضي لتطوير نموذج تفاعلي مع الشرح اللازم على الإنترنت؛ ثالثاً: متحف رقمي يتيح للزوار التفاعل مع المجسم من خلال الواقع الافتراضي و/ أو المدمج.[64]

سيتم إطلاق الأرشيف الرقمي لحارة المغاربة في ربيع 2020 على الإنترنت، حيث سيتيح موقع إلكتروني نموذجاً ثلاثي الأبعاد قابلاً للتصفح للحارة كما كانت سنة 1873، فهو عبارة عن خريطة عمودية وأرشيف مليء بالمواد الإعلامية التي تتضمن سلسلة من اليوميات المصورة من شهود العيان والناجين من عملية هدم الحارة سنة 1967.

وبعد هذه المرحلة الأولى، ستركز حملة عالمية للبحث على تاريخ القدس في العهد العثماني (1517 – 1917) عن طريق جمع البيانات وتحليلها لرسم خريطة رقمية لمجسم إيلليه الافتراضي بالكامل. وسيكون المستخدمون قادرين على تصفح المدينة القديمة بحسب المكان والزمان، والتنقيب في طبقات من البيانات الجغرافية المكانية في طبوغرافية المدينة المنشأة، واستكشاف تحولها على مرّ أربعة قرون.

وستتضمن هذه المنصة الإلكترونية التفاعلية بيانات تعرض المدينة الحية التي يسكنها المقدسيون الذين يتشاركون بروح مجتمعية وهويات متعددة.

وسيتم بعد الانتهاء من المرحلة الأولى، تحويل المجسم الافتراضي إلى عمل تركيبي مكاني يتيح للزوار اختبار التاريخ المعقد والمتشابك للقدس بفضل طيف من التكنولوجيا الافتراضية وتكنولوجيا التصور. وسيتم تصميم العمل التركيبي التفاعلي، الذي سيتم افتتاحه في سويسرا، بحيث يسهل نقله ليتمكن من التجول حول العالم، والوصول إلى الجماهير في أقصى الأرض وأدناها.

وبالاقتران مع المتحف الرقمي، سيأخذ فيلم واقع افتراضي فريد من نوعه المشاهدين إلى رحلة عبر الزمن في المدينة القديمة مع صوت معلق.

وباعتباره مشروعاً طويل الأمد، سيتم تطوير مبادرة مجسم إيلليه الافتراضي على عدد من المراحل المتسلسلة زمنياً على مدى 10 سنوات تقريباً. وسيتم تحديث المنصة التفاعلية بانتظام لتعكس وتدمج المساهمات القائمة، من الباحثين، والتي تشمل عدد أَمن المجالات الأكاديمية.

ومن المتأمل أن يحفز الأرشيف الرقمي لحارة المغاربة ومجسم إيلليه الافتراضي حوارات حيوية جديدة، خصوصاً فيما يتعلق بالمواقع المتنازع عليها في القدس، ويحيي التزام المجتمع الدولي بالحفاظ على وضعها القانوني كـ «كيان مستقل». وعن طريق إتاحة هذا التراث الثقافي ذي القيمة العالمية المميزة للجمهور العالمي، خصوصاً في ظل التهديدات التي يخضع لها باستمرار، فإننا نتأمل أن تشرك هذه المبادرة المجتمع العالمي بشكل فاعل في حوار مهم حول الدور الملح الذي يلعبه التراث في تشكيل المستقبل الهش للقدس.

مارفيلما سميث أونيل هي مؤرخة ثقافية وزميلة بحث رئيسة في جامعة ويبستر، جنيف. كما أنها مؤسسة ومديرة *ARCH Jerusalem* (*www.archjerusalem.org*).

تود المؤلفة أن تشكر كلاً من جامعة ويبستر في جنيف على منحة البحث الكريمة؛ سليم تماري على حماسه المبكر لمشروع رسم الخرائط الرقمية؛ نظمي الجعبة لتزويدي بنسخة عن كتابه الذي لم ينشر بعد حول حارة المغاربة؛ عدنان عبد الرزاق على توفير التوضيحات والترجمة والتفسير للخرائط والجداول الموجودة في كتابه؛ شمويل باهات على مشاركتي بالمعلومات المؤرشفة في نقاش خاص بيننا حول رسالة الدكتوراه الخاصة به؛ مهدي عبد الهادي وعلاء الترتير على ملاحظاتهم العميقة؛ والأب جان ميشيل دي تاراغون مسؤول أرشيف الصور في المدرسة الفرنسية لدراسة الكتاب المقدس وعلم الآثار في القدس على خبرته وذوقه المميز؛ بنجامين كيدار لمساعدته في إيجاد الوثائق حول مدرسة الأفضلية؛ كاتيري أونيل، التي حسنت ملاحظاته التحريرية بشكل كبير من هذا التقرير، ومحرري حوليات القدس (أنا ممتنة لكم للأبد) وأخيراً حنا ل. جاكوبز، مرشدي المميز، وخبير الإنسانيات الرقمية في (*Wired*) مختبر تاريخ الفن الرقمي والثقافة البصرية في جامعة ديوك.

الهوامش:

1 الاتفاقية الرابعة بشأن حماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب، جنيف، 1949/8/12، المادة 53 (حظر التدمير)، متوفرة على الإنترنت (ihl-databases.icrc.org) tinyurl.com/vabdkpg (تمت زيارة الصفحة في 2019/12/11)

2 نظمي الجعبة، حارة اليهود وحارة المغاربة في القدس القديمة: التاريخ والمصير ما بين التدمير والتوحيد، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2019)؛ عدنان عبد الرازق، حارة اليهود في القدس: بين الحقيقة والتضليل (القدس: دار منشورات الرمال، 2013)، خاصة الجدول 126.

3 منظمة الأمم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة، قرار

مركـز التـراث العالمـي (COM 7A.13 40)، «المدينـة القديمــة فــي القــدس وجدرانهــا (تــم اقتــراح الموقــع مــن قبــل الأردن) (2016 ،»(C 148 rev، علــى الإنترنــت: whc.unesco.org/en/decisions/6818/ (تمــت زيــارة الصفحــة فــي 2019/12/11).

4 للاطلاع على المقال الأكاديمي الوحيد راجع ريفاف روبين، Stephan Illes and His 3D Model-Map of Jerusalem (1873),"
«سـتيفان إيلليـه وخريطتـه المجسـمة ثلاثيـة الأبعـاد للقـدس (1873)»، كارتوغرافيـك جورنـال، العـدد 44، 2007/2/1: 71 - 79.

5 جعبة، حارة اليهود.

6 محمــد بــن أحمــد (ابــن جبيــر)، رحــلات ابــن جبيــر، والتــي تسـجل رحــلات الرحالــة الأندلســي المغربــي فــي مصـر صــلاح الديــن، ومــدن بــلاد العــرب المقدســة، وبغـداد مدينـة الخلفـاء، والمملكـة اللاتينيـة فـي القـدس، والمملكـة النورمانيـة فـي صقليـة، ترجمهـا مـن العربيـة رولانــد برودهيرســت (لنــدن: ج. كايــب، 1952)، 322.

7 اختفـى الصـك الأصلـي لهـذا الوقـف، وبعـد عمليـة تحـرّ خاصــة، تــم تأكيدهــا مرتيــن ســنة 1267 بعــد الميــلاد و1595 بعـد الميـلاد. ونشـرت آخـر وثيقـة (وجـدت فـي أرشـيف المحكمـة الشـرعية فـي القـدس) مـن قبـل عبـد اللطيــف الطيبــاوي،
The Islamic Pious Foundations in Jerusalem: Origins, History, and Usurpation by Israel Origins, (London: Islamic Cultural Center, 1978), 13–15
(المؤسسـات الدينيـة الإسـلامية فـي القـدس: الأصـول، التاريخ واسـتيلاء إسـرائيل عليهـا). النـص العربـي موجـود فـي الملحقـات. نشـر ف. ي بيتـرز نسـخة مختصـرة إلـى حـدّ مـا (حذفـت منهـا العناويـن والعبـارات التشـريفية) باسـم:
F. E. Peters, Jerusalem: The Holy City in the Eyes of Chroniclers, Visitors,Pilgrims, and Prophets from the Days of Abraham to the Beginnings of Modern Times (Princeton, NJ: Princeton University Press: 1985), 357–58.
(المدينــة المقدســة فــي عيــون المؤرخيــن والــزوار والحجـاج والأنبيـاء مـن زمـن إبراهيـم وحتـى بدايـة العصـر الحديــث)

8 Şerife Eroğlu Memiş, "Between Ottomanization and Local Networks: Appointment Registers as Archival Sources for Waqf Studies. The Case of Jerusalem's Magharіba Neighborhood," in Ordinary Jerusalem, 1840–1940, ed. Angelos Dalachanis and Vincent Lemire (Leiden: Brill, 2018), 75.
سـيريفي إرغولـو ميميـس، (بيـن العثمنـة والشـبكات المحليـة: سـجلات التعييـن كمصـادر أرشـيفية لدراسـات الوقــف. حالــة حــارة المغاربــة فــي القــدس).

9 عبد الرازق، حارة اليهود.

10 See Benjamin Z. Kedar, Shlomit Weksler-Bdolah, and Tawfiq Da'adli, "The Madrasa Afdaliyya/ Maqam al-Shaykh 'Id: An Example of Ayyubid Architecture in Jerusalem,"Revue Biblique 119, no. 2 (2012): 271–87.
راجــع بنجاميــن ز. كيــدار، شــلوميت ويكســلر - بــدولاه وتوفيـق دعدلـي، (المدرسـة الأفضليـة/ مقـام الشـيخ عيـد: مثـال علـى العمـارة الأيوبيـة فـي القـدس) ظهـر وصـف كيــدار لتدميــر الحــارة بأنــه «جريمــة معماريــة» فــي:
Nir Hasson, "Rare Photograph Reveals Ancient Jerusalem Mosque Destroyed in 1967"
نيـر هاسـون، (صـورة نـادرة تكشـف عن مسـجد قديـم دمر سـنة 1967)، هآرتـس، 2012/6/15، الصفحـة الإلكترونيـة: tinyurl.com/t5x463f (haaretz.com) (تمــت زيــارة الصفحــة فــي 2019/6/18).

11 Sabri Jarrar, "Saq al-Ma'rifa: An Ayyubid Hanbalite Shrine in al-Haram al-Sharif," Muqarnas, 15 (1998): 77–78
صبـري جـرار، «سـوق المعرفـة: المصلـى الأيوبـي الحنبلـي فــي الحــرم الشــريف».

12 Abdellilah Benarafa, Mount Qaf: A Biographical Novel on the Andalusian Mystic Muhyiddin Ibn al-'Arabi, trans. Abdulwahid Lu'lu'a (Singapore: Strategic Book Publishing, 2015), 237.
عبـد الإلـه بنعرفـة، جبـل قـاف، (سـيرة الصوفـي الأندلسـي محيــي الديــن بــن عربــي). ترجمهــا عــن العربيــة عبــد الواحــد لؤلــؤة.

13 Barbara Drake Boehm and Melanie Holcomb"Pluralism in the Holy City," in Barbara Drake Boehm and Melanie Holcomb, eds., Jerusalem, 1000–1400: Every People Under Heaven (New York: Metropolitan Museum of Art, 2016), 66.
(باربـرا درايـك بويـم وميلانـي هولكومـب، «التعدديـة فـي المدينــة القديمــة»)

14 الجعبة، حارة اليهود

15 مجيـر الديـن الحنبلـي، الأنـس الجليـل فـي تاريـخ القـدس والخليــل (عمــان، 1973*، 45 – 46، 243.
Michael Burgoyne, Mamluk Jerusalem: An Architectural Study (Northampton, MA: Interlink, 1989), 69 n5.
(القدس المملوكية: دراسة معمارية)
البنـاء العثمانـي المؤلـف مـن طابقيـن أصبـح آيلا للسـقوط وسـكانه مهـددون بسـبب موقعـه فـي شـارع ها-كوتيـل. وهنـاك جامـع صغيـر علـى السـطح فيـه مقـام بومديـن

الهواري. وتعود ملكية المبنى لدائرة الأوقاف المغربية ويرفع علم المغرب. تمت ترجمة وقفية أبو مدين من العربية إلى الفرنسية ونشرها لويس ماسيجنيون،
"Documents sur certains waqfs des Lieux saints de l'Islam: principalement sur le waqf Tamimi à Hébron et sur le waqf tlemcénien Abû Madyan à Jérusalem," Revue des études islamiques 19 (1951): 73–120.

16 بحسب سليم تماري: «كان مجموع ما تملك عائلة بومدين هو الأعلى في المنطقة – 73 وحدة تساوي 70% من الأوقاف العائلية، تتبعها عائلة الخالدي (14%) وعائلة أبو سعود (6%)».
Salim Tamari, "Waqf Endowments in the Old City of Jerusalem: Changing Status and Archival Sources," in Ordinary Jerusalem, ed.
سليم تماري، (الأوقاف في المدينة القديمة في القدس: الوضع المتغير والمصادر الأرشيفية). يقدم عبد الرزاق جدولاً يعدد ممتلكات المغاربة التي تم تدميرها: و5 أوقاف إسلامية، و104 أوقاف أسرية، 16 ملكية خاصة، 2 أملاك من أملاك الغائبين، ليصل المجموع إلى 127.' عبد الرازق، حارة اليهود، 126.

17 تشير إيرينيه سالينسون وفنسنت ليميريه الذي لعبته الحكومة الاستعمارية الفرنسية في إعالة المغاربة والتونسيين والجزائريين في الحارة بعد سنة 1948، عندما أصبحت قرية «عين كارم» وراء الخط الأخضر.
Irène Salenson and Vincent Lemire, "La destruction du quartier des Maghrébins: entre histoire, urbanisme et archéologie (1967–2007), Les Cahiers de l'Orient 130, no. 2 (Spring 2018): 129–46.
(تدمير حي المغاربة: ما بين التاريخ والحضرية والآثار).
راجع أيضاً:
Vincent Lemire, "1962. Le crépuscule de l'Algérie française à Jérusalem," in Histoire mondiale de la France, ed. Patrick Boucheron (Paris: Seuil, 2017).
(غروب الجزائر الفرنسية في القدس).

18 جعبة، حارة اليهود.

19 Simon Pierre, "Harat-El-Maghariba: Le Marocains de Jerusalem," Zamane 86 (May 2013): 88.
(حارة المغاربة: مغاربة القدس).

20 François-René Chateaubriand, Travels in Greece, Palestine, Egypt, and Barbary during the Years 1806 and 1807.
(الأسفار في اليونان وفلسطين ومصر وبلاد البربر ما بين 1806 و1807). ترجمة فريدريك شوربيرل.
Frederic Shorberl (New York: Van Winkle and Wiley, 1814), 332
الصفحة الإلكترونية:
(archive.org) tinyurl.com/t7p2tbn
(تمت زيارة الصفحة في 2020/2/20).

21 حنبلي، الأنس الجليل: 11، 253؛ وجعبة حارة اليهود.

22 Mary Ellen Lundsten, "Wall Politics: Zionist and Palestinian Strategies in Jerusalem," Journal of Palestine Studies 8, no. 1 (October 1978): 3–27.
«سياسات الجدار: الإستراتيجيات الصهيونية والفرنسية في القدس».

23 See appendix to Tom Abowd, "The Moroccan Quarter: A History of the Present," Jerusalem Quarterly File 7 (Winter 2000): 15.
(حارة المغاربة: تاريخ الحاضر)

24 وضع دانييل سايدمان التفاصيل على نسخة من الرسم أول مرة سنة 2007، كما أشار سيمون ريكا في:
"Heritage, Nationalism, and the Shifting Symbolism of the Wailing Wall,"Archives de sciences sociales des religions 151 (2010): 174 n11.
«التراث، القومية والرمزية المتغيرة لحائط المبكى».
مع جزيل الشكر لشومل باهات على ترجمته من العبرية: «من الأفضل ترك الجدران المحيطة إن أمكن، خاصة الجدار الملاصق لحائط المبكى. وهي خطة مؤقتة فقط لحين وضع خطة نهائية». ووقع عليها كل من: آرئيل شارون، ميخائيل آفي – يوناه، يوناثان مينتزكير ودان تاناي. وكان المسؤول الأعلى رتبة هو ياكوف ياناي مدير سلطة الحدائق الوطنية.

25 تم تصوير المقابلة معه في منزله في المدينة القديمة في 2019/7/14، الصفحة الإلكترونية:
Oral Histories of the Mughrabi Quarter in Jerusalem," vimeo.com/395176943
(تمت زيارة الصفحة في 2020/3/9).

26 كتب كوليك رسالة قصيرة لبروشي على ورق غير مروس (1967/7/31)، أرشيف مدينة القدس، صندوق 2059، الملف 10، رقم 45): «كل الشكر لمساهمتكم في توسيع حائط المبكى والكفاءة والسرعة التي عملتم فيها كمتطوعين من دون أجر. ومكافأتنا جميعاً هي استعادة مجد القدس».

27 تم تكريمهم لاحقاً من قبل الكنيست (1987) والاحتفال بالمناسبة الخمسين لتأسيس الرابطة في معرض خاص في مؤسسة ياد بن تسفي. نير هاسون «كيف جعلت مجموعة صغيرة من الإسرائيليين الحائط الغربي يهودياً مرة أخرى؟»، هآرتس، 2017/6/3، الصفحة الإلكترونية:
at (haaretz.com) tinyurl.com/relq4ek
(تمت زيارة الصفحة في 2019/12/11)

28 Teddy Kollek and Amos Kollek, For Jerusalem:A Life (New York: Random House, 1978), 197. (من أجل القدس: حياة)

29 «20,000 فـي حـج شـافوت للحائـط الغربـي، جويـش هيرالـد، 1967/6/14، 3.

30 مقابلة مع المؤلف في 2019/2/17

31 Meron Benvenisti, City of Stone: the Hidden History of Jerusalem (Berkeley: University of California Press, 1996), 84.
(مدينة الحجر: التاريخ المخفي للقدس).
ظهر بنفينسـتي فـي فيلـم وثائقـي إسـرائيلي قصيـر، حـارة المغاربـة (2013)، وتواجـه فيـه مـع محمـد عبـد الجليـل عبـد المولـودي، الـذي عـرف مسـكنه الأصلـي علـى أنـه البـراق. الصفحـة الإلكترونيـة: vimeo.com/77331340 قـال بنفينسـتي: «لقـد شـاركت فـي عمليـة الاقتـلاع، لقـد كنـت مسـؤولاً عنهـا».

32 مذكـرة حـول الإجـراءات التـي اتخذتهـا إسـرائيل فيمـا يتعلـق بمدينـة القـدس، أرسـلها روحـي الخطيـب، رئيـس بلديـة القـدس العربيـة، لثالمـان، سـفير الأمـم المتحـدة، فـي 1967/8/26 (اقتباسـات)» فـي وثائـق حـول القـدس (القـدس: جمعيـة الأكاديمييـن الفلسـطينيين لدراسـة الشـؤون الدوليـة، 2007)، المجلـد 2.5. شـارك روحـي الخطيـب فـي مناظـرة فـي الأمـم المتحـدة فـي نيويـورك فـي 1968/5/8 قـال فيهـا: «تفـرق السـكان المذهولـون فـي الشـوارع والأزقـة المجـاورة، وفـي مرحلـة لاحقـة لجـأ بعضهـم للقـرى المجـاورة. والعـدد الكلـي للمتأثريـن بهـذه الحملـة هـو 650 شـخصاً». راجـع محضـر اجتمـاع مجلـس الأمـن التابـع للأمـم المتحـدة فـي 1968/5/3. الصفحـة الإلكترونيـة: un.orgtimyurl.com/rw8slvb تمـت زيـارة الصفحـة فـي 2019/12/11

33 لـو مونـد، 1974/11/21، ترجمـة هنـري كاتـان فـي القـدس (لنـدن: كتـب السـاقي، 200)، 76.

34 تمـت مناقشـة مسـألة التعويـض فـي عـدد مـن وثائـق الأمـم المتحـدة والمقـالات التـي تناولـت حـارة المغاربـة، وكان ذلـك جـزءاً مـن العلاقـات العامـة الإسـرائيلية، ولكـن لـم يتـم صـرف أي تعويـض حقيقـي للنـاس الذيـن قلبـت حياتهـم رأسـاً علـى عقـب». وتعـدد نـورا التجانـي «أشـهر العائـلات الفلسـطينية ذات الأصـول المغربيـة مثـل: العلمـي، الطيـب، المصلوحـي، التجانـي، الفكيكـي، المهـدي، الفيلالـي، بـو حمالـة، التـازي، الخيـري، المؤقـت، القطـب والمظفـر» فـي مقـال عـن «الطائفـة المغربيـة فـي فلسـطين» فـي نشـرة هـذا الأسـبوع فـي فلسـطين.
“The Moroccan Community in Palestine,” This Week In Palestine online at (palestine-family.net) tinyurl.com/rbk59mw
تمـت زيـارة الصفحـة فـي 2020/3/2. وصـف والـد المؤلفـة صدمـة الهـدم والتهجيـر التـي عانـى منهـا والـده وعائـلات أخـرى بحسـب رفيـق غانغـات، «حـارة المغاربـة فـي القـدس،» أخبـار الخليـج، 2016/11/23، الصفحـة الإلكترونيـة:
2016, online at (gulfnews.com) tinyurl.com/r26c5fr
تمت زيارة الصفحة في 2020/2/21.

35 يصف كوليك دوره الحاسم بزهو في سيرته الذاتية Kollek and Kollek, For Jerusalem, 197.

36 مقابلة أجرتها المؤلفة في 2019/1/22.

37 مقابلة أجرتها المؤلفة في 2019/2/12.

38 جعبـة، حـارة اليهـود، يعـدد (الملحـق 6) أسـماء أربـاب الأسـر وممتلكاتهـم. وينـوي مشـروع رسـم الخريطـة الرقميـة التواصـل مـع أكبـر عـدد منهـم.

39 Tibawi, Islamic Pious Foundations, 40 n48.
طيباوي، المؤسسات الدينية الإسلامية.

40 أرشـيف مدينـة القـدس، صنـدوق 2059، الملـف 10، رقـم 124. تحمـل الرسـالة المكتوبـة بخـط اليـد والمطبوعـة تاريـخ 1968/4/9.

41 أشـارت ريـكا أن الأسـباب الظاهريـة كانـت توسـيع منطقـة الحفـر وزيـادة قـدرة القـوات العسـكرية الإسـرائيلية علـى مراقبـة الحـرم الشـريف فـي حـال وقـوع مشـاكل، Ricca, “Heritage,” 175–76

42 Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 258–260. القـدس المملوكيـة
أنظـر أيضـاً: Zawiyat Madrasat al-Qadi Fakhr al-Din Abu ‘Abdallah: al Fahriyya
زاوية مدرسة القاضي فخر الدين أبو عبدالله: الفخرية
الصفحـة الإلكترونيـة: (web.i2ud.org)tinyurl.com/u6qh5ax
تمـت زيـارة الصفحـة فـي 2019/12/11.
تضمـن مجمـع الفخريـة 14 مبنـى، كان مـن ضمنهـا مسـجد وحجـرات للمصليـن الصوفييـن، إضافـة إلـى المهاجـع. وتحتـل دائـرة الآثـار فـي إدارة الأوقـاف ومكتـب مديـر المتحـف الإسـلامي 3 مـن الغـرف الناجيـة والمسـجد. للمزيـد حـول عمليـات الحفـر المختلـف عليهـا التـي تلـت هـدم مجمـع أبـو السـعود أنظـر:
179–180; and Irène (تـراث) Ricca, “Heritage,” Salenson and Vincent Lemire, “La destruction du quartier des Maghrébins: entre histoire, urbanisme et archéologie (1967–2007) (تدميـر حـارة المغاربـة مـا التاريـخ والحضريـة والآثـار) Les Cahiers de l’Orient 130, no. 2 (Spring 2018): 129–146.
ويسـلط سالينسـون وليمايـر الضـوء علـى حملتـي حفـر حديثتيـن كشـفتا عـن أغـراض منزليـة كانـت تسـتخدمها الطائفـة المغربيـة ومحـراب يعـود تاريخـه لعهـد الانتـداب البريطانـي. أنظـر أيضـاً:
“UNESCO and Jerusalem: Constraints,

Challenges, and Opportunities," Jerusalem Quarterly 39 (Autumn 2019): 16–28.
(«يونيسكو والقدس: المعيقات والتحديات والفرص،» حوليات القدس 39 (خريف 2019): 16 – 28.)

43 Azzam Abu Saud, "Yasser Arafat, the Early Years: A Personal Recollection of Arafat's Childhood and Formative Years," Palestine-Israel Journal 11, no. 3–4 (2004–5), onlineat (pij.org)tinyurl.com/vlao9r4
(عزام أبو سعود، «ياسر عرفات، السنوات المبكرة: الذكريات الشخصية عن طفولة عرفات والسنوات التشكيلية»).

44 راجع حي المغاربة، الصفحة الإلكترونية: vimeo.com/77331340، تمت زيارة الصفحة في 2019/12/11.

45 Naama Riba, "Deconstructing the Most Volatile Sites of the Israeli-Palestinian Conflict– at Venice Architecture Biennale," Haaretz, 29 May 2018, online at (haaretz.com) tinyurl.com/wecrcys (accessed 11 December 2019.
(نما ريبا، «تفكيك أهم المواقع المتقلبة في الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني – في بيانالي فينيسيا لفن العمارة،» هآرتس).

46 Maryvelma Smith O'Neil, "Liberate the Illés Relief," al-Jazeera, 20 August 2012, online at (aljazeera.com) tinyurl.com/ryegka6 تمت زيارة الصفحة في 2019/12/11
(ماريفيلما سميث أونيل، «حرروا مجسم إيلليه»).

47 Johann Büssow, "Ottoman Reform and Urban Government in the District of Jerusalem, 1867–1917," in Urban Governance under the Ottomans: Between Cosmopolitanism and Conflict, ed. Nora Lafi and Ulricke Freitag (London: Routledge, 2014).
(يوهان بوسو، «الإصلاح العثماني والحكومة الحضرية في قضاء القدس، 1867 – 1917»).

48 Hermann Zschokke, "Palästina auf der Weltausstellung in Wien 1873," Das Heilige Land 18 (1874): 4–8.
(فلسطين في معرض فيينا العالمي).

49 "Swiss Reliefs," Terrain Models, undated, online at www.terrainmodels.com/swiss.html (accessed 11 December 2019).
(«المجسمات السويسرية»، نماذج التضاريس) تمت زيارة الصفحة في 2019/12/11)

50 David Littman, Le Relief of Jérusalem (Geneva: l'imprimerie Avenir S.A., 1986), 4.
(ديفيد لينمان، «مجسم القدس»).

51 Etienne Illés and Stephan Illés, Courte Description du Relief de Jérusalem (Bâle:Chr. Krust, 1878), 3.
(أيتيين إيلليه وستيفان إيلليه، «وصف مختصر لمجسم القدس»).

52 Illés and Illés, Courte Description, 16. (وصف مختصر)

53 Illés and Illés, Courte Description, 16. (وصف مختصر)

54 Nazmi al-Jubeh, "Conrad Schick: Pioneering Architect, Archaeologist, and Historian of Nineteenth-Century Jerusalem," Jerusalem Quarterly 67 (Fall 2016): 7.
(نظمي الجعبة، «كونراد شيك: معماري رائد وعالم آثار ومؤرخ للقدس في القرن التاسع عشر»، حوليات القدس 67 (خريف 2016):7).

55 Haim Goren Rehav Rubin, "Conrad Schick's Models of Jerusalem and its Monuments," Palestine Exploration Quarterly, 128, 2 (1996): 103–24. (حاييم غورين ريهاف روبين، «نماذج كونراد شيك للقدس ومعالمها»)
بحسب المؤلفين شجعت القنصلية النمساوية في القدس كلا من شيك وإيلليه على تقديم نماذج صغيرة من الزنك للعثمانيين.

56 قياسات المجسم 43.2 x 36 x 6.2 سم. للاطلاع على مجسم جبسي آخر للقدس لآلتمولر أنظر: «مجسم جبسي للقدس – ألمانيا، 1859» (المزاد 60، القطعة 61)، دار كيديم للمزادات العلنية، الصفحة الإلكترونية kedemauctions.com tinyurl.com/vevdhqq تمت زيارة الصفحة في 2019/12/11).

57 John James Moscrop, Measuring Jerusalem:The Palestine Exploration Fund and British Interests in the Holy Land (London: Leicester University Press, 2000).
(جون جايمس موسروب، «قياس القدس: صندوق استكشاف فلسطين والأطماع البريطانية في الأراضي المقدسة»).

58 Charles William Wilson, The Recovery of Jerusalem: A Narrative of Exploration and Discovery in the City and the Holy Land (London: D. Appleton, 1871), 47.
(تشارلز ويليام ويلسون، «استرجاع القدس: سرد للاستكشافات والاكتشافات في المدينة والأراضي المقدسة»)

59 راجع:
David Gurevich, "The Secrets between the Old Pages," Palestine Exploration

Fund Blog, 5 February 2015, online at (academia.edu) tinyurl.com/s5apska (accessed 14 April 2020).

(ديفيـد غوريفيتـش، «الأسـرار مـا بيـن الصفحـات القديمـة») (تمـت زيـارة الصفحـة فـي 2020/4/14).

60 راجع:

Shimon Gibson, “British Archaeological Work in Jerusalem between 1865–1967: An Assessment,” in Unearthing Jerusalem: 150 Years of Archaeological Research in the Holy City, ed. Katharina Galor and Gideon Avni (Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2011), 23–57; Jubeh, “Conrad Schick.”

(شـيمون غيبسـون، «أعمـال البحـث عـن الآثـار البريطانيـة فـي القـدس مـا بيـن 1865 – 1967: تقييـم» فـي «الكشـف عـن القـدس: 150 عامـاً مـن البحـث فـي مجـال الآثـار فـي المدينـة المقدسـة»).

61 راجع:

Haim Goren, “Sacred, But Not Surveyed: Nineteenth-Century Surveys of Palestine,”Imago Mundi 54 (2002): 87–110.

(حاييـم غوريـن، «مقدسـة ولكـن غيـر مدروسـة: مسـوحات القـرن التاسـع عشـر لفلسـطين»).

فـي مقدمتـه لنسـخة 1980 مـن مسـوحات ويلسـون، شـدد دان باهـات علـى التسـميات المهمـة الـواردة فـي المسـح، والتـي وردت فيـه بفضـل الأب د. سـاندريكزكي، القـس البروتسـتانتي فـي القـدس، ومسـاعده (30 سـنة) الـذي أتقـن اللغـة العربيـة، حيـث أورد الأسـماء الصحيحـة للأماكـن باللغـة العربيـة فـي الهوامـش، والتي نسـي العديد منهـا أو تغيـر. «إضافـة لتعـداد أسـماء المبانـي والمواقـع، شـرح سـاندريكزكي فـي كثيـر مـن الأحيـان سـبب التسـمية واسـتخدامات المبنـى وأورد بعـض المعلومـات الأخـرى».

Dan Bahat, “The Ordnance Survey and Its Contribution to the Study of Jerusalem,” introduction to Charles W. Wilson, Ordnance Survey of Jerusalem,facsimile edition (Jerusalem: Ariel Publishing House, 1980).

(دان باهـات، «المسـوحات البريطانيـة ومسـاهمتها فـي دراسـةالقـدس،»مقدمـةلتشـارلزو.ويلسـون)نسـخة1980.

62 روبيـن، «سـتيفان إيلليـه.» سـيدرس مشـروع رسـم الخرائـط الرقميـة بشـكل موسـع مسـاهمات أيلليـه فـي تاريـخ رسـم الخرائـط وخصوصـاً تعاونـه مـع صانعـي المجسـمات الأوروبييـن الآخريـن فـي القـدس فـي نهايـة القـرن التاسـع عشـر، والذيـن كان الكثيـر منهـم سويسـريين. وسـتتم دراسـة الأغـراض مـن وراء إعـداد مجسـم إيلليـه وتحـري دقتـه العلميـة. كمـا يرتبـط عـرض المجسـم فـي الجنـاح العثمانـي فـي المعـرض العالمـي فـي فيينـا (1873) بدراسـة القـدس فـي أواخـر العهـد العثمانـي.

63 تتضمـن الوثيقـة رقـم 17 فـي الأرشـيف والمحفوظـة فـي مكتبـة جنيـف رسـالة بتاريـخ 1984/10/18 مـن المجلـس الإداري (جـان بييـز غويليرميـه ورئيـس البلديـة روجـر دافـون) لميشـيل بييـر ميشـيللي، مديـر متحـف الإصـلاح الدينـي»،

“Compte tenue de la valeur scientifique, historique et religieuse du Relief de Jérusalem, acquis à l’époque grâce à une source publique, le Conseil administrative souhaite très vivement que cette oeuvre puisse être rendue dans quelques années à la collectivité genevoise selon des modalités qu’il conviendra de déférer le moment venu.”

وتبيـن رسـالة إلـى دايفيـد لينمـان مـن ميشـيللي نشـرت فـي لـو ماتيـن ديمانـش (Le Matin Dimanche) فـي 1984/10/21 مخـاوف ميشـيللي بـأن نصـب المجسـم فـي المدينـة القديمـة يمكـن أن يسـتفز العـرب.

“J’ai fait tout mon possible pour lui faire comprendre qu’il s’agissait uniquement d’une affaire culturelle, qui ne concernait que la ville de Jérusalem et non de l’État d’Israël. Lorsqu’il a compris que la ‘Citadelle de David’ se trouvait dans la vielle ville, sa réaction a été immédiat ; ‘Ou’est vont dire les Arabes ?’ D’ailleurs. Il m’a demandé pourquoi l’objet n’avait pas pu être donne au prêté au Conseil oecuménique des églises de Genève. ‘Pourquoi Jérusalem ?’ Dans ses circonstances, je pouvais soit mettre fin à notre conversation.”

64 يسـتخدم الواقـع الافتراضـي فـي معظـم الأحيـان شاشـة مثبتـة علـى الـرأس لخلـق تجربـة تفاعليـة مقنعـة فـي بيئـة مفتعلـة تمامـاً. ويضيـف الواقـع المعـزز المزيـد مـن الأجسـام الرقميـة الصوريـة للبيئـة الحقيقيـة.

الاستكشاف الجغرافي باستخدام الصور الجوية، في جبهة فلسطين

هيو هامشو توماس، حائز على وسام الإمبراطورية البريطانية، زميل في الجمعية الجغرافية الملكية، ونقيب في سلاح الجو الملكي -

قُرأت في جلسة بعد الظهر في اجتماع الجمعية المنعقد في *1920/1/12*.

ملاحظة المحرر:

أُخذ هذا النص عن المقال الأصلي الذي نُشر في المجلة الجغرافية ((Geographical Journal 55، عدد 5 (أيار 1920): 349 – 70، والذي نشرته الجمعية الجغرافية الملكية (بالتنسيق مع معهد الجغرافيين البريطانيين). الصفحة الإلكترونية www.jstor.org/stable/1780446 (تمت زيارة الصفحة في 2020/3/13).

تم تقديم رئيس الجمعية السيد هـ. هامشو توماس كالآتي: "محاضرنا هذا المساء هو النقيب هيو هامشو توماس، الذي كانت علاقته بالأرض قبل الحرب أوثق منها بالسماء: وهو محاضر في علم النبات، وزميل في كلية داونينغ في كامبريدج. ولدى اندلاع الحرب انضم السيد توماس لسلاح الجو، وقام باستكشافات مهمة في فلسطين. وسيعرض علينا هذا المساء نتائج تجاربه في مجال التصوير الجوي".

∞ ∞ ∞

أنتج تطور الصور الجوية خلال الحرب نظاماً يتيح التمثيل السريع لنتائج عمليات الاستكشاف السريعة لمساحات شاسعة من البلاد بشكل جغرافي. وتكتسب هذه النتائج أهمية جغرافية إن كان بالإمكان تحويلها إلى خرائط أو رسوم بيانية، وبالتالي يجب أن نفكر في أساليب جمع معلومات فوتوغرافية ملائمة من مساحات شاسعة، والعمل اللازم لتجميع هذه المعلومات وتحويلها إلى خرائط استكشافية للمنطقة.

سنتناول في نقاشنا اليوم إعداد الخرائط بناء على صور الطائرات الجوية، ولكننا سنتناوله من زاوية مختلفة، لأننا سنركز في نقاشنا اليوم على فكرة تنفيذ مسح استكشافي عام للمنطقة يؤدي لتطوير أفضل خريطة ممكنة بمقياس 1 بوصة تقريباً لكل ميل 1:40,000. يجب أن تكون الأساليب التي نوظفها سريعة وسهلة، وبالتالي فهي ستكون بالضرورة مختلفة عن تلك المستخدمة لتحديد الموقع الدقيق لجميع المعالم الموجودة على سطح الأرض في الخريطة. فإن كنّا نريد التعامل مع المعالم المحلية كالمدن الصغيرة أو الآثار على مقياس أكثر تفصيلاً، فعلينا أن نرضى بدقة تقريبية للموقع، ولكننا على الرغم من ذلك نسعى في خرائطنا صغيرة القياس إلى الحصول على درجة من الدقة لا تقل كثيراً عن تلك التي نحصل عليها في المعتاد.

وسيكون من الأسهل أن نقسم المواد التي سنعرضها إلى فئتين: (أ) التجربة التي اكتُسبت في

جبهـة فلسـطين، حيـث كان الكاتـب يعمـل خـلال النصـف الثانـي مـن الحـرب. (ب) دراسـة الأسـاليب التـي اسـتُخدمت فـي هـذه المنطقـة، والتفكيـر فـي إمكانيـة تطبيقهـا فـي مناطـق أخـرى.

وصـف العقيـد مـاك ليـود الطـرق التـي اسـتخدمت لرسـم الخرائـط باسـتخدام الصـور الجويـة علـى الجبهـة الغربيـة (المجلـة الجغرافيـة، 53:283، حزيـران 1919)، وسـنلاحظ أن هنـاك فرقـاً كبيـراً بينهـا وبيـن الأسـاليب التـي سـنصفها هنـا. حيـث تـم تطويـر الأسـاليب التـي اسـتخدمت فـي الشـرق بشـكل مسـتقل، واعتمـدت علـى التقـاط صـور خاصـة بطـرق معينـة، بـدلاً مـن اسـتخدام أي مـادة مصـورة تتمكـن قـوات الجـو مـن الحصـول عليهـا. ولـذا قـد يكـون مـن المفيـد أن نذكـر مـن البدايـة بعـض الأسـباب التـي تقـف وراء هـذا الاختـلاف فـي الأسـاليب المسـتخدمة فـي الجبهتيـن. أولا، لـم تكـن ظـروف النشـاط الجـوي فـي فرنسـا مواتيـة للتصويـر لأغـراض إعـداد الخرائـط، فالطيـران بخـط مسـتقيم وإنتـاج سلاسـل طويلـة مـن الصـور لـم يكـن فـي الواقـع ممكنـاً. أمـا علـى الجبهـة الثانيـة، فاعتمـد النظـام الـذي اسـتخدم فـي فلسـطين علـى قـدرة الطياريـن علـى العمـل بسلاسـة، وإمكانيـة التعـاون الوثيـق مـا بيـن العامليـن فـي قـوات الجـو وشـركة المسـح. مـرة أخـرى، كانـت المسـاحة التـي صورتهـا وحـدة جويـة واحـدة فـي الشـرق أكبـر بكثيـر منهـا فـي الغـرب، وكان مـن الضـروري أن نفكـر بحـرص فـي مسـألة التوفيـر فـي الوقـت والطائـرات والمـواد، مـا شـجع علـى توظيـف أسـاليب ربمـا كانـت أقـل تشـذيباً. كذلـك، لـم تكـن دقـة المواقـع التـي تـم تحديدهـا فـي الخرائـط النهائيـة فـي الجبهـة الشـرقية بالدقـة نفسـها التـي تـم تحقيقهـا أو التـي كانـت مطلوبـة فـي الجبهـة الغربيـة، ولكـن شـكل الأرض كان فـي غايـة الأهميـة هنـاك. ولذلـك ليـس مـن المفاجـئ أن هنـاك العديـد مـن نقـاط الاختـلاف بيـن النظاميـن، إلا أنـه ليـس مـن الحكمـة أن نسـتخلص أن أحـد النظاميـن أفضـل مـن الآخـر، ولـذا لا يوجـد مـا يبـرر الفرضيـة العامـة بـأن النظـام الـذي اسـتخدم علـى الجبهـة الغربيـة هـو بالتأكيـد النظـام الأفضـل للمسـتقبل.

المسح الجوي في سيناء وفلسطين

أ. تطوير الأسلوب

دُرِسـت إمكانيـة اسـتخدام الصـور الملتقطـة مـن الطائـرات فـي إنتـاج الخرائـط فـي مصـر سـنة 1915 تحـت إدارة السـيد ي. م. دوسـون، الـذي كان وقتهـا مديـر مشـروع مسـح مصـر، واسـتُخدمت النتائـج التـي تـم التوصـل إليهـا فـي عمليـات حملـة غاليبولـي. ولقـد وضحـت هـذه الدراسـة المبـادئ التـي يتطلبهـا هـذا العمـل، والصعوبـات التـي سـتواجهه، والاحتياطـات الواجـب اتخاذهـا، وتعتبـر هـذه الدراسـة أسـاس نظـام المسـح الجـوي الـذي اسـتُخدم فـي الشـرق بعـد ذلـك.

وتـم فـي سـنة 1916 تنفيـذ بعـض أعمـال المسـح المحـدودة فـي منطقـة قنـاة السـويس، ولكـن تـم تعليـق هـذه الأعمـال خـلال تقـدم الجيـش نحـو سـيناء، حيـث افتقـرت الخرائـط المتوفـرة لسـيناء للتفاصيـل اللازمـة لتحديـد مواقـع الأماكـن المصـورة، ونـادراً مـا كان بالإمـكان تحجيـم الصـور بالاعتمـاد علـى الخريطـة. كذلـك، ألغـى تقـدم قواتنـا السـريع الحاجـة الملحـة للخرائـط مفصلـة. علـى الرغـم مـن ذلـك تـم خـلال هـذه الفتـرة إنتـاج بعـض صـور الموزاييـك الفوتوغرافيـة لعـدد مـن المناطـق المختـارة، وتـم تعلُـم دروس مهمـة مـن هـذا العمـل، حيـث وُجـد أن الصـور التـي كان يفتـرض بهـا أن تكـون عموديـة تمامـاً، كانـت مشـتتة فـي كثيـر مـن الأحيـان بسـبب ميـلان محـور عدسـة الكاميـرا لحظـة التقـاط الصـورة. ولكـن اتضـح أن تثبيـت الكاميـرا بإحـكام علـى الماكينـة وضبـط ميزانهـا بعنايـة والتـزام الطيـار بمسـار مسـتقيم يحـد مـن التشـتت بشـكل كبيـر. وحققـت تغطيـة المنطقـة بسلسـلة مـن شـرائط الصـور المتعاقبـة، بـدلاً مـن أخـذ لقطـات منفصلـة لعـدد مـن النقـاط

المتجاورة من دون ترتيب منتظم (والتي تعرف بأسلوب تحديد المواقع) نتائج أفضل، الأمر الذي أدى إلى استحداث نظام الشرائط.

وتم في نهاية 1916 تحقيق تقدم كبير، حيث تم إعداد خريطة جيدة لمدينة غزة بناء على سلسلة من الشرائط المتوازية من الصور، وخريطة أولية أعدت بناء على رسم عسكري لرفح من شرائط متقاطعة، وكان لهذه الخريطة فائدة كبيرة في أرض المعركة. وبسبب عدم وجود نقاط على الخريطة يمكن تحديدها في الصور، تم التقاط عدة سلاسل طويلة من 50 - 70 لقطة متراكبة كانت لها قيمة كبيرة في تحديد مكان الصور والسلاسل المتلاحقة.

وعندما وقف الأتراك على خط غزة – بئر السبع وبدأوا بحفر نظام للأنفاق هناك، أصبح رسم الخرائط باستخدام الصور الجوية أمراً في غاية الأهمية، حيث لم تكن الخرائط التي أعدت قبل الحرب كافية للتعامل مع حرب الخنادق، ولذا كان يجب العمل على تطوير سلسلة من الخرائط بمقياس 1:40,000 و 1:20,000، والذي كان يتم في بعض الأحيان بناء على المواد المصورة بشكل كامل. تم تصوير كامل المنطقة التي تشغلها قوات العدو ومساحة لا بأس بها وراء خطوطه، وخصوصاً على طول الشوارع وسكك الحديد. تم التقاط الصور بسلاسل متقاطعة، بعضها من الأمام، وبعضها غطى مناطق تمتد من خطوطنا وحتى مناطق العدو، ومن ثم تم تحويل هذه الصور إلى خرائط بناء على إطار بسيط من النقاط المثبتة على خطوطنا، أو تحديد موقعها بحسب التقاطعات في منطقتنا. تم أخذ عدة نقاط من الخرائط القديمة، ولكن توجب التعامل معها بحذر. وكانت النتائج بشكل عام ناجحة ولاقت صدى إيجابياً، كما تم تعلم دروس مهمة منها، وزادت ثقة جميع المعنيين في إنتاج الخرائط بهذا الأسلوب. تم رسم خرائط لحوالى 400 ميل مربع من البلاد بناء على الصور، وبما أن الطيارين الألمان كانوا يملكون ماكينات أكثر تطوراً في الجزء الأكبر من تلك الفترة، فإن الفضل في تقدمنا يرجع في معظمه لمهارة وجسارة طياري الفيلق الجوي الملكي. وتم بحلول تشرين الأول 1917 إرساء نظام للتصوير وتجميع الخرائط، غطى الأساسيات حتى نهاية الحرب.

أوردت هذا الملخص التاريخي هنا لأوضح كيف بدأ العمل في فلسطين، حيث كانت هناك حاجة محسوسة لخرائط بقياس 1:40,000؛ ولم تساعد الخرائط القديمة كثيراً في هذا المجال، واعتمد كل شيء على طريقة التصوير وطريقة استخدام الصور، ولذا كان من الضروري دراسة هذه المسألة من جميع الزوايا. ولقد تم حل مسألة العلاقات ما بين النقاط الظاهرة على الصور العمودية أو المائلة وموقعها على الخريطة، كما تمت دراسة قدرة الطيارين على التحليق على مستوى ثابت ليتمكنوا من التقاط صور عمودية قدر الإمكان، وتم حل مسألة العلاقة ما بين الصور المتسلسلة وإمكانية تسجيل الميلان. وأود أن أذكر هنا أسماء السادة ت. ل. بينيت وو. هـ. دوغلاس من مشروع مسح مصر، والملازم أول ن. شيلز والنقيب ف. س ريتشاردز الذي ساهموا في هذه الدراسات. ويجب أن يكون مفهوماً أنه خلال سنة 1918، وبينما كنّا نركز على إنتاج صور صافية غير مشتتة للأرض، كنا ندرك تماماً وجود آثار للميلان، ولكننا كنا نهدف لإلغائه بدلاً من تصحيحه.

العمل في وسط فلسطين

في بداية، كان وضعنا سنة 1918 أفضل بكثير من حيث أعداد العاملين والمعدات، فكانت لدينا مقاتلات بريستول قادرة بسهولة على التحليق على ارتفاع 10,000 إلى 20,000 قدم، وأصبحت الكاميرات أكثر تقدماً، والعدسات أكثر ملاءمة. وأصبح بالإمكان التقاط المزيد من الصور والتعامل معها، كما أصبح من الممكن تخصيص واحدة من رحلات السرية 1 من سلاح الجو الأسترالي لالتقاط

الصور اللازمة للخرائط. كان التعامل مع طبيعة البلاد الجبلية في وسط فلسطين أصعب من المناطق الأخرى، ولكن كان فيها العديد من القرى والمواقع التي ظهرت بشكل دقيق على خريطة بقياس 1 بوصة لواحد ميل في مسح كيتشنير وكوندير، والتي أعطت إطاراً من النقاط الثابتة التي يمكن تركيب المواد الفوتوغرافية عليها.

واجهتنا في منطقة شرق الأردن المشاكل القديمة نفسها؛ فالخرائط القديمة كانت غير مكتملة وغير دقيقة في العديد من الأحيان، وعدد النقاط الثابتة كان محدوداً للغاية، كما أن طبيعة البلاد كانت جبلية جداً. ولكن التصوير أتاح إنتاج خريطة استكشافية مقبولة تظهر الوديان والتلال والشوارع وسكك الحديد بدرجة متوسطة من الدقة. وبينت نتائج الاختبارات تحقيق تقدم كبير في تطوير نظام يمكن أن يعطي نتائج مفيدة في ظروف غير مواتية أبداً. وينعكس هذا التقدم بوضوح في حقيقة أن المنطقة التي غطتها الخريطة على جبهة غزة – بئر السبع كانت 400 ميل مربع، إلا أن العمل الذي تم لحين توقيع اتفاقية الهدنة غطى مساحة تصل في الواقع إلى 2000 ميل مربع، صورت الرحلة (ج) من السرية (1) من سلاح الجو الأسترالي 1500 ميل مربع منها. وتم تصوير البلاد بالكامل حتى عمق 25 ميلاً وراء الخطوط التركية، وتم كذلك تغطية الشوارع وسكك الحديد المتجهة شمالاً من تلك المنطقة.

الأساليب المستخدمة

تم تقسيم العمل الفوتوغرافي الذي قامت به سرية فلسطين في القوات الجوية الملكية إلى قسمين منفصلين: (أ) العمل الطبوغرافي على مقياس صغير تحت أفضل الظروف الممكنة لأغراض رسم الخرائط بشكل عام، (ب) العمل الاستخباراتي على أنظمة الأنفاق، ومناطق تواجد مدفعيات العدو وغيرها، والذي يمكن، في حال وجود رغبة بذلك، أن يدمج في خرائط أنتجت بناء على عمل سابق. وفي العادة ما كانت الماكينات التي تقوم بهذا العمل تحلق على ارتفاعات متدنية أو متوسطة، وتحت قصف مكثف من الآليات المضادة للطائرات في كثير من الأحيان، وأعطيت قدراً كبيراً من المرونة فيما يتعلق بالطيران المستقيم والمتداخل. بدأ التصوير الطبوغرافي قبل وقت كبير، وكان تصوير البلاد قد تم قبل بناء أنظمة الخنادق وإنشاء الدفاعات المضادة للطيران، ولذا سنتعامل من الآن فصاعداً حصراً مع هذا الجزء من العمل.

تم تعريض معظم الشرائح للضوء في كاميرا من نوع – ل مثبتة على ماكينة بحيث يكون محور العدسة عمودياً والشريحة أفقية، وقبل البدء بالعمل في المنطقة تشاور المسؤولون في شركة المسح والقوات الجوية الملكية لتحديد المخطط العام للعمل، ومن ثم تم تحديد المنطقة بشكل أولي بسلسلة من الشرائط التي تبين الأرض التي ستغطيها كل ماكينة. واعتمد ترتيب الشرائط على الخطوط الكنتورية للبلاد، ولكن تم أيضاً أخذ مواقع النقاط الثابتة، والمعالم التي يسهل تمييزها، والأعمال السابقة بعين الاعتبار. كانت معظم الشرائط متوازية، ولكن تم ترتيب بعضها ليتقاطع مع الآخر بغرض الربط ما بين السلاسل التي لم تتراكب من الجانبين، والمساعدة في تحديد المقياس (أنظر الشكل 1). ومن ثم تم إعداد المخططات أو الخرائط للطيارين، والتي تبين لهم المسار الذي عليهم اتباعه، وتوضيحها عن طريق إضافة المزيد من المناظر المائلة (المناظر البانورامية الملتقطة من محور عدسة الكاميرا المائل بدرجة °70 إلى °80 أفقية، أو مع قطعة منشورية مكافئة) أو صور أخرى. وعند إجراء التحضيرات النهائية، كان من الضروري في كثير من الأحيان الأخذ بعين الاعتبار اتجاه الريح والارتفاع المطلوب. تم تركيب الكاميرا على محور شبه ثابت بني خصيصاً لهذا الغرض،

ويمكـن تعديلـه مـن الأمـام إلـى الخلـف لتثبيـت الشـريحة بشـكل أفقـي باسـتخدام ميـزان الاسـتواء. نجحـت هـذه العمليـة فـي حـل مشـكلة تأكيـد موقـع هيـكل الطائـرة مـن أجـل تثبيـت الكاميـرا، وذلـك لأن التغيـر فـي إمكانيـة حركـة ذيـل الطائـرة فـي مقاتـلات بريسـتول، يتيـح المجـال لفـروق كبيـرة فـي سـرعة الهـواء خـلال الرحلـة، وبالتالـي مسـتوى الطائـرة مـن الأمـام إلـى اليميـن. وأصبـح للطيـار الآن الحريـة فـي تعديـل سـرعة طيرانـه حسـب مـا يرغـب، ومـا عليـه سـوى الإبقـاء علـى مسـتوى أجنحتـه وارتفاعـه ثابتـاً، حيـث واجهتنـا مشـاكل كثيـرة فـي الحصـول علـى صـور غيـر مهـزوزة نسـبياً قبـل اسـتخدام هـذا المحـور الخـاص، وعلـى الرغـم مـن أن تصنيعـه كان بدائيـاً إلا أنـه حقـق نتائـج مهمـة.

وفـي الجـو، كان علـى الطيـار أن يركـز علـى إيجـاد مسـاره والحفـاظ علـى مسـتوى ماكينتـه، بينمـا يقـوم المراقـب بتحريـك الكاميـرا. فـي البدايـة، كان يتـم تثبيـت المحـور علـى مسـتوى واحـد، ومـن ثـم كان يتـم التقـاط الصـور علـى الفتـرات المحـددة مـع الإشـارة إلـى المنظـر أو الوقـت، أو كليهمـا فـي كثيـر مـن الأحيـان. وكان يجـب بعـد 18 لقطـة تغييـر علبـة الشـرائح علـى عجـل حتـى لا يتـم كسـر سلسـلة التراكـب، واسـتمر العمـل حتـى تـم الحصـول علـى سلسـلة صـور تغطـي منطقـة تتـراوح مسـاحتها مـا بيـن 5 – 10 أميـال – وفـي بعـض الحـالات 35 ميـلاً. وبعدهـا يلتـف الطيـار ويبـدأ بتصويـر مقطـع شـريطي آخـر، وهكـذا حتـى اسـتكمال المهمـة واسـتخدام مـا بيـن 72 – 108 شـريحة. كانـت فـي كثيـر مـن الأحيـان تعمـل طائرتـان (وأحيانـاً 5 طائـرات مـع بعضهـا بعضـاً) مـع مرافقـة، لتغطيـة منطقـة كبيـرة جـداً فـي صبـاح يـوم واحـد (أنظـر الشـكل 2)، وكان معظـم العمـل يتـم مـن ارتفـاع 10,000 – 15,000 قـدم، ولكـن فـي المناطـق الجبليـة كان يتـم اسـتخدام عدسـات ذات بعـد بـؤري طويـل، ويتـم التصويـر مـن ارتفاعـات أعلـى فـي كثيـر مـن الأحيـان. وتبيـن أنـه مـن غيـر العملـي أن نسـتخدم صـوراً بمقيـاس أصغـر مـن 1:20,000، ومـع عدسـة 6 بوصـة انحصـر العمـل بارتفـاع 10,000 قـدم.

ولـدى العـودة إلـى المطـار، كان يتـم تحميـض الشـرائح بسـرعة وطباعـة صـور غيـر مطليـة (غيـر لامعـة) مـع عـدد مـن الصـور المكبـرة، وتسـليمها لشـركة المسـح الميدانـي. ومـن المفيـد أن نشـير هنـا إلـى أن الصـور المطليـة ليـس لهـا أي قيمـة فـي إعـداد الخرائـط. فالصـورة الناتجـة تكـون دائمـاً أكبـر مـن الصـورة السـلبية الأصليـة بسـبب تمـدد الـورق، ويكـون التمـدد أكبـر فـي أحـد الاتجاهيـن مـن الآخـر. وتفيـد الصـورة المكبـرة فـي كثيـر مـن الأحيـان فـي توفيـر مرجـع خـلال عمليـة التجميـع وبعـد إلصـاق الصـور وتحبيرهـا.

ننتقـل بعـد ذلـك إلـى عمـل مسـؤول المسـح الـذي يعمـل علـى تجميـع الخريطـة. فبعـد الفحـص المبدئـي وتحديـد المناطـق التـي تمـت تغطيتهـا بالفعـل، يقـوم مسـؤول بتصنيـف الصـور إلـى مجموعـات أو مقاطـع مـن الشـرائط يتألـف كل منهـا مـن 10 – 20 صـورة. وتتضمـن كل مجموعـة بالعـادة نقطتيـن ثابتتيـن علـى الأقـل، يفضـل أن يكـون كل منهـا فـي أقصـى الطرفيـن المتقابليـن، والتـي يتـم مـن خلالهـا تحديـد المقيـاس. ويجـب أن تركـب كل صـورة مـع الصـورة المجـاورة لهـا بنسـبة 30 – 40%، ويجـب أن تركـب نفـس النقـاط علـى الصـور المجـاورة بشـكل دقيـق. وفـي حـال لـم تتطابـق الصـور المتراكبـة أو ظهـر تشـتت فيهـا، كان يتـم فـي العـادة رفـض السلسـلة، والتقـاط مجموعـة جديـدة فـي يـوم آخـر.

وبعدهـا، يتـم تثبيـت الصـور علـى قطعـة كرتـون كبيرة فـي مواقعهـا النسـبية الصحيحـة، بحيـث تتطابـق النقـاط الموجـودة علـى صـورة مـع تلـك الموجـودة علـى صـورة أخـرى، ومـن ثـم كان يتـم قـص الزيـادات وإلصـاق السلسـلة علـى قطعـة الكرتـون، مـع الحـرص علـى تعديـل الموقـع علـى الصـورة، واسـتخدام النقـاط التـي تبـدو علـى الارتفـاع نفسـه، والتـي ليسـت قريبـة جـداً مـن حـواف الصـورة. وبالتالـي كانـت تسـتخدم مجموعـة الصـور هـذه كوحـدة فـي تجميـع الخريطـة.

وبعدهـا كان يتـم تحديـد جميـع النقـاط الممكنـة التـي يمكـن تمييزهـا علـى الخريطـة القديمـة والتـي يبـدو أنـه يمكـن الاعتمـاد عليهـا، أو التـي تـم تحديدهـا مـن خـلال التقاطعـات مـا بيـن الصـور، ومـن خـلال اسـتخدام مزيـج منهـا، كان يتـم تحديـد مقيـاس المجموعـة. وكان يتـم فـي العـادة الحصـول علـى عـدة قيـم

للمقياس، وإن تلاءمت مع بعضها بعضاً بشكل جيد كان يتم حساب متوسط القيمة المرجح، أما إن تغيرت ارتفاعات الأراضي بشكل كبير في السلسلة فيجب عندها التعامل معها بشكل خاص.

وبعدها، كان يتم تحبير المجموعة، حيث يتم تحديد جميع العناصر التي ستظهر على الخريطة النهائية بحبر ملون شفاف (باللون المناسب)، وبعدها كان يتم نسخ جميع التفاصيل المحبّرة بحسب مقياس الخريطة على قطعة من قماش الشف. استخدم منساخ إليوت بشكل أساسي في هذا العمل، ووجد أنه أنسب من نظام التصغير الذي كان يستخدم في بلاد ما بين النهرين. كما تم وضع علامات على سلسلة من النقاط كالشجيرات والأحجار وتقاطعات الطرق، التي كان بالإمكان رؤيتها بسهولة على سلاسل أخرى، واستخدمت لاحقا في تجميع المواد المتوفرة مع بعضها بعضاً. وتم بهذه الطريقة اختصار جميع المواد الفوتوغرافية في النهاية لسلسلة من المقاطع الشريطية المرسومة على قماش الشف بالمقياس نفسه تقريبا، بحيث تبين جميع العناصر التي ستظهر على الخريطة النهائية.

الصورة 1. نتائج محاولة لتغطية الأرض بشرائط مقطعية موازية للصور.

وعنـد تجميـع الخريطـة مـن هـذه المـواد، كان يتـم إحضـار قطعـة كبيـرة مـن قمـاش الشـف وتسـطيرها إلـى مربعـات يعبـر كل منهـا عـن 1000 يـاردة، ومـن ثـم كان يتـم إدخـال جميـع النقـاط التـي يمكـن تحديدهـا مـن المسـوحات السـابقة أو مـن العمـل الـذي تـم ضمـن خطوطنـا، ورسـم خـط فـوق حـواف القطـع المتجـاورة المنجـزة لتسـتخدم كإطـار عمـل تضـاف بقيـة التفاصيـل إليـه.

تمثّلـت الخطـوة التاليـة بتحديـد عـدد مـن النقـاط الثانويـة علـى الورقـة عـن طريـق الرجـوع إلـى النقـاط الأساسـية والتفاصيـل الفوتوغرافيـة، بحيـث يكـون هنـاك نقـاط ثابتـة كل 3000 يـاردة. وبعدهـا تـم وضـع مقطـع منسـوخ فـي مكانهـا مـن خـلال الرجـوع للنقـاط الأساسـية، وتأكيـد موقـع جسـم صغيـر معـروف علـى الصـورة. وكان يجـب أن يظهـر هـذا الجسـم فـي عـدد مـن الشـرائط المقطعيـة أو المجموعـات للحصـول مـن كل منهـا علـى قيمـة مسـتقلة لموقعـه. وتـم بعـد ذلـك حسـاب متوسـط مرجـح للموقـع وتكـرار العمليـة مـع أجسـام أخـرى، حتـى أصبحـت الورقـة مليئـة بنقـاط تـم تأكيـد متوسـط موقعهـا. بعدهـا تـم وضـع الشـرائط المقطعيـة للتفاصيـل تحـت الورقـة وضبـط موقعهـا بالرجـوع للنقـاط الثابتـة الرئيسـية والثانويـة، وشـف تفاصيلهـا علـى الورقـة. وبهـذه الطريقـة، تـم تعديـل كل مجموعـة بعـض الشـيء وتوزيـع الأخطـاء فـي المقيـاس أو السـمت، التـي قـد تكـون نشـأت فـي الصـورة، بحيـث لا تتشـتت صـورة واحـدة أو مجموعـة منهـا بشـكل كبيـر كمـا يحصـل أحيانـا بسـبب تراكـم الأخطـاء عنـد بنـاء الموزاييـك. وعندمـا كانـت تظهـر فجـوة كبيـرة بيـن قيمتـي نقطتيـن محددتيـن، كمـا يحصـل فـي صـور التـلال المنحـدرة التـي تلتقـط علـى طـول الخطـوط الكنتوريـة، كان يتـم اسـتخدام أسـلوب خـاص لإضافـة التفاصيـل فـي كل مربـع علـى حـدة بشـكل تتابعـي، واعتمـاد موقعهـا الصحيـح التقريبـي.

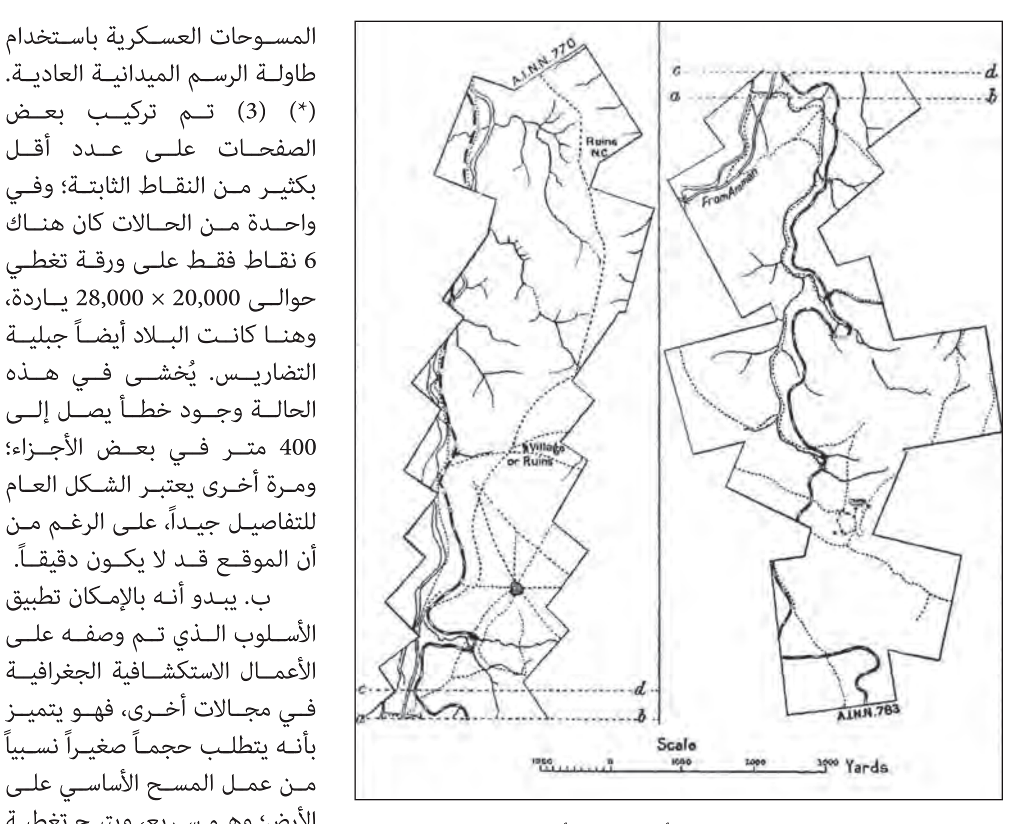
تمـت إضافـة الخطـوط الكنتوريـة التجسـيمية لجميـع الخرائـط لاحقـاً علـى أسـاس الدراسـة التجسـيمية للصـور المجـاورة؛ فعندمـا تتراكـب الصـور المتجـاورة بنسـبة 50%، يمكـن عندهـا رؤيـة المنطقـة بكاملهـا بشـكل مجسـم، وإن كانـت (أ) و(ب) صورتـان متقاطعتـان، يبـدو الجـزء الظاهـر علـى الجهـة اليمنـى مـن (أ) علـى الجهـة اليسـرى مـن (ب)، وتكـون القاعـدة المجسـمة هـي المسـافة مـا بيـن مراكـز (أ) و(ب). وعندمـا يتـم ترتيـب الصـور بجانـب بعضهـا البعـض، والنظـر إليهـا مـن خـلال منظـار مجسـم، بحيـث تنظـر العيـن اليسـرى إلـى النقطـة (أ) والعيـن اليمنـى إلـى النقطـة (ب)، يمكـن عندهـا رؤيـة التشـكيل فـي المنطقـة المشـتركة بوضـوح بعـد التعديـل.

ويعتمـد حجـم التجسـيم الظاهـر علـى ارتفـاع الكاميـرا عـن الأرض، وطـول قاعـدة المنظـار المجسـم. يمكـن باسـتخدام هـذا الأسـلوب تحديـد أشـكال التـلال والوديـان، والإشـارة إليهـا باسـتخدام الخطـوط الكنتوريـة المحبـرة علـى الصـور، ويمكـن اختصـار هـذه الخطـوط فـي الصـورة وإظهارهـا فـي الخريطـة النهائيـة. وفّـر هـذا الأسـلوب فكـرة عـن الارتفاعـات النسـبية، ويمكـن الحصـول علـى المزيـد مـن المعلومـات القيمـة مـن الصـور المائلـة التـي التقطـت كذلـك فـي أزواج مجسـمة، حيـث تتيـح هـذه الصـور للعامـل تحديـد أعلـى وأخفـض النقـاط علـى حـرف الـوادي. ولـم تكـن هنـاك محـاولات لتحديـد البـروز أو تقديـر الخطـوط الكنتوريـة الحقيقيـة، علـى الرغـم مـن دراسـة الأسـاليب اللازمـة للقيـام بذلـك.

ويمكننـا فـي نهايـة هـذا الوصـف المختصـر للأسـاليب التـي اسـتخدمت فـي فلسـطين، إضافـة بعـض الملاحظـات حـول درجـة الدقـة التـي تـم الحصـول عليهـا. يفيـد النقيـب ف. س. ريتشـاردز، مـن شـركة المسـح الميدانيـة السـابعة ومسـح فلسـطين والـذي تنـاول هـذا السـؤال بمـا يلـي: (1) تـم الحصـول علـى دقـة عاليـة فـي الأراضـي المنبسـطة وحيـث كانـت النقـاط التثليثيـة قريبـة مـن بعضهـا. حيـث كانـت كل نقطـة ضمـن 40 متـرا مـن موقعهـا الصحيـح، وكانـت تفاصيـل الوديـان والشـوارع وغيرهـا أكثـر دقـة مـن تلـك التـي يتـم الحصـول عليهـا مـن أعمـال المسـوحات الأرضيـة باسـتخدام طاولـة الرسـم الميدانيـة فـي الظـروف عسـكرية، ولكـن لا يمكـن لهـذا الأسـلوب إظهـار المنحـدرات. (2) عندمـا تكـون نقـاط التثليـث قريبـة نوعـاً مـا (بمعـدل 4 فـي مربـع يمثـل 6000 يـاردة) والأرض جبليـة، كمـا هـو الحـال فـي وسـط فلسـطين، كان الحـدّ الأعلـى للخطـأ فـي موقـع أي نقطـة حوالـي 200 متـر. ومـرة أخـرى، تكـون أشـكال التـلال والوديـان أفضـل بكثيـر منهـا فـي

المسوحات العسكرية باستخدام طاولة الرسم الميدانية العادية. (*) (3) تم تركيب بعض الصفحات على عدد أقل بكثير من النقاط الثابتة؛ وفي واحدة من الحالات كان هناك 6 نقاط فقط على ورقة تغطي حوالى 20,000 × 28,000 ياردة، وهنا كانت البلاد أيضاً جبلية التضاريس. يُخشى في هذه الحالة وجود خطأ يصل إلى 400 متر في بعض الأجزاء؛ ومرة أخرى يعتبر الشكل العام للتفاصيل جيداً، على الرغم من أن الموقع قد لا يكون دقيقاً.

ب. يبدو أنه بالإمكان تطبيق الأسلوب الذي تم وصفه على الأعمال الاستكشافية الجغرافية في مجالات أخرى، فهو يتميز بأنه يتطلب حجماً صغيراً نسبياً من عمل المسح الأساسي على الأرض؛ وهو سريع، ويتيح تغطية منطقة كبيرة عن بعد معقول من مكان الهبوط، ولا يتطلب عدداً كبيراً من العاملين على الأرض من أجل تجميع الخرائط. فبعدد معقول من النقاط الثابتة وفي البلاد المناسبة، يعطي هذا الأسلوب نتائج بالدقة نفسها التي يتم الحصول عليها عادة من خرائط بمقياس 1 بوصة لكل ميل، كما يتيح إظهار شكل التفاصيل بالضبط دون مشاكل.



الشكل 2. مثال على خريطة استكشافية أعدت على أساس مقطع شريطي من الصور المتراكبة.

ولكن، يمكننا على الرغم من ذلك أن ندرس المزيد من الأفكار العامة التي تدعم هذا النظام، ونشير لأنواع البلاد التي يلائمها هذا الأسلوب، ونعرج من ثم بشكل مختصر على إمكانيات تحسين الأسلوب في المستقبل.

العوامل التي تحدّ من استخدام الصور العمودية

عندما تلتقط صورة لأرض مسطحة على شريحة مضبوطة على الاستواء بكاميرا حديثة لها محور عدسة عمودي، تبين الشريحة الناتجة الأرض بشكل دقيق في الخريطة، ويمكن إهمال التشتت الناشئ عن زيغ العدسة باستخدام عدسة نقطية (مصححة للانحراف) مثل تلك التي تستخدم عادة في كاميرات الطائرات. كما يمكن إهمال الخطأ الناشئ عن حركة الطائرات خلال حركة غالق المسطح البؤري على ارتفاعات متوسطة في حالة الصور بمقياس 1:20,000، ولكن يمكننا التفكير في استبداله بغالق مركزي.

ولكن في الواقع أن الأرض قد لا تكون مسطحة، والشريحة قد لا تكون أفقية تماماً، ولكن في نظامنا نعتبر الشريحة أفقية تقريباً بحيث يكون الفرق في التمثيل الحقيقي طفيفاً، ولا تنشأ عنه أخطاء كبيرة في خرائط بمقياس 1:40,000. كما نفترض أيضاً أنه من الممكن للطيار أن يلتقط سلسلة من الصور العمودية مع الحفاظ دائماً على ارتفاع ثابت تقريباً. ويجب أن ندرس أساسيات هذه الفرضيات بشكل أفضل بسبب الآراء المتباينة حول الموضوع.

حيث يفيد العاملون على جبهات أخرى أن التجربة تبين أن الصور المأخوذة من الطائرات تظهر بعض التشتت لأن الشريحة لم تكن أفقية (*(*)) وقت التقاط الصورة، وفي هذه الحالة، فإن ذلك يعود لواحد أو أكثر من الأسباب التالية: (1) الطريقة التي يتم فيها تجهيز الماكينة والتحليق فيها؛ (2) الظروف الجوية؛ (3) طريقة تركيب الكاميرا في الماكينة. ولا يمكن الحصول على صور ملائمة ما لم يتم التنبه لهذه النقاط.

يحتاج الطيارون في العادة للتدرب والممارسة على مستوى الطيران. فعلى الجبهة الفرنسية، لم يكن الطيران المستقيم، وبالتالي الطيران على ارتفاع ثابت، خياراً حكيماً أو آمناً، بسبب دفاعات العدو المضادة للطائرات، ولكن في الشرق تمكّنا بعد التدريب والممارسة من تحقيق نتائج جيدة من دون الحاجة لاستخدام أدوات خاصة. وتشير التجارب التي أجريت في إنجلترا خلال العامين الأخيرين فيما يتعلق بالملاحة الجوية كذلك إلى إمكانية المحافظة على دقة الموقع بشكل مقبول، ويمكن تحسين هذه الدقة باستخدام أدوات خاصة للكشف عن الحركات، الالتفاف واختلاف الارتفاعات.

وكثيراً ما تكون الظروف الجوية مسؤولة عن الأخطاء في موقع محور عدسة الكاميرا. فعلى الارتفاعات المنخفضة، تتيح الاختلافات في كثافة الهواء، أو عدد من الأسباب الأخرى، المجال للظاهرة المعروفة بـ "المطبات" وتتسبب إما في هبوط الماكينة المفاجئ أو ميلانها. ولكن يمكن الحدّ من هذه التأثيرات بشكل كبير مع الزيادة في الارتفاع، وعلى ارتفاع حوالي 10,000 قدم تختفي تماماً، وتصبح حركة الهواء ثابتة تماماً باستثناء حالات نادرة محددة. وهذا سبب مهم لإجراء المسح الفوتوغرافي من ارتفاعات عالية، ولاستخدام عدسات ذات ضبط بؤري طويل، عندما تكون هناك حاجة لصور بمقياس أكبر

ويعد تركيب الكاميرا في الطائرة واحداً من المسببات الرئيسية لظهور التشتت في الصورة بسبب الميلان، ولكن من الضروري أيضاً ضمان تركيب العدسة بدقة في الكاميرا نفسها. ومن الواضح أنه من المستحيل أن نحصل على صور صحيحة ما لم تكن الشريحة أفقية تماماً عندما تكون الماكينة في وضعية الطيران المستوي. وفي وقت الحرب، لم يتم الانتباه كثيرا لمسألة تركيب الكاميرا، حيث كان الاهتمام منصباً على أجهزة الحدّ من تأثيرات الارتجاج، وبالتالي حاد محور عدسة الكاميرا 3 – 4 درجات عن المستوى العمودي حتى عندما كانت الماكينة تطير بخط مستقيم. وباستثناء فلسطين، لم ننتبه كثيراً إلى أن مستوى هيكل الطائرة يختلف مع سرعة هواء الماكينة، ولكن في الحالات التي كان من الممكن فيها تعديل ذنب الطائرة، أصبح من الممكن تغيير سرعة الهواء بشكل كبير، ويمكن أن يتسبب ذلك في ميلان الشريحة من 5 – 10 درجات عن المستوى الأفقي. ولقد وجدنا أن هذا كان سبباً كبيراً للخطأ عند استخدام مقاتلات بريستول، وكما ذكرنا أعلاه، تم تصميم قطعة متأرجحة لحل المسألة. وبهذا، يمكن لتركيب الكاميرا أن يضمن وجودها في الوضع الأفقي بغض النظر عن درجة ميلان هيكل الطائرة، وكانت النتائج مرضية لحدّ كبير على الرغم من أن التعديل تم باستخدام ميزان الاستواء.

(*) وهذا ينطبق على أي منطقة يصعب الوصول إليها، وحيث تتطلب الظروف معدلًا معقولًا من التقدم.

ولقـد دار جـدل حـول فيمـا إن كان ميـزان الاسـتواء قـادراً علـى إعطـاء نتائـج دقيقـة فـي الهـواء بسـبب التغيـرات فـي تسـارع الماكينـة، وبالتالـي اسـتخدم كحـلّ أخيـر. ولكـن علـى الرغـم مـن ذلـك، تشـير الأعمـال الأخيـرة إلـى أن الجـدال حـول اسـتخدام مسـتويات الجاذبيـة فـي الآليـات التـي تطيـر بثبـات قـد تكـون مغلوطـة. تـم جمـع الكثيـر مـن الأدلـة مؤخـراً حـول دقـة مسـتويات الجاذبيـة فـي الطائـرة، وتـم إجـراء العديـد مـن التجـارب فـي إنجلتـرا وأميـركا باسـتخدام البنـدول وموازيـن الاسـتواء حـول الملاحظـات التـي أخـذت باسـتخدام آلـة السـدس. وُجد بنـاء علـى سلسـلة طويلـة مـن الملاحظـات التـي أُخـذت باسـتخدام ميـزان الاسـتواء، أن معـدل الحيـاد عـن قـراءات المسـتوى الأفقـي المنفـردة لا تتجـاوز ± 21. ويبـدو أن هـذه التجـارب تبيـن أنـه بالإمـكان تركيـب الكاميـرا والتحليـق بالماكينـة بطريقـة تضمـن ألا يحيـد محـور عدسـة الكاميـرا أكثـر مـن نصـف درجـة عـن المسـتوى العمـودي لحظـة التقـاط الصـورة.

تـم التفكيـر فـي مسـألة تسـجيل ميـلان الكاميـرا فـي الماضـي، ولكـن لـم يتـم التوصـل لجهـاز حسـاس يكشـف عـن الميـلان البسـيط. حيـث عمـل السـيدان بينيـت ودوغـلاس، مـن مشـروع مسـح مصـر، علـى تطويـر نظـام لتصويـر الأفـق لحظـة التقـاط الصـورة بعدسـتين إضافيتيـن؛ ولكـن وُجـد علـى أرض الواقـع أن الأفـق يفتقـر للوضـوح لدرجـة لا يمكـن معهـا اسـتخدام هـذا الأسـلوب بشـكل عملـي. فمسـجلات زيـس للميـلان (الألمانيـة) حققـت نتائـج جيـدة جـداً، لكنهـا لـم تكـن قـادرة فـي معظـم الأحيـان علـى تحقيـق الدقـة الكافيـة.

وتـم اقتـراح الحفـاظ علـى الكاميـرا فـي وضعيـة أفقيـة باسـتخدام جهـاز تثبيـت جيروسـكوبي فـي الماضـي، وتـم إجـراء الكثيـر مـن التجـارب علـى هـذا الموضـوع فيمـا بعـد، ولكـن لا يمكننـا القـول إن النتائـج التـي تحققـت لغايـة الآن مرضيـة تمامـاً.

حجم الأخطاء الناشئة عن الميلان

لـم تسـنح لـي الفرصـة بعـد للمقارنـة عـن كثـب مـا بيـن مجموعـة مـن الصـور الجيـدة وخريطـة تـم مسـحها بعنايـة للمنطقـة نفسـها، أمـا بالنسـبة للمقارنـات التـي أجراهـا الآخـرون فأجـد أنهـا تحتمـل بعـض النقـد، إلا أننا لا زلنـا نسـتطيع أن نُكون فكـرة عـن حجـم هـذا التشـتت وأهميتـه النسـبية عـن طريـق دراسـة سلسـلة مـن الصـور المتداخلـة بشـكل جيـد.

ولكـن يجـب أن نشـير هنـا إلـى أننـا لا نسـتطيع الوثـوق تمامـاً بأي مـن هـذه النتائـج، لأن الصور المسـتخدمة كانـت جميعهـا صـوراً مكبـرة، ويمكـن أن تتضمـن أخطـاء غيـر معروفـة إن كان قـد تـم إعـادة ضبـط تركيـز مصبـاح التكبيـر فـي كلّ مـرة تطبـع فيهـا الصـورة. وللأسـف، لا تتوفـر لدينـا صـور تلامسـية ملائمـة للدراسـة، ولكـن الخبـرة الميدانيـة للعامليـن فـي المسـوحات تبيـن أنـه بالإمـكان إهمـال الكميـات التـي تمـت دراسـتها علـى المسـتوى العملـي، ولـم يتـم الاهتمـام بشـكل كبيـر بهـذه المسـألة حتـى تـم التشـكيك فـي خلـو هـذه الصـور مـن التشـتت.

أبـرزت التدابيـر المذكـورة أعـلاه حقيقـة مهمـة؛ وهـي أنـه يمكـن تحقيـق نتيجـة أفضـل بكثيـر عـن طريـق التخلـص مـن أي نقـاط قريبـة مـن زوايـا الصـورة. فبعـد أن أصبـح لدينـا الآن الكثيـر مـن الصـور المتراكبـة، أصبحنـا قادريـن علـى قـص أطـراف الصـورة قبـل لصقهـا، واسـتخدام الأجـزاء القريبـة مـن المركـز فقـط. ولا يعتبـر هـذا هـدراً لأن الأجـزاء الإضافيـة توفـر لنـا مـواد مفيـدة فـي دراسـتنا المجسـمة لرسـم التضاريـس. ولقـد بيّـن م. كليـرك (المجلـة البريطانيـة للتصويـر، المجلـد 66، ص. 298؛ 1919) أنـه فـي حالـة وجـود ميـلان بنصـف درجـة، فـإن الجـزء المفيـد مـن سـطح شـريحة مسـاحتها 13 18 X سـم هـو 12 17 X سـم، ولا يكـون خطـأ التعريـف علـى هـذا السـطح أكبـر مـن 02 سـم (0.02 سـم)؛ أي مـا يسـاوي 2 متـر علـى الأرض فـي صـورة التقطـت بعدسـة بعدهـا البـؤري 26 سـم مـن ارتفـاع 26,000 متـر.

ولا حاجـة، باتبـاع أسـلوبنا هـذا، للانشـغال بالتشـتت الـذي لا يتسـبب بأخطـاء بمقيـاس أكبـر مـن 5 % (0.5%) لأننـا عندمـا نركـب الصـور بعضهـا مـع بعـض مـن خـلال النقـاط التـي لا تبعـد بعضهـا عـن بعـض أكثـر

مـن 4 بوصـات، يمكننـا إهمـال عـدم التراكـب الصحيـح مـا بيـن الصـور بنسـبة خُمـس بوصـة، لأنـه نـادراً مـا يكـون بالإمـكان تركيـب الصـور بعضهـا بجانـب بعـض بنسـبة أقـرب إلـى 100% مـن البوصـة. وإن كانـت الصـور المطبوعـة الأصليـة بمقيـاس 1:20,000 وتسـتخدم لخريطـة بمقيـاس 1:40,000 يكـون الخطـأ المحتمـل أقـل مـن سـمك الخـط.

تـم التعامـل مـع مسـألة الأخطـاء الناشـئة عـن الميـلان بشـكل مطـول بسـبب أهميتهـا الجوهريـة فـي نظامنـا. وإن كان مـن الممكـن فـي الواقـع الحصـول علـى صـور كاملـة الوضـوح، فـإن ذلـك سيبسـط إلـى حـدّ كبيـر إعـداد الخرائـط بالاعتمـاد علـى الصـور الجويـة، ويتيـح اسـتخدام نظـام المقاطـع الشـريطية فـي الأعمـال الاسـتطلاعية.

وبالتأكيـد، تشـير النتائـج التـي تـم الحصـول عليهـا فـي فلسـطين إلـى أن الحصـول علـى هـذه الصـور ممكـن حتـى باسـتخدام تجهيـزات غيـر متقنـة الصنـع للكاميـرا، ومـن دون اسـتخدام مؤشـرات الانعطـاف، ولكـن لا تـزال هنـاك حاجـة للمزيـد مـن التجـارب لنحـدد مـا يمكـن أن نقـوم بـه بالضبـط ضمـن ظـروف مواتيـة.

الأرض الملائمة لمسوحات الاستكشاف الجوية

إن لـم تكـن الأرض الظاهـرة فـي الصـورة منبسـطة وترتفـع بحـدّة مـن جانـب واحـد، فلـن يكـون تمثيلهـا علـى الشـريحة الأفقيـة حقيقيـاً، وسـيبدو غيـر صحيـح عنـد الحـواف، وكلمـا كانـت زاويـة المنظـر أكبـر، كلمـا كان الخطـأ أكبـر. وبالتالـي، يكـون نظامنـا لرسـم الخرائـط باسـتخدام الصـور الجويـة أنسـب للبـلاد المنبسـطة أكثـر مـن الجبليـة. ويمكننـا فـي حـال كان ارتفـاع التـلال منخفضـاً مقارنـة بارتفـاع الطائـرة، الحصـول علـى نتيجـة جيـدة جـداً عـن طريـق التحليـق علـى أعلـى ارتفـاع ممكـن، واسـتخدام عدسـات ذات زاويـة ضيقـة، وعدسـات ذات ضبـط بـؤري طويـل.

وفـي فلسـطين، كان الأسـلوب الرئيسـي للتعامـل مـع المناطـق الجبليـة هـو التقـاط سلاسـل مـن الصـور علـى طـول الخـط العـام للتضاريـس، بحيـث يكـون المقيـاس فـي كامـل السلسـلة متسـاوياً، علـى الرغـم مـن أنـه كان دائمـاً أكبـر علـى أحـد جانبـي الصـورة مـن الآخـر. وأدى عـدم التسـاوي فـي مقيـاس الجانبيـن إلـى ميـلان الصـور الملتقطـة لمسـار مسـتقيم عنـد إلصـاق بعضهـا مـع بعـض، إضافـة إلـى تغيـر فـي السـمت فـي جميـع الصـور. ولكـن مـن الممكـن فـي كثيـر مـن الأحيـان تعديـل المنحنـى فيمـا بعـد وتصحيـح السـمت، ولكـن ذلـك يمكـن أن يتأثـر بمـا يلـي: (1) الرجـوع إلـى النقـاط المرجعيـة المثلثيـة، (2) المقارنـة مـع الصـور المجـاورة الملتقطـة لأرض منبسـطة، (3) الرجـوع للصـور المائلـة التـي التقطـت بكاميـرا أخـرى موجهـة باتجـاه حركـة الطائـرة. ومـن الخصائـص المعروفـة والمفيـدة للصـور الملتقطـة بزاويـة مائلـة هـي أن الخطـوط المسـتقيمة علـى الأرض تظهـر كذلـك كخطـوط مسـتقيمة فـي الصـور، ويصبـح بالإمـكان، بالمقارنـة مـا بيـن الزاويتيـن المائلـة والعموديـة، تحديد سلسـلة مـن النقـاط الظاهـرة فـي الصـور العموديـة والتـي تقـع علـى خـط مسـتقيم علـى الأرض. لقـد أتـاح مزيـج مـن هـذه الأسـاليب فـي فلسـطين التعامـل مـع مناطـق جبليـة منحـدرة، وإنتـاج خرائـط تمثـل مـا هـو موجـود علـى الأرض بشـكل جيـد، علـى الرغـم مـن أن الموضـع الجغرافـي للتفاصيـل الظاهـرة غيـر دقيـق تمامـاً.

ولا يبـدو مـن المحتمـل أن الأسـلوب الحالـي المتمثـل بالتصويـر علـى شـرائح أفقيـة سـيكون مناسـباً مـن دون إدخـال تعديـلات جذريـة عنـد التعامـل مـع المناطـق الجبليـة المرتفعـة كتلـك الموجـودة علـى حـدود الهنـد. ولكـن يمكننـا هنـا اسـتخدام نظـام مـن التصويـر المائـل، والـذي يمكـن تطبيقـه بطريقـة تشـبه أسـاليب المسـح التصويـري الجـوي المسـتخدمة فـي المسـوحات الأرضيـة.

وتتمثـل المناطـق التـي سـيكون اسـتخدام أسـاليبنا فيهـا هـو الأنسـب فـي المناطـق المنبسـطة، المحاطـة بـالكثير مـن الأشـجار والشـجيرات، أو التـي تحتـوي الكثيـر منهـا. يكـون إنجـاز المسـوحات الأرضيـة مثـل هـذه المناطـق بطيئـاً بسـبب العـدد الكبيـر المطلـوب مـن المحطـات، بينمـا يكـون المسـح الجـوي أسـرع وأدق.

وبالمثـل، فـي المناطـق المنبسـطة نوعـاً مـا، والمفككـة فـي الوقـت ذاتـه فـي المناطـق شـبه الجافـة – أو التـي تكـون طبوغرافيـة الأرض فيهـا سـيئة كمـا تسـمى فـي المصطلحـات الأمريكيـة – يكـون المسـح الأرضـي معقـداً فـي كثيـر مـن الأحيـان وحركـة التنقـل بطيئـة، بينمـا تبيـن الصـور الجويـة فـي المقابـل جميـع التفاصيـل، ويمكـن عكسـها علـى الخرائـط بحسـب الـلازم.

ومـن المواضيـع التـي يجـب أخذهـا بعيـن الاعتبـار كذلـك توفيـر مهابـط للطائـرات، فلـن يكـون بالإمـكان اسـتخدام المسـح الجـوي فـي العديـد مـن المناطـق التـي تغطيهـا الغابـات المطريـة الاسـتوائية بسـبب عـدم توفـر مهابـط الطائـرات أو مطـارات، مـع أنـه قـد يكـون مـن الممكـن فـي بعـض المناطـق - مثـل حـوض الأمـازون - اسـتخدام الطائـرات البحريـة أو القـوارب الطائـرة. ولكـن يجـب أن نتذكـر أن نصـف قطـر حركـة الآليـات الحديثـة يصـل إلـى 100 ميـل علـى الأقـل، ومـع اسـتخدام خزانـات إضافيـة وحمـل جزئـي يصبـح توسـيع نصـف القطـر هـذا ممكنـاً. وليـس مـن الصعـب فـي العديـد مـن المناطـق ذات الكثافـة السـكانية المنخفضـة أن نجـد مسـاحات مفتوحـة يمكـن أن تسـتخدم كمهابـط مؤقتـة للطائـرات لبضعـة أيـام، فلـن نحتـاج إليهـا لأكثـر مـن ذلـك.

ومـن المهـم أن نفكـر لأي مـدى يمكـن اسـتخدام التصويـر الجـوي فـي بـلاد كأفغانسـتان، بسـبب صعوبـة الوصـول إليهـا، وقلـة المسـوحات التـي أجريـت فيهـا مقارنـة بالمناطـق الأخـرى، وطبيعتهـا الجبليـة، وهنـا يمكّننـا هـذا الأسـلوب مـن إنتـاج صـور لأجـزاء مـن البـلاد فقـط أو مخطـط رسـم تقريبـي يبيـن جـزءاً كبيـراً مـن التفاصيـل الطبوغرافيـة، ولكنـه يفتقـر للدقـة فيمـا يتعلـق بالموقـع، باسـتثناء الأحيـاء التـي تتضمـن عـدة نقـاط محـددة مـن قبـل. ولكـن تبقـى لمثـل هـذه الصـورة الفوتوغرافيـة قيمـة عاليـة، ويمكـن أن تسـاعد كثيـراً فـي أعمـال المسـح والاستكشـاف المسـتقبلية. ويتطلـب تنفيـذ مهمـة كهـذه اهتمامـاً كبيـراً بعامـل آخـر لـم نـأت علـى ذكـره لغايـة الآن، ألا وهـو تقديـر ارتفـاع الطائـرة فـوق الأرض.

تحديد ارتفاع الكاميرا

إن كانـت الشـريحة أفقيـة، وارتفـاع الطائـرة عـن الأرض معروفـاً، فسـيكون مـن الممكـن عندهـا نظريـاً رسـم خريطـة تقريبيـة دون الرجـوع إلـى النقـاط المثبتـة علـى الأرض، ليتـم مـن خلالهـا تحديـد مقيـاس الصـورة. ولكـن حسـاب ارتفـاع الماكينـة عـن الأرض بشـكل دقيـق لا يـزال صعبـاً فـي الوقـت الحالـي، حيـث لـم يثبـت لغايـة الآن أنـه مـن الممكـن الاعتمـاد علـى قـراءات مقيـاس الضغـط الجـوي اللاسـائلي، ولكـن إن تـم ضبـط الأدوات بحـرص وتطبيـق تصحيحـات درجـة الحـرارة، فيجـب أن نكـون قادريـن علـى الحصـول علـى قيمـة مقبولـة لارتفـاع الماكينـة فـوق مسـتوى سـطح البحـر؛ ولكـن حتـى لـو قمنـا بذلـك، فإننـا لا نـزال غيـر قادريـن علـى تحديـد ارتفـاع سـطح الأرض بالعـادة. ولكـن، هنـاك أسـاليب يمكـن أن نسـتخدمها لتحديـد ارتفـاع الطائـرة عـن سـطح الأرض تسـتحق المزيـد مـن الدراسـة فـي المسـتقبل؛ وسـنذكر بعضهـا باختصـار هنـا.

حيـث يمكـن اسـتخدام الأسـلوب البصـري لتحديـد المـدى عـن طريـق وضـع كاميـرات صغيـرة بالقـرب مـن طـرف الأجنحـة والتقـاط صـور فوريـة باسـتخدام زر كهربائـي. وبمـا أن الأجنحـة غيـر ثابتـة تمامـاً، يمكـن أن نضيـف سلسـلة مـن القطـع الإضافيـة التـي تبيـن العلاقـات المتبادلـة مـا بيـن الكاميـرات لحظـة التقـاط الصـورة، ولكـن لا يبـدو أننـا نسـتطيع أن نحـل مشـكلة بنـاء هيـكل ملائـم بشـكل كامـل. وفـي الأغلـب، سـيعطي الإبقـاء علـى مسـافة 30 قدمـاً تقريبـاً بيـن الكاميـرات نتائـج جيـدة حتـى ارتفـاع 12,000 قـدم عـن الأرض.

ومـن الأسـاليب الأخـرى التـي يمكـن توظيفهـا، اسـتخدام طائرتيـن تحمـل كلّ منهمـا كاميـرا، بحيـث تطيـر واحـدة علـى ارتفـاع 500 قـدم فـوق الأخـرى، وتقـوم كلتاهمـا بتصويـر الأرض مـن تحتهمـا. ويجـب أن تظهـر الطائـرة الأدنـى ارتفاعـاً دائمـاً فـي صـور الطائـرة الأعلـى ارتفاعـاً، ويمكـن مـن خـلال قيـاس هـذه الصـورة تأكيـد الفـرق فـي الارتفـاع مـا بيـن الكاميرتيـن؛ ومـع معرفـة الفـرق فـي الارتفـاع، يصبـح علينـا أن نقـارن

الأطـوال النسـبية مـا بيـن الجسـمين الظاهريـن علـى الأرض فـي الصـور العليـا والسـفلى لتحديـد ارتفاعـات كلتـا الكاميرتيــن فــوق الأرض.

كمــا تــم اقتــراح أســلوب ثالــث، ألا وهــو أخــذ لقطــات أوتوماتيكيــة بكاميــرا مثبتــة علــى الماكينــة علــى فتــرات زمنيــة ثابتــة، وحســاب الســرعة الأرضيــة للطائــرة؛ أي أن هــذا الأســلوب أيضــاً يعطينــا طريقــة تقريبيــة لحســاب طــول مــا يمكــن أن نســميه القاعــدة المجســمة التــي يمكــن مــن خلالهــا حســاب المســافات علــى الصــور المتعاقبــة لتعطينــا مــدى الأرض.

تعتمـد جميـع هـذه الأسـاليب علـى أفقيـة الشـرائح؛ ولكـن إن تمـت تلبية جميـع الظـروف المطلوبـة يمكننا أن نحـدد موقـع التفاصيـل الظاهـرة علـى الأرض مـن الارتفاعـات والأجسـام البصريـة الثابتـة وحدهـا. إضافـة لذلـك، يلغـي هـذا الأسـلوب تأثيـر شـكل الأرض، ويتيـح لنـا تحديـد ارتفـاع التـلال مـن أزواج الصـور المجسـمة وتحديـد مواقعهـا بشـكل صحيـح نوعـاً مـا. ولكـن الدقـة التـي نحققهـا فـي هـذا الأسـلوب فـي المناطـق الكبيـرة لا تتجـاوز مـا يمكـن تحقيقـه باسـتخدام أسـلوب المسـح الطبوغرافـي باسـتخدام طاولـة الرسـم البيانيـة (غيـر المضبـوط بمسـح تثليثـي).

تطوير الأساليب المجسمة

ذكرنـا سـابقاً تطبيـق الأسـاليب المجسـمة لتحديـد التضاريـس، ويمكننـا أن نضيـف الآن بعـض الملاحظـات حـول إمكانيـة تطويـر خـط العمـل هـذا. تـم حتـى الآن اقتـراح أسـلوبين لاسـتخدام أزواج صـور تبيـن المنطقـة نفسـها مـن زوايـا مختلفـة علـى طـول خـط رحلـة الطائـرة، ولكنهـا غيـر جاهـزة بعـد للتطبيـق العملـي.

مــن الممكــن تطبيــق المســح باســتخدام الصــور المجســمة الــذي وصفــه الراحــل الكولونيــل ف. فيفيــان تومبســون فــي المجلــة الجغرافيــة لســنة 1908 مــع بعــض التعديــلات فــي التصويــر الجــوي. وجدنــا بعــد الرجــوع لهـذه الورقـة (ص.541) أنـه لـو تـم تأميـن بعـض الظـروف، فيمكـن للشـرائح الأفقيـة فـي الجـو أن تحقـق نتائـج مشـابهة لتلـك التـي نحصـل عليهـا مـن الشـرائح العموديـة علـى الأرض.

والشـروط المطلوبـة هـي أن تكـون كلتـا الصورتيـن متوازيتيـن وأفقيتيـن تمامـاً، ويجـب أن تكـون المسـافة بيــن مركزهمــا؛ أي القاعــدة المجســمة معروفــة. وإن كان مقيــاس الصــور أو ارتفــاع الطائــرة فــوق أي جــزء مــن الأرض معروفــاً، يمكــن عندهــا قيــاس طــول القاعــدة المجســمة. ويجــب تعديــل تفاصيــل مقيــاس مقــارن تومبســون المجســم لإتاحــة المجــال للاختلافــات فــي طــول القاعــدة المجســمة، ولكــن مبــدأ عمــل الأداة يمكــن أن يســتخدم هنـا. ومـن دون الخـوض فـي الكثيـر مـن التفاصيـل، يمكننـا القـول إن الملاحظـات الأوليـة تشـير إلـى أن لدينـا أسـلوباً مفيـداً جـداً، وأن بإمكاننـا مـن خلالـه تحديـد الخطـوط الكنتوريـة التجسـيمية بدقـة، حتـى لـو لـم يكـن بالإمـكان تحديـد الارتفـاع والتضاريـس بشـكل موثـوق نسـبياً بنفـس درجـة الدقـة المتاحـة علـى الأرض.

ودرس بورخـال، قائـد السـرية والحاصـل علـى وسـام برتبـة ضابـط مـن الإمبراطوريـة البريطانيـة والعامـل فـي كليـة التصويـر فـي القـوات الجويـة الملكيـة أسـلوباً آخـر، المبـدأ الأساسـي فيـه هـو مقارنـة الارتفـاع الواضـح لجسـم تمكـن رؤيتـه فـي زوج مـن الصـور التجسـيمية مـع الارتفـاع الواضـح لـزوج مـن الخطـوط المحفـورة علـى الزجـاج، والملامسـة للصـور والقـادرة علـى الحركـة باسـتخدام برغـي دقيـق، علـى أن يكـون بالإمـكان أن تـرى الصـور والخطـوط فـي الوقـت نفسـه مـن خـلال السـتيريوسـكوب. ويعـد هـذا الأسـلوب أسـلوباً معـدلاً عـن الأسـلوب الفرنسـي الـذي طـوره القائـد كورادـيـن، وهـو يتطلـب معرفـة بارتفـاع الطائـرة وطـول القاعـدة المجسـمة.

ويشـير الانطبـاع الناشـئ عـن العمـل الـذي أنجـز فـي فلسـطين، والـذي اسـتُخدم فيـه شـكل بدائـي جـداً مـن الفحـص السـتيريوسـكوبي، إلـى الأهميـة الكبيـرة لاسـتخدام التجسـيم فـي الأعمـال الاستكشـافية الجويـة. ولكننـا نعتمـد مـرة أخـرى علـى إنتـاج صـور صافيـة خاليـة مـن التشـتت الناشـئ عـن الميـلان، علـى الرغـم مـن أن الميـلان البسـيط لا يغيـر شـكل البـلاد بشـكل ملحـوظ.

العلاقة ما بين العمل الفوتوغرافي والمسوحات الأرضية

غطينا في الأجزاء السابقة بعض الاعتبارات التي يمكن أن تيسر إنتاج رسومات خرائط في بلاد تفتقر للنقاط التثليثية، ولكننا يجب أن نشدد مرة أخرى على عدم إمكانية الاستغناء عن المسوحات المثلثية الجيدة في إنتاج خرائط استكشافية. ويبدو أن بعض الكتاب الجدد لا يدركون حقيقة أنه فيما نستطيع استخدام الصور الجوية لإجراء المسوحات الطبوغرافية، إلا أنها لا يمكن أن تستخدم لإجراء مسح تثليثي. ونادراً ما يبدو أنه سيكون من الممكن الفصل تماماً ما بين العمل الجوي والعمل الأرضي، وكلما كانت شبكة النقاط المثبتة على الأرض أقرب من بعضها، كلما زادت دقة الخريطة المرسومة باستخدام الصور الجوية.

ولذا، فإن السؤال المهم هنا هو: ما هو حجم المثلثات اللازم في إطار العمل الأرضي للسماح باستخدام أسلوب التصوير؟ ويعتمد الجواب على طبيعة البلاد، ودقة الموقع المطلوب. ففي الدول المنبسطة، يمكن الحصول على نتائج ممتازة إن كانت المسافة الفاصلة ما بين النقاط الثابتة هي 1 ميل، وفي الخرائط ذات المقياس الصغير لا يفترض أن ينشأ عن مسافة 3 – 4 أميال بين النقاط أي اختلالات تتجاوز تلك التي قد تنشأ عن تمدد أو تقلص الورق أو الورق الشفاف خلال عملية إعداد الصفحات. ومرّة أخرى، إن كنا نريد للخريطة الاستكشافية أن تبين ببساطة المعالم الرئيسية كالشوارع والأنهار والقرى والغابات في موقعها الصحيح نسبياً، على الرغم من أن موقعها الجغرافي غير صحيح بحوالي نصف ميل تقريباً، فإن المسافات ما بين النقاط الثابتة يمكن أن تتراوح ما بين 5 – 8 أميال. ولكن تعتمد الكثير من الأشياء على طبيعة البلاد نفسها، ولذلك يصعب إطلاق التعميمات هنا. ففي فلسطين، كان علينا أن نعمل في مناطق منبسطة وجبلية، ولكن في كلا المنطقتين أتاحت الأساليب الفوتوغرافية إنتاج خرائط استكشافية مفيدة خلال وقت قصير باستخدام شبكة مفتوحة نسبياً من نقاط التثليث.

وعندما تغطي المسوحات الاستكشافية الأرضية مناطق شاسعة، لا يتيح الوقت عادة للمسّاح رسم التفاصيل المحلية الصغيرة بدقة، ما يضطره للجوء للتعميمات أو حذف بعض الأشياء. ولكن في حالة التصوير، من الممكن تتبع التفاصيل بشكلها الصحيح، وإضافة العديد من المعالم المحلية دون أي مشكلة، مثل الروافد الفرعية ومجموعات الأشجار والأراضي الصخرية وغيرها، ما يجعل الخريطة مفيدة جداً عند استخدامها لاحقاً على الأرض. يمكن لطائرة واحدة أن تصور مساحة 30 ميلاً مربعاً في يوم واحد ضمن نصف قطر يصل إلى 100 ميل من مهبطها، ويمكن لوحدة جوية مؤلفة من 6 طائرات (رحلة واحدة) أن تغطي على الأقل 100 ميل مربع في اليوم، ويمكنها في الأغلب أن تغطي أكثر من ذلك بكثير. ولا يستغرق تحميض الصور وطباعتها وقتاً كبيراً، ويتم ترحيل معظم حجم العمل إلى مكتب التجميع.

في فلسطين، كان شخص واحد قادراً، دون مساعدة، على إنجاز صفحة بمقياس 1:40,000 تغطي 20,000 ياردة × 28,000 ياردة في ستة أسابيع باستخدام 500 – 700 صورة تقريباً. يتفوق هذا الأسلوب من ناحية السرعة على أساليب إنتاج الخرائط الأخرى. وعندما يكون هناك مسح تثليثي، كما هو الحال في الهند، فإننا سنحتاج فقط إلى فريق أرضي ليدرس المنطقة ويجمع المعلومات عن أسماء الأماكن والآبار وغيرها، وإضافة بضعة نقاط إضافية كذلك. وبفضل تقدمه السريع، فإن الأسلوب الجوي في الأغلب سيثبت جدواه الاقتصادية، حتى مع الكلفة الإضافية لصيانة الطائرات، وإن كان بالإمكان استخدام الطائرات الحكومية التي تستخدم لأغراض أخرى لهذا العمل، نكون قد وفّرنا في الكلفة والسرعة. ولكن إن كانت هناك حاجة لنقل الطائرات أو الطائرات البحرية ومعداتها لمسافات طويلة لمسرح العمليات، فمن الممكن ألا يكون هذا الأسلوب اقتصادياً، إلا إن كانت المنطقة كبيرة جداً ويصعب مسحها أرضياً، ولكن إن أصبحت الطرقات الجوية مفتوحة حول العالم، سيصبح استخدام المسح بالطائرة أو الطائرة البحرية عملياً أكثر.

انحصر التركيز في هذه الورقة على الأساليب التي طُبقت وأثبتت قدراً جيداً من النجاح، وعلى

نقاش الأمور المتعلقة بها، ولذا لم نأت على ذكر الصور المائلة وأساليب المسح الفوتوغرافي الجوي التي يمكن أن تطبق عليها. ركّزت في بداية حملة فلسطين نوعاً ما على استخدام الصور المائلة في إعداد الخرائط، ولكنني وجدت أن هذا الأسلوب بطيء ومضنٍ. ولكن، أصبح التقاط الصور المائلة واستخدامها الآن، بعد إضافة قطعة منشورية للكاميرا العمودية العادية أسهل؛ إلا أننا على الرغم من ذلك لا نزال نحصر استخدامنا للصور المائلة في إنجاز أعمال استكشافية أولية للمنطقة قبل البدء بالعمل العمودي، أو للحصول على معلومات إضافية حول السمت والارتفاعات النسبية. ولكن، يبقى لاستخدام أسلوب الصور المائلة مناصروه، مثل ج. و. باغلي من أمريكا (النشرة الأمريكية للمسوحات الجيولوجية 657، 1917)، ويمكن أن يكون للأسلوب مستقبل عند تطبيقه في المناطق الجبلية.

يجب أن نتذكر عند التعامل مع الأعمال الاستكشافية أن الطائرات البحرية يمكن أن تكون مفيدة أكثر من السفن في العمل الساحلي، لأن الشعب المرجانية والمناطق الضحلة تبدو في العديد من الحالات واضحة في الصور. تم في سنة 1917 استخدام التصوير الجوي بنجاح لرسم خريطة لميناء رابغ على ساحل العرب.

لن نخوض اليوم في وصف العمل اللازم لإعداد خرائط المدن المكتظة بالناس في الشرق، أو مسوحات الأنهار التي نتأمل القيام بها بسبب ضرورتها في حالة بعض أنهار الشرق ذات المسار غير المستقر. ففي الوقت الحالي، يبقى مجال عملنا الرئيسي في الشرق هو إنتاج الخرائط الاستكشافية من النوع الذي طور في فلسطين، والتي يمكن تركيبها بسرعة وسهولة، وستكون مفيدة للأغراض المدنية والعسكرية. وسيدرك أولئك الذين زاروا المنطقة، وأولئك الذين انخرطوا في مرحلة ما في العمل العسكري، فائدة الخرائط التي تتضمن معالم محلية كاملة، وتساعد المرء على تحديد موقعه من خلال الرجوع لتفاصيل الخريطة.

تدعم بعض التجارب الميدانية طرح نظرية أن الخرائط الاستكشافية التي تتضمن تفاصيل محلية، وتبين مواقع الأماكن بدقة نسبية، وتمكن المسافر من تحديد مكانه بالضبط والمعالم التي ستقابله في الطريق، قد تكون أفضل من الخرائط التي تفتقر للتفاصيل المحلية، على الرغم من أن خطوط العرض والطول فيها عالية الدقة، وهناك الكثير من الحجج تدعم وجهة النظر هذه، على الرغم من أنها قد لا تكون صحيحة تماماً.

فالصور الجوية قادرة على إعطاء صورة كاملة ومفصلة للأرض بسرعة وسهولة؛ وإن ظهرت أساليب لتوظيف هذه الصور في إعداد خرائط جيدة بمقياس صغير باستخدام أسلوب سهل وسريع وموثوق، فعندها سيكون للتصوير الجوي مستقبل مهم، ولكن إن بقيت الأساليب بطيئة وصعبة، فإنها ستكون مفيدة فقط في حالات الطوارئ الخاصة.

يبدو أن العمل الذي أنجز لغاية الآن في فلسطين، يبين أن الصور الجوية تمتلك مميزات مهمة في العمل الاستكشافي، حيث يجب أن ننظر إلى التصوير الفعلي لحوالي 2000 ميل مربع ورسم الخرائط لها على أنها إنجاز مهم، وليس مجرد تجربة. ويمكن بالتأكيد انتقاد هذه الأساليب على أسس نظرية، ولكن النتائج هي الجواب الأفضل لمثل هذا الانتقاد. كما تم العمل ضمن الخطوط العامة نفسها بنجاح في مصر وبلاد الرافدين، الأمر الذي يبين كذلك أنه أصبح لدينا نظام قابل للتطبيق يمكن أن يحقق الكثير من النتائج. ولكن، لا يصلح التصوير الجوي لجميع الأغراض، فهو لا يصلح مثلاً للجانب الجيوديسي من الأعمال المسحية، وهو أنسب للخرائط على مقياس متوسط منه للخرائط على مقياس كبير جداً، أو صغير جداً.

تم توضيح الأساليب التي وصفتها من خلال التعاون الوثيق ما بين المساحين وأفراد القوات الجوية، ويبدو أن تحقيق المزيد من التقدم سيكون ممكناً فقط من خلال التعاون ما بين منتجي الصور الجوية ومستخدميها، وهذا هو الاعتقاد الذي شجع الكاتب على تقديم هذه الورقة.

عالقة ما بين الخطوط

سرديّات خرائطيّة لقرية دير أيّوب الفلسطينيّة منذ الحرب العالميّة الأولى حتّى الوقت الحاضر

إياد عيسى

يدرس هذا المقال تاريخ التمثيل البصري لقرية دير أيوب الفلسطينية المدمرة، عن طريق تحليل مجالها المكاني، من خلال قراءة عدد من الخرائط المختارة والصور الجوية لفلسطين التي التُقطت خلال الحرب العالمية الأولى. وهو يدرس كذلك العلاقات المتشابكة ما بين علم الخرائط والتحول الناشئ عن الأفعال الاستعمارية (العسكرية أو الإدارية) في المساحات الريفية. وقد درسنا الخرائط، هنا، كمحرك فاعل دفع عملية التحول، وليس كتمثيل مكاني سلبي للواقع والتغيرات ذات العلاقة. «فالخرائط» هنا هي جزء لا يتجزأ من عملية سياسية تتضمن علاقات سلطوية تظهر كاحتكار لسلطة إنتاج الخرائط والمعرفة واستخدامها، حيث يصفها جون هارلي بأنها «الطريقة التي تبني فيها ممارسة السلطة محتوى الخرائط».[1] كما يحاول هذا المقال استغلال تفسير علم الرموز (الأيقونية) في قراءة الصور عن طريق فك رموز الرسائل التي يعكسها تمثيل قرية دير أيوب في الخرائط والصور الجوية كصورة لمساحة القرية وكمستند أرشيفي، حيث يتيح لنا تتبع دورات تمثيل قرية دير أيوب على الخرائط، وبروز هذا التمثيل وانحساره بشكل راديكالي، تحليل الدور والرسائل التي تم توصيلها من خلال العناصر الظاهرة في كل صورة وخريطة؛ ابتداء من التخيل الاستشراقي للخرائط التي تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، مروراً برصد خرائط وصور الحرب، والتحكم والسيطرة في خرائط الانتداب البريطاني، واستغلال الخرائط في المفاوضات والتلاعب بها من أجل رسم وبلورة خط الهدنة، وانتهاءً بالهيمنة الاستعمارية الجغرافية على الخرائط الطبوغرافية الإسرائيلية.

جاء اختيار قرية دير أيوب كمنطقة للدراسة على أساس موقعها الجغرافي والأحداث التاريخية التي وقعت فيها، حيث مثلت قرية دير أيوب أكثر من بمرة نقطة تحول في ميادين عدة. تقع القرية في نقطة التقاء السهل الساحلي مع هضاب وسط فلسطين في نقطة مركزية على طريق يافا-القدس عند باب الواد، في منطقة تتباين فيها طبوغرافية الأرض والغطاء الزراعي ما

بيـن السـهول والجبـال. وكانـت هـذه المنطقـة تعـد جبهـة للنضـال ضـد مشـاريع اسـتعمارية عـدة أدت إلـى تدميـر القريـة مـرات عـدة؛ فهـي تقـع علـى الخـط الحـدودي الـذي توقـف عنـده الاسـتيطان الاسـتعماري لـلأرض، بسـبب تفضيـل القـوى الاسـتعمارية للسـهول علـى الجبـال. كمـا كانـت خطـاً حدوديـاً سـاخناً مـا بيـن سـنة 1949–1967؛ وتحولـت القريـة إل جـزء مـن الحـدود ذاتهـا بعـد أن أصبحـت ضمـن المنطقـة الحـرام التـي تـم تحديدهـا سـنة 1949، وبعدهـا أصبحـت القريـة، تدريجيـاً، جـزءاً مـن «المنطقـة الخضـراء الفاصلـة» التـي تتكـون مـن الحدائـق والغابـات الطبيعيـة، والتـي كانـت محاولـة اسـتعمارية أخيـرة لإلغـاء الوجـود والمشـهد الريفـي الفلسـطيني فـي منطقـة جغرافيـة شـديدة الحساسـية. تمثـل عمليـة التحـول العنيـف التـي فرضـت علـى هـذه البقعـة الجغرافيـة قصـة مهمـة عـن محـاولات طمـس وتحويـل الريـف الفلسـطيني المسـتمرة منـذ مائـة سـنة، التـي تسـتحق المزيـد مـن البحـث والدراسـة.

القرية: مختصر لتاريخ القرية

تقـع قريـة ديـر أيـوب علـى بعـد 24 كيلومتـراً تقريبـاً غـرب القـدس، وحوالـي 325 متـراً فـوق سـطح البحـر. وفـي سـنة 1948، كان عـدد سـكان ديـر أيـوب حوالـي 371 نسـمة.[2] تقـع القريـة علـى تـل منخفـض علـى الطـرف الغربـي مـن جبـال القـدس، ووفـر هـذا الموقـع المميـز تنوعـاً كبيـراً فـي طبوغرافيـة الأرض وغطائهـا النباتـي والنشـاطات الزراعيـة فـي قريـة صغيـرة نسـبياً. كان الجـزء الجنوبـي علـى طـول شـارع يافا–القـدس الرئيسـي (مـع الوديـان الضيقـة المجـاورة مـن جهتـي الغـرب والشـرق) عبـارة عـن سـهول خصبـة مناسـبة لزراعـة محاصيـل عـدة كالقمـح. أمـا السـهل المرتفـع شـمال مركـز المدينـة، فكانـت تنتشـر فيـه الحواكيـر، بينمـا اتصفـت الجبـال المحيطـة بالقريـة مـن الشـرق والشـرق الجنوبـي (مناطـق صفحـة واد علـي، والخبطـة، ومنطقـة بـاب الـواد، وجبـل آخـر إلـى الشـمال الغربـي) بأنهـا جبليـة لا تنمـو فيهـا الكثيـر مـن النباتـات، وكانـت تسـتخدم كمـراعٍ موسـمية قبـل أن تتحـول جزئيـاً إلـى غابـة ابتـداءً مـن سـنة 1927 نتيجـة لسياسـة التشـجير البريطانيـة.

كانـت القريـة تقـع علـى تـل اسـتراتيجي يبعـد 500 متـر علـى الأقـل شـمال شـارع يافا–القـدس الرئيسـي، وأقـل مـن كيلومتـر واحـد مـن بـاب الـواد، حيـث يبـدأ الشـارع يتخلـل الجبـال هبوطـاً نحـو القـدس. وبسـبب موقعهـا الاسـتراتيجي مـا بيـن تـل اللطـرون وبـاب الـواد، أصبحـت ديـر أيـوب جبهـة قتـال فـي عـدد مـن الحمـلات والحـروب التـي هدفـت لإسـقاط القـدس علـى مـر التاريـخ، حيـث كان علـى كل جيـش أجنبـي يتقـدم نحـو القـدس مـن الغـرب أن يمـر عبـر هـذه المنطقـة أو البوابـة الاسـتراتيجية، وبالتالـي كان عليـه السـيطرة علـى هـذا التقاطـع المهـم. تركـت الحمـلات العسـكرية المتعاقبـة آثـاراً مدمـرة علـى قريـة ديـر أيـوب، حيـث دمـرت منـازل القريـة وقتلـت سـكانها، ناهيـك عـن تخريـب المحاصيـل والمسـاحات الزراعيـة. ثـار الفلسـطينيون سـنة 1834 ضـد إبراهيـم باشـا، والـي مصـر، وتـم خـلال الثـورة تدميـر القريـة وقلعـة اللطـرون، واضطـر السـكان الناجـون لتـرك منازلهـم بشـكل مؤقـت، حتـى عـادوا للاسـتقرار فيهـا سـنة 1853 بعـد نـزاع طويـل مـا بيـن سـكان ديـر أيـوب، والتحالـف مـا بيـن إبراهيـم باشـا وعشـيرة أبـو غـوش.[3]

وفـي سـنة 1917، تـم إخـلاء القريـة بشـكل مؤقـت خـلال تقـدم القـوات البريطانيـة نحـو القـدس.[4] أمـا فـي سـنة 1938، فقـد دمـرت القـوات البريطانيـة عـدداً كبيـراً مـن منـازل القريـة كعقـاب جماعـي خـلال ثـورة سـنة 1936.[5] وخـلال حـرب العـام 1948، تعرضـت القريـة لسلسـلة مـن الاعتـداءات العسـكرية المباشـرة مـن القـوات الإسـرائيلية، مـا اضطـر السـكان إلـى تـرك منازلهـم شـيئاً فشـيئاً. وفـي سـنة 1949، أصبـح مركـز القريـة ضمـن المنطقـة الحـرام، وبعـد حـرب العـام 1967، واحتـلال إسـرائيل الضفـة الغربيـة، دمـر الجيـش الإسـرائيلي الجـزء المتبقـي مـن القريـة فـي منطقـة اللطـرون. وفـي سـنة 1973، تـم إنشـاء منتـزه كنـدا (كنـدا بـارك) الـذي امتـد معظمـه علـى أراضـي قريـة عمـواس ويالـو وبعـض مـن أراضـي ديـر أيـوب، بمـا فيهـا مركـز القريـة ومسـاحة كبيـرة مـن المنطقـة المحيطـة بهـا.

التوصيفات والتمثيلات البصرية المبكرة لدير أيوب

استحوذت فلسطين وجغرافيتها لعديد من القرون على اهتمام العديد من الرحالة وعلماء الآثار والأكاديميين الذين أنتجوا الكثير من النصوص والرسومات والخرائط وغيرها من التمثيلات البصرية. وكانت هذه المواد محاولة للتعبير عن جغرافية الأرض وتاريخها مع التركيز، بشكل خاص، على الجغرافيا التاريخية التوراتية. وهناك نصوص تصف دير أيوب في روايات رحالة القرن التاسع عشر وبعضها الآخر يعود إلى أقدم من ذلك. أشار العديد من الرحالة الغربيين إلى منطقة باب الواد (وبخاصة الخان) أو وصفوا باختصار ما شاهدوه خلال مرورهم بها. وركزوا بشكل خاص على نقطة التغير الدراماتيكي من السهل الخصيب إلى الجبال الصخرية وبالعكس. كان ويليام لينش، رئيس البعثة الأمريكية الشهيرة إلى نهر الأردن والبحر الميت (1849) واحداً من أوائل من وصفوا هذه المنطقة؛[6] فخلال ترحاله من القدس إلى يافا، وصف لينش وادي علي وبساتين الزيتون بالقرب من قرية ساريس والغطاء النباتي في الواد، كما تحدث عن مستوى «الفلاحة المتقدم» بعد أن غادر القدس متجها غرباً، وذكر بشكل خاص نشاطات الرعي والفلاحة في منطقة دير أيوب.

وصف مسح غرب فلسطين قرية دير أيوب باختصار بأنها «ضيعة صغيرة جدا»[7] على طريق يافا–القدس. وفي خريطة صندوق استكشاف فلسطين، ظهرت دير أيوب كنقطة صغيرة من دون أي تفاصيل، حيث ظهرت المواقع الأثرية ومصادر المياه والشوارع على الخريطة، ولكن من دون أي تفاصيل عن خصائص المساحات أو النشاطات الزراعية. وكانت هذه هي الطريقة الشائعة لتمثيل المستقرات البشرية في ريف فلسطين في معظم الخرائط التي أعدت في القرن التاسع عشر،[8] كخريطة فان دي فيلديه (1858) وخريطة زيمرمان (1850)، حيث اقتصر حجم أو مهمة بعثات رسم الخرائط في ذلك الوقت على الحد الأدنى من التمثيل البصري للقرى الفلسطينية الريفية الحديثة، التي يمكن أن تُختصر بنقطة مرسومة على جغرافية الأرض المقدسة ما لم يكن لها أهمية أو دور في التاريخ التوراتي.



الشكل 1: صندوق استكشاف فلسطين، مسح غرب فلسطين، خريطة 1880 (الصفحة 17)، التي تظهر «دير أيوب» ومحيطها (مقطع معدل)، خريطة فلسطين المفتوحة، palopenmaps.org/view (تمت زيارة الموقع في 2019/12/1).

خرائط الحرب العالمية الأولى والصور الجوية

مع انطلاق حملة نابليون على فلسطين في 1799، بدأ إنتاج خرائط فنية مفصلة لأسباب عدة، منها الحملات العسكرية (خريطة جاكوتين التي رسمت سنة 1799 ونشرت سنة 1826)، أو البعثات العلمية كبعثات الآثار (خرائط صندوق استكشاف فلسطين والبعثة الأمريكية سنة 1848، وخريطة نيوكومب لجنوب فلسطين سنة 1914). ويمكن القول إن آخر ثلاث خرائط استخدمت الآثار كحجة لجمع معلومات عسكرية واستخباراتية، بينما كانت هذه الأهداف واضحة ومباشرة في خريطة نيوكومب. وإضافة إلى ذلك، يبين تحليل سريع لخرائط فلسطين ما قبل الحرب العالمية الأولى أن القوى والدوافع الإمبريالية كانت موجودة ضمنياً في هذه الخرائط بغض النظر عن مستوى التقدم الفني، والتصوير الحديث والوصف الواقعي أو المتخيل للخصائص الجغرافية أو الغرض من إعدادها، حيث خدمت التخيلات التاريخية وأحلام إعادة بناء خرائط جغرافية توراتية والتوثيق الحقيقي لخرائط المستقرات البشرية والآثار، الأجندة الاستعمارية إلى حد ما، كما أشار جون هارلي: «استخدمت الخرائط في نشر الاستعمار، والاستحواذ على الأراضي على الورق قبل احتلالها فعلياً».[9]

وطرأ تغير كبير على مجال رسم الخرائط خلال الحرب العالمية الأولى، حيث احتاجت حملة سيناء وفلسطين 1915–1918 لمعرفة الخصائص الجغرافية المفصلة (التضاريس، خصائص المساحات، التلال الاستراتيجية، مصادر المياه) لخدمة النشاطات العسكرية كتحديد مواقع خطوط العدو والخنادق وحتى مواقع العسكر. أجبرت هذه الاحتياجات كلا الجيشين (البريطاني من ناحية، والعثماني والألماني من الناحية الأخرى) على إنتاج نوع جديد من الخرائط الديناميكية التي تعكس مسرح الحرب المتغير بسرعة في تضاريس غريبة عليهم.

قرية دير أيوب على خرائط الحرب العالمية الأولى

وصلت العمليات الميدانية العسكرية إلى المناطق ذات الكثافة السكانية العالية، وأملت استخدام مقياس جديد للخرائط مع تمثيلات بصرية جديدة تلائم هذا التغير. أنتج البريطانيون خرائط مفصلة بمقياس 1:40,000 و1:20,000، وعملوا على تحديث مقياس الخرائط المستخدمة في مسح غرب فلسطين (1:63,360) ومقياس خريطة نيوكومب (1:125,000). أما العثمانيون، فكانوا منشغلين بمبادرة المسح التي بدأوها سنة 1909، حيث تمكنوا من إنجاز بعض الخرائط بمقياس 1:200,000 (مثل خريطة القدس ونابلس) وتمكنوا من تغطية معظم مناطق فلسطين بحلول سنة 1917 قبل أن تتراجع القوات العثمانية وتندحر على يد القوات البريطانية في نهاية 1918.[10] أنتج الألمان عدداً من الخرائط للمنطقة بمقياس 1:250,000، ولكن الخرائط الأكثر تفصيلاً أُعدت ما بين 1917–1918، بمقياس 1:50,000 و1:25,000، معظمها كانت لمنطقة وسط فلسطين.[11] وفي النهاية، نشط كلا الجانبين في مجال التصوير الجوي لأغراض الاستطلاع وإعداد الخرائط في المنطقة.

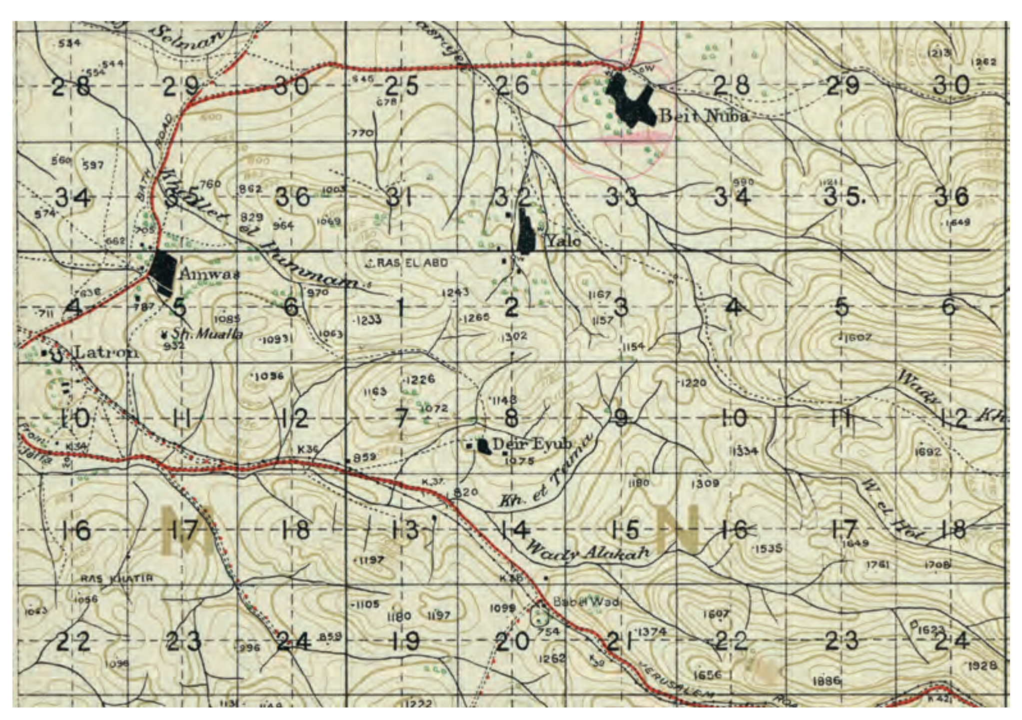
ولا بد من الإشادة بأهمية خرائط الحرب العالمية الأولى والمعلومات التاريخية القيمة التي تضمنتها عن جغرافية فلسطين ومشهدها ومستقرّاتها البشرية، ولكن يمكن في الوقت ذاته تحليل هذه الخرائط بشكل ناقد ودراسة قيمتها ومحدداتها. أولاً، يجب أن نقر بأن هذه الخرائط أنتجت بالأساس لغرض واحد: هو العمليات العسكرية. وبالتالي وظّفت تمثيلاً مباشراً انتقائياً وبسيطاً للواقع لتنفيذ المهام العسكرية على مستوى التخطيط والعمليات.

وكمحاولة أولية لتحليل إعداد هذه الخرائط، اخترت دراسة الخريطة البريطانية بمقياس 1:40,000 لمنطقة اللطرون، التي تتضمن قرية دير أيوب. أعدت هذه الخريطة سنة 1918 (بعد سقوط القدس) وتمت إعادة طباعتها سنة 1919. توضح خريطة اللطرون تمثيلاً مميزاً لجغرافية فلسطين بهرمية محددة،

حيث تم تمثيل المستقرات البشرية كعُقد بنقاط سوداء غامقة مرتبطة بشبكة من الشوارع وطرق المواصلات. وتم تمثيل دير أيوب وعدد آخر من القرى بمضلعات سوداء غامقة دون أي تفاصيل بسبب صغر حجم مراكز هذه القرى وموقعها الهامشي.

وكان المعلم الأبرز في هذه الخرائط هي شبكة المواصلات التي تبين أنواعاً ودرجات مختلفة من الطرق المتاحة لحركة فرق المدفعية. ظهر شارع يافا-القدس كعنصر بارز على الخريطة؛ وتمت إضافة تفاصيل المسافات التي توضح كل كيلومتر على طول الطريق. رُسمت شبكة المواصلات بعناية على التضاريس التي تم توضيحها بخطوط كنتورية مفصلة تبين قمم الجبال (مع ارتفاعاتها)، وشبكات الوديان بتفاصيلها ومصادر المياه والمواقع الأثرية. ولكن لم تتضمن هذه الخرائط أي تفاصيل حول الأراضي الزراعية أو الغطاء النباتي، باستثناء عدد من أنواع الأشجار لأسباب عسكرية واضحة.

ويبدو المعلم الأبرز في هذه الخرائط هو الشبكة العسكرية الطاغية على جميع المعالم الأخرى، التي شرّحت وتضمنت طبيعة ومساحات فلسطين بشبكة مقسمة تناولت جوانب عدة. إضافة إلى ذلك، تُبرز المغالاة في استخدام الأرقام والحروف مرة أخرى طغيان الشبكة العسكرية على الجغرافيا، وهو الأمر الذي يظهر واضحاً في حجم وموقع الأرقام والحروف مقارنة بتسمية ورموز المعالم الجغرافية. استخدمت هذه الشبكة لتحديد موقع كل معلم من المعالم الطبيعية والجغرافية وفهرستها باستخدام نظام مرجعي.



الشكل 2: المسح الميداني السابع (R.E.E.E.F)، اللطرون (ب. 4) خريطة، النسخة الأولى المؤقتة 1:40,000، تبين قرية «دير أيوب» ومحيطها، 1918 أعاد مسح مصر طباعتها سنة 1919 (تم تعديلها وتصغيرها)، مكتبة إسرائيل الوطنية.

تمثل هذه الشبكة العسكرية الحالة الكلاسيكية من ممارسة السلطة على الجغرافيا، من خلال رسم الخرائط. فهنا تطغى القوات العسكرية على الجغرافيا بقدرتها على إيجاد طريقها في التضاريس، من خلال ربط موقعها بأي هدف أو معلم من خلال تحديد الاتجاه وحساب المسافات. ويمكننا أن نضيف بعداً

ثالثاً لإمكانية تصفح هذه الخريطة عن طريق حساب الفروقات ما بين المرتفعات باستخدام الخطوط الكنتورية وارتفاعات قمم الجبال.

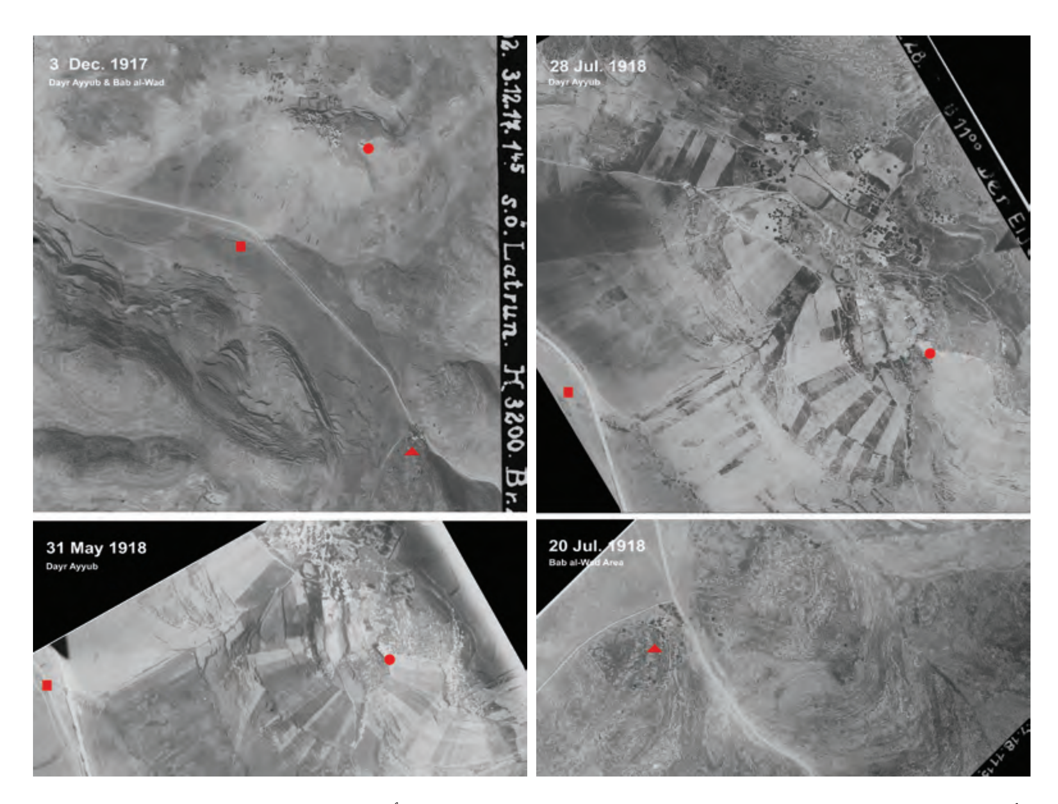
وباختصار، يمكننا أن نجزم أن هذه الخريطة استخدمت لتوضيح مسرح الحرب، حيث ظهرت القرى أشبه ببقع على طول خط تقدم الجيوش، وبالتالي كان يجب إما السيطرة عليها، وإما العبور من خلالها. كذلك يمكن القول إن القيمة المضافة لهذه الخرائط على مستوى القرية، مقارنة بخرائط مسح صندوق استكشاف فلسطين لمنطقة غرب فلسطين التي طبعت سنة 1880 هو ضئيل جداً. ولكن خريطة الحرب العالمية الأولى البريطانية تضمنت المزيد من الخطوط الكنتورية والمعالم الجغرافية المحدثة كالطرق والقرى الجديدة التي بنيت في المنطقة. ولكن ما يميز هذه الخرائط هي القوة التي عكستها الرسالة البصرية على مستوى الرموز، والتي ظهرت كذلك في هرمية تمثيل الرموز الجغرافية والخرائطية، إضافة إلى المعالم التي تم تهميشها مثل المساحات الريفية وغطائها الطبيعي.

الصور الجوية للحرب العالمية الأولى

وكما هي حال خرائط الحرب العالمية الأولى، ركزت الصور الجوية التي التُقطت خلال الحرب بشكل أساسي على المعالم نفسها –طرق فِرَق المدفعية الرئيسية والأهداف العسكرية– بينما بقي المشهد والقرى الفلسطينية في الخلفية. ومن خلال تحليل سريع للصور الجوية الاستطلاعية التي التُقطت في الحرب العالمية الأولى، نرى أنها إما تُظهر طريقاً رئيسياً وإما مخيماً عسكرياً أو قافلة في وسط إطار الصورة، بينما تظهر القرى أو خصائص المشهد كنقطة مرجعية في الإطار نفسه أو الخلفية نفسها.[12] ولكن الطبيعة الاستطلاعية أعطتها خاصية أخرى مثيرة للاهتمام، حيث نستطيع أن نرى لقطات عدة للمنطقة نفسها خلال فترات مختلفة من الأسبوع أو الشهر أو حتى السنة. ويمكن للمقارنة ما بين الصور الجوية الملتقطة في أوقات مختلفة أن تتيح لنا إجراء تحليل أعمق من مجرد النظر إلى صورة جوية معيارية التُقطت لأغراض رسم الخرائط.

على الرغم من شح أعداد الصور الجوية التي التُقطت خلال الحرب العالمية الأولى، وعدم تغطيتها لجغرافية فلسطين بشكل منتظم، فإن قرية دير أيوب حصلت على تغطية جيدة. فمباشرة بعد سقوط القدس في يد البريطانيين، بدأت السرية البافارية 304 بإطلاق بعثات استطلاعية خلف خطوط العدو. وكان من بين المناطق التي تمت مراقبتها الطريق الاستراتيجي بين القدس ويافا، مع التركيز، بشكل خاص، على منطقة اللطرون، بما فيها دير أيوب وباب الواد. وعند مقارنة الصور مع السجلات الخطية التي تتناول تقدم القوات البريطانية نجد أن مركز فيالق الجيش البريطاني XX أُنشئ في اللطرون في 1917/11/28.[13] كما كان على الجنود وفرق الجيش أن تمر في المنطقة خلال مسيرها نحو القدس. التقطت السرية البافارية عدداً من الصور في الفترة ما بين تشرين الثاني 1917 وآب 1918؛ بهدف جمع المعلومات عن القوات البريطانية في منطقة اللطرون.

وبعكس الخرائط المذكورة أعلاه، حوّلت الصور البافارية دير أيوب من مجرد نقطة أو دائرة مفرغة أو مربع أسود غامق على الخريطة إلى منطقة متاحة للدراسة والتفسير. كان لهذا اللقاء الأول ما بين الباحث والتمثيل الجوي البصري لقرية دير أيوب سحره الخاص، حيث ظهرت البنية الخاصة بالقرية الفلسطينية في مطلع القرن واضحة؛ وبرزت المنطقة الصغيرة المشغولة بالمباني على شكل هلال محاط بحقول زراعية. تبين الصور السهول إلى جنوب مركز القرية بالقرب من شارع يافا–القدس، والحقول المجاورة للشمال والشمال الغربي. وكان المعلم الأبرز في هذه الصورة الطبوغرافية هو التلال الصخرية في أقصى شرق منطقة باب الواد (وادي علي) مع جيوب زراعية حول الخان. كما تظهر الطرق الرئيسية والدروب الترابية التي تصل القرية بالحقول والقرى المجاورة كذلك.



الأشكال 3 – 6: صور جوية التقطتها السرية البافارية 304 تبين قرية دير أيوب ومحيطها على مر مواسم عدة في الفترة ما بين 1917–1918، كانون الأول 1917، أيار وتموز 1918 (مقطع معدل)، أرشيف ولاية بافاريا، الصفحة الإلكترونية (gda.bayern.de) tinyurl.com/wdsqpek، (تمت زيارة الصفحة في 7 آذار 2020).

وتعطي إضافة بُعد الوقت للتحليل رؤى جديدة، فعن طريق تتبع الصور الجوية للقرية في الفترة ما بين تشرين الثاني 1917 وحتى آب 1918،[14] يدرك المرء أن هذه المناطق المسطحة شبه الجافة في شهر كانون الأول على طول الطريق الرئيسي جنوب القرية تتحوّل في فصلي الربيع والصيف إلى قطع زراعية طولية (موارس)، تغطيها أنواع عدة من النباتات. ومن المذهل كيف يمكن أن تتحول الأرض الجافة، التي تبدو كبقع رمادية فاتحة في الصورة، فيما بعد إلى حقول زراعية، حيث تحولت المناطق الرمادية إلى فسيفساء من الألوان الرمادية الغامقة والفاتحة، التي تشير إلى وجود نشاطات زراعية مكثفة في الأغلب حتى خلال فترة الحرب، وهي نتيجة واضحة يمكن أن يتوصل إليها أي شخص يملك الحد الأدنى من المعرفة الميدانية بمنطقة دير أيوب. ولكن علينا أن نتذكر العوامل التي تحد من تعميم الاستخدام الحصري لهذا النوع من التمثيل في استخلاص النتائج حول وضع غطاء الأرض أو الخضرة الموجودة في المنطقة.

قد تبدو الصور الجوية للحرب العالمية الأولى توثيقاً حيادياً ميكانيكاً مباشراً للتضاريس والمشهد، يتجنب الطبيعة الانتقائية للخرائط. ولكنها في الواقع لا يمكن أن تعتبر حيادية أو غير موضوعية بشكل حصري لأنها تحتمل التفسير وحتى التلاعب، كما هي حال أي وسيط أو مادة أرشيفية. سأُحلل هنا بعداً واحداً من التفسير بناء على نوع المنطقة (حضري أو ريفي) الظاهرة في الصور الجوية. ففي المناطق الحضرية المشغولة بالمباني، تصبح القدرة على التفسير الشخصي أقل بسبب الكثافة وقرب الصورة. إضافة إلى ذلك، تسهل الطبيعة البلاستيكية لعناصر النسيج الحضري كالمباني وأسوار المدن والشوارع والمعالم

الرئيسية رؤيتها من أعلى. وبالتالي يمكن أن تكون الصورة الجوية أداة مفيدة لتحليل الخصائص الحضرية أو تطور مدن كالقدس أو يافا أو غزة، وبخاصة عند مقارنتها مع الصور الجوية الأخرى التي التُقطت في فترات زمنية سابقة أو لاحقة. أما مستوى موضوعية التفسير، فيصبح مشكوكاً في أمره عند التعامل مع المساحات الريفية والمفتوحة، حيث يمكن للقطة سريعة لمنطقة ريفية أن تعطينا فكرة عن العناصر البلاستيكية الموجودة في بنية القرية مثل المناطق المنشأة وطرق المواصلات والحواكير إلى حد ما، ولكن يمكن أن يصبح التفسير شخصياً بناء على أجندة الباحث والمرجعيات الثقافية التي تؤثر عليه عند تأمل مساحة مفتوحة متغيرة وحقول زراعية يتألف منها معظم المجال المكاني للمشهد الريفي.

وبتطبيق هذا على دير أيوب وباب الواد والمنطقة المجاورة، استخدم الباحثون والعلماء الصور، بما فيها الصور الجوية، بمعزل عن الوثائق الأرشيفية الأخرى أو التاريخ الشفوي كمادة لتقييم مدى قابلية الأرض للزراعة.

وتم إجراء مثل هذه القراءة المبدئية لمناطق الجبال الصخرية بغض النظر عن محدودية الوسيط، مثل وصف بنجامين كيدار «للجبال الجرداء» بالقرب من أبو غوش وساريس، التي تحولت لاحقاً إلى غابات.[15] فهنا يبدو أن الكتّاب فهموا المناطق الرمادية المنبسطة، الخالية من الشجر، على أنها مناطق قاحلة، وليست مراعيَ موسمية أو مصاطب زراعية.

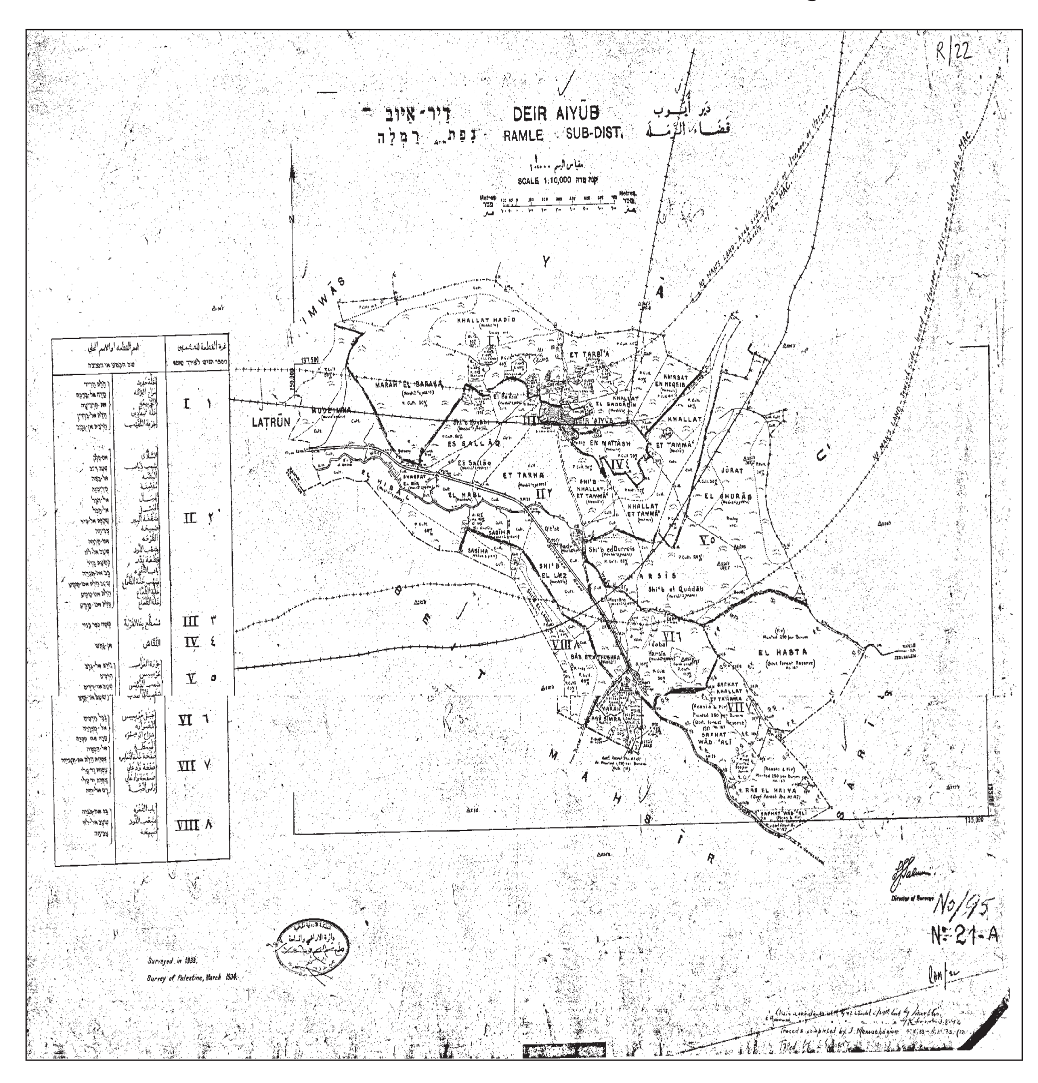
ولكن تجميد ظروف الأرض بحسب اللحظة التي التقطت فيها الصورة، يمكن أن يكون مضللاً إلى حد كبير. فعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار المزيد من الجوانب كالمعلومات التاريخية الاقتصادية-الاجتماعية، والتغيرات الإيكولوجية الدراماتيكية، أو الكوارث الطبيعية كأحداث الجفاف في مطلع القرن العشرين، وآفة الجراد سنة 1915، والأثر المدمر على الغطاء النباتي والمواشي الذي خلفته الحرب العالمية الأولى. لذا فإن استخدام نوع واحد من أشكال الغطاء النباتي، كالأشجار، كإشارة حصرية على خصوبة المكان لهو أمر مفاجئ في قراءة مثل هذه الصور التاريخية، حيث يصعب تفسير وجود أنواع أخرى من النباتات كالخضروات والمحاصيل باستخدام لقطة جوية أو بانورامية واحدة.

ويُعد الاختيار الانتقائي للغطاء الأخضر بالذات مثالاً على التفسيرات الذاتية التي تقوم على مرجعيات ثقافية أوسع ومرجعيات استعمارية وتعريف الأراضي الخصبة أو القابلة للزراعة، بناء على صورة استشراقية لشكل خصوبة الأراضي المقدسة. وهذا التفسير للمشهد الفلسطيني التاريخي، هو استمرارية ومحاكاة للوصف الانتقائي الاستشراقي القديم للمشهد الفلسطيني ومستوى تدهوره، قبل أن تصل القوى الاستعمارية وتبدأ بعملية تداركه عن طريق التشجير وغيرها من السياسات. ولقد تم استخدام هذه الحجة كثيراً كتبرير أخلاقي للنشاط والوجود الاستعماري. يبين التقرير الأول للمفوض البريطاني السامي في القدس، هيربرت صامويل، بوضوح هذا التوجه في وصفه لحالة المشهد الفلسطيني المتردية «والحاجة للتطوير والإصلاح البيئي».[16] فمن ناحية، يسلط هذا التفسير الانتقائي الضوء على السرد والمشهد الاستعماري المُركّب، ومن ناحية أخرى، فإنه يسكت السرد الذي يرويه المشهد الفلسطيني الريفي من خلال المحاصيل أو الخضروات أو المراعي بسبب محدودية ما يظهر منا في الصور الجوية.

الخرائط البريطانية والصور الجوية

وسعت جهود رسم الخرائط البريطانية والصور الجوية التي التُقطت في الحرب العالمية الأولى التمثيل البصري للقرية لتتحول من نقطة على الخريطة إلى منطقة على سطح الصورة معروضة أمام العاملين في الجيش والباحثين. ولكن ظل سكان القرى غير مرئيين في هذه التمثيلات، وهم بدورهم لم يكن لهم علم أو صلة بمثل هذه الخرائط أو الصور. فهم ليسوا بحاجة لمثل هذه الأدوات العسكرية لاستكشاف قريتهم، أو الاستدلال على طريقهم في تضاريس مألوفة لديهم أو السفر إلى مناطق محلية أخرى. وكانت

أول مواجهة راديكالية ما بين السكان الريفيين وعمليات رسم الخرائط، كممارسة منظمة للقوة الاستعمارية خلال الانتداب البريطاني في فلسطين، هي عندما بدأت السلطات البريطانية بمسح البلاد لإعداد خرائط الأملاك العقارية وأنواع الخرائط الأخرى المطلوبة للإدارة المدنية.



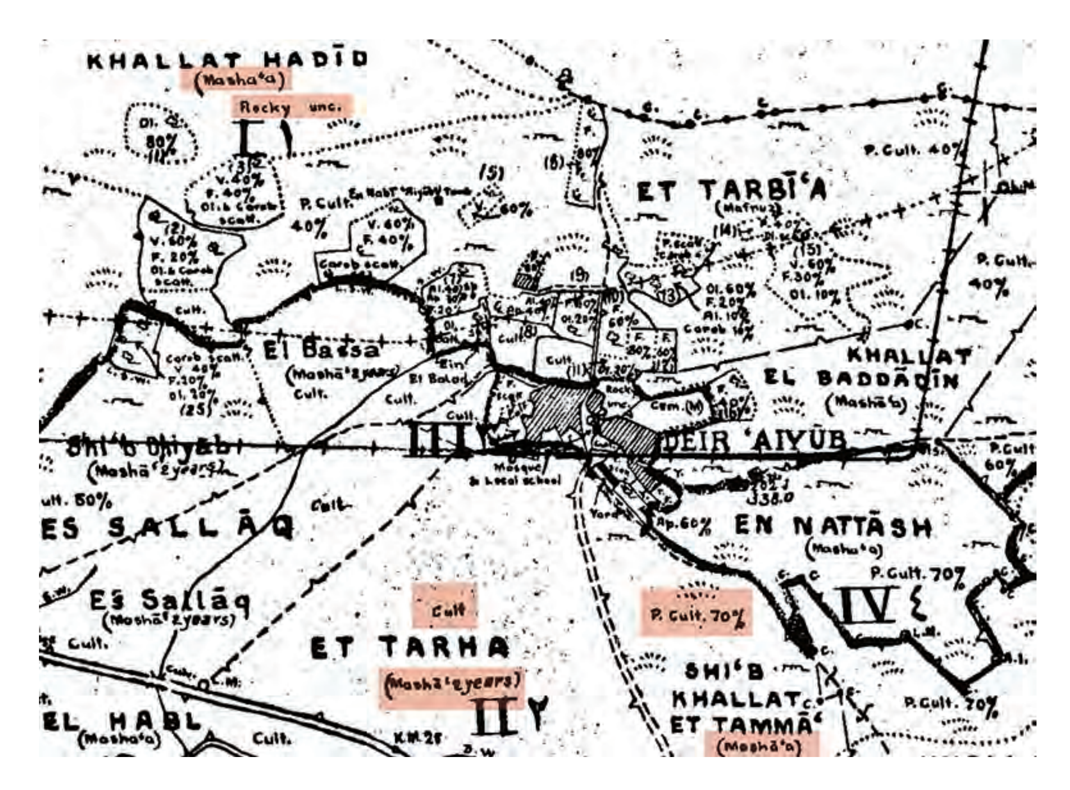
الشكل 7: مسح فلسطين، خريطة قرية دير أيوب بمقياس 1:10,000. أرشيف مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

وباعتباره نظاماً استعمارياً جديداً له أهدافه الخاصة، ونظراً للعبء الذي فرضه وعد بلفور الذي تعهد بإنشاء «وطن قومي لليهود» في فلسطين، لم يكن من المفاجئ أن البريطانيين وظفوا العلم الحديث، بما فيه رسم الخرائط، كأداة للضبط والتحكم. ولتحقيق هذه الغايات، طبق البريطانيون معرفتهم الاستعمارية الضخمة ومتعددة الجوانب بشكل تمحور حول فلسطين وأرضها. شمل هذا التغير البنيوي (المؤسسات والقوانين والسياسات) وتنفيذ مشاريع البنى التحتية، وحتى تصميم وتنفيذ مشاريع الاستيطان ومشاريع مسح الأراضي. ويمكننا القول إن هذا لم يكن مجرد عمل روتيني استعماري نُفذ

فـي جميـع المسـتعمرات المشـابهة للسـيطرة علـى السـكان الأصلييـن، ولكنـه كان، أيضـاً، عمـلاً خاصـاً مـن نوعـه يهـدف إلـى إدارة التحـول المسـتقبلي للبـلاد، حيـث كان الاسـتيطان فـي الأراضـي الهـدف الأول لعمليـات المسـح، وبالتالـي كان برنامـج دائـرة مسـح فلسـطين موجهـاً نحـو مسـح الأراضـي منـذ بدايتـه سـنة 1920، بعـد بضعـة أشـهر فقـط مـن مؤتمـر سـان ريمـو وتحـول الحكومـة العسـكرية إلـى «إدارة مدنيـة» للانتـداب البريطانـي.[17]

وسـنركز هنـا علـى نـوع أساسـي مـن الخرائـط، هـو خريطـة القريـة بمقيـاس 1:10,000، وارتباطهـا بتحـولات القريـة زمـن الانتـداب، لنتمكـن مـن قـراءة كيـف أثـر هـذا التمثيـل الانتقائـي علـى بنيـة القريـة واقتصادهـا والمبـادرات المذكـورة أعـلاه.[18]

والخريطـة التـي اخترناهـا لأغـراض التحليـل هـي «خريطـة القريـة»، قريـة ديـر أيـوب، (المالية/العقاريـة بمقيـاس 1:10,000)،[19] ولقـد تـم إعـداد هـذا النـوع مـن الخرائـط لجميـع المواقـع فـي فلسـطين تقريبـاً فـي الفتـرة مـا بيـن 1928–1934.[20] خدمـت هـذه الخرائـط هدفيـن متضاربيـن:[21] الأول هـو إيجـاد خريطـة أساسـية لنظـام الضرائـب فـي الأريـاف مـن خـلال تحديـد الكتـل النقديـة؛ والثانـي هـو إيجـاد خريطـة أساسـية تقريبيـة للأعمـال العقاريـة المرتقبـة المتعلقـة بالاسـتيطان فـي الأراضـي لـكل قطعـة أو كتلـة عقارية فـي القريـة. وفـي حالـة ديـر أيـوب، يعطينـا تحليـل سـريع للخريطـة معلومـات مهمـة عـن وضـع الأرض المَشـاع أو المفـروزة، وحجـم وشـكل المناطـق المنشـأة ووضـع الحواكيـر المجـاورة والأراضـي المفلوحـة (نـوع المزروعـات ونسـبة الأراضـي المزروعـة ودرجتهـا)، إضافـة إلـى وضـع الأراضـي غيـر المفلوحـة والمناطـق الصخريـة والغابـات.



الشـكل 8: مسـح فلسـطين، خريطـة قريـة ديـر أيـوب بمقيـاس 1:10,000. تفاصيـل اسـتخدام الأراضـي (معدلـة)، أرشـيف مؤسسـة الدراسـات الفلسـطينية.

تشكل هذه الخريطة واحدة من أول التمثيلات البصرية للقرية كوحدة مكانية ببنية مكانية، وكوحدة اقتصادية يتم من خلالها مسح الأراضي والنشاطات الزراعية بتسجيل الخصائص ذات العلاقة. وكان على عملية رسم الخرائط هذه أن تقسم القرية إلى مربعات، ومن ثم إلى فئات إضافية لتبين الخصائص المادية والمالية المتشابهة. كانت عملية رسم الخرائط هذه آلية للتحكم المكاني والبنيوي في القرية باستخدام نظام محدد للتمثيل. تم إخضاع مساحة القرية والسيطرة عليها مكانياً من خلال التمثيلات الهرمية البصرية للقرية: ترسيم الحدود، الكتل النقدية، تصنيف المعالم من صنع الطبيعة ومن صنع البشر، توحيد الأسماء (المناطق، المواقع المحلية والمعالم الطبيعية)، وذكر أسماء المواقع الجغرافية بثلاث لغات وغير ذلك. تم عرض هذه المعلومات ضمن عدد من الخطوط التي تعكس الحد الأدنى من وجود شبكة للتنسيق الوطني اللازم لموضعة الجغرافيا العائمة للقرية ضمن المساحة الوطنية. كذلك تتضمن القرية نقاط التثليث اللازمة للمساعدة في هذه المهمة.

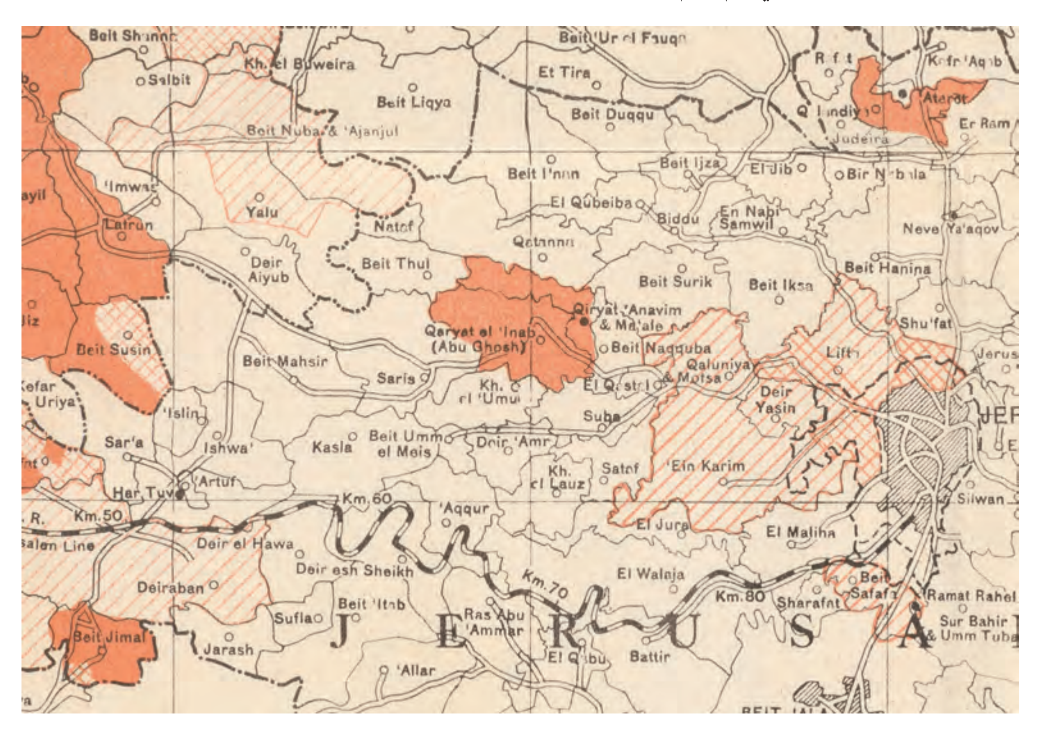
كما تم إخضاع النشاطات الزراعية للقرية اقتصادياً وبنيوياً للنظام الاستعماري من خلال مسح النشاطات الزراعية في كل مربع وشبه مربع. وفي كل مربع حسب المسّاح نسبة الأراضي المفلوحة لغير المفلوحة، ونوع المحاصيل والحصص الزراعية وملكية الأراضي (مشاع أو مفروزة). ولم توفر السلطات الاستعمارية معلومات حول الغطاء النباتي وظروف أسطح الأراضي وحدود الملكية فقط، ولكنها قامت، أيضاً، بتقييم الضرائب المستحقة على كل قطعة، وبالتالي

الشكل 9: مسح فلسطين، دليل القرى والمستوطنات، خريطة بمقياس 1:250,000، التقدم في الاستيطان بالأراضي سنة 1947، مكتبة إسرائيل الوطنية.

دعـم بنـاء صـورة «علميـة» مكانيـة حديثـة لهـذه الوحـدة الاقتصاديـة «السـابقة للحداثـة»، وتوليـد المعرفـة حـول المجموعـة السـكانية المُسـتَعمرة.

تـم إرفـاق جميـع هـذه المعلومـات بترسـيم الحـدود الخاصـة بالقريـة، الـذي أثبـت فائـدة علـى المسـتوى الوطنـي فـي تطويـر دليـل لخرائـط القـرى والمسـتقرات البشـرية بمقيـاس 1:250,000، حيـث تـم تقسـيم الجغرافيـا المائعـة لفلسـطين إلـى عـدد محـدد مـن الأشـكال لتُكّـون وحـدات اجتماعية-اقتصاديـة.[22] اسـتخدمت هـذه الخريطـة الدالـة مـرات عـدة لتقديـم معلومـات وطنيـة (مثـل تحديـد الأراضـي البـور والغابـات وأنـواع ملكيـة الأراضـي والتقـدم الاسـتيطاني) بشـكل مكانـي، وتحديـد الآثـار المترتبـة علـى مسـتوى الموقـع المحلـي علـى الفـور. وكان للشـكل المغلـق لحـدود القريـة خصائـص تـوازي الشـبكة العسـكرية لخرائـط الحـرب العالميـة الأولـى المتعلقـة بالضبـط والتحكـم والاسـتخبارات، حيـث تحولـت مربعـات الشـبكة العسـكرية إلـى أشـكال محـددة مغلقـة غيـر منتظمـة تتـلاءم أكثـر مـع أغـراض السـيطرة الإداريـة الاسـتعمارية المعقـدة علـى السـكان والنشـاطات الاقتصاديـة والملكيـات.

ويمكـن تلخيـص الجـزء المتعلـق بالملكيـات العقاريـة بحسـب مـا شـرحت لينـدا كوكويفيكـس كتطبيـق «لنظـام ترسـيم الملكيـات لاسـتبدال الممارسـات المحليـة والتفـاوض علـى الحـدود واسـتخدام الأراضـي، ونقـل السـلطة مـن الفلاحيـن إلـى المؤسسـات الاسـتعمارية».[23] ولكـن الاسـتيطان لـم يصـل قريـة ديـر أيـوب حتـى العـام 1948، حيـث توقفـت عمليـة الاسـتيطان عنـد قريـة اللطـرون المجـاورة، عاكسـة بذلـك أولويـات بريطانيـا فـي إجـراء مسـح للسـهل السـاحلي، حيـث كان الاهتمـام منصبـاً علـى شـراء الأراضـي فـي تلـك المنطقـة بعكـس المنطقـة الجبليـة.[24] وبالتالـي لـم يتـم إعـداد خرائـط نهائيـة مفصلـة للملكيـات العقاريـة لقريـة ديـر أيـوب.



الشـكل 10: مسـح فلسـطين، دليـل القـرى والمسـتوطنات، خريطـة بمقيـاس 1:250,000، التقـدم فـي الاسـتيطان بالأراضـي سـنة 1947 (تقريـب مفصـل للصـورة)، مكتبـة إسـرائيل الوطنيـة.

ومـن الخصائـص الأخـرى التـي يجـب تحليلهـا هـي وجـود أمـلاك للدولـة بشـكل محميـات حرشـية مغلقـة فـي منطقـة بـاب الـواد، حيـث كان هـذا التواجـد لأمـلاك الدولـة ضمـن حـدود القريـة بشـكل غابـات مغلقـة غريبـاً علـى بنيـة القريـة التقليديـة. تشـبه هـذه الغابـة السياسـة الاسـتعمارية للتشـجير فـي فلسـطين خـلال فتـرة الانتـداب البريطانـي، حيـث تـم إعـلان غابـة بـاب الـواد محميـة حرشـية مغلقـة سـنة 1927 بعـد سـنة مـن صـدور أمـر التشـجير فـي العـام 1926. وكانـت هـذه الغابـة إضافـة إلـى غابـات ديـر آبـان وديـر الهـوا،[25] بدايـة عمليـات التشـجير طويلـة الأمـد التـي بـدأت خـلال الانتـداب البريطانـي، والتـي امتـدت مـن خـلال الجهـود الإسـرائيلية بعـد العـام 1948 لتبتلـع منطقـة غـرب القـدس بالكامـل، وتقيـم الغابـات علـى بقايـا العديـد مـن القـرى والمشـاهد الفلسـطينية المدمـرة.

كان لهـذه الغابـة قصـة مميـزة؛ حيـث أُعلـن إنشـاؤها فـي الجريـدة الرسـمية[26] سـنة 1927 مـن دون خريطـة، وكانـت تفتقـر للوضـوح فـي تحديـد شـكل الحـدود.[27] اسـتخدمت السـلطات البريطانيـة وصفـاً شـفوياً للحـدود يشـبه النظـام الـذي يسـتخدمه المحليـون فـي وصـف الجغرافيـا المألوفـة لديهـم. كذلـك اسـتخدمت مصطلحـات محليـة وأسـماء عربيـة محليـة لوصـف المعالـم الطبيعيـة. قـدرت مسـاحة المنطقـة بحوالـي 2000 دونـم تقريبـاً، بقـي شـكلها غامضـاً، ولـم يتـم ترسـيم حدودهـا بشـكل واضـح بحسـب المعاييـر البريطانيـة الحديثـة. ولـم يتـم إرفـاق أي معاييـر علميـة محـددة بهـذا الإعـلان. وبحسـب المـواد المتوفـرة حـول سياسـة التشـجير البريطانيـة، فـإن الغابـات تقـام بالعـادة فـوق الأراضـي غيـر الصالحـة للزراعـة، علـى افتـراض أنهـا أرض بـور.

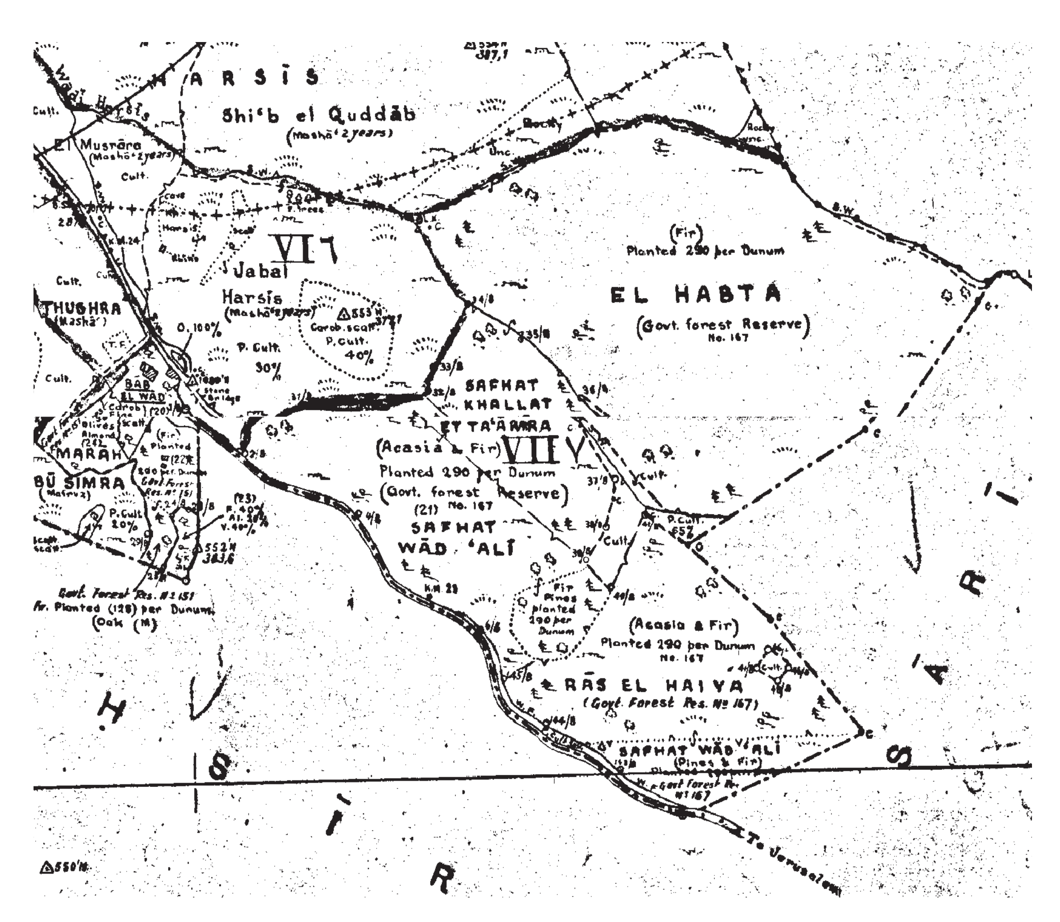
فهـل يعنـي هـذا أن هـذه المنطقـة كانـت أرضـاً جبليـة صخريـة بـور؟ لا نجـد جوابـاً مباشـراً عـن هـذا السـؤال فـي الخرائـط والوثائـق الرسـمية، حيـث يتطلـب هـذا الأمـر مزيـداً مـن البحـث يتجـاوز نطاقـه مجـال هـذه الورقـة. ولكننـا علـى الرغـم مـن ذلـك نسـتطيع أن نتخطـى الحكـم الانطباعـي السـريع لشـخص مـن خـارج المنطقـة ونسـتخلص أن هـذه المنطقـة كانـت «جبـالاً قاحلـة» تشـبه مـا ذكـره بنجاميـن كاديـر عـن المنطقـة المجـاورة.

وسيكشـف تحليـل أولـي لبنيـة ديـر أيـوب والحيـاة الاقتصاديـة فيهـا، كالأسـماء المحليـة للمعالـم الطبيعيـة والجغرافيـة، والتاريـخ الشـفوي عـن اقتصـاد القريـة الرعـوي آثـاراً لطبقـة أخـرى للمشـهد الـذي اختفـى فـي عمليـة صنـع الخرائـط أو قبلهـا وهـي المراعـي (الدائمـة والموسـمية). وهـي نتيجـة يمكـن دعمهـا مـن خـلال بحـث أولـي فـي الأرشـيفات حـول نشـاطات الرعـي والفلاحـة والنزاعـات مـع الحكومـة علـى ملكيـة أراضـي أجـزاء مـن الغابـة، حيـث كانـت هنـاك نزاعـات عـدة علـى الأراضـي فـي ديـر أيـوب وساريس وبيـت محسـير حـول نشـاطات زراعيـة داخـل حـدود الغابـة. وفـي هـذه المرحلـة، لا نسـتطيع أن نسـتخلص نتائـج حاسـمة حـول منطقـة الغابـة بأكملهـا، سـواء أكانـت مزروعـة أم أنهـا كانـت تسـتخدم فـي السـابق كمـراعٍ بشـكل مكثـف، ولكـن يمكننـا القـول -علـى الأقـل- إن التطبيـع الاسـتعماري الـذي ظهـر لاحقـاً فـي خريطـة القريـة لحوالـي 1500 دونـم وصورهـا كمنطقـة واحـدة لهـا الغطـاء نفسـه، يبـدو غريبـاً عـن النظـام التقليـدي المعقـد لـلإدارة الجزئيـة لاسـتخدامات الأراضـي فـي حيـاة القريـة الفلسـطينية.

ويعطـي هـذا التمثيـل للغابـة رسـائل متضاربـة: فهـو يصورهـا علـى أنهـا مسـاحة جديـدة منسـلخة؛ غابـة حكوميـة لا علاقـة لهـا بهرميـة القريـة أو اقتصادهـا أو ضبطهـا أو بنيتهـا، تـم فرضهـا مـن قبـل السياسـة الاسـتعمارية لتحقيـق رؤيـة اسـتعمارية متخيلـة للمشـهد الفلسـطيني. ولكنهـا، علـى الرغـم مـن ذلـك، ظهـرت ضمـن حـدود القريـة الإداريـة، وحافظـت علـى الأسـماء الجغرافيـة المحليـة التـي اسـتخدمها القرويـون لأجيـال. إضافـة إلـى ذلـك، تبيـن الخريطـة أن سياسـة التشـجير حاولـت جلـب مالـك جديـد ضخـم للقريـة هـو الدولـة. ففـي حالـة ديـر أيـوب، لـم يكـن مسـح اسـتيطان الأراضـي قـد أجـري بعـد؛ وبالتالـي لـم تتشـكل ملكيـة الأراضـي بشـكلها النهائـي علـى خرائـط الملكيـة العقاريـة وحجـج الملكيـة.

أما على مستوى الأرشيف، يساعد هذا التواجد البصري للغابة على أول خريطة مُفصّلة للقرية من دون النسخ السابقة في إسكات أي ادّعاءات باستخدام الأراضي في السابق، الأمر الذي يعزز السرد الاستعماري لتاريخ المشهد الفلسطيني، وبخاصة فيما يتعلق بالمناطق الرمادية. ويمكن أن تسلط هذه الحجة الضوء على الحاجة لأبحاث مكانية مستقبلية حول عدائية الأنظمة الاستعمارية اتجاه الاستخدام المشترك للأرض المشاع، وبخاصة لأغراض الرعي، والملكية العامة، واستملاك الأراضي من قبل الدولة من خلال التشجير.

ولقد ترجم إعلان إنشاء الغابة المغلقة (بموجب قانون خطي) مباشرة إلى واقع على التضاريس المادية قبل حتى أن يضاف إلى خرائط الملكية العقارية الرسمية، على أن تتم مسوحات استيطان الأراضي ورسم الخرائط فيما بعد. وتبين هذه العملية المعكوسة غير العادية الأولوية التي كانت تعطى لهذه المشاريع الوطنية الاستعمارية مثل مشاريع التشجير والنزاعات المتعلقة بأملاك الدولة والطبيعة الملحة لها. وفي الوقت ذاته، لا تتصدى هذه المشاريع للاحتياجات الملحة للمجتمع الفلسطيني الريفي المحلي مثل الخدمات (الكهرباء، الشوارع، المدارس) والتنمية الزراعية (تعزيز تسويق المنتجات، تحسين القدرة على الوصول للقروض).



الشكل 11: تفاصيل خريطة مسح القرى الفلسطينية (1:10,000) لدير أيوب التي تبين المحمية الحرشية، أرشيف مؤسسة الدراسات الفلسطينية

ما بين خطي الهدنة (1948–1949)

أصبحت دير أيوب عالقة في إحدى أخطر جبهات حرب 1948، وسط هجوم صهيوني لإنشاء مساحة جغرافية متواصلة ما بين السهول الساحلية والقدس، من خلال السيطرة على رقعة متواصلة من المساحات الريفية الفلسطينية مع عدد من المستعمرات اليهودية المتناثرة فيه هنا وهناك. كانت المنطقة بكاملها تمثل مشكلة من الناحية العسكرية، وبخاصة وادي الباب الضيق الذي أثبت أهميته الاستراتيجية في السيطرة على الطريق، وحيث نجح المقاتلون الفلسطينيون والعرب في قطع خطوط الإمداد اليهودية ما بين القدس والساحل. تعرضت القرية وسكانها لعدد من الهجمات البريطانية واليهودية، تم خلال بعض منها قصف المنازل. وكما في الحرب العالمية الأولى، اضطر السكان لمغادرة مركز القرية مرات عدة، ومن ثم العودة إليها حتى تم طردهم في النهاية بشكل نهائي.[28]

وفي 1949/4/3، تم توقيع اتفاقية الهدنة ما بين الأردن وإسرائيل، وتم ترسيم خط الهدنة، كما تم تحديد المنطقة الحرام لتتضمن شارع يافا–القدس والوادي المحيط به، ولكن من الغريب أنها تضمنت مركز قرية دير أيوب كذلك. وجد أهالي دير أيوب نفسهم في وضع في غاية الغرابة، فبحسب خرائط الاتفاقية، أصبحت المنطقة المنشأة من قريتهم ضمن المنطقة الحرام؛ أي بمعنى آخر أصبحوا عالقين في خريطة جديدة ما بين خطين.[29]

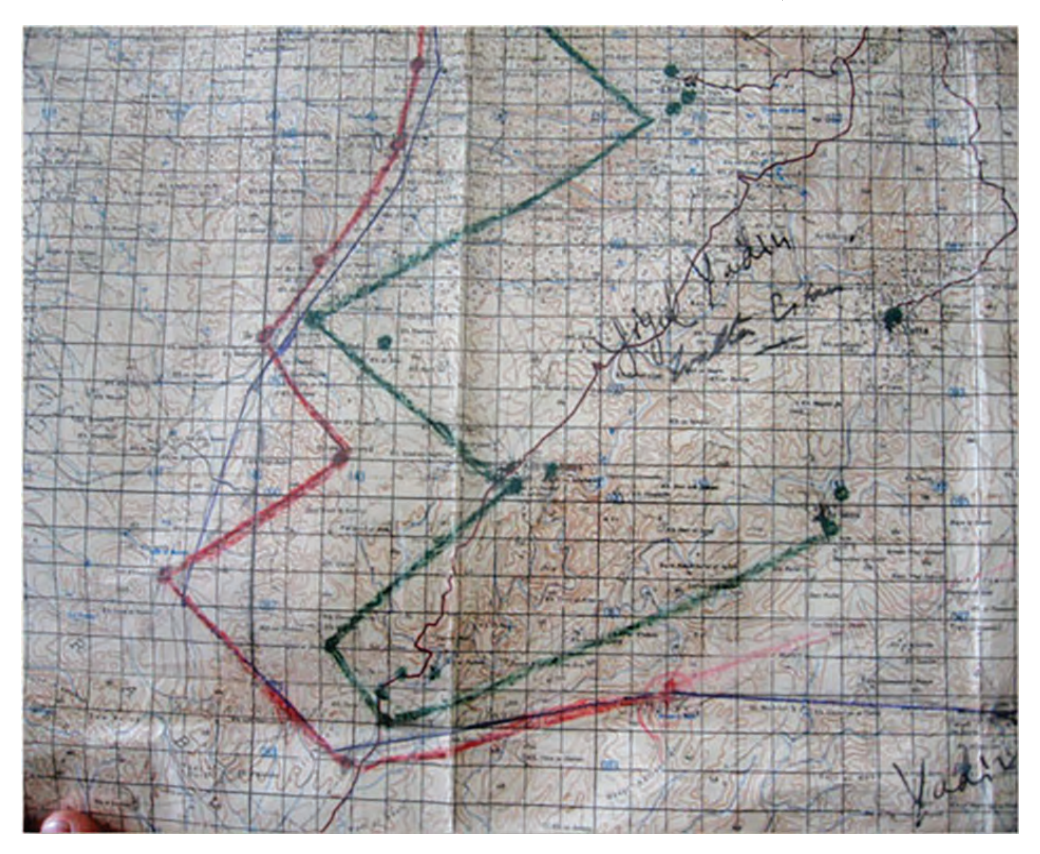
مرة أخرى تم اختصار بنية القرية المكانية بعد الحرب وفي مفاوضات الهدنة إلى مجرد نقطة على خريطة شبيهة بتلك التي وضعت خلال الحرب العالمية الأولى. وبدلاً من الشبكة التي طغت على جميع الجوانب الأخرى في خرائط الحرب العالمية الأولى، يبدو هنا أن ترسيم خط وقف إطلاق النار الشبيه بالأفعى، الذي تم تحديده بعد مراحل عدة معقدة من المفاوضات وإعداد الخرائط، كان هو العامل الحاسم في تحديد أفول المشهد الريفي.

لا تتوفر لدينا الكثير من المعلومات حول عملية المفاوضات التي أدت إلى إنشاء المنطقة الحرام في هذا المكان بالذات، أو سبب تحديد هذا الشكل لها، أو سبب إلغائها من مناطق أخرى والإبقاء عليها هنا، أو كيف حدد كل جانب حقه في الحفاظ على منطقته هناك حسب الخط المستمر على طول الخريطة، مع الأخذ بعين الاعتبار استحالة وجود الجنود على كل نقطة أو متر أو خاصية من خواص الخط المتخيل المرسوم على الخرائط. إضافة إلى ذلك، وبسبب طبيعة المعركة، سيكون هناك دائماً مناطق رمادية أو مناطق عازلة بين الجوانب المقتتلة، ولذا يحتاج فهم الطريقة التي تم فيها التفاوض على هذه المناطق واختصارها إلى خطوط على خريطة لتصبح خطاً لوقف إطلاق النار إلى المزيد من البحث. فهذا النوع من الترسيم يتم أولاً على الخرائط خلال المفاوضات على أساس المعلومات الأولية المتوفرة من الميدان عن الممتلكات العسكرية. ولكن هذه المهمة تخضع، بالعادة، لعلاقات القوة على الأرض، والتلاعب السياسي والتقني، والمعرفة بالتضاريس الحقيقية التي تظهرها الخرائط أو تخفيها.

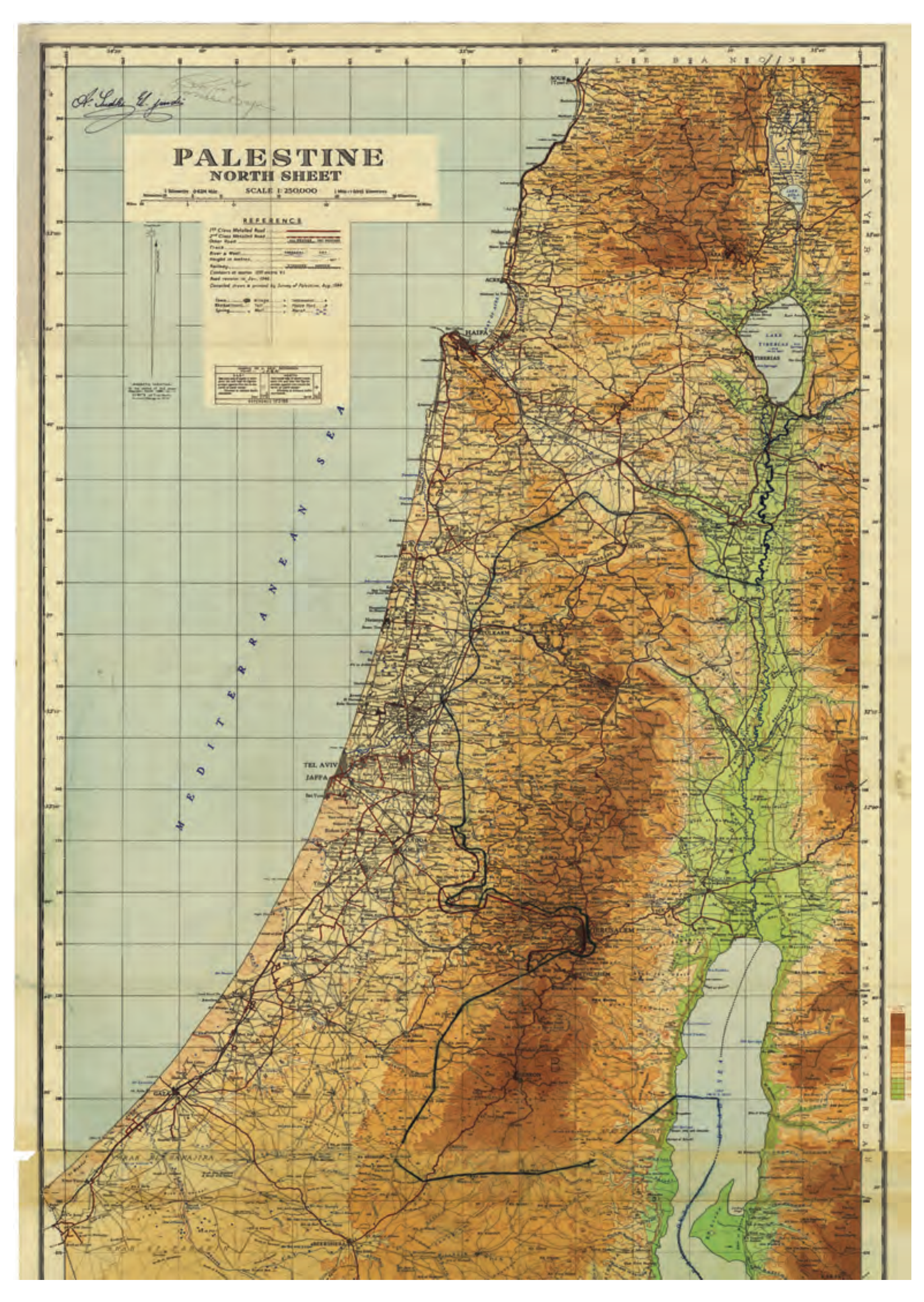
ونحن نعرف من مصادر عدة حول استخدام الخرائط في المفاوضات والاتفاقيات والترسيم على الأرض أن هناك أنواعاً عدة من الخرائط والمقاييس التي تستخدم لهذه الأغراض: 1:250,000،[30] 1:100,000،[31] 1:25,000، 1:20,000،[32] وكان مقياس الخريطة التي أرفقت بالاتفاقية الموقعة هو 1:250,000. يبين مقياس الخريطة وطبيعة الخطوط الخضراء والحمراء المقحمة والمرسومة يدوياً (التي رسمت بخط سميك غير منظم) ومسارها، أنه قد تم التحضير لمفاوضات الهدنة على عجل من أجل وقف القتال. وكانت هذه النتيجة المفتوحة المفتعلة لوقف إطلاق النار تعني أن جهوداً أخرى للتلاعب بالمفاوضات حول الخرائط ستبدأ عند ترجمة خط الهدنة من مقياس إلى آخر، وعند ترسيم الخط الفعلي على الأرض وتفسيره. نشر أرشيف دولة إسرائيل خريطة طوبوغرافية جزئية منخفضة الدقة بمقياس 1:100,000 تبين أنها استخدمت في بداية 1949.[33] والحقيقة المثيرة للاهتمام أنه فيما كانت خطوط المفاوضات هذه عبارة عن خطوط مستقيمة رُسمت ما بين نقاط استراتيجية، فإنها يمكن أن تكون، في الواقع، مواقع عسكرية أو قمم جبال

أو نقاطاً عشوائية تستخدم لحساب المساحة، حيث إن حجم هذه النقاط الغريبة على طول الخطوط السميكة يساوي حجم القرى على مثل هذه الخرائط. اختصرت عملية المفاوضات التي استخدمت خرائط (بمقياس 1:100,000) القرى الفلسطينية مرة أخرى إلى نقاط غامقة على خريطة تساوي في حجمها هذه النقاط المتخيلة، ولم تترك مجالاً لتمثيل حياة القرية أو الحقول أو المجال المكاني على الخريطة، وبالتالي تم تجاهلها. لعب مقياس الخريطة وطبيعة التمثيل في هذه الحالات دوراً في تهميش المصالح والمناطق الريفية الفلسطينية. المسألة التي أصبحت واضحة (وإشكالية) عندما حاولت القوات العسكرية أن ترسم الخطوط على الأرض في عدد من المرات.[34]

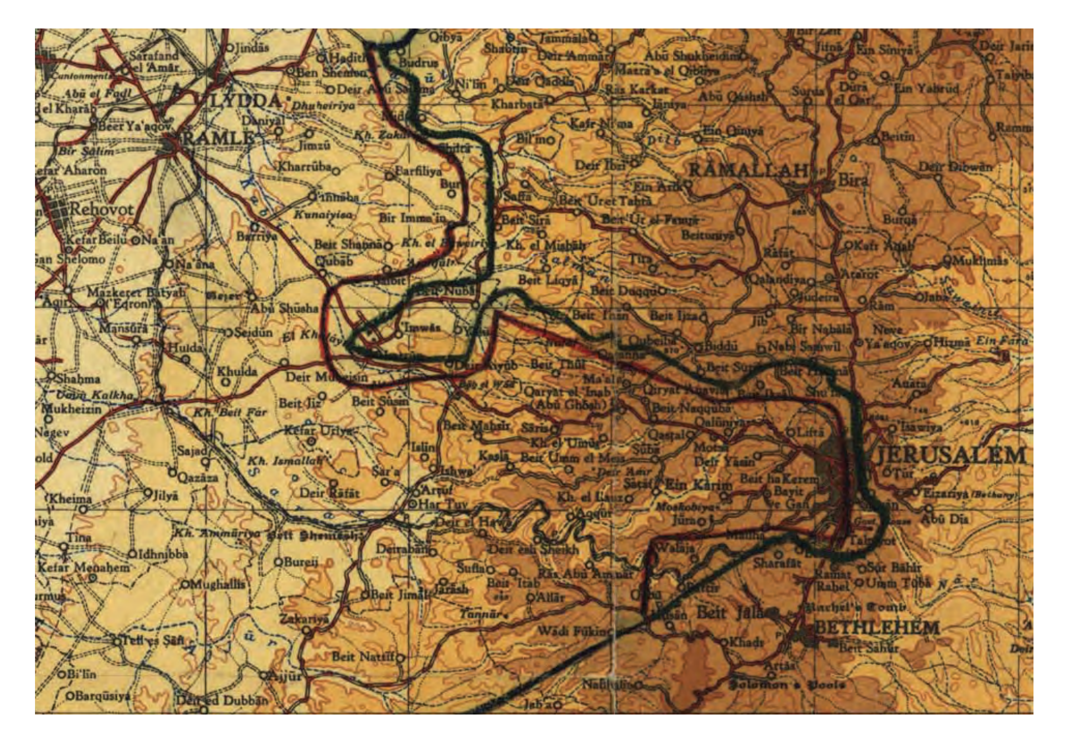
كانت نتيجة رسم الخريطة بهذا الشكل كارثية على دير أيوب، حيث دمرت بنية القرية بالكامل. فبحسب أطلس فلسطين، أصبح 28.2% من أراضي القرية، بما فيها الغابة، ضمن الجانب الإسرائيلي؛ و63.4% من مساحتها، بما فيها مناطق منشأة من القرية ضمن المنطقة الحرام، بينما اعتبرت مساحة 8.4% المتبقية منها ضمن الجانب العربي الذي كان في الواقع جبهة متقدمة.[35] وفي الواقع تم التصديق في هذه الاتفاقية على ما فرضه الإسرائيليون في المعركة من خلال مخطط المنطقة الحرام، ولم يعد أهالي دير أيوب قادرين على العيش في القرية كما كانت قبل الحرب. فبهذا الترتيب ضمنت إسرائيل ألا تطل أي قرية يسكنها الفلسطينيون على الوادي الاستراتيجي أو تقاطع باب الواد أو طريق يافا–القدس العام.[36]



الشكل 12: خريطة مسح فلسطين الطبوغرافية 1:100,000 مع ترسيم مختلف لخط الهدنة أضيف خلال مفاوضات سنة 1949، أرشيف دولة إسرائيل، الموقع الإلكتروني tinyurl.com/ wk457ga (archives.gov.il) (تم الدخول إلى الصفحة في 2020/3/9)



الشـكل 13: خريطـة مسـح فلسـطين 1:250,000 تبيـن خـط الهدنـة؛ «الخرائـط التـي تحـدد خطـوط ترسـيم الهدنـة»، الموقـع الإلكترونـي tinyurl.com/y59g766g (unispal.un.org) (تـم الدخـول إلـى الصفحـة 2020/3/9)



الشكل 14: خريطة مسح فلسطين 1:250,000 تبين خط الهدنة في منطقة اللطرون (مقطع معدل)؛ «خرائط تحدد خطوط ترسيم الهدنة» الموقع الإلكتروني tinyurl.com/mkz5ohw (unispal.un.org) at (تم الدخول إلى الموقع في 2020/3/9)

خط الهدنة المتلاشي: خريطة إسرائيل الطبوغرافية

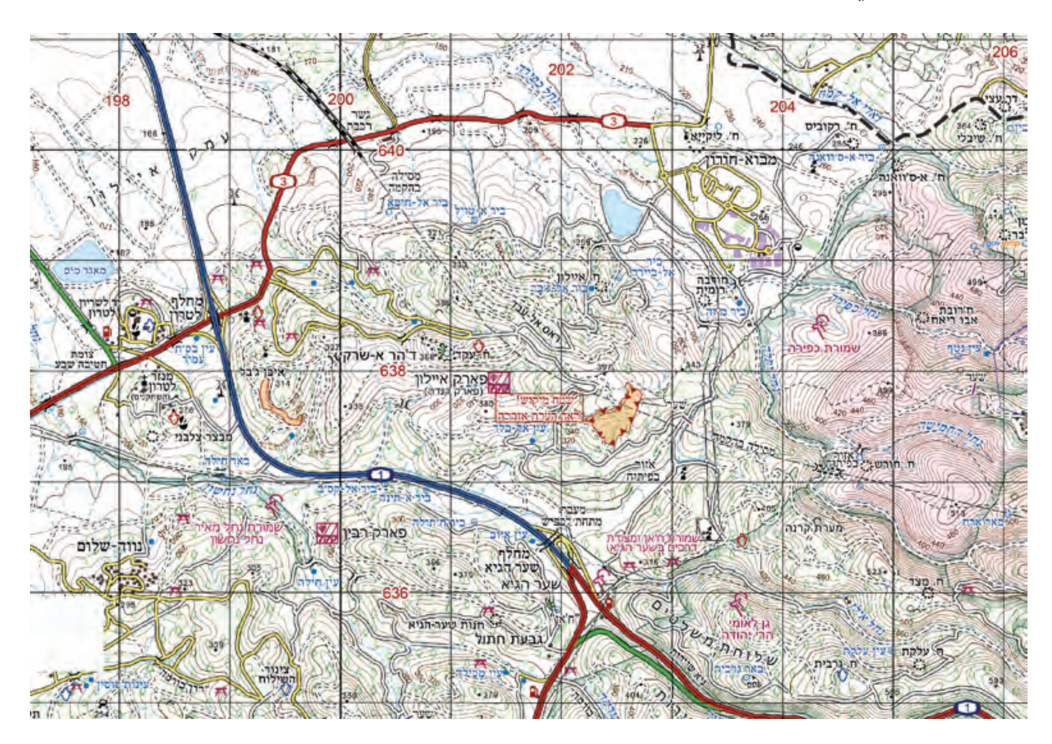
تسببت حرب العام 1967 بالمزيد من الآثار المدمرة على منطقة اللطرون. فمباشرة بعد احتلال المنطقة طرد الجيش الإسرائيلي سكان قرى اللطرون المتبقية الثلاث -عمواس ويالو وبيت نوبة- وبدأ بعدها مباشرة بهدم القرى،[37] لإتمام مهمة إخلاء المنطقة من سكانها وطمس آثارهم، التي لم تكتمل سنة 1948.

وعلى الرغم من استثناء الضفة الغربية حالياً من عدد من الخرائط الإسرائيلية والخطط الوطنية، ظهرت الضفة الغربية في سلسلة من الخرائط الطبوغرافية المفصلة بمقياس 1:50,000، دون إعطاء أي تبرير لذلك. ويمكن أن نفترض أن التبرير هو أن هذه الخريطة تبين الأرض والطبوغرافيا والمعالم الطبيعية، ولا تبين الحدود أو التقسيمات السياسية. وفي الواقع أن إلغاء الضفة الغربية من خريطة طبوغرافية لفلسطين التاريخية هو أمر مستحيل وغير مجد، حيث تبدأ جميع المعالم الطبوغرافية للسهل من الجبال: الوديان، الخطوط الكنتورية، وحتى المعالم الأخرى من صنع البشر كالشوارع. على الرغم من ذلك، تظهر العديد من الرسائل السياسية في رسم مثل هذه الخرائط التي تصطدم مع الطبيعة الفنية المحايدة للخريطة الطبوغرافية، كالأماكن والأسماء، وتحديد مناطق السلطة الفلسطينية (أ) و(ب) (وعدم تحديد المناطق (ج))، أما خط هدنة سنة 1949، فاختفى تماماً.

وفي منطقة اللطرون يمكن تحليل الترجمة البصرية المباشرة للواقع السياسي منذ الاحتلال الإسرائيلي سنة 1967 دون جهد كبير؛ فقد اختفت المنطقة الحرام وخط هدنة سنة 1949 تماماً. كما اختفت أسماء خمس قرى فلسطينية ومناطق منشأة بسبب عمليات الطمس والهدم على الأرض على يد الجيش الإسرائيلي، وبخاصة في حزيران 1967. كما تم تحويل خط شارع يافا-القدس شمالاً ليمر

فـي المنطقـة الحـرام.[38] وتبيـن النسـخ الجديـدة مـن الخريطـة الخطـوط المتواريـة التـي تشـير إلـى خـط النفـق الخـاص بالقطـار السـريع مـا بيـن تـل أبيـب والقـدس الـذي أنشـئ مؤخـراً. وتـم ابتـلاع «النقطـة الخرائطيـة» لمنطقـة اللطـرون التـي نشـأت عـن خـط هدنـة سـنة 1949. تطلـب طمـس المشـهد الفلسـطيني فـي منطقـة اللطـرون إضافـة طبقـة أخـرى علـى بقايـا منـازل القريـة، وفـوق مشـهد القريـة نفسـها لإلغـاء واسـتبدال هويـة المشـهد الثقافـي الفلسـطيني، حيـث وسّـع الإسـرائيليون «الغطـاء الأخضـر» الـذي بـدأوا بإنشـائه سـنة 1948 (بمـا فيـه الغابـات والمتنزهـات والنشـاطات الترفيهيـة الأخـرى)[39] فـوق مشـهد القـرى الفلسـطينية المدمـرة المجـاورة نحـو الشـرق.

ويبيـن تحليـل لخرائـط 1:50,000 يذهـب لأبعـد مـن مجـرد ملاحظـة مـا تغير علـى الأرض، السـلطة السياسـية الفاعلـة التـي تتضمنهـا الرسـائل التـي تـم توصيلهـا بصريـاً مـن خـلال المعلومـات الموجـودة علـى الخريطـة. تبيـن النسـخة الجديـدة مـن خريطـة 1:50,000 اسـم المتنـزه الـذي أنشـئ سـنة 1973 وهـو أيالـون كنـدا بـارك[40] علـى أراضـي عمـواس ويالـو وجـزء مـن أراضـي ديـر أيـوب (شـمال الشـارع الرئيسـي)، ويظهـر عليـه شـعار الصنـدوق الوطنـي اليهـودي. ويشـير وجـود هـذا الشـعار إلـى دمـج المشـهد الريفـي الفلسـطيني فـي العمليـة الاسـتعمارية الإسـرائيلية المعروفـة مـن خـلال عمليـات التشـجير التـي قامـت عليهـا المنظمـات الحكوميـة وغيـر الحكوميـة كالصنـدوق الوطنـي اليهـودي.[41]



الشكل 15: مسح إسرائيل، الخريطة الطبوغرافية 1:50,000، منطقة اللطرون ومحيطها (معدلة)، مسح إسرائيل

ونسـتطيع أن نـرى علـى الخريطـة خصائـص المتنـزه وغطـاءه الطبيعـي ومسـارات التنـزه والمواقـع الأثريـة وعيـون الميـاه وحتـى المواقـع المقدسـة فـي القريـة كالمعابـد مـع مسـمياتها الفلسـطينية المحليـة «كعيـن البلد» الموجـود بالقـرب مـن مـكان مركـز القريـة سـابقاً. ولكـن القريـة نفسـها، ديـر أيـوب، قلـب هـذا المشـهد الثقافـي، محيـت تمامـاً. وكان هـذا التلاعـب الخرائطـي محاولـة لإعـادة ترتيـب مشـهد القريـة الفلسـطينية ودمجـه فـي

النطـاق الاسـتعماري؛ بهـدف فـرض علاقـة مـا بيـن المسـتعمر والأرض، مـن خـلال خريطـة تسـاعد المسـتخدمين الإسـرائيليين، كالمتنزهيـن، علـى اسـتدلال علـى طريقهـم مـا بيـن التضاريـس واستكشـاف المعالـم الطبيعيـة والتاريخيـة. نجـد هنـا تشـابهاً كبيـراً فـي التركيـز الانتقائـي والمبالـغ فيـه علـى جانـب الآثـار مـا بيـن هـذه الخريطـة وخريطـة القـرن التاسـع عشـر للآثـار فـي الشـرق. ولكـن الخريطـة الإسـرائيلية كان لهـا اسـتخدام عملـي مختلـف لإعـادة تركيـب الجانـب التاريخـي مـن تحويـل الآثـار إلـى جـزء مـن الممارسـات الثقافيـة والترفيهيـة، واسـتخدام السـلطة للمسـاعدة فـي بنـاء الهويـة والوجـدان الوطنـي.
وممـا يثيـر الدهشـة بشـكل عـام حـول خـط هدنـة 1949، المعـروف «بالخـط الأخضـر»، هـو قـدر الشـحن السياسـي الـذي ارتبـط بـه، حتـى أنـه أصبـح يذكـر فـي النقاشـات السياسـية حـول إنهـاء الاحتـلال الإسـرائيلي، أو أي حلـول مسـتقبلية للنـزاع. ولكـن ومنـذ العـام 1967 بـدأ هـذا الخـط يختفـي تدريجيـاً مـن الخرائـط المحليـة الإسـرائيلية وعلـى أرض منطقـة اللطـرون داخـل «المتاهـة» الخضـراء (مـن دون حـدود حقيقيـة، أو سـياجات شـائكة، أو أسـوار حمايـة، أو أبـراج مراقبـة أو أي علامـات ظاهـرة)، حيـث تحـول إلـى قالـب أقـل وضوحـاً وأكثـر تعقيـداً للضبـط والفصـل المكانـي. ويبـدو التجلـي الفـج لهـذا القالـب علـى بعـد 4 كيلومتـرات فقـط إلـى الشـمال مـن هـذه الغابـة الجديـدة والمنطقـة الترفيهيـة متمثـلاً فـي الجـدار الإسـرائيلي الفاصـل جنـوب قريـة بيـت لقيـا الفلسـطينية. يشـبه هـذا الجـدار إلـى حـد كبيـر الفصـل الراديكالـي الحالـي الـذي بـدأ سـنة 2002 بإنشـاء «حاجـز أمنـي مؤقـت» آخـر، وهـو تجـلٍّ واضـح للنـزاع الحالـي والهيمنـة الاسـتعمارية. ولنـا أن نتسـاءل كيـف يمكـن لهـذا التلاعـب الخرائطـي المسـتمر أن يتـرك مجـالاً لتخيـل المرحلـة القادمـة مـن هـذه المهمـة الاسـتعمارية المسـتمرة.

الخلاصة

يبيـن هـذا التحليـل المبدئـي لعـدد مختـار مـن الخرائـط والصـور الجويـة العلاقـة الجدليـة مـا بيـن رسـم الخرائـط والتحـول الراديكالـي الـذي حصـل فـي جغرافيـة ريـف فلسـطين، وبخاصـة فـي حالـة قريـة ديـر أيـوب والمناطـق المجـاورة لهـا. اسـتخدمنا قصـة ديـر أيـوب كحالـة دراسـية حـول التمثيـل البصـري للجغرافيـا الريفيـة في فلسـطين خـلال المئـة سـنة الماضيـة بشـكل عـام، إضافـة إلـى كونهـا مثـالاً علـى الممارسـة الاسـتعمارية للسـلطة مـن خـلال الخرائـط والسياسـات والوقائـع علـى الأرض فـي فلسـطين. وعلـى الرغـم مـن خصوصيـة موقعهـا الاسـتراتيجي والتبعـات التـي نشـأت عـن ذلـك خـلال النكبـة، فـإن ديـر أيـوب ليسـت اسـتثناء، بـل بالعكـس فهـي حالـة نموذجيـة للتمثيـل البصـري لمناطـق الريـف الفلسـطيني، وبخاصـة تلـك التـي دمـرت مـا بيـن 1948–1967، وزوال مئـات القـرى التـي سـقطت فـي الحـرب محـى مشـهدها التاريخـي خـلال المئـة سـنة الماضيـة فـي فلسـطين.[42]
بيّـن التحليـل المبدئـي للخرائـط أنهـا ليسـت تمثيـلات فنيـة محايـدة للجغرافيـا أو الملكيـة فـي فلسـطين، وإنمـا «شـكل مـن أشـكال المعرفـة المبنيـة اجتماعيـاً»[43] حـول المشـهد والسـلطة السياسـية الضمنية التي مورسـت بشـكل مباشـر فـي الإنتـاج والاسـتخدام والضبـط والسـيطرة، وبشـكل ضمنـي مـن خـلال الرسـائل المباشـرة وغيـر المباشـرة التـي عكسـتها. لقـد اسـتخدمت هنـا إطـاراً لتحليـل الخرائـط المختـارة والصـور الجويـة إلـى حـد مـا، لأن كلتيهمـا تمثـل إنتاجـاً وعمليـة لبنـاء المعنـى. بـدأت هـذه الدراسـة بتحليـل التمثيـل البصـري لقريـة ديـر أيـوب وتتبعـه زمنيـاً منـذ أن كان فـي حـده الأدنـى فـي خرائـط الحـرب العالميـة الأولـى (أو حتـى مـا قبـل ذلـك) حيـث كانـت مجـرد نقطـة صغيـرة فـي جغرافيـة الأراضـي المقدسـة، ومـن ثـم التوسـع فـي تمثيـل الريـف الفلسـطيني فـي عهـد الانتـداب البريطانـي للأغـراض الإداريـة الاسـتعمارية فـي السـيطرة والتحكـم، وبخاصـة الاسـتيطان فـي الأراضـي ونظـام الضرائـب الماليـة. وبعدهـا انتقلـت لسـرد تبعـات 1948 ووضحـت الآثـار السـلبية علـى مصيـر القريـة فـي تكتيـكات المفاوضـات العسـكرية، والتقلـص المتكـرر فـي مسـاحتها علـى خرائـط الحـرب، الأمـر الـذي تسـبب بالنهايـة فـي آثـار مدمـرة علـى قريـة ديـر أيـوب التـي وقعـت ضمـن المنطقـة الحـرام. تبلـور خـط وقـف إطـلاق الأمـر علـى الخرائـط الدوليـة التـي تناولـت النـزاع كخـط حـدودي، وفـي الوقـت ذاتـه بـدأ يتضـاءل علـى

الأرض لصالح تكتيكات التوسع الاستعمارية. إضافة إلى ذلك، وضّح هذا الخط بشكل مختصر سياسات التمثيل والسرد الخرائطي الإسرائيلي الحصري الذي يلغي المشهد الفلسطيني من خلال عملية إعادة الترتيب والطمس وإعادة تسمية مكوناته.

ييسر الإطار التحليلي الجامع هذا المزيد من القراءة النقدية وتتبع هيكليات السلطة ضمن الخريطة والصورة كوثيقة مؤرشفة. تحدد الاستراتيجيات الخرائطية العناصر التي تطرح على سطح الخريطة، وكيفية تفسير الخريطة أو الصورة كوثيقة أرشيفية. كان هذا التحليل محاولة لتتبع القوة الاستعمارية ضمن هيكلية الخريطة من خلال تتبع التحولات عندما تطغى على العناصر، مثل الشبكة العسكرية في خرائط الحرب العالمية الأولى، وحدود القرى في خرائط الانتداب البريطاني، وخط هدنة 1949. كذلك تتبع التحليل التمثيل الانتقائي وترتيب المعالم الطبيعية والأثرية في الخرائط التي سبقت الحرب العالمية الأولى وخرائط إسرائيل الطبوغرافية بعد سنة 1967. بينت الغابات الظاهرة في خريطة القرى الخاصة بالانتداب البريطاني والخرائط الطبوغرافية الإسرائيلية، التطبيق التدريجي لسياسة التشجير الاستعمارية كأيديولوجية مختلفة وكثقل يرزح على بقايا المشهد الفلسطيني. بين التحليل الفريد للصورة الجوية التي التقطت في الحرب العالمية الأولى، أهمية تفسير الوثائق الأرشيفية المتعلقة بالموضوع، وكذلك العوامل التي تحد من هذا التفسير، وكيف يمكن أن يتم التلاعب بها واستخدامها لتسليط الضوء على جزء من خصائص المشهد الفلسطيني، واستثناء وإسكات الجزء الآخر. وعلى الرغم من النطاق الجغرافي المحدود لهذه الدراسة، فإن سردها النقدي يمثل ظاهرة أوسع بكثير، فهناك الكثير من الحالات المشابهة التي يجب أن يتم الكشف عنها ودراستها من خلال الأبحاث والنقاشات المستقبلية.

إياد عيسى معماري وباحث في مجالات عدة، يركز في عمله على التقاطعات بين العمارة والعمران والجغرافيا والفن. وهو يُدرّس في دائرة العمارة في جامعة بيرزيت.

الهوامش:

1 John Harley, The New Nature of Maps: Essays in the History of Cartography (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 2002), 55.
(الطبيعة الجديدة للخرائط: مقالات حول تاريخ رسم الخرائط)

2 سلمان أبو ستة. أطلس فلسطين 1917 – 1966 (لندن: جمعية أرض فلسطين، 2011)، 112.

3 عباس نمر. محو قرية التحدي. (رام الله: الشرق، 1993)، 6 – 9.

4 «دير أيوب»، ويكبيديا (عربي)، الموقع الإلكتروني (ar.wikipedia.org) tinyurl.com/ulcxp24) (تم الدخول إلى الموقع في 2020/3/9).

5 نمر، دير أيوب، 115.

6 William Lynch, Narrative of the United States' Expedition to the River Jordan and the Dead Sea, (Philadelphia: Lea and Blanchard, 1850), 435.
(قصة بعثة الولايات المتحدة إلى نهر الأردن والبحر الميت).

7 Claude R. Conder and H. H. Kitchener, The Survey of Western Palestine: Memoirs of the Topography, Orography, Hydrography, and Archaeology, vol. 3 (London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1883), 15 and 55; available online at (archive.org) tinyurl. com/tu5czwx (accessed 9 March 2020).
(مسح غرب فلسطين: مذكرات الطبوغرافيا ووصف الجبال والهيدروغرافيا وعلم الآثار، المجلد الثالث).

8 هناك تفاصيل وتصويرات أكثر تتعلق بالمناطق الحضرية، كمشاريع البنية التحتية مثل خط حديد الحجاز (1900)، خط سكة حديد يافا–القدس (1892)، بعثة الولايات المتحدة للبحر الميت، وعدد من البعثات الأخرى التي أنتجت تصويرات مختلفة لمشهد المستقرات البشرية.

9 John Harley, The New Nature of Maps, 57.
(الطبيعة الحقيقية للخرائط)

10 Edip Özkale & Mustafa Şenler, Haritaci Mehmet Şevki Pasa Ve Turk Haritacilik Tarih (1919 yilina kadar), II Boliim [An Abridgement of "A Summary of Ten Years of Efforts Regarding Turkish Cartography" by Mehmet Şevki PaŞa] (Ankara, 1980), 66–70.

(مختصر لجهود عشر سنوات من رسم الخرائط العثمانية).

11 Dov Gavish, A Survey of Palestine under the British Mandate. 1920–1948 (NY: Routledge, 2005), 12–15.

(مسح لفلسطين تحت الانتداب البريطاني. 1920 – 1948).

12 اختلف وضع المناطق الحضرية بشكل كبير منذ أصبح بالإمكان الحصول على المزيد من التفاصيل عن المناطق الحضرية من الصور الجوية.

13 في تشرين الثاني–كانون الأول 1917، أصبح تقاطع اللطرون–باب الواد موقعاً استراتيجياً تجب السيطرة عليه بعد فوز القوات البريطانية بمعركة بير السبع في غزة، وذلك استعداداً لمعركة احتلال القدس المرتقبة. تقدم الجيش البريطاني بحسب الخطة بعد معركة صغيرة في اللطرون. وبعدها بدأ الجيش بالهبوط نحو القدس من مسالك عدة. وبحسب التاريخ الشفوي الذي يرويه القرويون في دير أيوب، ترك السكان المدينة، بينما كان القتال لا يزال قائماً في قرى اللطرون المجاورة كبيت ثول، وعادوا إلى القرية بعدها بوقت قصير. انظر دير أيوب، ويكيبيديا (عربي)، على الإنترنت (tinyurl.com/v6m4okj (ar.wikipedia.org)) (تم الدخول إلى الموقع آخر مرة في 2020/3/9).

14 استخدمت صور أخرى غير المستخدمة هنا لأغراض التحليل في تشرين الثاني 1917 وآب 1918.

15 Benjamin Kedar, The Changing Land between the Jordan and the Sea, Aerial Photographs from 1917 to the Present (Yad Ben Zvi press & MOD publishing, 1999), 12.

(الأرض المتغيرة ما بين الأردن والبحر، صور جوية من 1917 حتى الآن).

16 Alon Tal, All the Trees of the Forest: Israel's Woodlands from the Bible to the Present (New Haven: Yale University Press, 2013), 31.

(كل أشجار الغابة: غابات إسرائيل من زمن الإنجيل وحتى الآن).

17 Gavish, A Survey of Palestine, PII (preface) and 36.

(مسح فلسطين).

18 هناك ورقة أخرى حول هذا الموضوع قيد الإعداد.

19 تبدو الخريطة المستخدمة هنا نسخة جديدة عن خريطة سنة 1933–34 الأصلية، لأنها تتضمن ترسيم خط الهدنة والمنطقة الحرام.

20 Gavish, A Survey of Palestine, P144–46.

(مسح فلسطين).

21 Gavish, A Survey of Palestine, P144–46.

(مسح فلسطين).

22 استثنى هذا صحراء النقب نوعاً ما.

23 Linda Quiquivix, "When the Carob Tree Was the Border: On Autonomy and Palestinian Practices of Figuring it Out," in Capitalism Nature Socialism, 24, no. 3 (2013): 170–189; online at tinyurl.com/v8zqons (tandfonline.com) (accessed 9 March 2020).

(عندما كان شجر الخروب هو الحدود: حول تحرر فلسطين والممارسات الفلسطينية في إيجاد حل).

24 أبو ستة. أطلس فلسطين، 26–28. أحد التبريرات الفنية التي استخدمت بشكل متكرر هي أن مسح السهول الساحلية أنجز بشكل أسرع بسبب طبوغرافية المنطقة ومساحتها. وهذا يدل على الضغط الذي كانت تفرضه الجهات المختلفة على دائرة مسح فلسطين، وبخاصة الحركة الصهيونية، لإنجاز المسح بأسرع وقت ممكن. للمزيد من التفاصيل راجع مسح فلسطين.

25 تضمنت أعمال التشجير في هذه المنطقة قرى إضافية عدة مثل بيت عطاب، وجراش، وعلار، وسفلى.

26 أُعلنت محمية غابة صفحة وادي علي، رقم 167 في الجريدة الرسمية رقم 196، 1927/10/1، منطقة حرشية مغلقة، كما أعلنت منطقة مجاورة أخرى تدعى جبل/مرعى أبو سمرا في غابة بيت محسير في عدد آخر من الجريدة الرسمية (عدد 151) محمية حرشية، التي يبدو أنها أخذت جزءاً من منطقة قرية دير أيوب كذلك؛ ظهرت كلتا الغابتين على خريطة قرية دير أيوب 1:10,000.

27 استخدم هذا المصطلح من قبل مسؤول الحفاظ على الغابات بالإنابة، أ. ي. غور في تقرير يعود لسنة 1947 يتضمن قائمة بالمحميات الحرشية مقسمة إلى فئات (31 كانون الأول 1946) لوصف هذه الاستراتيجية بشكل عام، وليس لهذه المحمية فقط.

28 بحسب مقابلة أجراها موقع فلسطين في الذاكرة مع محمد القيسي (من دير أيوب)، بعد هجمات عدة على القرية، ومع اشتداد حدة العراك ما بين جيش التحرير العربي الذي كان يقاتل في منطقة ظهر يالو، أرسل أهل القرية النساء والأطفال إلى يالو، وبخاصة في الليل، بينما بقي الرجال في القرية خلال المعارك؛ الموقع الإلكتروني (tinyurl. com/s3hcbcb) (palestineremembered.com) (تم الدخول إلى الصفحة في 2019/12/1). بحسب عباس النمر، عاد سكان القرية إليها بعد انتهاء معارك اللطرون والاتفاق على الهدنة الثانية في تموز 1948، نمر، دير أيوب، 142.

29 بحسب عباس النمر، بعد اتفاقية 1949، أمر الجيش الأردني أهل القرية بالاستمرار في مغادرة القرية في الليل والبقاء فيها في النهار لفترة من الوقت (كما كان الحال خلال المعارك، انظر رقم 28).

30 أرشـيف الأمـم المتحـدة، المملكـة الأردنيـة الهاشـمية إسـرائيل: الخـط العـام للهدنـة، الموقـع الإلكترونـي: tinyurl.com/v4ub7bw (unispal.un.org)، (تم الدخول إلى الصفحة في 2020/3/9)

31 "The 'Green Line': A topographical map," online at (museum.imj.org.il) tinyurl.com/tmdh4lk (accessed 9 March 2020).
(الخط الأخضر: خريطة طبوغرافية)

32 أبـو سـتة. أطلـس فلسـطين، 101. راجـع: عبـد اللـه التـل. خريطـة فلسـطين: مدخـرات عبـد اللـه التـل (نكبـة فلسـطين: مذكـرات عبـد اللـه التـل) (القاهـرة: دار القلـم، 1959).

33 «'الخط الأخضر': خريطة طبوغرافية».

34 أبو ستة، أطلس فلسطين، 101.

35 أبو ستة، أطلس فلسطين، 102.

36 أصبـح الجـزء الواقـع مـن طريـق يافا–القـدس ضمـن المنطقـة الحـرام، وبالتالـي تـم إغلاقـه وبقـي غيـر مسـتخدم فـي الفتـرة مـا بيـن 1948–1967.

37 «حسـاب طويـل وموجـع: جولـة فـي منتـزه كنـدا لـن تقـرأوه فـي لافتـات الكيـرن كيمـت»، موقـع ذاكـرات، zochrot.org/ar/article/54157، (تـم الدخـول إلـى الصفحـة فـي 2020/3/27).

38 والغـرض هـو ألا تتـم المطالبـة بهـا مـن قبـل الفلسـطينيين أو الأردن فـي أي مفاوضـات مسـتقبلية.

39 إضافـة إلـى بنـاء الموشـافا والكيبوتسـات وفـي حـالات قليلـة تمـت إعـادة تخصيـص المنـازل الفلسـطينية للاسـتفادة مـن مسـاحة القريـة.

40 «عمـواس»، ذاكـرات، zochrot.org/en/village/52872 (تـم الدخـول إلـى الصفحـة فـي 2020/3/27). كان اسـمه وقـت إنشـائه متنـزه كنـدا.

41 عنـد مقارنـة المنطقـة مـع الصـور الجويـة، يمكننـا أن نفهـم أن إسـرائيل حافظـت علـى معظـم الأراضـي الزراعيـة الخصبـة علـى طـول طريـق يافا–القـدس كأراضٍ زراعيـة، ولكنهـا خصصتهـا للمزارعيـن الإسـرائيليين.

42 علـى الرغـم مـن حالـة ديـر أيـوب الغريبـة فيمـا يتعلـق بخـط الهدنـة، خسـر أهـل القريـة علـى طـول الخـط الأخضـر أراضيهـم بالطريقـة نفسـها، وتعطـل مشـهدهم بطريقـة أو بأخـرى، مـن الأمثلـة علـى ذلـك قـرى بيـت صفافـا، وبتيـر، وبيـت إكسـا.

43 John Harley, The New Nature of Maps, 52.
(الطبيعة الجديدة للخرائط).

واقعيّة حُبيبيّة

ممارسات مهيمنة للتصوير الحيّزيّ في النقب والممارسات المضادّة لها

أرييل كين

استخدام المُسيّرات وأنظمة التموضع الجغرافي لرصد عمليات البناء «غير القانونية»

تهدف عملية تحويل الأرض المستمرة ببطء منذ 70 سنة لطمس آثار البدو الفلسطينيين القاطنين في العراقيب ومنطقة النقب بالتدريج. تُعد الشجيرات الصغيرة التي تحيط بأرض العراقيب جزءاً من غابة مشمار هنيجيف Mishmar Hanegev، نسبة إلى الكيبوتز اليهودي المجاور، وهي جزء من مشاريع التشجير التي أقامها الصندوق القومي اليهودي وسلطة الأراضي الإسرائيلية على الطرف الشمالي لصحراء النقب. حيث تُشّكل هذه المشاريع من غابة ياتير (Yatir) في الشرق إلى غابة بييري (Be'eri) في الغرب خطي دفاع متقاطعين: يهدف أحدهما للمحاربة المفترضة للتصحر، بينما يركز الآخر، الذي يمتد من قطاع غزة حتى خط وقف إطلاق النار في الضفة الغربية، على تعطيل توسع الوجود الفلسطيني الذي يهدد بتجزئة السيادة اليهودية – الإسرائيلية على الأرض من الشمال إلى الجنوب. وليست المبررات الإيكولوجية هي ما يميز جهود تحريج هذه القطعة، التي تأتي ضمن حملة منظمة من الدولة تحمل اسم «الغسيل الأخضر» أو آثارها المنشودة، ولكن ما يميزها أن تحريجها جاء خدمة لهدف اقتلاع البدو الفلسطينيين الأصليين منها وتقويض جميع الأدلة التي تثبت تراثهم في المنطقة. ومن خلال هذا الاستخدام المعكوس للتحريج الصديق للبيئة، عمل الصندوق القومي الإسرائيلي والدولة الإسرائيلية على تغيير الظروف على الأرض بشكل نهائي، بهدف التحايل على العمليات القضائية والخطاب العام على حدّ سواء.

تحولت «معركة النقب» التي بدأت بـ «عملية يواف»[1] سنة 1948 خلال العقود اللاحقة من صراع عسكري مباشر إلى صراع يُشّن من خلال الفلاحة والتنمية والإنشاء والديموغرافيا. تطلّب ترجيح كفة الميزان لصالح الدولة (اليهودية) بشكل متزايد وجود منظمات سريعة وكفؤة لتقوم بالرصد، حيث أثبتت الممسوحات والرصد الجوي أنها الأسلوب الأكثر كفاءة لمتابعة عمليات الإنشاء والفلاحة غير القانونية ومحاولات عودة الفلسطينيين الإسرائيليين في النقب.

هذا المقال مأخوذ عن أطروحة المؤلف التي حملت عنوان: «الواقعية البلورية/ الأنطولوجيا والممارسات المعاكسة للهيمنة في التصوير الجوي»، جامعة غولدسيمث في لندن، 2019. عمل المؤلف كمنسق للمشروع وباحث في مشروع الواقعية البلورية لمؤسسة «Forensic Architecture».



الشكل 1. مقبرة الطوري كما تُرى من سحابة community satellite، 2016 (الجهة اليسرى) وكما ترى من تطبيق Google Earth، 2017 (الجهة اليمنى).

يساهم وزراء الحكومة الإسرائيلية والمنظمات غير الحكومية اليمينية في تهويد النقب بمساعدة من الأكاديميين والمحامين والسياسيين والمخططين الذين يضغطون «على حدّ تعبيرهم» لصالح تنفيذ حكم القانون فقط، حيث تتضافر الرؤية والطمس، التصوير والتخطيط، القانون وحقوق التخطيط لتشكل شبكة من العلاقات المتبادلة، وحلقة للتغذية الراجعة تجمع بين ما هو أيديولوجي وما هو بيروقراطي. حافظ هذا النظام على مساره الثابت منذ 1948: وهو يهدف «لتهويد» الأراضي المتنازع عليها «وإحيائها» على حدّ تعبيرهم، إضافة إلى محاولات تحييد[2] مقاومة الفلسطينيين البدو سياسياً، ونزع الشرعية عن نضالهم لاستعادة حقوقهم بالأرض في وجه الهيمنة العرقية اليهودية.

وإن كان الهدف من المسح – التصويري، حتى وقت قريب، اختزال الحجم الجغرافي إلى معالم السطح فقط، إلا أن العقد الماضي شهد طرح التمييز التلقائي للمعالم باستخدام الدلالات والخوارزميات في عمليات الاستشعار عن بعد، وعمل نظم المعلومات الجغرافية في الفضاء ثنائي الأبعاد وثلاثي الأبعاد. وزاد استخدام أدوات التعلم الآلية هذه في الاستشعار عن بعد والمسح الجوي وإنتاج بيانات الرصد من قدرة سلطات الدولة والمنظمات غير الحكومية اليمينية مثل ريغافيم (Regavim) بشكل كبير على الرصد والتقدير الكمي لأثر توسع مستقرات البدو الجديدة و«غير القانونية» كما يسمونها، والعمل على الحدّ منه.

وبحسب النسخة الإنجليزية من موقعهم الإلكتروني، فإن ريغافيم ملتزمة «بالاستخدام المسؤول والقانوني والمحاسب والبيئي لأراضي إسرائيل القومية، وإعادة تطبيق حكم القانون في جميع المناطق وجميع جوانب الأرض والحفاظ عليها».[3] ولقد تمت صياغة هذه الجملة بطريقة تعكس اهتماماً مدنياً ومهنياً واضحاً بحكم القانون، ولكن، وفي النسخة العبرية من الموقع (وفي بعض الأجزاء التي تتناول تفاصيل أكثر من الموقع باللغة الإنجليزية) تتغير اللغة المستخدمة لتصبح لغة حرب عرقية – قومية مباشرة من أجل البقاء، والتي يجب أن تُشن باستخدام أحدث أساليب الرصد والاستشعار عن بعد، المترافقة يداً بيد مع نشاطات الزراعة والتحريج والاستيطان اليهودية. حيث يذكر الموقع العبري أن ريغافيم تهدف «لنشر الأجندة اليهودية الصهيونية ... في الجوانب المتعلقة بالأرض والبيئة... ومناصرة

المحافظة على موارد إسرائيل الطبيعية وحفظها للشعب اليهودي بالكامل ... والحرص على ألا يستحوذ عليها أي كان بما يخالف القانون وبالتأكيد ليس تحت إشرافه» فأولئك الذين يهددون ويحسدون أرض اليهود القومية والذين يحاولون القضاء على الدولة اليهودية بحسب ريغافيم هم «عملاء أعداء تدعمهم ماليا دول أجنبية في أوروبا والعالم العربي وتدعمهم معنويا المنظمات المعادية للصهيونية في إسرائيل».

وتعد منظمة ريغافيم مثالاً فريداً على الطريقة التي غيّر فيها المستوطنون العقائديون اليمينيون أسلوب عملهم، فمن ناحية تبنّوا خطاب حقوق الإنسان والقانون الدولي[4] لتصوير أفعال إسرائيل ضد الفلسطينيين على أنها أعمال دفاعية، حتى عندما تكون داخل الحدود المعترف بها دولياً عام 1948. إضافة إلى ذلك، وفي موازاة الارتفاع في التضامن الفلسطيني البدوي ما بين الضفة الغربية وأراضي 1948 وغزة، تسعى المنظمة غير الحكومية لطمس الفرق ما بين النقب والضفة الغربية وغزة، أملاً في تحقيق إسرائيل الكبرى.

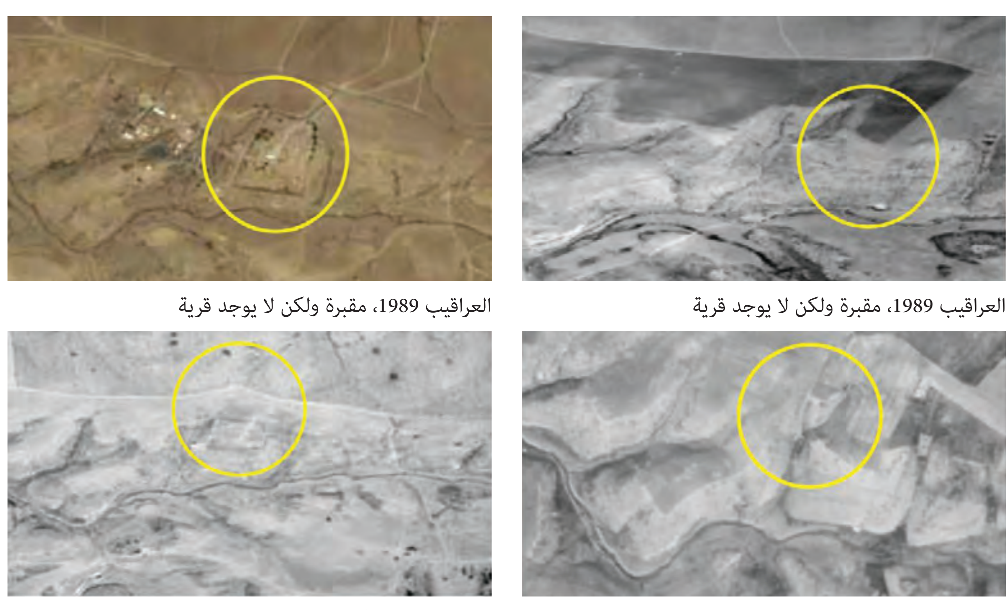
ويُشّن التصعيد الحالي لـ«المعركة من أجل النقب» من خلال تحالف ما بين سلطات التخطيط في الدولة وهذه المنظمة الأهلية الجديدة الاستيطانية الصهيونية المتخصصة بتقنيات الاستشعار عن بعد. تعمل ريغافيم من خلال الاستخدام المتوازي للمسوحات الأرضية والإجراءات القانونية وجهود المناصرة، محاكية بذلك عمل المنظمات غير الحكومية اليسارية، كالسلام الآن وبتسيليم وييش دين وبمكوم، التي توظف الاستشعار عن بعد في فترات زمنية مختلفة لرصد أعمال الدولة غير القانونية، واتباع الطرق القانونية (والمناصرة) في محاولة لمحاسبة الدولة نيابة عن المجتمع المدني والسكان غير الممثلين في الأراضي المحتلة. تبنت ريغافيم أساليب مشابهة ضد الفلسطينيين لتحفيز الدولة على العمل، وأصبح تحليل نظم المعلومات الجغرافية وصور الأقمار الصناعية جزءاً أساسياً من تقاريرهم والأوراق التي توضح مواقفهم.[5]

كانت قرية العراقيب موضوع عدد من تقارير ريغافيم، التي حاولت جميعها، بشكل مُمنهج، نقض ادعاءات عشائر العراقيب في المحكمة. وركز آخرها، الذي صدر في 31 كانون الأول 2018، بعنوان «حقيقة البدو في النقب»[6] على شهادة البروفسوره روث كارك، أحد أهم الشهود الخبراء الذين قدمتهم الدولة في المحاكمات المتعلقة بحقوق البدو في الأرض، حيث حاولت البروفسوره كارك دحض ادعاءات البدو بأنهم سكان المنطقة الأصليون، وتواجدهم المستمر على الأرض قبل قيام دولة إسرائيل، وارتباطهم التاريخي والمعيشي والثقافي بها. حيث تَدّعي كارك في النتائج التي عرضتها، والتي يدعمها تحليل الصور الجوية الذي قامت به منظمة ريغافيم، أن ادعاءات وجود قرية العراقيب ومقبرتها باطلة، بسبب عدم وجود أدلة على وجود المقبرة قبل سنة 1965، وأن القرية نفسها أُنشئت سنة 1990.

ولكن فحصاً بسيطاً للصور الموجودة في التقرير تكشف أنها شُوهِت، والأهم من ذلك أن العلامات الصفراء التي تدل على منطقة المقبرة لا تشير إلى الموقع الصحيح في جميع الصور، باستثناء الصورة المأخوذة سنة 2010. إضافة لذلك، وكما شرح البروفسور إيال وايزمان ومؤسس منظمة Forensic Architecture[7] أن مساحة مقبرة الطوري كانت لا تزال صغيرة في أربعينيات القرن الماضي، وأن القبور كانت عبارة عن أكوام صغيرة من التراب[8]. وبالتالي، فإن مستوى التفاصيل الموجود في صور ريغافيم الجوية غير كاف للتمييز بين الأرض والقبر؛ والتكبير وحده إلى مستوى بلورة هاليد الفضة في الصورة مع تركيبها فوق برمجيات نظام المعلومات الجغرافية يتيح لنا رؤية ذلك، حيث أن آثار المقبرة تظهر حقيقة في الصور التي التقطت سنة 1945، 1949 و1956.

وفيما لا ترى الدولة والخبراء المساندون لها سوى خيام مؤقتة وعرضية تعود لعشائر بدوية رحالة، إلا أننا نستطيع بوضوح أن نرى قرية زراعية مستقرة باستمرار من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الأمر الذي يمكن توثيقه من خلال الشهادات وسجلات الأرضي والصور الجوية التي

التقطت قبل إنشاء دولة إسرائيل وكذلك السكان الحاليين للعراقيب. ومن الصحيح أن القرية لم تنشأ بشكلها الحالي حتى نهاية التسعينيات، ولكن قبل قيام إسرائيل وتهجير الفلسطينيين البدو سنة 1951، سكنت العائلات البدوية الأرض واستقرت فيها في تجمعات من المساكن توزعت بحسب القرابة العائلية، وحيث كانت كل عائلة تملك وتفلح أراضيها، كما أنها تضمنت مجموعة من الإنشاءات بشكل خيام ومنازل حجرية وطينية وكهوف تحت الأرض لتخزين الحبوب وحفر القبور.



العراقيب 1989، مقبرة ولكن لا يوجد قرية

العراقيب 1989، مقبرة ولكن لا يوجد قرية

العراقيب 1945، لا توجد مقبرة ولا توجد قرية

العراقيب 1965، آثار مقبرة جديدة، لا توجد قرية

الشكل 2. التفسير الجوي الذي قدمته ريغافيم في محاولة لدحض ادعاء عائلة الطوري بأن العراقيب كانت موجودة قبل سنة 1965، الصفحة الإلكترونية tinyurl.com/r7snlrp (regavim.org)، (تمت زيارة الصفحة في 2020/4/14).

وأنشأت ريغافيم في 2016، وحدة للمُسيّرات لتزيد من قدرتها على رصد استخدامات الأراضي والبناء عليها في كامل إسرائيل والضفة الغربية، واهتمت هذه الوحدة بشكل خاص بالحدّ الموجود ما بين منطقة النقب والضفة الغربية، لأنها اعتبرت هذه المنطقة خطاً أمامياً للحرب المعمارية التي يشنها الفلسطينيون والبدو الفلسطينيون، وصدعاً في خط إسرائيل الدفاعي؛ أي أن المنظمة تستخدم الاستشعار عن بعد لرصد ما يسمى «بانتشار سرقة البدو» لأراضي النقب.

تعتمد الدعاوى المرفوعة ضد عشائر الطوري والعقبي وفريح، والتي تتهمهم بالاستيلاء على الأراضي والبناء غير القانوني والتعدي على ممتلكات الغير، على الإنكار القبلي (غير المثبت) لوجودهم طويل الأمد على هذه الأرض وملكيتهم لها. ولكن ما لم يتم الطعن به (بالكامل على الأقل)، هو حقيقة أن هذه العشائر كانت موجودة هناك في مرحلة ما بين عامي 1951 و1953، عندما قام الجيش الإسرائيلي بإخلائهم من هذه المنطقة. ففي جميع أرجاء النقب، أُجبر سكان القرى البدوية الفلسطينية على إخلاء أراضيهم والانتقال إلى منطقة محصورة شمال بئر السبع، صارت تعرف فيما بعد «بسياج». أُعطيت العشائر أسباباً مختلفة لهذا التهجير القسري، كالدواعي الأمنية والمناورات العسكرية وتطوير البنى التحتية وغيرها، وكان يتم تشجيعهم في معظم الحالات على الاعتقاد بأن هذا التهجير هو وضع مؤقت، وأنهم سيرجعون إلى أراضيهم.



الشكل 3. يشير عزيز الطوري إلى مخطط قرية العراقيب في صورة جوية عام 2009 قبل تدميرها عام 2010. تصوير المؤلف، 2017.

وتشكل دعوتان قانونيتان أساس الدعاوى الحالية ضد الدولة: دعوى باستقرار الأسر بشكل مستمر تاريخياً في المنطقة، وملكية الأراضي المفلوحة، ودعوة بشأن قانونية ومدة سريان التهجير القسري الذي تم في الفترة ما بين 1951 - 54 ومصادرة الأراضي التي تمت في بداية الخمسينيات. وتتطلب هذه الدعاوى القانونية التي رفعتها العشائر البدوية أدلة «تربطهم» بالأرض، من خلال تحليل المساحة والتوثيق التاريخي والحالي؛ فأي حجة تدعم استقرارهم في المنطقة قبل قيام دولة إسرائيل يجب أن تربط جميع الشهادات الموجودة والأدلة التوثيقية بالسجلات المادية والسجلات المستندة للصور.



الشكل 4. تقريبا كل موقع من المواقع البدوية لديه سجل أثري مطابق في مسح سلطة الآثار الإسرائيلية. هذه السجلات، التي تم تمييزها في الصور أعلاه بواسطة مستطيلات برتقالية اللون، شوهدت من خلال منصة المسح الإسرائيلية، تعود إلى العصور البيزنطية إلى العثمانيين. لكن في جميع هذه الحالات تقريبًا، فشلوا في الاعتراف بالاستخدام الأخير من قبل العائلات البدوية المحلية على مدار القرنين الماضيين.

التحقيق الأرضي: نحو ممارسة مكانية مضادة مشتركة

في «التحقيق الأرضي»[9]أصبح الإنتاج التشاركي الشخصي للصور الجوية وإعداد الخرائط ثلاثية الأبعاد المستند على الصور شكلاً من أشكال عمل الناشطين الذي يعيد تشكيل فهمنا للرصد والصور الجوية. هدفت في هذا المشروع، الذي عملت فيه كمنسق مشروع وباحث في منظمة Forensic Architecture،[10] إلى دراسة الطرق التي يمكن فيها للأساليب الجديدة في استخدام الغمامة النقطية والمسح التصويري لهيكل الحركة،[11] عند ربطه بشبكة مجال نظام المعلومات الجغرافية - المنفصل حالياً[12]، واستحداثها من خلال عمليات تشاركية طويلة المدى، أن تعيد تعريف إمكانيات عمل الناشطين البصري – المكاني.

وكما ناقشنا سابقاً، كانت المُسيَّرات والطائرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضة، ولا تزال، تستخدم في هذه المنطقة من قبل السلطات لمسح ما يسمى بعمليات الإنشاء غير القانونية التي يتم هدمها بعد ذلك. ولذا اعتمدنا أبسط أشكال التصوير الجوي الموجودة، حيث أتاحت لنا الطائرات الورقية غير الملفتة للنظر، والأهم من ذلك الشاملة في تغطيتها، أن نلتقط صوراً جوية مع أفراد المجتمع المحلي، فيما تبقى أقدامنا ثابتة على الأرض، وتمشي على تضاريسها، بينما تحلق الكاميرا المثبتة على الطائرة الورقية في السماء. وأوجد هذا المشروع الضخم طويل المدى، الذي تم بالتعاون مع عشائر العراقيب و [13]المختبر العام ومنظمة ذاكرات[14]، طريقة يتم من خلالها استخدام المسح التصويري لتجميع الصور الجوية والأرضية وما تحت الأرض[15] المأخوذة في فترات زمنية مختلفة من خلال «أقمار صناعية مجتمعية»[16] في تشكيلات غمامات نقطية مكانية. وتتيح منصة إلكترونية للمعلومات الجغرافية ثلاثية الأبعاد سميت بـ naqab.com الربط ما بين هذه البيئات الجغرافية والبيانات المؤرشفة والمصادر الإعلامية والشهادة من الموقع.

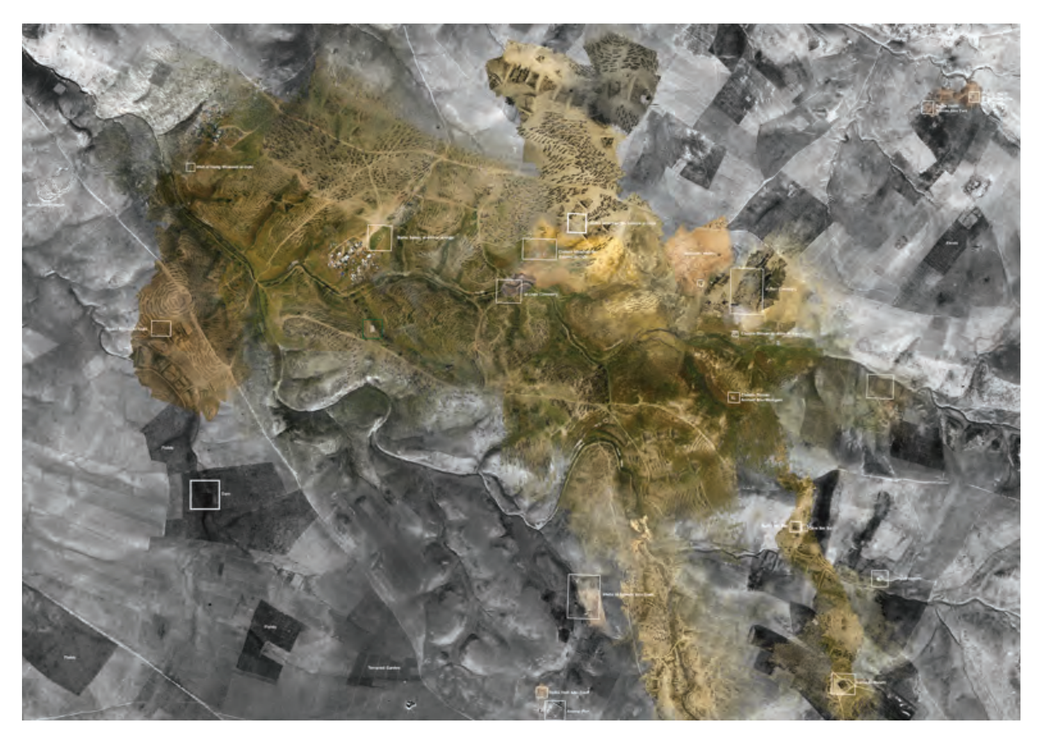


الشكل 5. البيكا (البيت الحجري) وكهف التخزين لابن باري العراقيب: سحابة نقطية مركبة مع مواقع الكاميرا. تصوير المؤلف، 2017، Forensic Architecture.

وينضوي ظاهر الطعن في هذه القضية على العديد من مستويات استخدام الأراضي ونزع الملكية والعنف. وحتى النضال من أجل الأرض هنا متعدد وجماعي بطبيعته، ويشمل المجتمعات المحلية والمنظمات غير الحكومية والناشطين والصحافيين والمحامين. ولذا فإنني أرى، كما يرى البروفسور إيال

وايزمـان، أننـا بحاجـة لأن نقـرأ الأرض كسـطح فوتوغرافـي مـن النقـوش، وألا نقـوم بذلـك مـن خـلال المعرفـة التـي تمتلكهـا الدولـة عـن بعـد، أو مـن خـلال مراجعـة قـراءة الصـور الجويـة فقـط، ولكـن أيضـاً، وبشـكل رئيسـي، مـن خـلال تاريـخ العشـائر والمعرفـة التـي اكتسـبتها مـن الحيـاة فـي تلـك المنطقـة، فيمـا تتجسـد مـن خـلال الإنتـاج الجماعـي للصـور المكانيـة ثلاثيـة الأبعـاد فـي عمليـة مسـح وشـهادة جماعيـة. وسـنربط اعتمـاداً علـى الخصائـص الكامنـة ذات وجهـات النظـر المتعـددة التـي بـرزت مـع هـذا الوسـيط الجديـد أشـكال المعرفـة المتعـددة هـذه – القانونيـة والحياتيـة ووثائـق الأراضـي وبيانـات المسـح والتصويـر – مـن خـلال عمليـة جماعيـة مسـتمرة. وفيمـا تـؤدي الأرض دور طُـرس يسـجل أفعـال العنـف المتكـررة، يتيـح لنـا التصويـر المكانـي قيـاس ومقارنـة وتتبـع طبيعـة وخطـورة هـذه الانتهـاكات والشـهادة عليهـا.

ومـع أن علاقـة هـذه العشـائر بـالأرض بعيـدة كل البعـد عـن الرومانسـية والجمـود، إلا أنهـا مرتبطـة بشـكل معقـد بتجربـة حياتيـة طويلـة لا يمكـن فصلهـا عـن الوجـود علـى الأرض. وبهـذا المفهـوم، لا يقـوم التهجيـر والتحريـج السـريع بمحـو وجودهـم وإرثهـم الماضـي والحالـي فقـط، ولكنـه يقـوّض بشـكل كبيـر قدرتهـم علـى إيجـاد طريقهـم فـي أرض أجدادهـم أو التعـرف علـى معالمهـا. ولكننـي أسـتطيع باسـتخدام مشـروع التحقيـق الأرضـي كمثـال، القـول إننـا كـي نتمكـن مـن التغلـب علـى محـاولات الطمـس هـذه والحـدّ منهـا، فإننـا سـنحتاج لممارسـات تصويـر منتشـرة وتعاونيـة ومتعـددة ومعماريـة؛ أي طُـرس حجمـي ينطـوي فيـه المـكان والصـورة والملاحـة والشـهادة، لتتيـح لنـا تحـدي العقبـات المسـبقة التـي تحـدّ مـن الرؤيـة والمشـاركة المدنيـة، و«اختـراق» الظـروف الحاليـة لإنتـاج الحقيقـة ضمـن ظـروف اسـتعمار بصـري وسياسـي.



الشـكل 6. العراقيـب 2017/1945 - مركـب مـن صـورة جويـة لسـلاح الجـو الملكـي وغيـوم نقطيـة مجتمعيـة. تصويـر Forensic Architecture، آرييـل كيـن، عزيـز الطـوري، نـوري العقبـي، ديبـي فيربيـر (ذاكـرات)، حجيـت كيسـار (بابلـك لاب)، 2017.

د. آريل كين، فنان من مواليد القدس ومقيم في لندن، باحث ومنسق مشروع في وكالة الطب الشرعي للهندسة المعمارية، غولدسميث، جامعة لندن.

الهوامش:

1 ويكبيديا. «عملية يواف». في ويكبيديا، 26 شباط 2019. https://en.wikipedia.org/w/index.php?title=Operation_Yoav&oldid=885138630

2 أحمد عمارة، إسماعيل أبو سعد، وأورن يفتاشيل، محررون، عدالة السكان الأصليين: قانون حقوق الإنسان والعرب البدو في النقب (كامبريدج، ماجستير: برنامج حقوق الإنسان في كلية الحقوق بجامعة هارفارد، 2012(

3 انظر الموقع الرسمي، على الإنترنت على (www.regavim.org/our-visionتم الدخول في 5 مارس 2020)

4 نيكولا بيروجيني ونيف جوردن، حق الإنسان في الهيمنة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 2015(.

5 Regavim مدونة)، "Maps & Position Papers Archives"، عبر الإنترنت على www.regavim.org/category/position-apers-maps/ تم الوصول إليه في 5 آذار / مارس 2020). على سبيل المثال، في «الحقيقة حول البدو في النقب»، راجع استخدام الصور الجوية لمناطق البدو، عبر الإنترنت على tinyurl.com/vhx8yod (regavim.org) (تم الدخول في 5 مارس / آذار 2020(

6 «الحقيقة عن البدو».

7 إيال وايزمان وفضل شيخ الصراع
الخط الساحلي: الاستعمار كتغير المناخ في
صحراء النقب (جوتنجن: ستيدل، 2015)

8 في أيلول / سبتمبر 2019، قدمنا شهادة شاهد خبير إلى المحكمة الإسرائيلية نيابة عن عائلات العراقيب، حيث قدمنا تفسيرًا جويًا لصور من 1945-99 مما يدل على استمرار تواجد العائلات في المنطقة المزعومة. العراقيب.

9 «الدمار والعودة في العراقيب» على الإنترنت على forensic-architecture.org/investigation/destruction- والعودة في العراقيب (تم الدخول في 6 آذار / مارس 2020)

10 Forensic Architecture هي وكالة أبحاث متعددة التخصصات ومستقلة مقرها في Goldsmiths، جامعة لندن. لقد كنت عضوا ومنسقا للمشروع في الوكالة منذ منتصف عام 2016. انظر على الإنترنت على www. forensic-architecture.org (تم الدخول في 6 مارس 2020)

11 هيكل الحركة هو أحد مجالات المسح التصويري، تستخدم فيه عملية إعادة البناء المكانية ثلاثية الأبعاد عدداً من الصور ثنائية الأبعاد المصوّرة من مواقع مختلفة في الفضاء. ويتم تحديد الشكل ثلاثي الأبعاد من خلال حركة الكاميرا في المكان، والتي يتم من خلالها تسجيل زوايا مختلفة للمنظر نفسه.

12 نظام المعلومات الجغرافية هو إطار لجمع وإدارة تحليل البيانات كجزء من رسم الخرائط.

13 المختبر العام هو مجتمع علمي غير ربحي يتحول إلى الديمقراطية لمعالجة القضايا البيئية التي تؤثر على الناس. تأسست في الأصل في الولايات المتحدة في أعقاب كارثة النفط عام BP 2010. انظر الموقع على الإنترنت على publiclab.org/about) تم الدخول 9 مارس 2020(.

14 ذاكرات (تذكر، باللغة العبرية) هي منظمة غير حكومية إسرائيلية تعمل منذ عام 2002 «لتعزيز الاعتراف والمساءلة عن مظالم النكبة المستمرة، والكارثة الفلسطينية عام 1948، وإعادة تصور العودة كإنصاف حتمي للنكبة وفرصة من أجل حياة أفضل لجميع سكان البلاد». انظر موقع ذاكرات zochort. org تم الدخول في 9 مارس 2020

15 تم إنزال 15 كاميرا في الكهوف والصهاريج والآبار من أجل توثيق هيكلها قبل أن يتم ملؤها من قبل الصندوق القومي اليهودي لأعمال التشجير.

16 مصطلح معتمد من Public Lab. راجع قسم «تاريخنا»، عبر الإنترنت على publiclab.org/about) تم الوصول إليه في 9 مارس 2020)

سجل مقتنيات الصور الفلسطينية في أرشيف الحرب البافاري

آندرياس إيفاريستوس مادر



الشكل 1: باتير إيفاريستوس مادر (1881 – 1949) سنة 1936. ولد مادر في ولاية بافاريا الألمانية، وانضم إلى جمعية المخلص السماوي (Societas Divini Salvatoris) في برلين – فايدمانسلوست (Berlin-Waidmannslust) في سن الرابعة عشرة. وفي تشرين الأول 1911 زار القدس بهدف دراسة المواقع القربانية الكنعانية القديمة وإعداد وصف من عدة أجزاء للطوبوغرافيا والآثار في لأراضي المقدسة. وفي سنة 1917، عُين ملحقا دينيا عسكريا خلال الحرب العالمية الأولى. وبناء على طلبه كُتب على شاهد قبره في مقبرة فالدفريدهوف في ميونيخ (والتي يدفن فيها عادة أتباع جمعية المخلص): «لأجل صهيون لن أبقى صامتا، ولأجل حب القدس لن أرتاح أبدا". الصفحة الإلكترونية (salvatorianer.de) (tinyurl.com/vxvjrqo) (تم الدخول إلى الصفحة في 2020/1/19). المترجمة

ملاحظة من المحرر:
النصوص المقتبسة أدناه هي من «دليل المقتنيات الفلسطينية في الأرشيف البافاري» (Directory of the Palestinian Photo Holdings of the Bavarian War Archive) والموجودة في كتاب غوستاف دالمان «مئة صورة جوية ألمانية لفلسطين» (Hundert deutsche Fliegerbilder aus Palästina (Gütersloh, Germany: C. Bertelsmann, 1925)، ترجمتها عن الألمانية كارول خوري.

مقدمة

بالرغم من أثر الحرب العالمية الأولى المدمر على فلسطين، إلا أنها شجعت إلى حد كبير على استكشاف البلاد، وكان لرسم الخرائط من هذه الجهود حصة الأسد. وبالرغم من وجود دراسات منشورة تناولت المنطقة من جوانب علم الأرض والأرصاد الجوية والآثار والخطوط القديمة والطوبوغرافيا والاستيطان والاستقرار البشري، إلا هناك المزيد مما يمكن تعلمه.[1]

منحت الحرب الدراسات الفلسطينية كذلك كنزا قيما، ما كان بالإمكان الحصول عليه في هذا الوقت لولاها: ألا وهو أرشيف للصور الجوية يغطي تقريبا جميع أجزاء البلاد. حيث أن الكتائب الجوية الألمانية 300 – 305 التقطت آلاف الصور للجبهة الفلسطينية من الجو. منها 2662 صورة التقطتها الكتيبة الجوية الألمانية 304 (الكتيبة 304) لوحدها، وهي موضوع هذا الدليل. وبحسب إفادات المسؤولين، لم يكن بالإمكان سوى إنقاذ جزء هذه الصور خلال انسحاب القوات الألمانية؛ وهي الصور المأخوذة من زاوية عين الطائر والتي تظهر لنا روعة البلاد. وبطلب مني، وافق أرشيف الحرب البافاري في ميونيخ مشكورا على فتح كنزه الدفين من الصور، وإتاحته لغرض الدراسات الفلسطينية.

فحتى الآن كنا قد جبنا الأراضي المقدسة على ظهر الخيول أو في العربات، وسافرنا بالسفن على طول ساحل البحر المتوسط، وقطعنا في القطار الطريق من يافا إلى القدس ومن حيفا إلى دمشق عبر مرج بن عامر ووادي الأردن، وسرنا على الأقدام صعودا وهبوطا على طول الوديان والمسالك الضيقة الموزعة ما بين جبال فلسطين. ولكننا الآن كطيارين، أصبحنا قادرين على رؤية البلاد من زاوية عين الطائر دون خطر التحطم، وأصبح بإمكاننا التقاط صورة صافية على صفحة مستوية. ومما لا شك فيه أن القدرة على التحليق في جلال عزلة الأراضي المقدسة من خلال تأمل صورة موجودة أمامك على طاولة البحث مع عدسة مكبرة في يدك دون الحاجة للتغلب على التحديات الموجودة على الأرض يبقى سحرا غامضا من نوع خاص.

ومقارنة بالصور الأرضية، لا توجد سلبيات حقيقية للصور الجوية. فلأسباب طبيعية، لا توجد عتبة أمامية للصورة. فمعدل المسافة التي التقطت منها الصورة تصل لبضعة آلاف المترات، أي ما يساوي بمفهوم التصوير، مسافة لا متناهية. وأحيانا، كنا نود لو كان بالإمكان النظر إلى التضاريس من ارتفاعات أقل انخفاضا لتبدو أكثر وضوحا، ولكن أسلحة العدو الدفاعية حالت دون ذلك، واضطرت الطيارين للتحليق على هذه الارتفاعات. ولذلك حدت طبقات الهواء بين الأجسام المصورة والكاميرا من وضوح الصور لأنها تسببت في إخفات البريق، إلا أن صفاء جو الشرق نفسه حد من تأثير هذه المشكلة. ولكن بقي الأثر الرئيسي لكل هذه المشاكل هو أنها حدت من القدرة على التمييز ما بين النقاط المضيئة والمائلة البعيدة، أو ما يسمى بالتباين، حتى أنه اختفى تماما في بعض الأحيان.[2]

بالرغم من ذلك تبقى الصور الجوية قيمة جدا لفروع الدراسات المختلفة حول فلسطين

1. أصبح علم الأرض الآن أكثر ثراء بشكل فريد من نوعه. فللصور الجوية أفضلية خاصة تميزها عن الصور الأرضية، خاصة في هذا السياق. فبسبب الارتفاعات العالية التي التُقطت منها الصور أصبحت تتيح مجالا أوسع للرؤية، وبالتالي نظرة أشمل على التضاريس، لا يمكن رؤيتها سوى من الصور المأخوذة من قمم المرتفعات. يركز التصوير الجوي بوضوح على تشكلات المشهد، وبالتالي بروز جبال فلسطين الظاهر في الصور، فتبدو مورفولوجيا الصحراء الجبلية لمنطقة يهودا واضحة (ثلاثية الأبعاد). وتفاجئنا في كثير من الأحيان خصائص مدى الجبال الجيرية المنحدرة على شكل مصاطب أفقية طباقية في كثير من الأحيان. نطل على متاهة قمم الجبال والتلال المخروطية الرائعة، والمتاهة المتشكلة من وديانها الملتوية الجرداء لتذهلنا قوة حت المياه، والتي حفرت وحتت عبر الزمن مسالك برية ومرتفعات لا يمكن الوصول إليها. ويحدق إلينا من الأسفل مشهد

غنـي رائـع للتـلال مـن وادي الأردن. ونلاحـظ أن هنـاك مجريـان مختلفـان للنهـر ينسـابان بجـوار بعضهمـا البعـض، ونـدرك عندهـا سـبب عـدم تمكـن أي خريطـة مـن إعـادة تمثيـل التفافاهمـا الغريبـة والمتغيـرة دائمـا. يلتـف النهـر ويلتـوي تحتنـا كأفعـى عملاقـة تتلـوى مـن جروحهـا القاتلـة حتـى تلاقـي حتفهـا أخيـرا فـي البحـر الميـت. وعلـى الشـاطئ الغربـي مـن البحـر الميـت وعلـى ضفتـه الشـرقية، نسـتطيع أن نميـز خطـوط الكفـاف (الكنتوريـة) الجيولوجيـة علـى الجـدران والمصاطـب الصخريـة الشـبيهة بالأخـدود، ونكتشـف تشـكيلات بركانيـة هنـا وهنـاك.

2. يسـتمد علـم الأرصـاد الجويـة الكثيـر مـن المعرفـة مـن العديـد مـن الصـور، التـي لا تتيـح لنـا فقـط دراسـة تشـكيلات الغيـوم فـي يـوم معيـن مـن السـنة (حيـث يتـم بالعـادة تسـجيل السـاعة والتاريـخ علـى الصـورة)، ولكنهـا تتيـح لنـا أيضـا أن نفهـم أن الرطوبـة فـي السـفح المدابـر للريـح والمطـر أقـل بكثيـر مـن الجانـب المقابـل لهمـا، وبالتالـي فـإن الغطـاء النباتـي والحيوانـي فيـه أقـل بكثيـر، وهـي مبـادئ تؤكدهـا صـور صحـراء يهـودا التـي تقـع علـى السـفح المدابـر للريـح مـن الضفـة الغربيـة. تبـدو أحيانـا صـور الغيـوم الملتقطـة مـن الطائـرة سـاحرة الجمـال، مـن أصغـر السـحب السـمحاقية إلـى السـحب الركاميـة الحبلـى بالعواصـف الرعديـة، ومـن السـحب الطبقيـة المتناثـرة حتـى السـحب السـميكة التـي تسـقف السـماء، فجميـع تفاصيـل الظواهـر المتريولوجيـة يمكـن تفسـيرها مـن خـلال صـور الغيـوم.

3. تتمتـع جغرافيـة التنقـل بتقديـر خـاص فـي الصـور الجويـة. فكثيـرا مـا تشـع طـرق وممـرات البـلاد المغطـاة بالغبـار بلـون أبيـض مبهـر، وتبيـن كيـف ترتبـط خطوطهـا بسلاسـة بالتضاريـس المحيطـة، وتوضـح الاسـتغلال الاقتصـادي لـلأرض وأهميتهـا بالنسـبة للقـرى الواقعـة علـى جانـب الطريـق. وهنـا تبـرز أهميـة الصـور بشـكل خـاص، ففيمـا التقطـت معظـم الصـور لأغـراض اسـتراتيجية، خاصـة استكشـاف تقـدم اسـتطلاعات العـدو، تبيـن كل واحـدة منهـا تقريبـا طريقـا أو ممـرا فلسـطينيا. وبالتالـي، وممـا يدعـو للبهجـة، تـم تصويـر معظـم شـرايين المـرور فـي البـلاد وتغطيتهـا بالصـور الجويـة بشـكل كامـل تقريبـا: شـوارع يافـا – القـدس، الرملـة – غـزة، القـدس – أريحـا، القـدس - الخليـل، والقـدس – نابلـس.

4. هنـاك عـدة تطبيقـات للصـور الجويـة فـي دراسـة المسـتقرات البشـرية. فالمسـتقرات البشـرية ترتبـط بشـكل وثيـق بالمشـهد المحيـط بهـا؛ وعـادة مـا يـدرك المـرء أهميـة موقعهـا مـن النظـرة الأولـى، فالمعابـر فـي الـوادي وتقاطعـات الطـرق، أو أشـكال المشـهد الغريبـة تسـببت فـي إنشـاء المسـتقرات البشـرية فـي ذلـك الموقـع بالـذات. ولا تسـتطيع الصـور الأرضيـة أن توضـح هـذه الحقائـق الجغرافيـة أو أنهـا نـادرا مـا تتمكـن مـن القيـام بذلـك، وذلـك بسـبب تغطيتهـا لمسـاحات أصغـر. ويمكـن أن تعطـي الخرائـط فـي معظمهـا نتيجـة مشـابهة، ولكنهـا تفتقـر فـي هـذه الحالـة إلـى الصفـة الطبيعيـة لأنهـا تعبـر عـن الأشـياء برمـوز وشـيفرات وصـور ورسـومات، أمـا الصـور الجويـة فهـي تعطينـا منظـورا ثلاثـي الأبعـاد وتبيـن الأشـياء كمـا هـي. وبمفردهـا تبيـن الصـور الجويـة بشـكل واضـح الخصائـص المميـزة للمسـتقرات البشـرية الأوروبيـة والمبانـي فيهـا (الحـي الألمانـي فـي حيفـا وفـي سـارونا وفـي القـدس)، والحـي اليهـودي (فـي تـل أبيـب ويافـا وريشـون لتسـيون)، والقريـة الألمانيـة الطوليـة (قريـة الفيلهيلمـا الشـريطية) وحتـى المسـتوطنة الشركسـية (سـوالا علـى الضفـة الشـرقية)، والتـي تختلـف تمامـا عـن ممارسـات العـرب فـي بنـاء منـازل قريبـة مـن بعضهـا البعـض، وهـو الأسـلوب الـذي كان منتشـرا فـي المجتمعـات الفلسـطينية. ومـن الصـور الجويـة نسـتطيع أن نحـدد مـن النظـرة الأولـى فيمـا إن كان هـذا المسـتقر البشـري قـد بنـي علـى أسـاس مخطـط مسـبق، صممـه مهنـدس معمـاري بالمسـطرة (العاديـة والتائيـة بشـكل حـرف (T))، أو أنهـا عبـارة عـن مجموعـات مـن الأكـواخ تشـكلت عشـوائيا، بحيـث يجسـد كل كـوخ حاجـة شـخصية ويجسـد المسـتقر البشـري بأكملـه فقـر سـكانه. وحتـى التطـور التاريخـي للمسـتقرات البشـرية، وخاصـة البلـدات والقـرى الأكبـر حجمـا، يمكـن أن يُـدرس مـن الصـور الجويـة التـي تبيـن مواقـع وتجمعـات المنـازل

والأكواخ، ويجدر بنا أن نذكر هنا الصور العديدة للقدس ويافا والخليل وعدد من المدن الأخرى. كما يمكن استخدام الصور الجوية لإنتاج مخططات جديدة بالكامل للمدن، مخططات يمكن أن تتجاوز في إتقانها وغناها بالتفاصيل جميع ما سبقها. وحتى غوته كان يطل من فوق برج الكنيسة على المدينة التي يود أن يتعرف عليها. ولنفس الأسباب، ولاعتبارات موضوعية وتعليمية، عرّف البروفيسور فيليكس لامبيه عن فيلمه التعليمي عن جبال الألب برحلة في المنطاد. وفي العديد من الحالات تعطي الصور الجوية كذلك فكرة عامة عن المشهد، وتبين ظروف التربة والفصل ما بين الحقول باستخدام الممرات والبساتين والمجاري والأسيجة المشجرة، وبالتالي توثق هذه الصور أساليب تنفيذ الأعمال الزراعية وإنشاء أنظمة الري.[3]

5. وحتى علم الآثار يأخذ حقه من الصور. فللصور المأخوذة من زاوية عين الطائر لبعلبك وجرش سحرها الخاص، وهي توفر معلومات في غاية الأهمية مقارنة بالمخططات الموجودة لهذه المباني. ففي جرش تُظهر الصور الجوية السور المدفون للمدينة القديمة بنفس الوضوح التي تظهر فيه حواف حوض الألعاب المائية الرومانية. وفي عمان تظهر الأهمية الاستراتيجية للقلعة القديمة في الصورة مباشرة. أما في الخليل، تظهر تلة المدينة القديمة، وهي الموقع المحتمل لقلعة داوود واضحة تماما في الأفق. وفي قيساريا يمكن رؤية بقايا الأرصفة البحرية الموجودة تحت المياه.

6. يحظى مجال رسم الخرائط، كما ذكرنا أعلاه، بحصة الأسد في الاستفادة من الصور الجوية. فمع تعديل الصور بمساعدة أحدث أساليب التصوير المساحي الضوئي وتحويل الأبعاد إلى مقياس حقيقي تتحول الصور الجوية إلى خريطة فورا. وكما هو معروف بشكل عام، يمثل تحويل الشكل الثلاثي الأبعاد للأرض إلى خريطة مفهومة ذات بعدين التحدي الأكبر، الذي لا يمكن التغلب عليه سوى باستخدام الصور الجوية. فالخريطة هي عبارة عن تجريد، وهي تمثيل لشكل سطح الأرض ثلاثي الأبعاد باستخدام رسومات بلانمترية؛ وتستخدم رموزا تقليدية غير طبيعية في كثير من الأحيان، والتي إذا أخذت بشكل حرفي لا تفصح عن أي صلة ما بين الواقع والتفسير. وبذلك تصبح الخريطة عبارة عن دلالة لعدد كبير من العناصر التي توصف بأنها رسم رمزي. الخريطة هي تحويل المساحة إلى سطح، والتي يتحول فيها العالم متعدد الجوانب إلى سطح لا تظهر فيه حتى الخطوط العامة المبهمة لأشكال الحياة الحقيقية.[4] ويحد التصوير الطوبوغرافي من الجو، وهو الأسلوب الأحدث في العمليات الجيوديزية، إلى حد كبير من هذه المشاكل بحيث يتيح للخريطة أن تتحدث وتروي القصة بطريقة لم تكن ممكنة باستخدام الأساليب القديمة.

أنواع الصور الجوية

تُقسم الصور الجوية إلى صور بمنظور أفقي وعمودي ومائل، وذلك بحسب زاوية المحور البصري لآلة التصوير المثبتة في الطائرة، وأيضا زاوية العدسة الفوتوغرافية مع الجسم المصوّر.

1. المنظور الأفقي: في هذه الحالة يكون محور الجسم أفقيا، والصفيحة عمودية كما هي الحال في المسوحات الأرضية. وبما أن ارتفاع الطائرة يكون بشكل عام بضع مئات الأمتار فقط، فإن هذا أقرب ما يكون لالتقاط صور من الأرض، مع أنه يتيح منظرا أوسع للتضاريس ويسمح ملاحظة تشكيلاتها وتسمية المواقع والمستقرات والطرق ومجاري الأنهار، الأمر الذي لا يتيحه المنظور العادي. وبما أن الطيارين الميدانيين كانوا مضطرين للتحليق على معدل ارتفاع 3000 متر حتى لا ينكشفوا بسهولة لمدفعية الأسلحة الدفاعية، فلم يكن باستطاعتهم سوى التقاط بضعة لقطات أفقية خلال الإقلاع والهبوط فقط، أو في المواقع الآمنة حيث تمكنوا من التقاط صور على ارتفاع 200 – 1000

متـر، والـذي يوفـر بالطبـع تفاصيـل مذهلـة للتضاريـس التـي تـم تصويرهـا مثـل لبنـان وصيـدا والمجـدل (فلسـطين).

2. المنظـور العمـودي: يُظهـر المنظـور العمـودي صـورة مختلفـة؛ ففـي هـذه الحالـة يكـون المحـور البصـري عموديـا بينمـا يكـون السـطح أفقيـا، وبـذا تكـون ظـروف هـذه الصـورة عكـس ظـروف صـور المنظـور الأفقـي تمامـا. ففـي المشـاهد المسـطحة كمـا هـي حـال السـاحل الفلسـطيني، ينتـج هـذا المنظـور فـي كثيـر مـن الأحيـان صـورة يمكـن أن تسـتخدم بشـكل مباشـر كخريطـة. فعلـى سـبيل المثـال، تكـون الزوايـا التـي تتقاطـع فيهـا الطرقـات هـي ذاتهـا، وتبـدو جميـع المسـافات بنفـس النسـبة، وبالتالـي يمكـن باسـتخدام مقيـاس مناسـب يأخـذ تقلـص الحجـم بعيـن الاعتبـار عكـس نفـس القياسـات تمامـا علـى الخريطـة. ويتـم تصغيـر الصـورة بنسـبة المسـافة البؤريـة لارتفـاع الطائـرة، والتـي تكـون مسـجلة عـادة علـى الصـورة. فـإن كانـت المسـافة البؤريـة علـى سـبيل المثـال هـي 50 سـم (f)، وكان ارتفـاع الطائـرة هـو 3000 متـر (h) وكانـت (a) تسـاوي 1 سـم وهـي وحـدة قيـاس الصـورة تكـون المعادلـة عندهـا هـي: f:h = a:x، 0.01:x = 0.5:3,000؛ x:6 = 30:0.5 متـر والتـي تمثـل الارتفـاع الفعلـي. كمـا يمكـن أيضـا حسـاب حجـم الجـزء الظاهـر مـن سـطح الأرض؛ والـذي يـزداد كلمـا زاد الارتفـاع، وينخفـض كلمـا زادت المسـافة البؤريـة.[5]

تتيـح لنـا الصـور العمـودي فـي كثيـر مـن الأحيـان النظـر مـن خـلال عدسـة مكبـرة يدويـة إلـى الزوايـا المخبـأة بيـن أخاديـد الوديـان أو متاهـات المنـازل والمسـتقرات البشـرية، ليكـون الناتـج لدينـا خريطـة لا يضاهيهـا فـي المحتـوى والخصائـص أي رسـم هندسـي. أمـا إذا كانـت التضاريـس غيـر مسـتوية أو جبليـة، قـد يكـون مـن الصعـب أن نقـارن مـا بيـن الصـور الجويـة والخريطـة. فبسـبب الارتفاعـات والمنخفضـات يمكننـا أن نتوقـع بعـض الاختـلالات: فالنقـاط الواقعـة فـي الأعلـى سـتظهر أبعـد مـن الواقـع، بينمـا سـتبدو النقـاط الأكثـر انخفاضـا أقـرب ممـا هـي عليـه فـي الحقيقـة عندمـا يتـم عكسـها علـى الخريطـة. وسـيزيد الحيـاد عـن الواقـع كلمـا كانـت النقـاط أبعـد عـن الشـاقول المتدلـي مـن الطائـرة، ولذلـك تظهـر الجبـال مضغوطـة فـي هـذه الصـور.[6]

وعنـد الحديـث عـن الزوايـا العموديـة تجـب الإشـارة بشـكل خـاص إلـى سلاسـل الصـور التـي تلتقـط بسـرعة متعاقبـة مـن نفـس الطائـرة وبنفـس الكاميـرا، والتـي تعـرف بلقطـات الفيلـم الجويـة. وفـي حـال تغيـر الارتفـاع، أو فـي حـال التقـاط المزيـد مـن الصـور خـلال رحلـة أخـرى فيجـب أن يتـم توحيـد القيـاس عـن طريـق إعـادة التصويـر قبـل التركيـب. توجـد «سلاسـل الصـور" هـذه بأعـداد كبيـرة فـي المجموعـة؛ وهـي تغطـي مسـاحات كبيـرة مـن البـلاد، خاصـة طـرق المـرور الرئيسـية مثـل شـارع يافـا – القـدس وشـارع القـدس – الخليـل، وهـي تظهـر فـي لقطـات تكمـل بعضهـا البعـض أشـرت إليهـا «بالسلسـلة المسـتمرة" فـي الدليـل. ومـن الجديـر بالذكـر أن الكثيـر مـن هـذه التسـجيلات ليسـت دائمـا عموديـة تمامـا، ولذلـك فهـي مبدئيـا تتطلـب تعديـلا جزئيـا.

فإلـى حـد مـا، يحـل المنظـور العمـودي محـل الخريطـة، ويوضـح إلـى حـد كبيـر العلامـات الموجـودة عليهـا مـن خـلال الطبيعـة نفسـها؛ فمثـلا فـي مناظـر مدينـة صيـدا وحيفـا ويافـا والقـدس وغيرهـا مـن المـدن، تظهـر الأجـزاء المختلفـة مـن المدينـة ونواتهـا ومسـار شـوارعها وحاراتهـا ومنشـآت أحيـاء كاملـة فيهـا واضحـة تمامـا. ويمكـن أن يتـم إجـراء الأبحـاث حـول أصـل وتطـور المـدن بالعـادة بشـكل أفضـل باسـتخدام الصـور مقارنـة بخريطـة المدينـة، خاصـة وأن الظـروف الطبيعيـة تبقـى واضحـة وقابلـة للتمييـز بـدلا مـن اسـتبدالها برمـوز صمـاء علـى الخريطـة. ففـي صـور يافـا والقـدس والخليـل يمكـن للمـرء بسـهولة أن يـرى النـواة القديمـة لهـذا المسـتقر البشـري، والـذي تجمعـت حولـه فيمـا بعـد المنـازل الأبعـد عـن المركـز. أشـرنا سـابقا فـي هـذا المقـال إلـى الفـرق الواضـح مـا بيـن المسـتوطنات الاسـتعمارية التـي بنيـت علـى أسـاس مخططـات مسـبقة وتجمعـات الأكـواخ العربيـة كبيـت فجـار علـى سـبيل المثـال. وتبـرز هنـا أسـئلة هامـة فـي دراسـة المسـتقرات البشـرية والتـي يمكـن الإجابـة عنهـا بشـكل أفضـل بكثيـر بمسـاعدة الصـور الجويـة العموديـة التـي تمثـل الواقـع بشـكل حقيقـي، بـدلا

مـن مخططـات المدينـة المتوفـرة. فعلـى سـبيل المثـال يمكـن بنـاء علـى 66 صـورة للقـدس – موجـودة فـي مجموعـة الأرشـيف – رسـم خريطـة للمدينـة تفـوق جميـع المخططـات الموجـودة لهـا، بالرغـم مـن أن عـددا مـن هـذه الصـور هـي صـور مائلـة.

3. المنظـور المائـل هـو المنظـور الثالـث، وهـو الأكثـر شـيوعا بيـن الصـور الجويـة دون منـازع بسـبب سـهولة تنفيـذه، وتكـون فيـه الصفيحـة والمحـور البصـري مائـلا؛ وتعتمـد الصـورة الناتجـة علـى موقـع الطائـرة وزاويـة ميلان الكاميـرا، ممـا يسـمح بالانتقـال بسـهولة مـا بيـن اللقطـات الأفقيـة والعموديـة. فكلمـا ابتعـد الميلان عـن الموضـع العمـودي، يتـم تحديـد المزيـد مـن التضاريـس نحـو الأفـق، ولكـن تقليـص الحجـم يـزداد كذلـك. تتسـبب الفروقـات بيـن نتـوءات التضاريـس بتغييـر مواقـع النقـاط المسـقطة علـى السـهل. ولذلـك تعطـي الصـور المائلـة دائمـا صـورة مشوشـة. حيـث لا تظهـر الزوايـا بموقعهـا الحقيقـي؛ وتبـدو الخطـوط المتوازيـة فـي الحقيقـة دائمـا كخطـوط مسـتقيمة تتقـارب فـي المؤخـرة؛ ويبـدو فيهـا المربـع كشـبه منحـرف. وبالتالـي يمكـن أن تسـتخدم الصـورة لرسـم الخرائـط باسـتخدام حسـابات دقيقـة فقـط. ولكـن مـن ناحيـة أخـرى، للزاويـة المائلـة مزايـا لا يمكـن أن إنكارهـا: فكصـورة نقيـة للمشـهد، تتيـح الصـورة المائلـة رؤيـة المنطقـة التـي تطيـر الطائـرة فوقهـا مـن منظـور عيـن الطائـر، ممـا يجعلهـا مفيـدة بشـكل خـاص فـي تفسـير الظواهـر الجغرافيـة والطبوغرافيـة فـي هـذه الصـور. فصـور سـاحل المتوسـط والبحـر الميـت فـي فلسـطين لا تبيـن فقـط السـاحل نفسـه بجميـع مداخلـه ونتوءاتـه، ولكنهـا تبيـن كذلـك – كحـال الصـور المائلـة - شـكل وتركيبـة السـاحل نفسـه، وكثيـرا مـا تتضمـن الخصائـص الطوبوغرافيـة لظهـر اليابسـة.

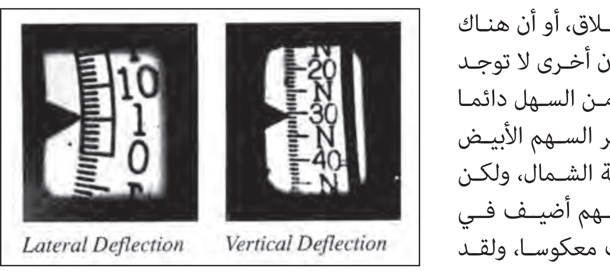
نصائح عملية

يجـدر بنـا أن نشـير هنـا إلـى أن الصـور الجويـة يمكـن أن تخيـب أمـل الهـواة فـي البدايـة، وقـد لا تكـون مفهومـة سـوى للخبـراء بعـد دراسـتها بالتفصيـل بعيـن مدربـة. وتكـون المقارنـة مـا بيـن الصـور والخريطـة أو المخطـط شـرطا مسـبقا أساسـيا لمعرفـة كيـف تبـدو الخريطـة علـى أرض الواقـع، وكيـف ترتبـط مـع بعضهـا البعـض. والأداة الفنيـة الأفضـل لدراسـتها هـي عدسـة مكبـرة تكبـر الصـورة 2 – 4 مـرات.[7]

ويجـب أن تسـتخدم تأثيـرات الضـوء والظـل بشـكل شـامل فـي قـراءة الصـور الجويـة، فهـي تدعـم فهـم الصـورة بشـكل كبيـر. وهنـا يجـب ضمـان أن يسـقط الضـوء علـى الصـورة بنفـس الاتجـاه الحقيقـي لضـوء الشـمس؛ وإلا فسـتعطي الصـورة أثـرا معكوسـا تمامـا حيـث يبـدو قـاع الوديـان كنتـوءات الجبـال. أمـا خضـرة الطبيعـة فتبـدو غامقـة بالصـور، وعليـه لا نسـتطيع تفسـير المناطـق الغامقـة علـى شـواطئ نهـر الأردن علـى أنهـا ظلال ولكنهـا خضـرة. كمـا يجـب أخـذ المواسـم بعيـن الاعتبـار، فلا يوجـد تقريبـا أي غابـات فـي غـرب فلسـطين، وبالتالـي فـإن الرقـع والبقـع الغامقـة تُفسّـر علـى أنهـا أشـجار عاليـة، هـي بالأغلـب أشـجار زيتـون. كمـا أن أرضيـات أخاديـد الوديـان الفلسـطينية تكـون تقريبـا جافـة معظـم الوقـت لا ميـاه فيهـا، وبالتالـي فإنهـا كثيـرا مـا تبـدو فـي الصـور كخطـوط مضيئـة يخطـئ المشـاهد الأوروبـي تفسـيرها علـى أنهـا طرقـات. كمـا أن الميـاه والأهـوار تبـدو كسـطوح سـاطعة مشـعة فـي الصـور المائلـة بسـبب الانعكاسـات وكأسـطح غامقـة فـي الصـور الملتقطـة باتجـاه ضـوء الشـمس.[8] وبشـكل عـام يكـون اتجـاه الطائـرة هـو نفـس الاتجـاه الـذي التقطـت فيـه الصـورة؛ وبالتالـي فـإن الأجسـام الظاهـرة الكبيـرة تكـون فـي المقدمـة. ويجـب أن نعـي دائمـا النقطـة الجوهريـة التـي يتوافـق معهـا أسـاس الصـورة بمسـاعدة انعـكاس الظـل والوقـت المشـار إليـه فـي الصـورة عنـد الضـرورة.

متوسـط مقـاس الصـور هـو 12 x 16 سـم، وبعضهـا بمقـاس 8 x 10 سـم، خاصـة تلـك الملتقطـة بآلـة تصويـر محمولـة، ولقـد حـددت هـذه الصـور بشـكل خـاص فـي الدليـل. تتـراوح المسـافة البؤريـة للجسـم مـا بيـن 21، 25 و50. الأسـماء العربيـة علـى الأماكـن والصـور (الأماكـن المحليـة) ليسـت دائمـا صحيحـة، وفـي

بعض الحالات هي غير صحيحة على الإطلاق، أو أن هناك خلطا بينها وبين أسماء أخرى، وفي أحيان أخرى لا توجد هناك أسماء على الصور، حيث لم يكن من السهل دائما تحديد المكان الظاهر في الصورة. يشير السهم الأبيض المرسوم عادة في زوايا الصورة إلى جهة الشمال، ولكن ذلك ليس دقيقا دائما، خاصة وأن السهم أضيف في وقت لاحق، ولذا كان في بعض الحالات معكوسا، ولقد أشرت إلى هذه الحالات في الدليل.



الشكل 2. المقياس ذي الدرجتين مع إشارات المثلث التي تظهر على الجانب الأيمن في بعض صور الكتيبة 304. أما الإشارة الظاهرة على اليسار فتشير إلى الميلان (الانحراف الجانبي)، وتشير العلامة الموجودة على اليمين لزاوية الميلان (الانحراف الرأسي).

ومرة أخرى يجب أن نؤكد أنه لا توجد هناك صور عمودية نقية؛ فذلك غير ممكن سوى في حالات نادرة، لأن الجسم الذي يقوم بالتسجيل خاضع إلى حد ما إلى ذبذبات البندول، بسبب حركة الطائرة، حتى في حال الصعود الأفقي. وفي العديد من الصور نجد مقياسا من درجتين مع علامات مثلثة على الطرف الأيمن؛ تشير العلامة الأولى إلى الميلان (الانحراف الجانبي)، أي الزاوية التي يشكلها الجانب الطويل من الصفيحة مع المستوى الأفقي لحظة التقاط الصورة. ويظهر حرف « r” أو « l” ما بين كل 10 درجات للإشارة إلى ما إذا كان الجسم يميل إلى الأسفل يمنة أو يسرة كما يبدو من الطائرة، وبنفس الطريقة تشير العلامة الظاهرة في الأسفل «N» إلى زاوية الميلان (الانحراف الرأسي)، أي الزاوية التي يشكلها المحور البصري للجسم مع المستوى الأفقي لحظة التقاط الصورة. وباستخدام هذه المعلومات، يمكن أن يتم تصحيح الصور بحسب قواعد المنظور الحسابي، سواء حسابيا أو بمساعدة جسم بصري، بمعنى أنها يمكن أن تتحول كما لو أنها التقطت عموديا من الأعلى (زاوية 90°). ولكن استخدام هذا الأسلوب ممكن فقط في حالة التضاريس المسطحة أو المتموجة بعض الشيء. أما في حالة التضاريس الجبلية، لا يمكن تقييم الصور إلا بتسجيلات مجسمة باستخدام المقارن المجسم أو المقياس المجسم.

تم إنقاذ 2662 صورة من صور الكتيبة 304 خلال انسحاب القوات الألمانية، وبما أن لنصف هذه الصور تقريبا قيمة استراتيجية وتاريخية وقت الحرب، اخترت منها 1406 صورة لتعرض في الدليل؛ 1236 صورة جوية، و170 صورة أرضية. تمت إضافة حروف للأرقام المنفردة (الأعداد التسلسلية) للإشارة أن هناك صورا أخرى لنفس الموقع في الأرشيف يمكن الرجوع إليها للمزيد من البحث المعمق. (*)(*) تم ترتيب الصور في الدليل بتسلسل طبوغرافي بحسب القطاعات الطولية الأربعة في فلسطين: السهل الساحلي، الجبال، غور الأردن والضفة الشرقية. يظهر العمود الأول الأرقام التسلسلية للصور، وتمت إضافة نجمة أو نجمتين للصور التي تتصف بأهمية أو جمال خاص. أما العمود الثاني فهو يظهر رقم الرحلة، والمسجل في حال كان متوفرا في أعلى الصورة. أما العمود الثالث (المكان Ort) فهو يتضمن بضع كلمات عن الموقع وتفاصيل الصورة. ويدرج العمود الرابع مركز مربع الخريطة في الصورة. وفي كثير من الأحيان كان هناك حاجة لاستخدام أرقام مؤلفة من 2 – 4 أعداد لتحديد المربعات بشكل أدق بحسب محيط الصورة، واضطررنا لحذفها لغايات تسهيل الطباعة. وتتضمن الأعمدة الخامسة والسادسة والسابعة الوقت [Zeit] والارتفاع [H] والمسافة البؤرية [Br] للصورة، وهي جميعها معلومات مفيدة في تقييم الصور.

(*) لم يعد نظام الترقيم هذا (الأرقام التسلسلية) هو نظام الترقيم المستخدم في أرشيف الحرب البافاري. وأبقيناه هنا لنظهر التصميم الذي استثمر في إنتاج الدليل. (المترجمة)

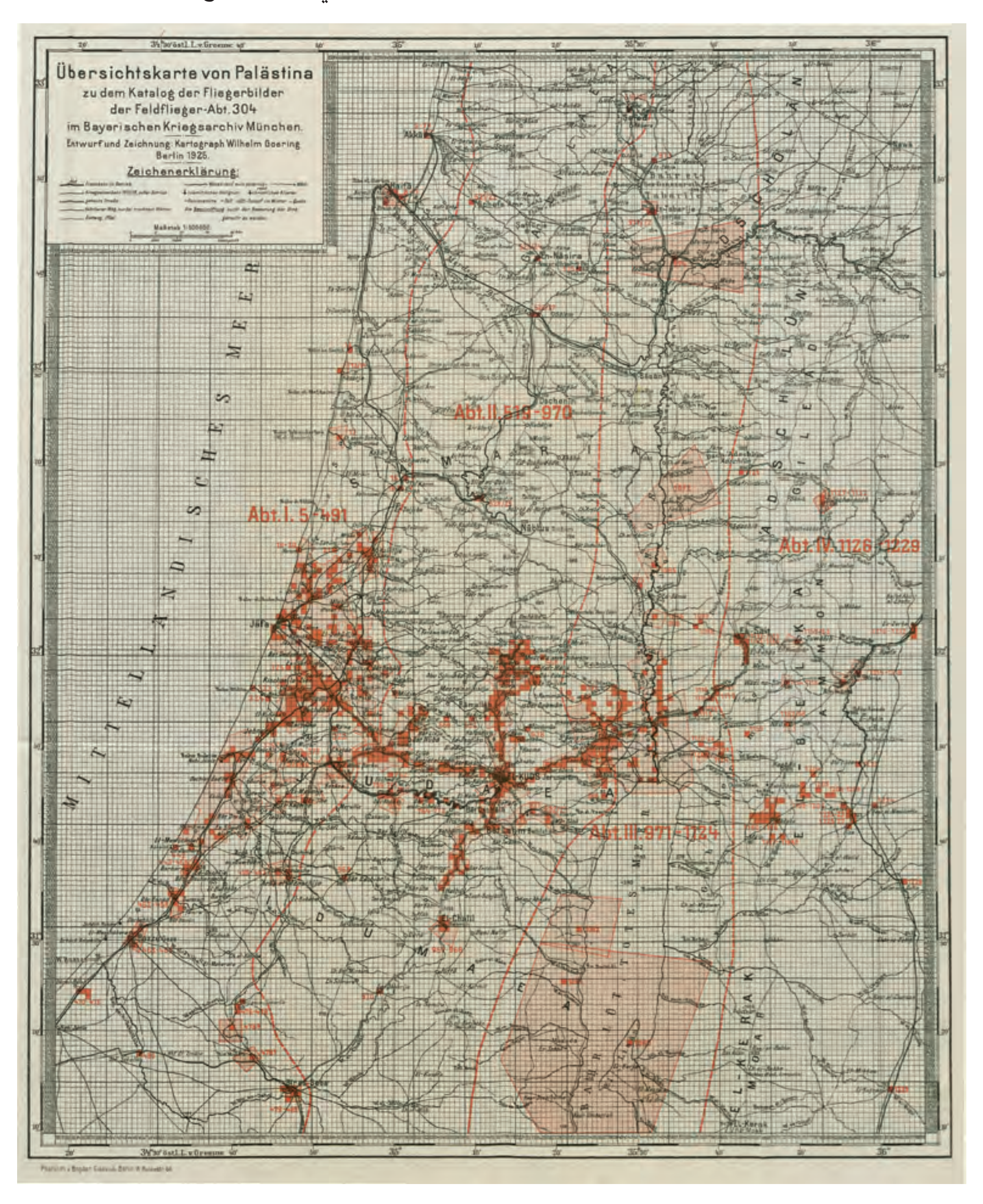
Verzeichnis der Palästina-Flieger-Aufnahmen des Bayerischen Kriegsarchivs

LN	FN	Ort	KQ	Zeit	H	Br
		Erste Abteilung: Küstenebene.				
		I. Von Sidon bis Jafa.				
1*		Sidon von S. (HA)		nachmittags		
2*		Sidon: Übersicht mit Kal'at el-Bahr, Gärten im N.		„		
3*		Sidon: Stadt-Mitte		„		
4*		Tyrus: Übersicht von N.		„		
5*	423	Akko mit 4 km n. und w. U.: Bachdsche, Menschîje	1402	„	1600	25
6*		Akko: Übersicht von NO. Festungsmauern, Hafen	„	vormittags		
7* (a)		Akko: n. Teil d. Stadt. Große Moschee. (VA)	„	„		
8*	425	Ḥaifa: Abhang des Karmel, deutsche Kolonie. (VA)	2596	20. 1. 18 3^{10}	1900	25
9*	424	s. Ḥaifa, deutsche Kol., Karmelheim. (VA)	2595	„	„	„
10*	426	s. Ḥaifa, sö. Teil der Altstadt, Bhf., Palmengärten. (VA)	2697	„	„	„
11	625	sw. Ḥaifa	2794	10. 3. 18 3^{0}	3000	50
12	690	Mündungsgebiet des Nahr ez-Zerḳa (Krokodilfluß)	5687	22. 3. 18 2^{15}	„	25
13*	850ᵃ	Ḳêsârie (Cäsarea) mit je 1 km n. ö. s. U.	6085	10. 4. 18	4100	
14		Ḳêsârie. (VA) (8 x 10)	6085			
15*		Ṭûlkerm und nächste U. (VA)	8198	nachmittags		
16	683	Irtâḥ (nicht Irtab) und nw. U., Straße, Eisenbahn	8397	21. 3. 18 8^{15}	4700	50
17	282	Nahr Iskanderûne (nicht Nahr el-Fâliḳ). Mündungsgb.	7385	10. 1. 18 2^{30}	3700	21
18	367	Miske und s. U.	9289	17. 1. 18 2^{30}	3900	„
19	366	n. Kafr Sâba bis Miske	9489	„	„	„
20	189	Arsûf (el-Ḥaram 'Ali Ibn 'Alêm)	9577	29. 12. 17 12^{0}	3000	25
21	198	s. Tabsôr (Ên Zêtuni)	9584	„	„	21
22*	362	Kol. Kefr Sâba (= Sâbje) mit U.	9687	17. 1. 18 2^{30}	„	25
23		„ „ „ (fast wie 22)	9687	„	„	„
24	288	Kol. Kefr Sâba (fast wie 22)	9687	10. 1. 18	3700	21
25	824	Sâbje (Kol. Kefr Saba) und n. U.	9687	9. 4. 18 12^{45}	4000	50
26	1598	sw. Sâbje	9785	29. 5. 18 2^{0}	4500	„
27*	676	Dorf Kefr Sâba mit 1 km nö. U. (VA)	9690	21. 3. 18 8^{15}	4700	„
28	364	2 km nw. U. von Kefr Sâba	9589	17. 1. 18 2^{30}	3900	25
29	360	Dorf Kefr Sâba mit 2 km n. U.	9590	„	„	21
30	365	fast wie 28	9690	„	„	25
31	677	1 km nw. U. von Kefr Sâba	9589	21. 3. 18 8^{15}	4700	50
32	678	1 km n. U. von Kefr Sâba	9489	„	„	„
33	682	n. von Kefr Sâba	9189	„	„	„
34*	850	Ḳalḳilje mit Eisenbahn und 3 km n. U.	9392	10. 4. 18 7^{45}	4100	25
35	680	w. Ḳalḳilje, Eisenbahn, 2 km U.	9591	21. 3. 18 8^{15}	4700	50
36	681	sw. Ḳalḳilje, Eisenbahn, 2 km U.	9691	„	„	„
37	393	s. Ḳalḳilje, Eisenbahn, 3 km U.	9791	19. 1. 18 1^{0}	2800	21
38	849	s. Ḳalḳilje (ähnlich wie 37)	9792	10. 4. 18 7^{45}	4100	25
39	847	Dschildschûlje (3 km s. von Ḳalḳilje) mit U. u. Eisenb.	9991	10. 4. 18 7^{45}	„	„
40		Dschildschûlje mit n. Forts. von 39	9891	„	„	„
41* (a)	603	ed-Dschelîl und U., 4 km Küste	9878	6. 3. 18 8^{45}	4500	„
42	190	w. ed-Dschelîl, 2 km Küste	9877	29. 12. 17 12^{0}	3000	25
43	191	ed-Dschelîl und 3 km sw. U.	9978	„	„	„
44	1589	sö. ed-Dschelîl, ca. 3 km Gelände	9978	29. 5. 18 2^{0}	4500	50
45	1590	sö. ed-Dschelîl, sö. Forts. von 44	0180	„	„	„
46	1591	s. ed-Dschelîl (Pfeil verkehrt)	0178	„	„	„
47	1592	sö. ed-Dschelîl, 3—4 km Gelände, Feldbahn	0279	„	„	„
48	370	Abu Kischk (6½ km ö von ed-Dschelîl) 2—3 km U.	9984	17. 1. 18 2^{30}	3900	21
49	1596	fast wie 48, s. Forts. von 27	„	29. 5. 18 2^{0}	4500	50

الشكل 3. الصفحة الأولى من الدليل (ص. 125 في كتاب دالمان 100 صورة جوية).

تـم إرفـاق جـدول مـع خريطـة المسـح (أنظـر الشـكل 4) وتظهـر فيـه أرقـام مؤلفـة مـن 4 أو 5 أعـداد علـى الهوامـش اليمنـى أو اليسـرى، ورقـم مـن عدديـن علـى الهوامـش العليـا والسـفلى، وهـي تتطابـق مـع بيانـات الصـور الجويـة الموجـودة فـي الدليـل. تـم تمثيـل الأرقـام المؤلفـة مـن 4 – 5 أعـداد فـي الهوامـش اليمنـى واليسـرى بمنـازل مئويـة كاملـة، بينمـا تشـير الأرقـام المؤلفـة مـن عدديـن فـي الهوامـش العليـا والسـفلى إلـى

العشـرات والوحـدات. ويسـبق صفـر الأرقـام المؤلفـة مـن عـدد واحـد. تُقـرأ خانـات الجـدول باسـتخدام الرقـم الظاهـر علـى أيمـن أو أيسـر الصـف دون قـراءة الأصفـار وإضافـة الرقـم ذي العلاقـة الظاهـر علـى الطـرف الأعلـى أو الأسـفل. فعلـى سـبيل المثـال رقـم 161 (اللـد) موجـود فـي الصـف الـذي تظهـر عليـه إشـارة 2200 علـى الهامشـين الأيمـن والأيسـر، و86 علـى الهامشـين الأعلـى والأسـفل؛ وبالتالـي يكـون مربـع الخريطـة 2286.



الشـكل 4. الخريطـة الفلسـطينية التـي أعدهـا رسـام الخرائـط و. غويرينـغ، التـي نشـرت فـي كتـاب دالمـان «100 صـورة جويـة لفلسـطين» كمطويـة مرفقـة (50 x 55 cm).



الشكل 5. تفاصيل خريطة فلسطين التي أعدها رسام الخرائط و. غويرينغ. لاحظ الأرقام المكتوبة بخط صغير والمؤلفة من 4 5- أعداد على الهوامش اليمنى واليسرى. وتظهر أرقام مؤلفة من عددين في الهوامش العليا والسفلى (لا تبدو هنا).

أود أن أشكر دائرة رسم الخرائط في المكتب الوطني لمسوحات الأرض (Kartographischen Abteilung des Reichsamtes für Landesaufnahme) لدعمهم الكريم لهذا الدليل. كما أتوجه بالشكر الخاص للأستاذ المستشار الدكتور غوستاف دالمان ورسام الخرائط و. غويرينغ ودائرة المشرق في المكتب الوطني لمسوحات الأراضي لتحققهم من المعلومات وتحسين البيانات المحلية على مربعات الخرائط، وتحديد بعض الصور التي انضوت بشكل خاص على بعض الصعوبات. ومن جميع أصدقاء فلسطين لغويرينغ شكر خاص لتحريره خريطة مسح فلسطين.

ملاحظة: معظم الصور مائلة ولذلك تم حذف تسميات مثل (SA) من الدليل لغرض الاختصار.

وبما أن اللقطات العمودية الفعلية نادرة للغاية يكون اختصار (VA) في غاية الأهمية، كذلك يمكن اعتبار جميع الصور التي تتجاوز مسافتها البؤرية 50 صورا عمودية

الهوامش:

1 Cf. A. Alt, Aus der Kriegsarbeit der deutschen Wissenschaft in Palästina [From the War Effort of German Science in Palestine], Zeitschrift des Deutschen Palästina Vereins [Journal of the German Palestine Association]. XLIII, issue 3–4, pp. 93–108.
(من الجهود الحربية للعلماء الألمان في فلسطين، مجلة الجمعية الألمانية الفلسطينية). 43، العدد 3 – 4. ص. 93 – 108.

2 Cf. Dr Kurt Krause, Die Fliegeraufnahme und der erdkundliche Unterricht. Geographischer Anzeiger, 20. Jahrg [Aerial Photography and Geography Lessons. Geographical Journal, 20th Year], (1919) pp. 17—21. On the setup and function of the aircraft camera, see Dr Eng. Erich Ewald, Die Verwendung der Flugzeugphotographie [The Application of Aerial Photography]. Internationales Archiv für Photogrammetrie

[International Photogrammetry Archive], Volume VI. (1923) p. 1—12.

(الصور الجوية والدروس الجغرافية. المجلة الجغرافية، السنة 20)، (1919) ص. 17 – 21. للمزيد من المعلومات حول إعداد وعمل آلات التصوير في الطائرات راجع د. م. إريخ إيفالد، تطبيقات التصوير الجوي. الأرشيف الدولي للمساحات التصويرية، المجلد 6. (1923) ص. 1 - 12

3 Cf. Joseph Filbig, Fliegerbild und Heimatkunde. Ein Beitrag zur Einführung ins Kartenverständnis [Aerial Photography and Local History. A Contribution to the Introduction to Map Understanding]. VIII, p. 47, Munich-Berlin, 1920.

(التصوير الجوي والتاريخ المحلي. مساهمة لمقدمة فهم الخرائط). 8، ص. 47، ميونيخ، برلين، 1920).

4 Filbig, Fliegerbild, and Heimatkunde Aerial Photography.

(التصوير الجوي)

5 Cf. also for further details K. Krause, op. cit., and Filbig, op. cit.

(للمزيد من المعلومات راجع ك. كراوس (K. Krause) مرجع سابق و(Filbig) مرجع سابق)

6 See Krause, op. cit. p. 19, figure 3.

(راجع Krause مرجع سابق، ص. 19، الشكل 3)

7 Cf. Erich Ewald, Das Luftbild im Unterricht. 1. Heft der Sammlung "Bild und Schule" [Aerial Photographs in Instruction. First Booklet of the collection "Photos and School"]. Zentralinstitut für Erziehung und Unterricht [Central Institute for Education and Training]. Breslau: Hirt, 1924, p.14

راجع الصور الجوية في التدريس. الكتيب الأول من المجموعة «الصور والمدرسة»، المؤسسة المركزية للتعليم والتدريب، 1924، ص. 14

8 See Ewald op. cit. p. 20, fig. 2 and p. 22.

راجع إيوالد، مرجع سابق، ص. 20، الشكل 2 ص. 22



«على جناح إعصار»
الجماليات الجوية لفرانك هيرلي في فلسطين

أندرو ييب وإما كروت

ملخص

في سنة 1917 كُلف المصور الأسترالي فرانك هورلي، الذي اشتُهر في أستراليا وأوروبا كمحب للجمال بعد انتشار صوره لمناظر القطب الجنوبي ليكون أول مصور حرب أسترالي في الحرب العالمية الأولى. زار خلال رحلته فرنسا وبلجيكا وأخيرا فلسطين حيث ركز في عمله هناك على التجربة البصرية بدلا من التوثيق التاريخي. حيث أجرى أولا تجاربا بالألوان ومن ثم بالصور الجوية. وأصبح دور هورلي كفنان كُلف بالعمل وقت الحرب خلافيا، فمزجه ما بين التقنيات الفنية والتكنولوجيا العسكرية خلال الحملة الفلسطينية في فجر التصوير الجوي مثّل لحظة مهمة في تاريخ التصوير، وكشف جميع التعقيدات الأخلاقية التي تتعلق بالصور الجوية المعاصرة التي ترافق السلطة والسيطرة.

الكلمات الرئيسية

الحرب العالمية الأولى، جيمس فرانسيس فرانك هورلي، التصوير الجوي، فلسطين، تصوير النزاعات.

عُيّن المصور والرسام الأسترالي المعروف جيمس فرانسيس (فرانك) هورلي (1885 - 1962) سنة 1917 في القوات الإمبريالية الأسترالية الأولى كمصور حرب رسمي. ولقد تم تعيينه بالأساس ليوثق الحملة الأسترالية على الجبهة الغربية، ولكنه أُرسل لاحقا ليصور الحرب في فلسطين. وتم ترشيحه ودعمه للحصول على هذه المهمة من قبل مراسل أستراليا الرسمي للحرب العالمية (والذي أصبح فيما بعد

المؤرخ الرسمي للحرب العالمية الأولى)، تشارلز بين. حيث ساعدت أعمال بين الصحفية على الجبهة العثمانية والغربية خلال الحرب، وساعدت الأعمال التي جمعها بعد ذلك حول تاريخ أستراليا الرسمي في الحرب العالمية 1914 – 1918 في إنشاء قواعد في الأدب والتاريخ والرسم لا تزال موجودة اليوم، أدت فيها أستراليا

دور الجسـر بيـن مجتمـع أسـتراليا المسـتحدث ذا الماضـي الأوروبـي الاسـتعماري والفيدراليـة الأسـترالية الجديـدة التـي تشـارك للمـرة الأولـى فـي حـركات دوليـة جيـو- سياسـية. ولـم يعتمـد هـذا التوصيـف العـام لتجربـة أسـتراليا فـي الحـرب العالميـة الأولـى كلحظـة بنـاء الأمـة بالضـرورة علـى التفاعـل الوثيـق مـع التاريـخ الاجتماعـي – الثقافـي للمجتمعـات الأطـراف فـي هـذه النزاعـات. وهـذا ينطبـق تحديـدا علـى حملـة أسـتراليا ضـد الإمبراطوريـة العثمانيـة فـي الدرنديـل ومصـر وفلسـطين والتـي بـرزت لاحقـا فـي القـرن العشـرين فـي القـراءة المعدلـة للتاريـخ الأسـترالي للحـرب علـى أنهـا وقعـت نتيجـة تعاظـم الـروح القوميـة التركيـة لا نتيجـة تحـرك الإمبراطوريـة.

يضيـف وجـود هـذا الإطـار القومـي الخـاص تعقيـدات علـى المخـاوف المعتـادة المتعلقـة بالأصالـة والرسـائل والغـرض التـي تشـكل فهمنـا لجميـع صـور النزاعـات. وكفنـان فـي موقـع حـرب، عمـل فرانـك هورلي ضمـن هـذه الحـدود ولكنـه تخطاهـا فـي العديـد مـن الأحيـان. وبمـا أنـه كلـف بهـذه المهمـة مـن خـلال برنامـج فـن الحـرب الرسـمي فـي أسـتراليا كان ملزمـا بتوثيـق أعمـال الجنـود فـي المعـارك التـي شـاركت فيهـا القـوات الأسـترالية. لعبـت هـذه الصـور بالتأكيـد دورا فـي تطويـر سـرد تاريخـي عـن المناطـق التـي انتشـرت فيهـا القـوات الأسـترالية. ولكـن هورلـي كان مهتمـا بالجماليـات، ولـم يكـن جنديـا، ولـذا انصـب اهتمامـه علـى العناصـر الدراميـة والأحاسـيس الموجـودة فـي أرض المعركـة وليـس اسـتخدام الكاميـرا كأداة أو سـلاح سياسـي. الأمـر الـذي انعكـس فـي الصـور التـي التقطهـا للمعـارك فـي فرنسـا وبلجيـكا، والتـي اكتسـبت شـهرة – سـلبية وإيجابيـة – بسـبب اسـتخدامه لتقنيـات الصـور الكبيـرة والتركيـب بشـكل مبتكـر لتجميـل وإعـادة تمثيـل تجربـة حـروب الخنـادق وتجميعهـا مـن عـدة صـور.

أمـا تجربـة هورلـي مـع التصويـر الجـوي خـلال رحلتـه فـي فلسـطين سـنة 1917، والتـي هـي أقـل شـهرة، فسـجلت مرحلـة مهمـة وإشـكالية فـي تاريـخ التصويـر. حيـث حُكمـت هـذه التجربـة بظـروف وجـود هورلـي فـي فلسـطين، فهـو لـم يكـن هنـاك بوصفـه خبيـرا فـي الأنثربولوجيـا أو وصـف الأجنـاس البشـرية يقـوم بالتوثيـق بحسـب تقاليـد واضحـة، وإنمـا كان هنـاك تحـت سـلطة العسـكر لدعـم الجنـود. وفيمـا عكسـت صـوره حيـاة الفلسـطينيين إلا أن الملاحظـات التـي رافقتهـا كانـت عابـرة وتعكـس عيـن الغريـب غيـر المتآلف مـع المـكان. وكمـا كانـت حـال الرسـام جـورج لامبـرت - فنـان حـرب أسـترالي رسـمي آخـر كلـف بالعمـل فـي فلسـطين –تعامـل هورلـي مـع المشـهد الفلسـطيني وفهمـه مـن ناحيـة جماليـة وتركيبيـة معتمـدا علـى مواطـن الشـبه بينـه وبيـن مشـاهد عاشـها فـي صبـاه. لـم يكـن هورلـي مطلعـا علـى التعقيـدات السياسـية والإثنيـة فـي الشـرق الأوسـط، إلا أنـه لا يمكـن القـول أن صـوره محايـدة سياسـيا. فباعتبـاره ملازمـا فخريـا فـي القـوات الأسـترالية الإمبرياليـة صـوّر عملـه، بالرغـم مـن شـاعريته الكبيـرة، لحظـة مهمـة فـي تاريـخ أمتـه مـن خـلال عدسـة احتلالهـا لأمـة أخـرى. فعلـى سـبيل المثـال، وبالرغـم مـن أنـه وصـل بعـد انقضـاء الأحـداث، أعـاد هورلـي تمثيـل احتـلال القـوات الأسـترالية للقـدس وصورهـا بشـكل حـي.

تمثـل تجـارب هورلـي الجماليـة بالتصويـر الجـوي فـي فلسـطين – والتـي كانـت وقتهـا شـكلا جديـدا مـن أشـكال التعبيـر الجمالـي سـنة 1917، أوجدتـه الظـروف التـي سـادت وقتهـا – لحظـة مهمـة ومعقـدة فـي تاريـخ الجماليـات الفوتوغرافيـة. وبيـن يـدي فنـان كهورلـي، أثـار هـذا الفضـاء التصويـري الجديـد، الـذي مثـل التقـدم الحاصـل فـي مجـالات فـي التكنولوجيـا الصناعيـة والسـيطرة العسـكرية علـى الأراضـي الظاهـرة فـي الصـور، أسـئلة جديـدة وغيـر مريحـة حـول الحـدود الأخلاقيـة لعمـل الفنـان وقـت الحـرب، وكشـفت عـن الشـبكات السياسـية التـي جلبتهـم لسـاحة المعركـة. وبالتالـي اسـتحقت صـوره الجويـة التفكـر الناقـد حتـى بعـد قـرن مـن التقاطهـا، فـي وقـت تطـور فيـه التصويـر فـي الفضـاء الجـوي ليتـرادف مـع إنشـاء المناطـق والحـدود والسـيطرة عليهـا.

تزامنـت صـور هورلـي للحـرب العالميـة الأولـى مـع منعطـف فـي تاريـخ التصويـر ومكانتـه، حيـث أتـاح ظهـور تقنيـات التصويـر المحمـول، مثـل آلـة تصويـر الجيـب (كـوداك)، التقـاط الصـور خـارج الاسـتوديو

علـى نطـاق واسـع، بينمـا كانـت الحـركات الجماليـة فـي الوقـت ذاتـه تضـع أسـس التجـارب التصويريـة الحديثـة التـي أتاحـت للفنانيـن التسـاؤل عـن حـدود فلسـفة التصويـر الفوتوغرافـي نفسـه. وتأثـر نهـج هورلـي بالتصويـر، كفنـان ومصـور تجـاري، بشـكل كبيـر بالحركـة البتكتوريائيـة التـي ظهـرت فـي نهايـة القـرن التاسـع عشـر، والتـي سـعت لتثبيـت التصويـر كشـكل جمالـي، بـدلاً مـن مجـرد مـرآة للواقـع. ركـزت هـذه الصـور علـى الخصائـص الجويـة للوسـط عـن طريـق التلاعـب بدرجـة اللـون والملمـس، واسـتخدام القحـط والتلويـن مباشـرة أحيانـاً علـى سـطح الفيلـم السـلبي، اعتمـاداً علـى المبـادئ الكلاسـيكية للتركيـب، وتنسـيق المشـاهد واسـتخدام الصـور الرومانسـية أو الرمزيـة.

كان هـذا الاهتمـام التصويـري أحـد عامليـن شـكلا عملـه خـلال الحـرب، أمـا العامـل الثانـي فهـو الشـخصية الدراميـة التـي أنشـأها لنفسـه والتـي أعطتـه صفـة البطـل الرومانسـي. ففـي وقـت تعيينـه فنـان حـرب فـي 1917 كان فرانـك هورلـي قـد تحـول إلـى أسـطورة فـي الثقافـة الشـعبية كمغامـر بطـل مقـدام، اشـتهر بصـوره السـاحرة لرحـلات استكشـاف القطـب الجنوبـي. وأهلتـه شـهرته كمصـور بطاقـات بريديـة شـاب مسـتعد للمخاطـرة بنفسـه للحصـول علـى أفضـل صـورة لأن يكـون المصـور الفوتوغرافـي والسـينمائي الرسـمي لاستكشـافات ماوسـون (1911 – 13) وشـاكيلتون (1914 – 16) والقطـب الجنوبـي. وتـم الاحتفـاء بفيلمـه الوثائقـي الصامـت «موطـن العواصـف الثلجيـة» (1913) الـذي يصـور الظـروف الغـادرة فـي استكشـاف القطـب الجنوبـي وعظمـة المشـهد الجليـدي هنـاك.

واعتمـدت الجماليـة فـي صـور هورلـي الأكثـر نجاحـاً، علـى تجربتيـن متعاكسـتين فـي المقيـاس والمنظـور؛ فمـن جهـة هنـاك الطابـع الشـخصي ونظـرة هورلـي المستكشـف، ومـن جهـة أخـرى هنـاك روعـة البيئـة التـي تتـم فيهـا عمليـات الاستكشـاف وعظمتهـا. ففـي سلسـلة صـور القطـب الجنوبـي، اتبـع هـذه الإسـتراتيجية ليعبـر عـن مهمـة الاستكشـاف، والصـراع المهيـب مـا بيـن البشـرية وحـدود الأرض، والطبيعـة الخطـرة لهـذا السـجال. وتعامـل هورلـي عندمـا وصـل إلـى فرنسـا فـي 1917، مـع سـاحة المعركـة بالاندفـاع نفسـه، ولكـن عـدم قـدرة آلات التصويـر الكبيـرة المعقـدة التـي كان يسـتخدمها علـى التقـاط التعقيـد الزمنـي والامتـداد الجغرافـي بالشـكل الكافـي فـي الحـرب الحديثـة أحبطـه كثيـراً. حيـث قـال فـي كتاباتـه: «حاولـت وحاولـت أن التقـط الأحـداث علـى فيلـم سـلبي واحـد، دون جـدوى. فـكل شـيء كان يظهـر علـى مقيـاس كبيـر».[1] وبالتالـي، بـدأ هورلـي بإنتـاج الصـور المركبـة حيـث تظهـر إشـارات متعـددة علـى الحـرب كالطائـرات والانفجـارات والدخـان والجنـود فـي إطـار واحـد لتسـتحضر الحـدث بشـكله المحمـوم والمتجانـس بصريـاً فـي الوقـت ذاتـه. والمثـال الأشـهر هـو تركيـب هورلـي لأربـع صـور سـلبية مختلفـة حملـت عنـوان «مـا بعـد معركـة زونيبيـك» (1918)، والتـي تبيـن الجنـود الأسـتراليين علـى الجبهـة الغربيـة وهـم يخرجـون مـن الخنـادق ويسـتعدون لعبـور «الأرض الحـرام» الزاخـرة بالانفجـارات، بينمـا يظهـر الخطـر الدائـم للطائـرات محلقـاً فـوق رؤوسـهم.

بينمـا كان دور هورلـي كمصـور رسـمي بالأسـاس هـو التوثيـق، فإنـه كان مقتنعـاً أن العمـل الإعلامـي يتطلـب تدخلـه البصـري. ويـرى بيرنـد هوبـاوف، كمـؤرخ ثقافـي، أن سـخط هورلـي علـى قيـود التصويـر يشـير إلـى الفجـوة مـا بيـن تجربـة الحـرب والقيـود التـي تفرضهـا الكاميـرا علـى تصويـر هـذه التجربـة بالشـكل الكافـي، علـى الرغـم مـن قـدرة التصويـر المفترضـة علـى المحـاكاة. وهـو يـرى أن هـذا الإخفـاق يشـير إلـى مفهـوم أوسـع فـي الواقـع الحديـث «باعتبـاره واقعـاً مفـككاً ومجـرداً ومعقـداً، نشـأ نتيجـة هيكليـات فنيـة مـن ضمنهـا التصويـر».[2] ولقـد أخفـق تشـارلز بيـن بالتأكيـد فـي فهـم ضـرورة عيـن المصـوّر فـي نقـل الرؤيـة، حيـث تعامـل مـع الصـور علـى أنهـا مجـرد نصـوص تاريخيـة ترتبـط فائدتهـا كمصـدر معلومـات بماديتهـا الصرفـة. ولذلـك تعامـل تشـارلز بيـن مـع الطابـع الشـخصي لصـور هورلـي بنـوع مـن السـخرية، حيـث أن اهتمامـه كان منصبـاً علـى التوثيـق الحقيقـي والموضوعـي، وليـس «الصـور الدعائيـة والنتائـج الجماليـة» التـي أثـارت حماسـة هورلـي.[3] ويقـول ديفيـد ب. ميـلار، باعتبـاره مؤرخـاً لأعمالـه: «أحـب هورلـي التطـور، وكان يقـوم بـدور

ناقل معلومات مهتم بتقدير المشاهد وإدراكه للطين وجلد وبسالة وشجاعة الشباب على الجبهة، وإن كان ذلك يعني قص الصور أو محو التفاصيل أو تزيين الصور السلبية بالانفجارات، فليكن.»[4]

وأصّر تشارلز بين، بعد جدال مع هورلي حول استخدام الصور المركبة، بعناد على الحفاظ على نزاهة تمثيل الواقع، حيث كتب في مذكراته: «أتفهم وجهة نظره، حيث واجه الموت عشرات المرات وفشل في التقاط الصور التي يريدها – ولكننا لن نقبل بذلك بأي ثمن».[5] هدد هورلي بالاستقالة، ولكنهم توصلوا في النهاية لحلّ وسط، حيث تمكن من إنتاج ست صور مركبة للعرض. ولكن صور هورلي المركبة لم تكن مجرد مناظر مزيّنة، فقد انكب على هذه المهمة بواقعية وليس بعدوانية. فعندما شهد معركة لأول مرة سجل في مذكراته: «كان المنظر الأكثر فظاعة وترويعاً في حياتي، فمكائد الحرب المهولة تتحول هنا إلى حقيقة، والأرض مفروشة ببقايا الأسلحة والحراب والقذائف والرجال».[6]

لم يتمكن هورلي من حلّ مشاكله الجمالية تحت عين تشارلز بين في فرنسا وبلجيكا، وقرابة نهاية 1917، تم إرساله إلى فلسطين لتوثيق أحداث حملة حصان الضوء الأسترالية ضد الإمبراطورية العثمانية، ولكنه عندما وصل القاهرة، ليعبر منها إلى فلسطين كانت قوات الحلفاء قد سيطرت على بئر السبع والقدس وغزة التي وصل إليها في 28 كانون الأول. وعلى الرغم من أنه شهد عمليات عسكرية في شباط من سنة 1918 في معركة النبي موسى وما تبعها من سقوط أريحا، ونجح في مناسبة أخرى في الهرب بصعوبة من ملاحقة دورية عثمانية له تحت إطلاق النار الكثيف، إلا أن تجربة هورلي في فلسطين كانت أسهل من تجاربه في فرنسا وبلجيكا، حيث قال في كتاباته عن فلسطين: «الحياة هنا تشبه أستراليا أكثر، هواء طلق ومساحات شاسعة»، «لا تشعر هنا بوطأة الحرب ولا يخيم عليك الخوف الدائم من الموت... فرنسا كانت جحيماً، أما الوقت الذي قضيته في فلسطين فكان أشبه بعطلة».[7] ففي فلسطين تمتع نسبياً بحرية أكثر في إنتاج صور بجمالية واقعية (بكتاريولية)، مثّلت في كثير من الأحيان «أعمالاً خطرة» تمت إعادة تمثيلها ومناظر مرتبة.[8] وسُمح له ليقوم بالتقاط هذه الصور بالاستعانة بفرقة من حصان الضوء ليصوّر في القدس، وأبدى الجنود حماسة للمشاركة. أتاحت هذه الحرية التي كان يتوق لها هورلي له أن يُجرب طرقاً جديدة، ويُعتقد أنه قام في فلسطين بإنتاج صور الحرب الوحيدة التي أنتجت بألوان كاملة باستخدام تقنية لوحة ألوان باجيه التي تم تطويرها في بريطانيا قبل الحرب بسنوات قليلة (1912) كمنافس للأوتوكروم، وهي أول عملية لتحميض الصور الملونة أصبحت متاحة للناس على المستوى التجاري، والتي طورها الأخوان لوميير سنة 1907. أعجب هورلي بنتائج عملية باجيه، والتي استخدمها بشكل تركيبي بنجاح لاستكشاف تباين ألوان المشهد.

أوصلت هذه التجارب هورلي للتصوير الجوي، حيث عرّفته رحلته الجوية الأولى مع السرية 1 التابعة للقوات الجوية الأسترالية، والتي انطلقت من مطار المجدل، على الاحتمالات الجمالية التي يحملها هذا المنظور الجديد، حيث مثّل المقياس والمنظور وحياً جديداً بالنسبة له، فكتب بعد رحلته في 1918/2/16 عن منظر الأرض من أعلى: «شعرت بنشوة عظمة الطبيعة ... فعلى مقعدي كنا نندفع على أجنحة الإعصار، فوق زرقة مياه البحر العميقة الغامقة!»[9] وتقدم الصور التي التقطها منظوراً عمودياً مائلاً يختلف كثيراً عن الصور الرائعة التي التقطها من الأرض للجبهة الغربية؛ كما التقط العديد منها من زاوية منخفضة لتعطي للجنود مكانة سلطوية وبطولية. وكما غيّر اختراع القاطرة البخارية منظور المشهد الأرضي من خلال الحركة، كذلك فعلت الطائرة. ففيما قدمت القاطرة سرعة وانحرافاً بصرياً، وفرت الطائرة بعداً ومنظوراً ونسبية. وقدمت الطائرات، عندما اجتمعت مع التصوير، أشكالاً جديدة لإدراك المشهد واختباره. لم يبدأ نشر الصور الجوية، التي كانت تستخدم في الأصل لأغراض الاستطلاعات العسكرية، في الصحف حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، بسبب تطبيقاتها الواضحة في

الإستراتيجيات العسكرية. سطّحت هذه الصور الطبيعة القاسية لتضاريس ساحة المعركة، وحدّت من أنظمة خنادق الحرب المعقدة وحوّلتها لأنماط هندسية، وأتاحت قراءة مناظر الدمار العارم «كمشاهد مهيبة لأماكن يسودها الرعب الخالص»، بعيداً عن الأشلاء الموجودة في الخنادق».[10]

فللمنظور الجوي في التقاليد الفنية الغربية - من رسم المشاهد الطبيعية وحتى رسم وصناعة الخرائط - تاريخٌ طويل من العلاقات ما بين السلطة والسيطرة، ويرتبط هذا بالطبع بدلالات دينية معينة كعين الله، ولكنه يتجسد أيضاً كإسقاط للرغبات الوطنية والإمبريالية وإنشاء الحدود المناطقية. واكتسب الطيار مع التقدم التكنولوجي للحرب الجوية خلال الحرب العالمية الأولى في مجالي الاستطلاع والقصف، صفة هيمنة جديدة أشبه بالصفة الإلهية.

طلب هورلي في 1918/2/25، أن يرافق طيارات السرية الأولى في غارة استهدفت سلاح الفرسان التركي في القطرانة، والذين كانوا يحرسون نقطة إستراتيجية على سكة حديد الحجاز، وقوبل طلبه بالإيجاب. أخذ هورلي مكان المدفع الخلفي، ووضع آلته على المحور الذي يحمل المدفع بالعادة؛ ما يعني أنه عرّض نفسه للخطر، وحدّ من قدرة الطائرة على الدفاع عن نفسها. ويظهر هورلي في صوره في القمرة قبل بدء العملية واثقاً ثابتاً، وهو يرتدي معطف الطيارين الجلدي، وهي تُذكر بالصورة التي بناها لنفسه كمستكشف جَسُور مقدام للقطب الجنوبي، فهو هنا بطل القصة أكثر منه متفرجاً، كما يبدو واضحاً في ذكرياته عن هذه التجربة:

> يفوق المنظر الرائع من هذا الارتفاع الوصف، فالجبال تبدو كأكوام من الحجر الجيري مغطاة بأشجار مُقزّمة، وفي قاعدتها تبدو الوديان، الجافة الآن، كأنها قنوات عميقة... انبسطت أمامنا كبحيرة زرقاء راكدة، ساكنة وخالية من الأمواج. كنا نرى من هذا الارتفاع، الحوض السحيق من أوله لآخره... ارتفعت تحتنا الطيارات الحربية كطيور ضخمة، مرددة أصداء الدمار بهدير قوتها. ولكن في الوقت ذاته، بدا كل شيء مسالماً، ويعلم الله أن مهمة الموت والدمار التي كنا عازمين عليها كانت جهنمية بما فيه الكفاية: ولا يمكن لمخلوق طبيعي أن ينظر إلى عظمة الطبيعة الموجودة في الأسفل، متبسمة مسالمة دون أن يشعر بالندم... حلقت الآليات كالعِقبان فوق القلعة الهالكة، وكنت أستطيع أن أرى بوضوح قنابل بوزن (100 رطل) تسقط في الهواء، سقطت أحدها مدويّة في الساحة الأمامية، والله وحده يعلم الضرر الرهيب الذي أحدثته.[11]

يتأرجح هورلي ما بين جمالية اللحظة وحسّيتها ومشاركته في إحداث دمار لا سبيل لمعرفة أبعاده. فحتى قاذفات القنابل تأخذ أشكالاً مجسمة، فهي ترتفع «كطيور ضخمة» ترمي أحمالها متحولة إلى «عقبان ضخمة». يفهم هورلي تواطؤه الذي يظهر واضحاً في ندمه، ولكن، وعلى الرغم من الميزة التي يتمتع بها وتجربته، إلا أنه يرفض أن يتخيل الدمار الذي أحدثته هذه الرحلة، وهي مرة أخرى مشكلة مقياس، لا يتم فيها حلّ الأفعال الإنسانية وآثارها بالشكل اللازم.

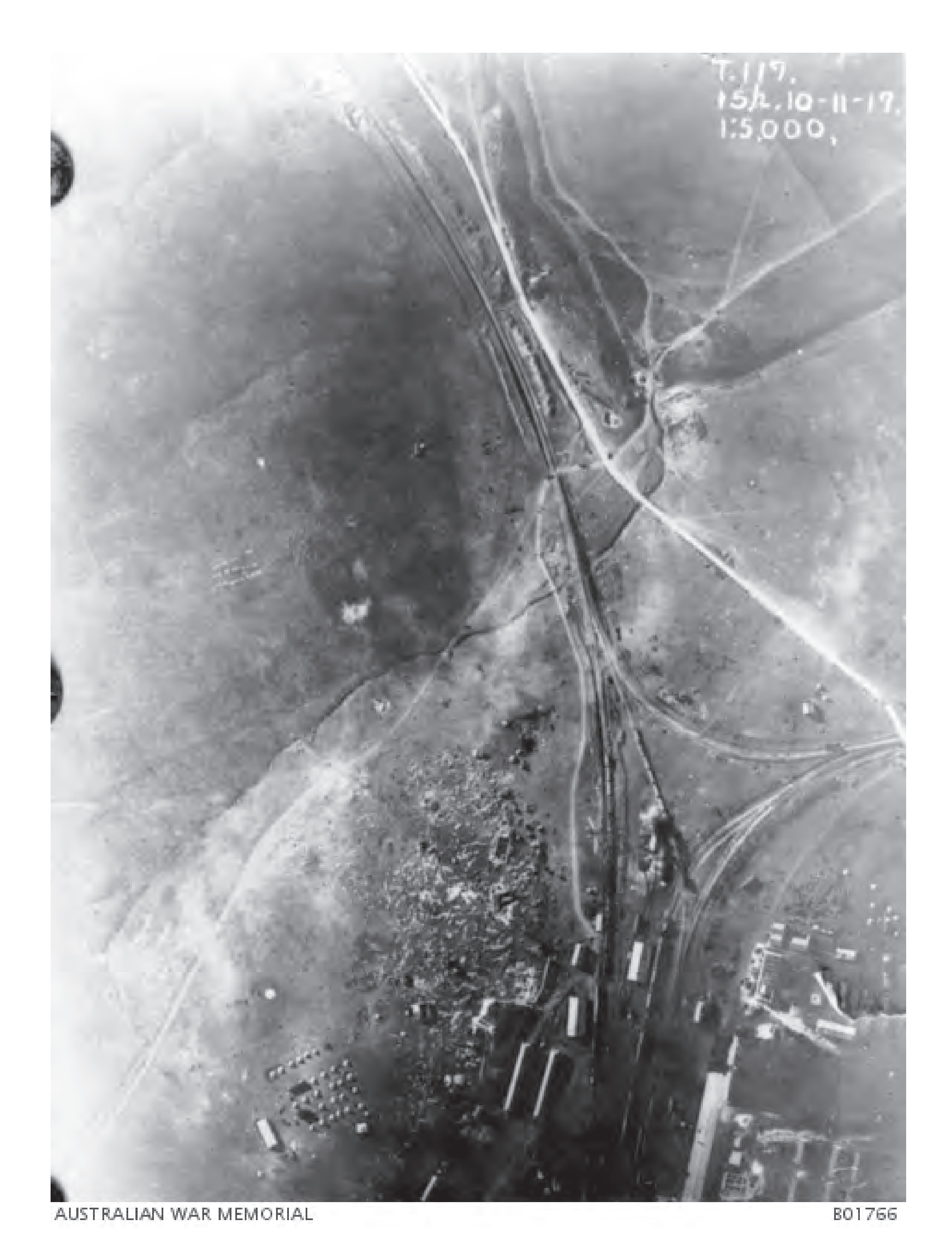
يظهر هذا واضحاً عندما نفكر في صورة هورلي التي تحمل اسم «صورة التقطت من الجو خلال قصف جنين، تبين قنبلة تسقط من الطائرة» (1918). ونرى ما بين الخطوط المتعرجة التي تُرّسم طبوغرافية جنين في الثلث الأوسط من الصورة خيال القنبلة المشؤوم قبل لحظات من انفجارها. وهنا تتحول عدسة الكاميرا إلى سلاح هجين، كاشفة عن دور التصوير البصري في تحديد النطاق، واستهداف أداء الذخيرة وقياسها. وتعمل الصورة ذاتها في وقت وفضاء هجينين، فهي غير مفيدة على الإطلاق كأداة للاستطلاع في مهمة قيد التنفيذ، ولا يمكن أن تؤدي وظيفة تقييم نجاح المهمة – فهو أمر لا يمكن القيام به حتى تنفجر القنبلة لنحدد إن نجحت المهمة أم فشلت، فهي تسجل موقع هورلي المقحم ما بين متفرج وفاعل.



الشكل 1: صورة التقطت من الجو خلال قصف جنين تبين قنبلة تسقط من الطائرة (1918)، متحف الحرب الأسترالي، الصفحة الإلكترونية www.awm.gov.au/collection/C972279 (تمت زيارة الصفحة في 2020/6/15).

هنا تعمل الصور الجوية بشكل مختلف عن صور الحرب التي يسجلها المتفرجون على الحدث أو تبعاته، فهي تشكل أزمة في التمثيل، حيث يتيح فيها المقياس البصري للصور الجوية فهم سياق العمل من الناحية التاريخية، ولكنه يُبعد المتفرج تماماً عن النتائج. فتسطيح عمودية الصور الجوية للمشهد الأرضي يُوّلد خاصية جمالية تقوم على مبادئ الترتيب الهندسية، إضافة إلى المبادئ التجريدية المفاهيمية الناشئة، وعليه، تكون الصور الجوية قد قوضت الواقعية المفترضة للكاميرا. يذكر هوباوف أن الدمج ما بين التقنيات الجديدة في التصوير والطيران في الحرب أثر بشكل كبير على منظورنا للمشهد الأرضي والمكان، ما حوّل وفرة التفاصيل في العالم إلى أنماط منظمة ومجردة.[12]

فعلى سبيل المثال، نرى في صورة التُقطت من الجوّ لقنبلة تنفجر على قطار في محطة سكة الحديد، أيسر وسط الصورة، في جنين (1918)، تركيزاً على البعد المادي، ولكن تبقى هناك مسافة عاطفية بين المتفرج والتفجير بسبب صعوبة فك رموز الصورة. ويتشارك المشاهد في عدم قدرته على الرؤية في قراءته مع هورلي بشيء مما ذكر في يومياته، ففي وصفه للمنظر من الطائرة يقول هورلي: «اتخذت الأرض شكل رقع متصلة بعضها ببعض».[13] وتكمن إشكالية هذه الصور في قدرة الجماليات على أن تطغى على الأثر المدمر الذي تتركه الحرب على الأشخاص والأماكن الحقيقية. ومن المثير للاهتمام، أن مصورين كإدوارد شتايخين تخلّوا عن التزامهم بالليونة المزاجية للبكتيروياالية (القصصية) بعد الحرب العالمية الأولى لصالح الخطوط الحادة وتجريد الجماليات الحديثة المنعكس في تجربتهم من السماء.



الشكل 2: صورة التقطت من الجو تبين قنبلة تنفجر على قطار في محطة سكة الحديد، في وسط الصورة ويسارها، في جنين، (1918)، متحف ذاكرة الحرب الأسترالية، الصفحة الإلكترونية www.awm.gov.au/collection/C972278 (تمت زيارة الصفحة في 2020/6/15).

وإضافة لصوره الجوية، توفر الصور الأخرى التي التقطها هورلي خلال وجوده في الشرق الأوسط زاوية عالية ومائلة للخصائص «غير المألوفة» للمشهد الأرضي بطريقة لعبت على حداثة معرفة هورلي بالشرق الأوسط وافتتانه به. لم يكن هورلي الفنان الأسترالي الوحيد الذي عبّر عن المشهد الفلسطيني خلال الحرب العالمية الأولى، فالرسام جورج لامبارت، والذي اختاره تشارلز بين لاحقاً لتوثيق آثار حملة غاليبولي (الدرنديل) سنة 1919، ارتبط كذلك بحملة حصان الضوء في فلسطين، وأنتج سلسلة من المشاهد المهيبة عالية الأهمية، من زاوية مرتفعة في كثير من الأحيان، وكشفت عن عناصر مهيبة في مقياسها وعمقها. ولكن لامبارت تعامل مع المشهد الفلسطيني من منطلق الزهو الرمزي له كامتداد لتقاليد الجبهات الأسترالية. وكانت حملة حصان الضوء في فلسطين، بالنسبة للامبارت، استحضاراً لبطل السكان الأصليين الثقافي المشهور في أستراليا في القرن التاسع عشر. فلوحته التي تحمل عنوان «رقيب من حملة الضوء الأبيض في فلسطين» (1920)، والتي تُظهر الجندي توماس هنري إيفيرس – وهو فنان أيضاً رسم أيضاً عدة لوحات صوّر فيها فلسطين، قُرِأت في موطنه على أنها مثال لشخصية الرجل الأسترالي، ورمز لصعود الهوية الوطنية الأسترالية على الساحة العالمية. وبالتأكيد، اكتسبت الساحة الشرق أوسطية بحلول 1918، وكنتيجة مباشرة لحملة غاليبولي، نوعاً من المكانة الأسطورية في السرديات الأسترالية للحرب كتفاعل ما بين الأمة الفيدرالية حديثة الإنشاء والثقافات التوراتية القديمة.[14] ولا يبدو أن هورلي اتبع خلال رحلته الأولى في فلسطين خط لامبيرت في تجسيد الأسطورة الوطنية في صوره، فعلى سبيل المثال، وبعكس الصور المأخوذة من زاوية منخفضة في الجبهة الغربية لتُركّز على بطولة الجنود الفردية، فإن صوراً كتلك التي تحمل عنوان «كتيبة من حصان الضوء الأسترالي تسير قرب بيت لحم أو القدس، بقيادة العميد تشارلز فريدريك كوكس» (1918)، والتي التُقطت من زاوية عالية، تسلط الضوء على ضخامة الكتيبة. توحي هذه الصورة وغيرها بجبروت الحلفاء، ولكنها تبتعد بعض الشيء عن تاريخية فلسطين كفكرة أساسية.

ولكن فلسطين أثرت بشكل واضح في هورلي طوال حياته، فكان من الواضح عندما عاد سنة 1940 في رحلته الثانية كمُصوّر رسمي لأستراليا في الحرب العالمية الثانية (وتضمنت هذه الجولة أيضاً مصر والأردن ولبنان وليبيا وسوريا)، وكُلف هذه المرة صراحة بالتقاط صور لأغراض الدعاية الإعلامية، أنه تبنى قراءة أكثر رمزية للرحلة كحج مسيحي.[15] حيث كتب: «فتراب فلسطين وشجر زيتونها العتيق يتنفس الماضي المبهر، ويخلق جواً يدفع المرء للتأمل بإجلال وتبجيل». ويضيف: «هنا يبدو السكان وكأنهم على هذه الأرض من زمن الإنجيل، فهم لم يغيروا من عاداتهم أو أساليبهم... يزرعون الزيتون ويحرثون الأرض كما قاموا بذلك منذ آلاف السنين».[16]

وأعد هورلي في القدس كتاباً مصوراً يبين معمارية المدينة والحياة فيها وأسماه «المدينة المقدسة: دراسة مصورة للقدس والأراضي المحيطة بها».[17] يُركز هذا العمل، وهو أحد روائع مسيرته المهنية، على الأنطولوجيا الفلسطينية. كانت الصور على درجة عالية جداً من الجمالية، واستغلت المنظور الجوي المرتفع حتى تُشِّرب معمارية المدينة بالعظمة والاستعلاء، واستخدمت أسلوب الاعتماد على الإضاءة التي توحي بالحجم مستحضرة صوره المركبة لساحات المعارك في الحرب العالمية الأولى. عكست هذه الصور سرداً بني من خلال التعليقات التي رافقت الصور والمأخوذة من نصوص الإنجيل، وتضمنت صورة بعنوان «ضوء العالم» في إشارة واضحة للوحة هولمان هانت ما قبل الرافائيلية سنة 1851 –56.[18]

عُرضت صور هورلي لفلسطين، والتي طُبع بعضها على شرائح زجاجية ملونة، ولاقت استحساناً كبيراً من النقاد، كجزء من مجموعة تتألف من 136 صورة في معارض غرافتون في لندن في أيار 1918. شكّلت صور فلسطين، التي يسرتها الحربان العالميتان مهنة هورلي كمصور. لكن تورط أستراليا الإشكالي في الشرق الأوسط في صراعات عنيفة استمر حتى القرن الواحد والعشرين في حروب العراق وأفغانستان، وشهد كلاهما تكليف العديد من فناني الحرب الرسميين الأستراليين؛ أي أن برنامج فن الحرب الرسمي الأسترالي هو أطول برنامج مستمر لطلب الأعمال الفنية في التاريخ الأسترالي. ولذا من الضروري أن

نـدرس علاقـة مُعّقـدة أخـرى – وهـي دور الكيـان السياسـي المعاصـر فـي أسـتراليا فـي تخيـل الشـرق الأوسـط، والتفكيـر فـي طريقـة تطـور صـور هورلـي ونشـرها والتعامـل معهـا علـى مـرّ سـنوات القـرن.

لقـد تطـوّر فهمنـا للوسـط الفوتوغرافـي منـذ إصـرار تشـارلز بيـن علـى صحـة المـادة الظاهـرة فـي الصـورة. فكمـا يـرى جولـي: «بالنسـبة للمتفـرج المعاصـر لا تعتبـر التقنيـات التـي اسـتخدمها هورلـي بالتركيـب تزييفـاً غيـر مشـروع، ولكنهـا عبـارة عـن مؤثـرات خاصـة مشـروعة توظِّـف ضمنيـاً لإنتـاج سـيناريو مشـروع يسـتحق الاسـتثمار فـي العواطـف والاسـتثمار فـي علـم الظواهـر».[19] وينطبـق هـذا علـى جمهـور القـرن الواحـد والعشـرين، الـذي كثيـراً مـا تضمنـت تجربـة أفـراده مـع الصـور اعتمـاداً كبيـراً علـى الوسـائط والبنـاء وإعـادة المـزج والتشـارك. ولكننـا فـي الوقـت ذاتـه نعاصـر وقتـاً خلقـت فيهـا الصـور الجويـة للحـرب مـرّة أخـرى أزمـة فـي التمثيـل. فهنـاك حاجـة لاسـتحداث أشـكال جديـدة مـن الإدراك البصـري لتفسـير الأشـكال المجـردة التـي تشـير إلـى الشـوارع والمبانـي والمشـاهد الجغرافيـة الطبيعيـة، إضافـة إلـى أي أجسـام بشـرية يمكـن تمييزهـا فـي الصـور الجويـة. تقتـرح كارولـين بروثـرز أن تطبيـع المنظـور المنفصـل وغيـر الشـخصي للصـور الجويـة يحـدّ مـن الأثـر البشـري فـي الحـرب.[20] ويبـدو هـذا واضحـاً بظهـور آلات التصويـر التـي ثُبِتـت علـى صواريـخ كـروز ذات القـوة شـبه الإلهيـة فـي حـرب الخليـج الأولـى، ومنظـر طيـاري المُسـيّرات الشـباب وهـم يقـودون المهمـات عـن بعـد مـن مواقـع آمنـة بعيـدة عـن أي خطـر جسـدي. ولكـن، وفيمـا يتعلـق بالصـور الجويـة للحـرب العالميـة الثانيـة، يجـد كوسـغروف وفوكـس أنـه كان مـن الصعـب، بسـبب السـاحة الجغرافيـة الممتـدة للحـرب علـى المدنييـن، فهـم نطاقهـا مـن دون مسـاعدة الصـور الجويـة.[21]



الشـكل 3: منظـر جـوي للدفاعـات التركيـة فـي القـدس التقطـه واحـدة مـن طائـرات القـوات الجويـة الأسـترالية (1918)، متحـف ذاكـرة الحـرب الأسـترالي، الموقـع الإلكترونـي www.awm.gov.au/collection/C969، (تمـت زيـارة الصفحة فـي 2020/6/15).

ولا تـزال الصعوبـة فـي التوفيـق مـا بيـن هـذه الـرؤى موجـودة اليـوم؛ حيـث انتقـد المنظّـر والناقـد فـي مجـال التصويـر آلان سـيكولا بشـكل خـاص الاسـتخدام الاسـترجاعي لصـور شـتايخين الاسـتطلاعية الجويـة مـن الحـرب للتمعـن الجمالـي فـي المعـارض والمتاحـف، فهـو يـرى أن هـذه الصـور أدت مهمـة وظيفيـة، ولـذا فهـي تتطلـب مجهـوداً مـن الخبـراء لتفسـيرها وفـك رموزهـا.[22] وهـذا أمـر معتـاد عنـد قـراءة وسـط تصويـر يسـلط الضـوء علـى الأهميـة السـياقية للصـورة لفهمهـا مـن الناحيـة الأيدولوجيـة.

وفيمـا يبقـى مـن المهـم دون شـك التفكيـر فـي سـياق صـور هورلـي الجويـة، وأغراضهـا الوظيفيـة والدعائيـة والتوثيقيـة، إلا أنهـا أخفقـت فـي تفسـير اللاحتميـة المتأصلـة للتصويـر بسـبب تموضعـه فـي المنتصـف مـا بيـن الاحتمـال والأداة الفنيـة. فكمـا يُذّكـر جـاك رانسـيير فـي نقاشـه حـول التصويـر الوثائقـي، لا يمكـن للصـورة بحـدّ ذاتهـا أن تكشـف عـن حالتهـا كتعبيـر فنـي أو اسـتقصائي.[23] فقـد يكـون هـذا الغمـوض حـول مـا إن كان الإطـار الجمالـي لصـور هورلـي الجويـة متعمـداً أم لا، كالتـدرج فـي الألـوان والتماثـل المتـوازن للشـارع الـذي يعبـر صـورة «منظـر جـوي للدفاعـات التركيـة للقـدس مأخـوذة مـن طائـرة حربيـة أسـترالية» – (1918) – قطريـاً هـو مـا يجعـل هـذه الصـور جذابـة، ولكـن مقلقـة فـي الوقـت ذاتـه فـي سـياق النـزاع. وبالطبـع فـإن هـذا الاحتمـال يتحطـم فـي صـوره المركبـة الأكثـر شـهرة، والتـي قـد تكـون سـبباً آخـر حـوّل هـذه الصـور الجويـة النقيـة إلـى معضلـة فـي أعمالـه.

آنـدرو ييـب، مـؤرخ فنـي وفنـان وسـائط جديـدة فـي مركـز إي سـينما للأبحـاث السـينمائية التفاعليـة فـي جامعـة نيـو سـاوث ويلـز، أسـتراليا. وتتنـاول أبحاثـه أعمـال الفنانيـن الأسـتراليين والعثمانييـن فـي الحـرب العالميـة الأولى.

إيمـا كـوت، مؤرخـة ومنظـرة حـول صـور النزاعـات، ولهـا اهتمـام خـاص بجماليـات الصـور الجويـة. وهـي زميلـة بحـث عليـا فـي جامعـة نيـو سـاوث ويلـز.

الهوامش:

1 هارلـي، اقتبـس عـن بيرنـد هوبـاوف «تجـارب الحـرب الحديثـة وأزمـة التمثيـل» نقـد ألمانـي جديـد رقـم 59 (1993): 53.

2 هارلـي، اقتبـس عـن بيرنـد هوبـاوف «تجـارب الحـرب الحديثـة وأزمـة التمثيـل» نقـد ألمانـي جديـد رقـم 59 (1993): 53.

3 هارلـي، اقتبـس عـن ديفيـد ب. ميلـر «مـن الانجـراف الجليـدي إلـى نيـران القذائـف، الكابتـن جيمـس فرانسـيس (فرانـك) هارلـي 1885-1962، سـيدني، صحافـة ديفيـد ايـل، 1948، 48.

4 هارلـي، اقتبـس عـن ديفيـد ب. ميلـر «مـن الانجـراف الجليـدي إلـى نيـران القذائـف، الكابتـن جيمـس فرانسـيس (فرانـك) هارلـي 1885-1962، سـيدني، صحافـة ديفيـد ايـل، 1948، 48.

5 بيـن، اقتبـس عـن مارتـن جولـي «التصويـر الأسـترالي الفوتوغرافـي للحـرب العالميـة الأولـى، فرانـك هارلـي وشـارلز بيـن، تاريـخ التصويـر، 2: 23، 1999، 142.

6 مذكـرات فرانـك هورلـي، 1917/8/23، المكتبـة الوطنيـة الأسـترالية، كانبـرا MS 833.

7 مذكرات فرانك هورلي، 1917/12/31.

8 جولي «التصوير الأسترالي الفوتوغرافي للحرب العالمية الأولى، فرانك هارلي وشارلز بين، تاريخ التصوير، 142.

9 اقتبـس بواسـطة دانيـال، هالـي فـي الحـرب: مذكـرات وصـور فرانـك هارلـي فـي حربيـن عالميتيـن، بـرودواي، 1968.

10 هوباوف «تجارب الحرب الحديثة وأزمة التمثيل» 56.

11 هورلـي كمـا اقتبـس عنـه دانيـل أوكيفـي فـي كتابـه، Hurley at War، 88

12 بيرنـد هوبـاوف «تجـارب الحـرب الحديثـة وأزمـة التمثيـل» (جامعـة كاليفورنيـا 1995) 106.

13 هورلي، كما اقتبس عنه ديكسون، 153.

14 علـى الرغـم مـن أنـه لا يشـكل سلسـلة متكاملـة فـي تاريـخ الفـن الأسـترالي، إلا أن تصويـر فلسـطين والمغـرب والشـرق الأوسـط العثمانـي يتضمـن آثـاراً لاستشـراق متأخـر وشـاحب بنـي علـى معلومـات مأخـوذة مـن رحـلات الفنانيـن الأوروبييـن السـابقة. وقـام الرسـامون مـا بعـد الانطباعيـون، كإيثيل كاريـك وإيمانويـل فيليبـس فوكـس، فـي 1909، بتتبـع طريـق ديلاكـورس عبـر الجزائـر،

والتفاعل مع البيئة غير المألوفة في التجارب الجمالية. كذلك وجد الانطباعي الأسترالي تشارلز كوندير الإلهام البصري في الجزائر. وأيضاً سافر آرثر ستريتون، رسام المشاهد الطبيعية، والذي عُيِّن أيضاً كفنان حرب رسمي، كثيراً في مصر في طريقه إلى لندن، وامتلأت كراسته بالرسومات التي رسمها خلال هذه الرحلة.

15 هورلي كما اقتبس عنه أوكيف، Hurley at War، 144

16 فرانك هارلي: المدينة المقدسة: دراسة المدينة المقدسة وحدودها، 1949.

17 فرانك هارلي: المدينة المقدسة: دراسة المدينة المقدسة وحدودها، 1949.

18 عندما عرضت لوحة «ضوء الأرض» في سيدني سنة 1906، حظي عرضها في متحف الفن الوطني في نيو ساوث ويلز بالإشادة من النقاد، وزار المعرض 200,000 شخص. وليس من المعروف إن كان هورلي قد رأى اللوحة في هذا السياق.

19 جولي «التصوير الأسترالي الفوتوغرافي للحرب العالمية الأولى، 147.

20 الاخوة كارولين، الحرب والتصوير، تاريخ ثقافي، نيويورك 1997، 103.

21 Denis Cosgrove and William L. Fox, "The Airman's Vision: World War Ii and After," in Photography & Flight, London: Reaktion Books, 2009, 57.

22 Allan Sekula, "The Traffic in Photographs", Art Journal, 41;1, Spring 1981, 15-25.

23 Jacques Rancière, "Notes on the Photographic Image," Radical Philosophy 156, July/August 2009, 15.

التاريخ يحيل الفضاء مكانًا

رحلة فرنسيّة إلى حوض البحر الميّت في سنة 1864

إعداد: إيزوتا بوغي

ملخص

سنة 1864 قاد الإنساني والمقتني الفرنسي أونوريه ابن عائلة البير دوق لوين (1802 – 1867) حملة استكشافية علمية انطلقت من بيروت في لبنان إلى البتراء في الأردن، وضمت خبرات كل من المصور لويس فيين (1831 – 1896)، والجيولوجي لويس لارتيت (1840 – 1899)، والعالم في التاريخ الطبيعي غوستاف كومب (1832 – 1905). مسح الفريق حوض البحر الميت ودرس المواقع التاريخية المرتبطة بالقصص التوراتية (بما فيها المدن «الملعونة» القديمة) وخصائص الحوض الجيولوجية. وبعد سنة من ذلك، قام دوق لوين بتمويل حملة تصوير هنري سوفير (1831 – 1896) إلى الخليل والضفة الغربية وقلاع الصليبيين في الكرك والشوبك في الأردن. توثق الرحلة التي أنتجب أرشيفا للصور والرسومات والخرائط، والتي تم تسجيلها كمجموعة من قصص الرحلات في رحلة استكشاف البحر الميت والبتراء وشرق الأردن (باريس، 1874)، النهج الفرنسي في دراسة الجذور التاريخية للمسيحية في فلسطين والالتقاء بالسكان المحليين في السنوات الأخيرة من عهد الإمبراطورية العثمانية. ويمكن أن تستخدم الصور التي التقطت قبل إنشاء صندوق استكشاف فلسطين بقليل لمدن نابلس وجنين والخليل الحية والمشاهد الطبيعية بالقرب من البحر الميت والخرائط الجيولوجية والنصوص التي كتبها الرحالة كمصادر تاريخية فريدة من نوعها في سياق مشروع «معرض المدن» ليزيد عناني.

الكلمات الرئيسية

بعثة فلسطين، لويس لارتيت، لويس فيين، هنري سوفير، أونوريه ابن عائلة البير، دوق لوين، استكشاف البحر الميت، صور رحلات القرن التاسع عشر، دير مار سابا، نابلس، الخليل.

تقدم المؤرخة الفوتوغرافية ليز ويل الفصل الذي يحمل عنوان «المشهد: زمن ومساحة ومكان وجماليات»، بناء على فكرة أن المَشاهد تُعرّف من خلال القصص التي كُتبت عنها؛ فالتاريخ يحول المساحة إلى مكان.[1] تُعرّف ويلز العلاقة التكافلية بين الطبيعة والثقافة كعملية تعريفية جارية، تُحوّر مفهومنا للطبيعة من خلال مفاهيمنا الثقافية (...)، حيث تُشّكل الأفعال الإنسانية المشهد، ويستنبط معناه من القصص المسرودة عنه» (ويلز 2011). وضمن هذا التاريخ الثقافي المركب، تُبيّن صور المَشاهد التي أُخذت سنة 1864 لما يُعرف اليوم بالضفة الغربية، طبوغرافية منطقة سكنها البشر باستمرار عبر آلاف السنين.

قبل سنة من إنشاء البريطانيين لصندوق استكشاف فلسطين، قاد المُفكّر الإنساني الفرنسي، أونوريه تيودوريك بول جوزيف، ابن عائلة البير دوق لوين الثالث عشر (1802 – 1867)، بعثة انطلقت من بيروت للبتراء استمرت خمسة أشهر (9 شباط – 23 حزيران، 1864). فبعد أن كرّس حياته لدراسة وجمع الآثار اليونانية – الرومانية من قبرص وفينيقيا وفلسطين وإيطاليا، نظّم هذه البعثة ليجمع ما بين اهتماماته المتعددة في الدراسات الإنجيلية والآثار وعلم الحضارات القديمة، وبين مساعيه العلمية في مجالات التصوير والكيمياء والجيولوجيا.[2]

حدد لوين، مستلهماً من نصوص الإنجيل وتفسيراته، مسار الرحلة في فلسطين العثمانية، من خلال المواقع المرتبطة بالتقاليد اليهودية – المسيحية، بما فيها المدن الحيّة وأطلال المدن القديمة. وكان أحد أهدافه تحديد مواقع المدن «الملعونة» في الإنجيل من خلال تتبُع النصوص الإنجيلية في سياق البيئة الجيوفيزيائية لحوض البحر الميت.[3]

تضمن فريقه عدداً من الخبراء، الذين كان لكل منهم مهام محددة، هم: ملازم البحرية لويس فيين (1831 – 1896)، الذي كان كثير الأسفار في شرق البحر الأبيض المتوسط، وكان خبيراً في مجال التصوير، والجيولوجي لويس لارتيت (1840 – 1899)، والعالم في التاريخ الطبيعي غوستاف كومب (1832 – 1905). أبحر الفريق على طول البحر الميت وعرضه في قارب معدني قابل للطي بُني خصيصاً لهذه الرحلة، وجمع عينات من المياه من أعماق مختلفة. وبعد زيارة البتراء، عاد لوين إلى فرنسا بينما توّجه باقي أفراد البعثة شمالاً لاستكشاف تدمُر وعدد من المواقع الأخرى. وفي العام التالي، وبناء على طلب من لوين، نظّم الدبلوماسي والمصوّر الفرنسي هنري سوفير (1831 – 1896)، والمعماري كريستوف إدوار موس (1829 – 1914) حملة تصوير لبقايا القلاع الصليبية في الشوبك والكرك (فيما يعرف اليوم بالأردن).

ومن أهم أعمال لوين، مسابقتان للتصوير أطلقهما في الفترة ما بين 1856 - 1867 من خلال الجمعية الفرنسية للتصوير. مُنحت الأولى لتحسين جودة الصورة وثباتها ومنع تدهورها بسبب بهتان الألوان، والتي كانت إحدى المشاكل المعروفة في الصور المطبوعة على الورق المملح الذي كان مستخدماً آنذاك. أما الجائزة الثانية فمُنحت لتطوير عملية تظهير ميكانيكية لطباعة الصور بأعداد كبيرة لغرض النشر. وثّق المؤرخ التصويري سيلفي أوبيناس المسابقة وما تضمنته من منافسة في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ التصوير. وفي النهاية فاز لويس-ألفونس بواتفان (1819 – 1882) بالجائزة عن عملية الطباعة الضوئية، ولكن لوين في الواقع كان يفضل أسلوب الحفر الزنكي الذي طوره شارل نيجر، لأنه يعكس التفاصيل بدقة، ويتيح طيفاً أوسع من درجات اللون، كما أنه أقدر على تحسين جودة الصورة، واختار في الواقع هذه العملية لطباعة الصور المختارة التي نُشرت في إصدار البعثة.[4]

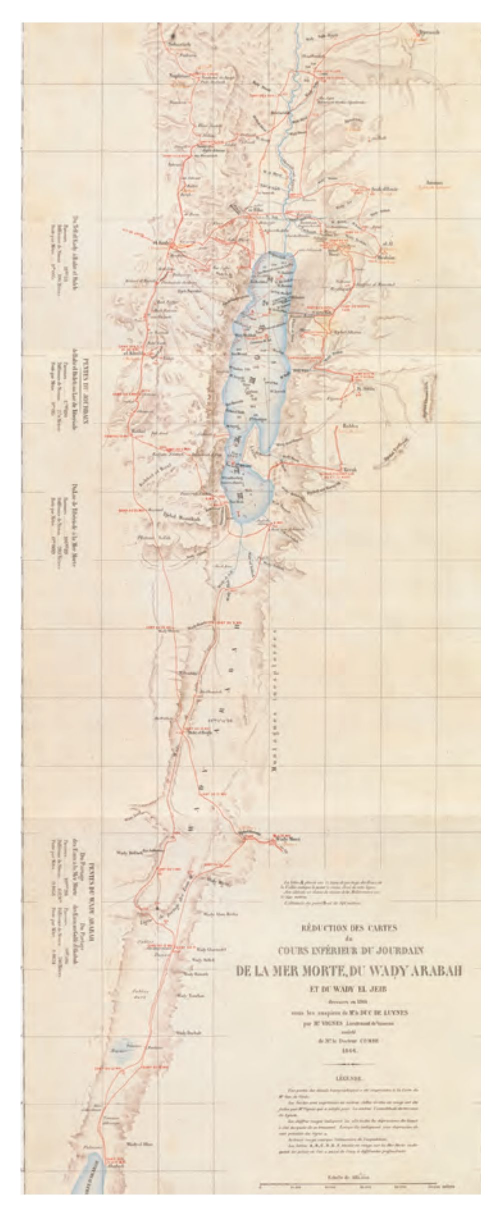
نُشر تقرير بعثة لوين حول البحر الميت بعد مرور عشر سنوات على رحلة استكشاف البحر الميت والبتراء وشرق الأردن، والذي صدر في ثلاثة مجلدات[5]. تضمن إصدار الرحلة (1874) ملفاً فيه 67 صورة مظهرة بأسلوب الحفر الزنكي (صّورها لويس فيجين)، و18 صورة مظّهرة بأسلوب الليثوغرافيات (صوّرها هنري سوفير) تُظهِر المشاهد وتُوثّق التاريخ الغني المرّكب للبحر الميت، الثقافي منه والجيولوجي.

كان للرحلة أهمية كبيرة في تجريب استخدام الصور كوسيلة علمية للتسجيل، حيث تم في هذه الرحلة تصوير بعض المناطق على ضفاف نهر الأردن والبحر الميت لأول مرة. فصور جرش - أحد مدن سلسلة ديكابولس الهيلينية، والتي أصبحت لاحقاً أحد المفترقات الرومانية الرئيسية على طريق

القوافـل الـذي يـؤدي إلـى البحـر المتوسـط - هـي أول صـور التُقطـت للمدينـة القديمـة، حتـى أنهـا سـبقت فعليـاً عمليـات الحفـر والتنقيـب التـي بـدأت هنـاك فـي مطلـع القـرن العشـرين. ومـن المواقـع الأثريـة والإنجيليـة والتاريخيـة المهمـة التـي تـم تصويرهـا لأول مـرّة فـي تلـك الرحلـة: نهـر الكلـب، وهـو تقاطـع طـرق إسـتراتيجي فيـه نقـوش تركتهـا القـوات العسـكرية الغازيـة، ابتـداء مـن الآشـوريين وحتـى نابليـون، والبتـراء عاصمـة الأنبـاط العـرب ومعالمهـا الرائعـة المحفـورة فـي الصخـر، والمعبـد الهيلينـي فـي بانيـاس، والمـكان الـذي يُعتقـد أنـه جبـل نيبـو، والـذي يقـال إن موسـى أطـلّ منـه علـى أرض الميعـاد قبـل أن يتوفـاه اللـه بعـد ذلـك، وأخيـراً تدمـر.

تفـاوض لويـن خـلال هـذه البعثـة للحصـول علـى قطعتيـن أثريتيـن مهمتيـن ليضمهمـا لمجموعـة الشـرق الأدنـى فـي متحـف اللوفـر، وهـي تابـوت الملـك إيشـمون عـازر (مطلـع القـرن الخامـس قبـل الميـلاد) مـن مقبـرة صيـدا (الرحلـة، المجلـد 1، ص. 21- 22)،[6] ومسـلّة شـيحان (1200 – 800 قبـل الميـلاد)، التـي اكتشـفها فيليسـين دو ساولسـي سـنة 1851 علـى السـاحل الشـرقي للبحـر الميـت فـي موقـع «رجـم العبـد»[7] فـي الأردن (غـرب شـيحان) (الرحلـة، المجلـد الأول، ص. 171). واجتذبـت عمليـة الاقتنـاء الأخيـرة هـذه بالـذات الانتبـاه فـي أوروبـا، حيـث أثـارت فكـرة أن هنـاك المزيـد مـن الآثـار المنقوشـة التـي يمكـن أن تدعـم الأركيولويجـة التوراتيـة.[8]

توثـق رحلـة دوق لويـن منظـورا ومفهومـا مسـيحيا أوروبيـا لفلسـطين فـي الوقـت الـذي كانـت فيـه هـذه المنطقـة تكتسـب اهتمامـا دوليـا ليـس فقـط بسـبب تاريخهـا اليهـودي – المسـيحي (باعتبارهـا مهـد المسـيحية) ولكـن أيضـا بسـبب الاهتمـام الجيـو-سياسـي الـذي انصـب عليهـا فـي العقـود الأخيـرة مـن عهـد الإمبراطوريـة العثمانيـة. وبعـد سـنة مـن بعثـة دوق لويـن، وافـق التـاج البريطانـي علـى إنشـاء صنـدوق استكشـاف فلسـطين. أُنشـأ هـذه المؤسسـة القائمـة علـى العضويـة سـنة 1865 عـدد مـن رجـال الديـن والعسـكر وعلمـاء الآثـار والمهندسـين بغـرض «الدراسـة الدقيقـة والمنظمـة للآثـار والطبوغرافيـا والجيولوجيـا والجغرافيـا الماديـة والتاريـخ الطبيعـي والعـادات والتقاليـد فـي الأرض المقدسـة مـن أجـل تفسـير الإنجيـل»[9]. اعتمـد صنـدوق اكتشـاف فلسـطين أسـلوبا علميـا ممنهجـا فـي



الشـكل 1. Cours inférieur du Jourdain de la Mer morte, du wadi Arabah e du wady el Jeib, "1864، خريطـة نهـر الأردن الأدنـى والبحـر الميـت ووادي عربـة ووادي الجيـب، فـي Honoré d'Albert, duc de Luynes (1802–1867) et al., Voyage d'exploration à la Mer Morte, à Petra, et sur la rive gauche du Jourdain - Atlas (Paris: Arthus Bertrand، Éditeur, 1874), Wallet, 138، عـرض تفصيلـي للخريطـة عبـر الإنترنـت علـى archive.org/details/gri_33125012263592 (تـم الوصـول إليـه فـي 7 يونيـو 2020).

مسح ودراسة فلسطين، وبالتالي كانت له مآخذ على بعثات كتلك التي قادها دوق لوين باعتبارها محاولات «جزئية ومعزولة» لدراسة المنطقة. كذلك، اعتبر دوق لوين وغيره مسؤولين عن «طيشهم وتسرعهم» في مفاوضاتهم مع العشائر حول شراء الآثار، لأنها رفعت من توقعات السكان المحليين.[10]

وفيما تعكس مسارات الرحلة حركة الرحالة الفرنسيين عبر عدد من الدول المعروفة اليوم في العالم الحديث، ابتداء من لبنان (حيث صور الرحالة ساحل صور ومقبرة صيدا وآثار الصليبيين) وحتى العقبة في الأردن على خليج البحر الأحمر، تُوثّق معظم الصور المدن والمواقع الأقرب للبحر الميت، بما فيها ما يُعرف اليوم بالضفة الغربية، والتي تم تسليط الضوء عليها في هذا المقال في سياق مشروع يزيد عناني الذي يحمل عنوان مشروع معرض المدن.

وتُبيّن إحدى خرائط البعثة المدخل الشمالي لمدينة سبسطية، التي زارها الرحالة في طريقهم من جنين إلى نابلس في بداية آذار (الشكل 1) جنين غير موجودة في الخريطة.

وكان الموقع الأول الذي صورته البعثة فيما يعرف اليوم بالضفة الغربية[11] هو مدينة جنين التي وصلوها في 3 آذار. وتُركّز الصورة على خيام المسافرين الفرنسيين التي نُصبت على أطراف مدينة جنين والظاهرة على التلة في يمين الصورة، كما تظهر الخيول التي كانوا يسافرون على ظهورها إلى جانب أمتعتهم ومُعداتهم على يمين الخيام. ويحيط بالجامع ومنارته الباديان في وسط الخلفية الجبال الظاهرة في الأفق وعدد من أشجار النخيل على يمينها (الشكل 2). ومرّت البعثة، بعد جنين، بعدد من الأماكن تظهر أسماؤها على الخريطة، ومنها سبسطية ونابلس والقدس وأريحا والخليل، إضافة لعدد من المواقع الأخرى.



الشكل 2. «جنين»، لويس فيجن، Vues de Phénicie, de Judée, des Pays de Moab et de Petra - Atlas، اللوحة 19، طباعة زلالية.

التقـط فيجيـن صورتـان بانوراميتـان لنابلـس، التـي وصلتهـا البعثـة فـي 5 آذار، حيـث قامـوا بتصويـر جبـل جرزيـم بسـبب أهميتـه الدينيـة، ومـن ثـم مدينـة نابلـس كمـا تبـدو مـن هـذا الجبـل، متبوعـة بصـورة بانوراميـة للمدينـة وهـي قابعـة فـي الـوادي بيـن جبلـي عيبـال وجرزيـم. (الأشـكال 3 – 5).



الشـكل 3. نابلـس، جبـل جرزيـم «Naplouse, Mont Garizim," Louis Vignes, Vues de Phénicie, de Judée, des Pays de Moab et de Petra - Atlas، اللوحـة 21، طباعـة زلاليـة.



الشـكل 4. نابلـس، قاعـدة فـي جبـل جرزيـم «Naplouse, Base du Mont Garizim," Louis Vignes, Vues de Phénicie, de Judée, des Pays de Moab et de Petra - Atlas، اللوحـة 22، طباعـة زلاليـة.

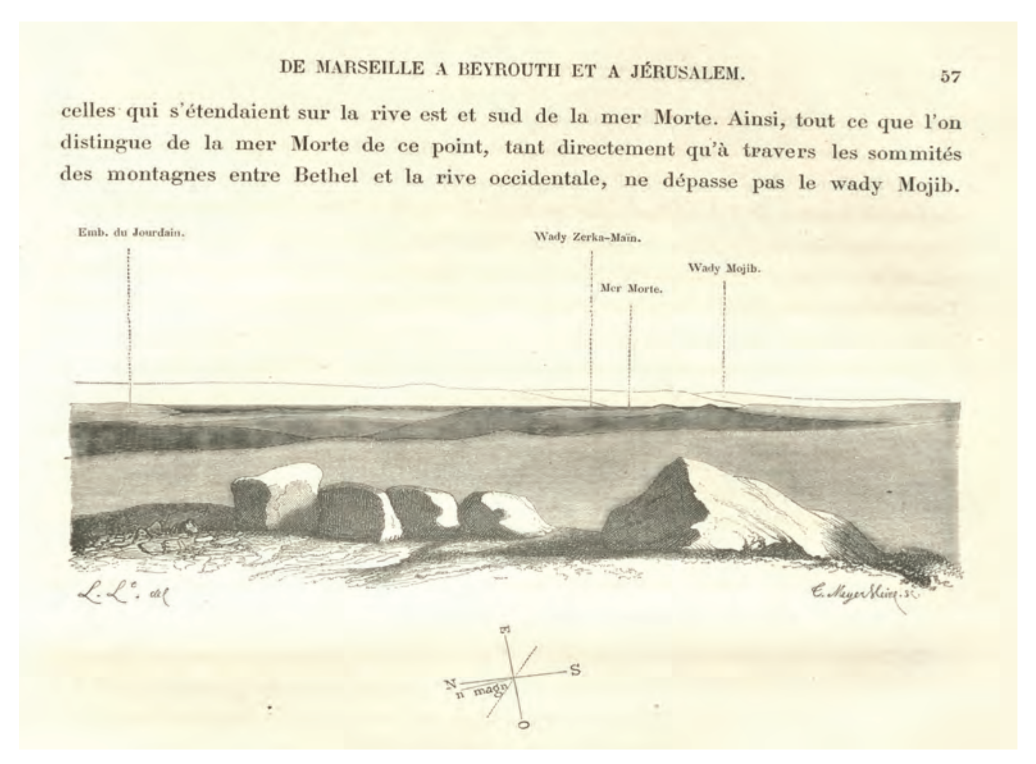


الشكل 5. نابلس، قاعدة في جبل جرزيم «Naplouse, Base du Mont Garizim," Louis Vignes، Vues de Phénicie, de Judée, des Pays de Moab et de Petra - Atlas، اللوحة20، طباعة زلالية.

وزارت المجموعة في 7 آذار موقعاً قرب بتّين، افترضوا أنه موقع بيثيل التوراتي. التقط فيجين صورة بانورامية تظهر فيها هضبة مغطاة بركام قديم في مقدمة الصورة (الشكل 6)، حيث كان لوين يحاول أن يوفّق ما بين قصص سِفر التكوين والبيئة الفعلية على الأرض، وهناك أدرك التحديات المرتبطة بفهم المخطوطات المقدسة، بسبب الاختلافات في المصادر الأدبية وغموض التاريخ الشفوي المحلي[12]. وكان أعضاء البعثة قادرين من هذا الموقع على رؤية ملامح الجبال على الجانب الشرقي للبحر الميت. وأفاد لوين أن البحر الأبيض المتوسط والبحر الميت كانا كلاهما مرئيين من ذلك الارتفاع، ولاحظ اختلافاً في مستوى سطح البحر بين المسطحات المائية المختلفة. ويبين رسم لارتيت سلسلة الجبال على الجانب الآخر من البحيرة المالحة (الشكل 7).



الشكل 6. منطقة بثيل «Bethel”, Louis Vignes, Vues de Phénicie, de Judée, des Pays de Moab et de Petra - Atlas، اللوحة 23، طباعة زلالية.



DE MARSEILLE A BEYROUTH ET A JÉRUSALEM. 57

celles qui s'étendaient sur la rive est et sud de la mer Morte. Ainsi, tout ce que l'on distingue de la mer Morte de ce point, tant directement qu'à travers les sommités des montagnes entre Bethel et la rive occidentale, ne dépasse pas le wady Mojib.

الشكل 7. «منظر من بيثيل للساحل الشرقي للبحر الميت،» لويس لارتيت، رسمًا، في لوين، أونوريه ألبرت، وآخرون، رحلة استكشاف في لا مير مورتي، في البتراء، وآخرون. (باريس: Arthus Bertrand, Éditeur, 1874, vol. 1, 57).

واتجـه الفريـق جنوبـاً، بعـد أسـابيع مـن مسـح الجبـال شـمال أريحـا وشـرقها علـى كلا جانبـي نهـر الأردن قُـرب مصبـه فـي البحـر الميـت. وصـوروا فـي القـدس كنيسـة القيامـة، ثـم توجهـوا نحـو سـلوان، ووصلـوا فـي 23 نيسـان إلـى ديـر مـار سـابا، الـذي يقـع مـا بيـن القـدس والبحـر الميـت. تضمنـت الصـور التـي التُقطـت لهـذا الموقـع صـوراً بانوراميـة تبيـن وادي الجـوز كمـا يبـدو مـن فـوق الديـر اليونانـي. ولكـن مجموعـة المبانـي بالـكاد تظهـر، حيـث يبـرز أعلـى البرجيـن فقـط مـن قمـة التلـة فـي الوسـط، وبـدلاً مـن ذلـك يظهـر بوضـوح علـى يسـار الصـورة شـرخ جيولوجـي عميـق هـو إفجيـج وادي الجـوز الـذي يرفـد البحـر الميـت. وتظهـر فـي الزاويـة اليسـرى السـفلى بعـض التفاصيـل الصغيـرة كبطانيـة لحـزم الأمتعـة، تُذّكرنـا بوجـود مراقبيـن يرنـون إلـى المرتفعـات الممتـدة أمامهـم، ويصِلـون بأنظارهـم لسلاسـل الجبـال علـى الطـرف الآخـر مـن البحـر الميـت (الشـكل 8).

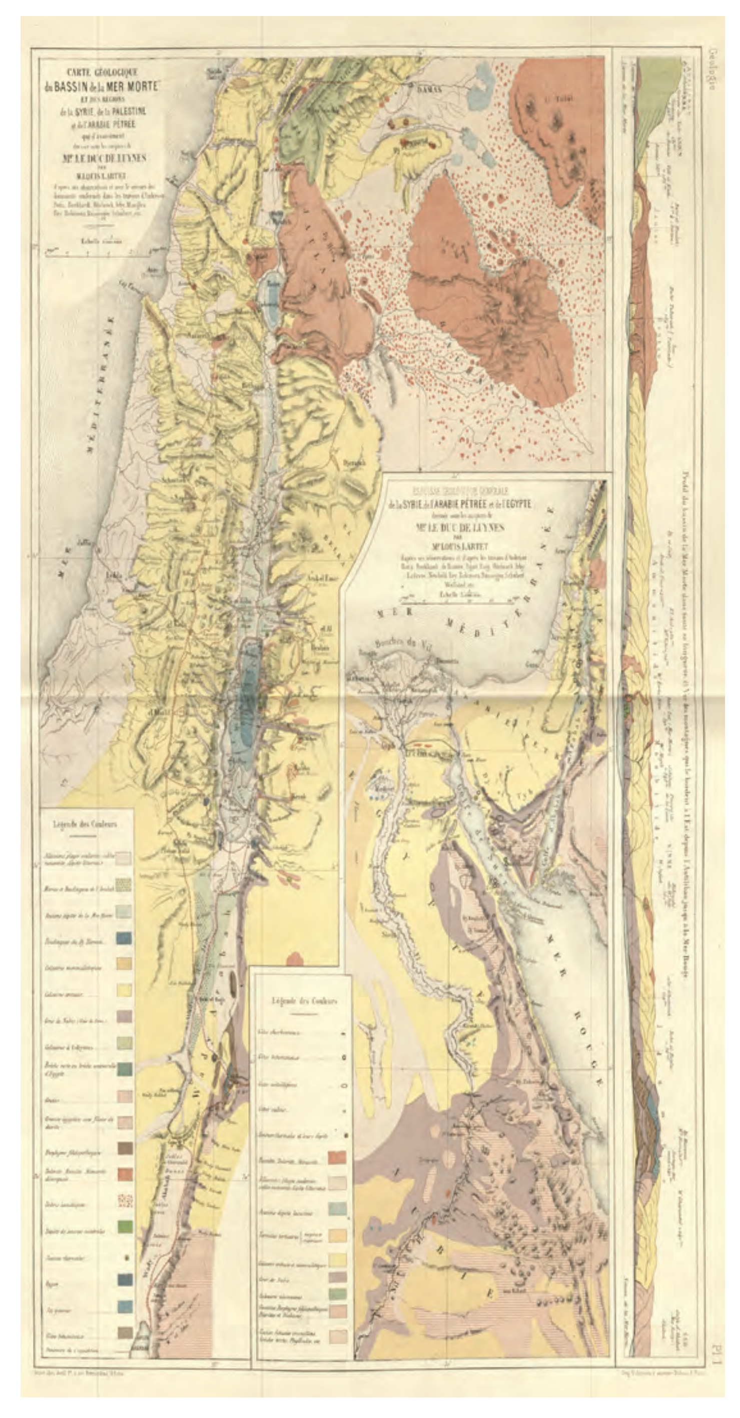


الشـكل 8. منطقـة مـار سـابا "Vue Prize Audessus de Mar Saba," Peter Bergheim (1844–1885), in Luynes, Voyage d'exploration à la Mer Morte, à Petra, et sur la rive gauche du Jourdain - أطلـس، محفظـة، اللوحـة 25، حفـر ضوئـي.

زار لويـن الخليـل فـي بدايـة شـهر أيـار وأواخـره أيضـاً. وبنـاء علـى طلـب مـن الـدوق، التقـط هنـري سـوفير، الـذي نظّـم حملـة تصويـر فـي الأردن لقـلاع الكـرك والشـوبك بعـد بعثـة لويـن بسـنة، صـوراً للمدينـة. ففـي 8 نيسـان 1865 التقـط سـوفير ومـوس 8 صـور لمركـز المدينـة فـي الخليـل. تبـدأ سلسـلة الصـور بصـورة بانوراميـة مـن أعلـى (منظـور عيـن الطائـر) للمسـجد وأسـواره؛ ويظهـر كهـف البطاركـة (الحـرم الإبراهيمـي) فـي الوسـط وإلـى يمينـه المدينـة (الشـكل 9). ركـز سـوفير فـي هـذه المدينـة كاميرتـه علـى التفاصيـل المعماريـة الحضريـة، كالمنـارات، وواحـدة مـن القبـاب، كمؤشـر علـى وجـود الكهـوف، ومدخـل سـوق الخليـل والنافـورة. كمـا أنـه صـور أزقـة وبوابـات المدينـة، وركّـز علـى تاريـخ المدينـة المرّكـب، كالأسـوار القديمـة التـي تقبـع تحـت الجديـدة.[13]

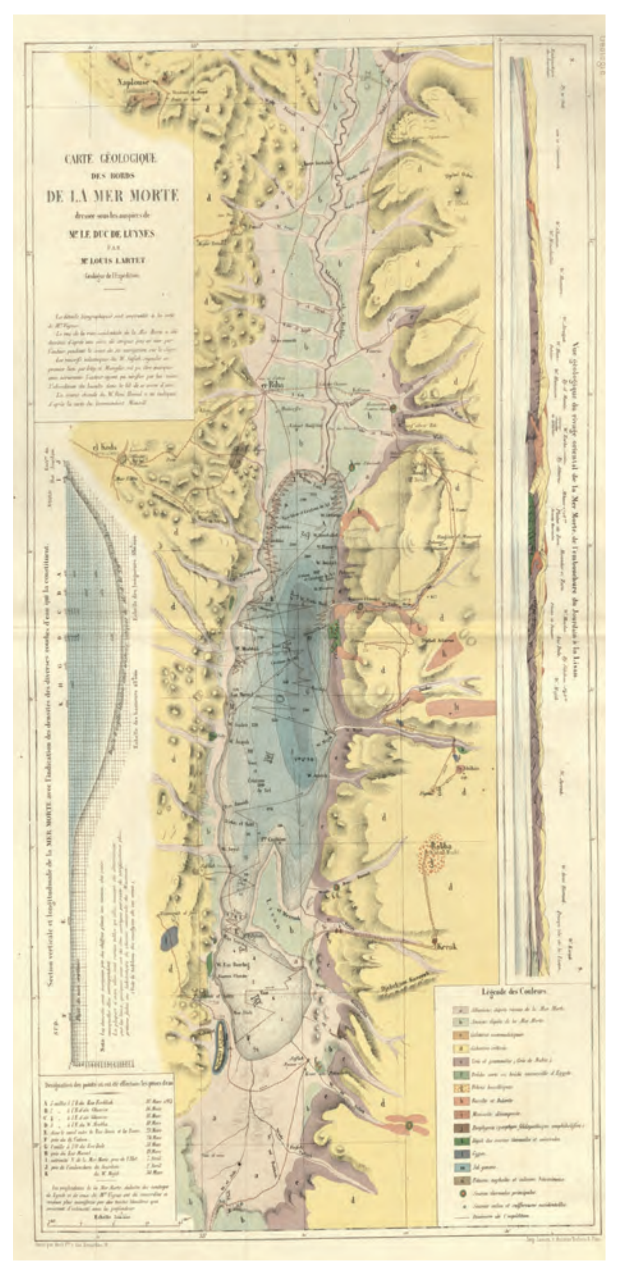


الشكل 9. هنري سوفير (1831-1896)، منظر بانورامي للخليل، طباعة زلالية، 1866، المحفوظات، معهد أبحاث جيتي، لوس أنجلوس، كاليفورنيا.



الشـكل 10. Lartet، خريطـة جيولوجيـة لحـوض البحـر الميـت ومناطـق سـوريا وفلسـطين والعربيـة البتـراء، 1864، فـي Luynes, Voyage d'exploration à la Mer Morte, à Petra, et sur la rive gauche du Jourdain, vol. 3، لوحــة 1.

يتضمــن المجلــد الثالــث مــن الرحلــة خريطتيــن جيولوجيتيــن للبحــر الميــت رســمهما لارتيــت[14]، تمتــد إحداهمــا فــوق كامــل الحــوض الجيولوجــي مــن صيــدا فــي الشــمال وحتــى البحــر الأحمــر وشــبه جزيــرة ســيناء فــي الجنــوب (الشــكل 10)، بينمــا تبيــن الخريطــة الثانيــة صــورة قريبــة لمعالــم البحيــرة، والمرتفعــات الجبليــة المحيطــة بهــا، والروافــد والشــواطئ مــن نابلــس وحتــى الحــدّ الجنوبــي (الشــكل 11).



الشــكل 11. Lartet، خريطــة جيولوجيــة لحــوض البحــر الميــت ومناطــق ســوريا وفلســطين والعربيــة البتــراء، 1864، فــي Luynes, Voyage d'exploration à la Mer Morte, à Petra, et sur la rive gauche du Jourdain, vol. 3، لوحــة 2.

ولكـن أبحـاث لويـن التجريبيـة فـي الموقـع لـم يُكتـب لهـا أن تكتمـل، حيـث توفـي يـوم عيـد ميـلاده الخامـس والسـتين قبـل أن يتمكـن مـن نشـر كامـل اسـتنتاجات بحثـه، وكان وقتهـا فـي إيطاليـا دعمـاً لقضيـة بابـا رومـا، التـي كانـت قـوات جوزيبـي جاريبالـدي التابعـة لحركـة توحيـد إيطاليـا تهـدد سـلطته الدنيويـة. تعكـس كتابـات الـدوق فـي الرحلـة وجهـة نظـره فـي الكنيسـة الكاثوليكيـة وإخلاصـه لهـا، الأمـر الـذي ظهـر جليـاً أيضـا فـي الظـروف التـي أحاطـت بموتـه.

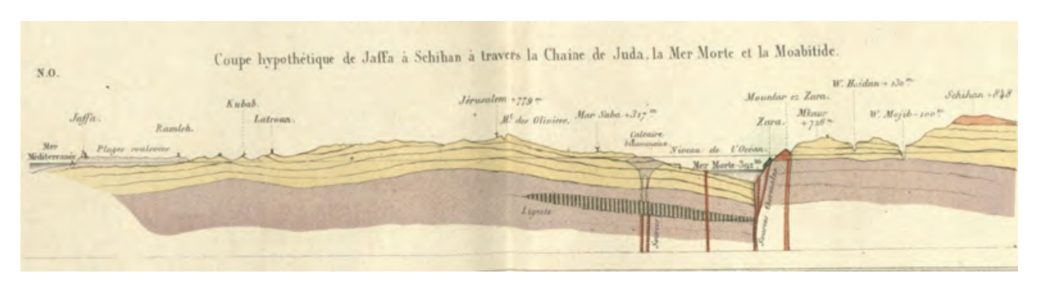
وكمـا أفـاد دو فوغيـه محـرر الرحلـة فـي المجلـد 1، كانـت هـذه البعثـة مهمـة جـداً، حيـث أنهـا أتاحـت للويـن أن يضـع نظريـة حـول موقـع سـدوم فـي سـفح جبـال غـور الأردن، ولكنـه لـم يتمكـن مـن تحديـد موقـع عمـورة أو أي مـن مواقـع المـدن الملعونـة الأخـرى المذكـورة فـي الإنجيـل.[15] وأشـار المحـرر أيضـاً إلـى صعوبـة التوفيـق مـا بيـن الجغرافيـا القديمـة وتفاسـير النصـوص القديمـة، وأن مسـاهمة لويـن كانـت مهمـة فـي هـذا المجـال.

وبغـض النظـر عـن التفاسـير الإنجيليـة، يبيـن إصـدار الرحلـة الـذي يقـص تفاصيـل هـذه المسـيرة بشـكل مذكـرات سـفر، المنظـور الثقافـي الفرنسـي لفلسـطين العثمانيـة. وتُعـد الملاحظـات التـي ترافـق الصـور مصـدراً أوليـاً لدراسـة اللقـاء والمفاوضـات مـع السـكان المحلييـن. تبيـن الصـور المنشـورة فـي إصـدار الرحلـة مـدى انخـراط الرحالـة الفرنسـيين فـي العلاقـة الجاريـة المركبـة مـا بيـن النـص والمشـهد، ومـا بيـن الثقافـة والطبيعـة. كمـا وثّقـت البعثـة المنطقـة ومدنهـا وآثارهـا فـي سلسـلة مـن المشـاهد البانوراميـة التـي تركـز علـى أهميـة المواقـع مـن منظـور تأريخـي، كمـا أنهـا أنتجـت خرائـط جيولوجيـة مبتكـرة للمنطقـة برمتهـا مـن الأعلـى، وسلسـلة مـن المقاطـع العرضيـة فـي المنطقـة بنـاء علـى المسـوحات الجيولوجيـة التـي أجراهـا لويـس لارتيـت.

ينظـر مشـروع عنانـي معـرض المـدن كاسـتراتيجية مهمـة لفحـص التحـولات المسـتمرة فـي المدينـة وفحـص القـوى التـي تعيـد تشـكيل وإعـادة اختـراع فلسـطين وخيالهـا السياسـي والاجتماعـي[16]. وقـد وثقـت مهمـة دي لويـن النسـيج الثقافـي لهـذه المنطقـة، مـع التركيـز علـى الأهميـة مـن المواقـع مـن خـلال عدسـة تاريخيـة، فإنـه يذكرنـا بتاريـخ الهجـرات والاسـتيطان عبـر آلاف السـنين والقـرون الأخيـرة فـي الحداثـة. فـي حيـن أن البانورامـا فـوق ديـر مـار سـابا تسـتحضر وقتًـا ثابتًـا، وتعـود حتـى إلـى الإمبراطوريـة البيزنطيـة، يقـدم دي لويـن مناظـر نابضـة بالحيـاة مـن العصـر العثمانـي لجنيـن ونابلـس والخليـل، والتـي تغيـرت بشـكل كبيـر منـذ ذلـك الحيـن.

توفـر صـور Vignes و Sauvaire، جنبًـا إلـى جنـب مـع خرائـط Lartet، نقطـة مقابلـة لمشـاريع فنيـة عامـة يـرى عنانـي، بشـكل حاسـم، «تصادمًـا وتفاوضًـا مسـتمرين: «لنـا» و«لهـم»[17].

يُبيّـن مقطـع عرضـي غربـي – شـرقي، المرتفعـات الجبليـة مـن البحـر الأبيـض المتوسـط وحتـى جبـل شـيحان فـي الأردن، ويبيـن القمـم والمراكـز الحضريـة الموزعـة بشـكل إسـتراتيجي علـى طـول الطريـق. وتُعـرّف التشـكيلات الجيولوجيـة لحـوض البحـر الميـت تحـت المـدن المعروضـة فـي الإصـدار، الأرضيـة الأساسـية المشـتركة للبعثـة الفرنسـية بشـكل، وللمنطقـة برمتهـا وتاريخهـا وهـو الأهـم (الشـكل 12).



الشـكل 12. تـم عـرض هـذا الرسـم المقطعـي علـى أنـه التفسـير الافتراضـي لتكويـن البحـر الميـت بنـاءً علـى الأعمـاق التـي يمكـن للمؤلـف استكشـافها وكترجمـة ماديـة للنظريـة تـم تطويرهـا أثنـاء العمـل. Lartet، خريطـة جيولوجيـة لحـوض البحـر الميـت ومناطـق سـوريا وفلسـطين والعربيــة البتــراء، 1864، فــي Luynes, Voyage d'exploration à la Mer Morte, à Petra, et sur la rive gauche du Jourdain, vol. 3، اللوحـة 3 (تفصيـل).

إيسوتا بوجي، مؤرخة صور، درست في جامعة كا فوسكاري في البندقية، إيطاليا، وفي جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. وهي منسقة مشاركة للصور الفوتوغرافية في معهد جيتي للأبحاث في لوس أنجلوس، كاليفورنيا. تركز اهتماماتها البحثية في التصوير الفوتوغرافي في القرن التاسع عشر بشكل أساسي على التاريخ الثقافي للتصوير الفوتوغرافي وعلم الآثار والسفر واستكشاف حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط وأفريقيا وتوثيق التراث الثقافي. تشمل مشاريع معرضها المتعلقة بهذه الموضوعات *Inside Out*: *Pompeian Interiors Exposed* (*2012*)، *Connecting Seas*: *A Visual History of Discoveries and Encounters* (*2014*)، وتعاونت مؤخرًا مع *Biblioteca di Storia Moderna e Contemporanea* في منشور رقمي في الأول ريبورتاج مصور للحرب بعنوان روما *1849*: ستيفانو ليتشي. وهي محررة مشاركة في *Promote*، *Tolerate*، *Ban*: *Art and Culture in Cold War Hungary in Los Angeles*، وهي تبحث حاليًا في الإنتاج المستند إلى الصور في الثمانينيات في ألمانيا الشرقية السابقة.

الهوامش:

1 ليز ويلز، مسائل الأرض: تصوير المناظر الطبيعية والثقافة والهوية (لندن ونيويورك: آي بي توريس، 2011)، 19.

2 كان لوين عضواً في أكاديمية النقوش والآداب، وعمل كنائب مدير لمتحف اللوفر في الفترة ما بين 1825 – 1828. كما شارك في تأسيس المعهد الألماني للآثار في روما سنة 1829 مع إدوارد غيرهارد (1795-1867). موّل لوين سنة 1835 القسم الفرنسي من المعهد ومعهد آثار (Nouvelles Annales de l'Institut archéologique)، واستحق عن ذلك الوسام البروسي للجدارة المدنية في 1852. تبرع لوين بمجموعته من القطع المعدنية القديمة والأوسمة والأحجار الكريمة والمزهريات اليونانية الملونة لدائرة العملة النقدية والأوسمة والآثار في المكتبة الوطنية. ألّف لوين أكثر من 20 كتاباً في مواضيع عدة، ابتداء من الآثار وحتى الكيمياء.

3 لخص محرر مجلة فوياج «الرحلة»، ميلكوار دي فوغ نوايا لوين: «وكان هدف دوق لوين هو أن يلخص في عمل شامل جميع الملاحظات الطوبوغرافية والأثرية والجيولوجية، التي جمعها أثناء استكشافاته، وأن يناقش، بمساعدة هذه الدراسة، النصوص التي جمعت هنا. ثم كان ليعطي استنتاجاته، ويطور النظام الذي تبناه لتفسير التقاليد المتعلقة بالمدن التي تم علاجها، وتصحيح الجغرافيا القديمة لحوض البحر الميت». (الرحلة، الجزء الأول، ص. 375).

4 راجع فرانسيس تيرباك وبيتر بون فيتو «نقل العصور القديمة إلى حبر: أطلال من الأميركتين إلى آسيا الصغرى وتطور الطباعة الحجرية الضوئية» في كاميرا أوتومانا: التصوير الفوتوغرافي والحداثة في الإمبراطورية العثمانية، 1840-1914، أد. زينب جيليك والدم إلدم، ترانس. هاندل إيجل (اسطنبول: مطبعة جامعة كوتش، 2015)، 33.

5 جميع المجلدات الثلاثة من Voyage D'exploration À La Mer Morte، À Petra، Et Sur La Rive Gauche du Jourdain، والمحفظة متاحة عبر الإنترنت من معهد Getty Research Institute على (archive.org) bit.ly/37wLW9u الزيارة في 15 مايو 2020).

6 كان قد تم للتو تحديد موقع المقبرة من قبل عالم الآثار والفيلسوف إرنست رينان، وهو موفد لعلم الآثار أرسله نابليون الثالث للحصول على مجموعة من الآثار للمتحف الفرنسي الوطني.

7 دي لوينيس، فوياج، المجلد. 1، 171.

8 هانس أوليفييه، «رحلات السفر في القرن التاسع عشر وأرض موآب»، في موشيه شارون، محرر، الأرض المقدسة في التاريخ والفكر (ليدن: بريل، 1988)، 83-84.

9 «صندوق استكشاف فلسطين: نشرة»، فصلية استكشاف فلسطين، المجلد. 1 (1869)، عبر الإنترنت على biblicalstudies.org.uk/pdf/pefqs/1869-71_001.pdf تم الوصول إليه في (15 مايو 2020)

10 فلسطين للاستكشاف «الفصلية»، المجلد. 1، 2: «يكفي أن نلاحظ أن أبحاثهم كانت جزئية ومعزولة، وأن نتائجها في كثير من الحالات تتعارض مع بعضها البعض».

11 يزيد عناني وحنان طوقان، «في الوهم والفن والرغبات الحضرية في فلسطين»
اليوم: مقابلة مع يزيد عناني عربي مجلة الدراسات 22، 1 (ربيع 2014): 211.

12 دي لوينيس، فوياج، المجلد. 1، 351.

13 على الرغم من أن سلسلة الخليل لم تنشر في ملف

الرحلــة، إلا أن الصــور الأصليــة موجــودة فــي أرشــيف البعثــة فــي معهــد غينــي للأبحــاث فــي لــوس أنجيلــس.

14 دي لوينيس، فوياج، المجلد. 3 لوحات 1-3.

15 الرحلة، المجلد ص. 375 – 376:

la grande lagune qui forme l'extrémité de la mer Morte, au sud de la Liean, occupe la place de la plaine de Siddim; les villes maudites étaient situées au pied des montagnes dans le Ghôr: Sodome près du Djebel -Esdoum, Ségor à l'embouchure du wady Es-Safieh ou à celle du wady Ed-Draâ. Il croyait, en outre, à l'existence d'une seconde ville du nom de Ségor ‘ou Tsoar au nord de la mer Morte, dans le Ghôr El-Belkaà, près de l'embouchure du Jourdain et sur sa rive gauche. Il ne s'était pas' encore prononcé quant à l'emplacement précis qu'il assignait à Gomorrhe, à Seboîm et à Adarna, mais il les cherchait aussi au sud du lac. … il est vivement à regretter que la science ait été privée des lumières que cet esprit éminent aurait jetées sur les difficiles questions de géographie et d'exégèse soulevées par les récits bibliques

16 عناني، «في الوهم والفن والرغبات الحضرية 216

17 عناني، «في الوهم والفن والرغبات الحضرية 216

قصّة قريتين

إطلالة جديدة على المشهد التاريخيّ الفلسطينيّ

جيفري هاوري

ملخص

تم إجراء مسح استكشافي لسطح عدد من المواقع الأثرية في منطقة مجدو الكبرى في الفترة ما بين أواخر العصر الروماني وحتى العهد العثماني – وعهد الانتداب البريطاني في حزيران وتموز من سنة 2019 باستخدام نظام ليدار (نظام لتحديد المدى عن طريق تتبع الضوء) بهدف تحديد الملامح التي تظهر في تكنولوجيا ليدار والتي يمكن التحقق منها على الأرض. وسعت هذه الدراسة بشكل خاص لفهم كيف يمكن لصور ليدار أن تُظهر هيكليات مدفونة تحت الأرض وبعض المعالم الموجودة على السطح في قريتين فلسطينيتين تم تحديدهما مسبقا في منطقة تل مجدو. تبين نتائج البحث الميداني في هاتين الحالتين الدراسيتين إمكانية التعرف بسهولة على الهيكليات المدفونة تحت الأرض، والتي كانت في الماضي دعامات لعدة مباني من خلال صور تكنولوجيا ليدار.

الكلمات الرئيسية

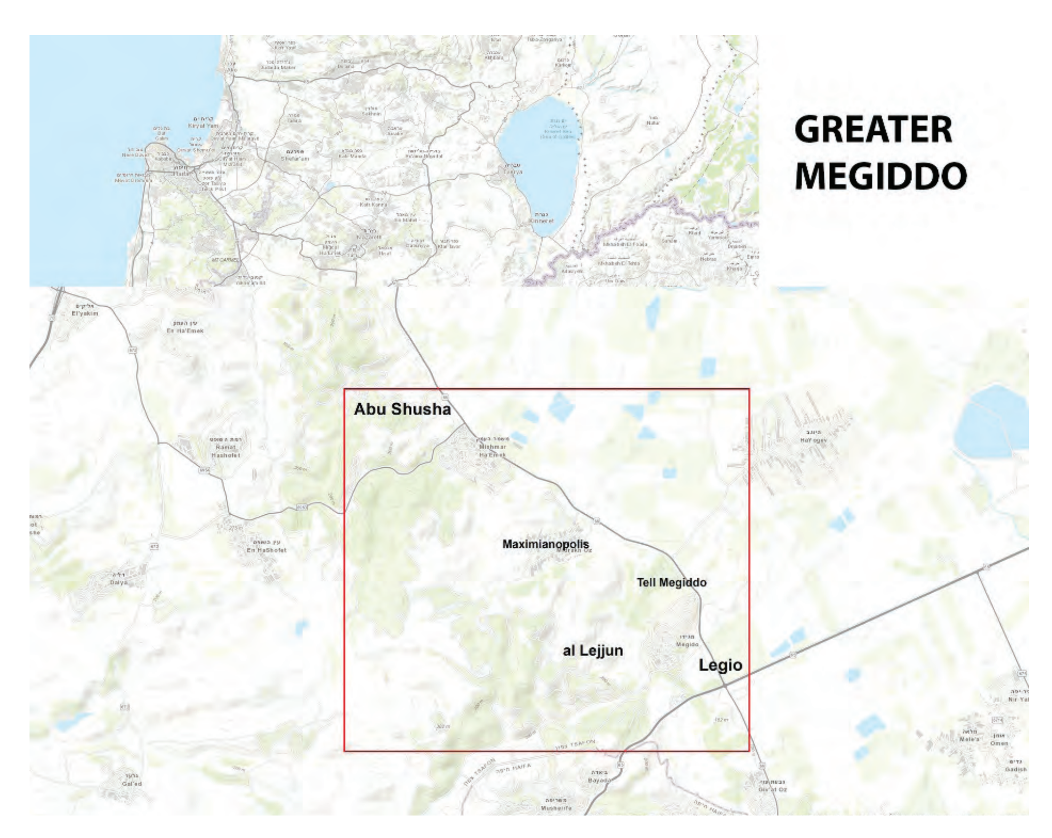
فلسطين العثمانية، انتداب فلسطين، المشاهد التاريخية، الاستشعار عن بعد، الزراعة في فلسطين، الديمغرافيا التاريخية، صور ليدار.

كثيراً ما تجتذب المراكز الحضرية المهيمنة في غرب بلاد الشام، والتي نشأت عن استقرار السكان فيها لآلاف السنين، الاهتمام الأكاديمي، طاغية بذلك على المراكز الأصغر منها حجماً، الواقعة في مجال نفوذها المباشر، وعلى الأماكن والأحداث التي جرت فيها. وهذا بالضبط هو حال تل مجدو الذي كان مأهولاً بالسكان منذ العصر الحجري الحديث وحتى العصر الفارسي (الألفية السادسة قبل الميلاد –

400 سـنة قبـل الميـلاد)،[1] والمواقـع الأخـرى الموجـودة فـي جـوار التـل مباشـرة. ولقـد تـم توثيـق موقـع التـل الإسـتراتيجي علـى الطريـق التجـاري الرئيسـي الـذي يربـط بيـن سـاحل البحـر الأبيـض المتوسـط ومـرج ابـن عامـر (راجـع الخريطـة) بشـكل جيـد فـي مصـادر توثيـق الآثـار والتاريـخ. أدرك الرومـان أهميـة الموقـع فـي القـرون المبكـرة مـن العصـر الحالـي خـلال فتـرة احتلالهـم لسـوريا - فلسـطين (مـا بيـن 105 – 337 بعـد الميـلاد).[2]

تناقـش هاتـان الحالتـان الدراسـيتان فـي هـذا المقـال اسـتخدام نـوع مـن تكنولوجيـا الاستشـعار عـن بعـد يعـرف باسـم ليـدار (تتبـع الضـوء وتحديـد المـدى). وفيمـا يعـرف الجميـع بيانـات الاستشـعار عـن بعـد كصـور الأقمـار الصناعيـة المتوفـرة لـدى Bing وGoogle، هنـاك أنـواع أخـرى مـن الصـور التـي تُلتقـط باسـتخدام طـول موجـي غيـر مرئـي للعيـن البشـرية. فصـور الأشـعة تحـت الحمـراء تبيـن الأنمـاط الحراريـة، بينمـا يمكـن أن تكشـف صـور أخـرى عـن كميـة الرطوبـة الموجـودة فـي المـكان. تسـتخدم تكنولوجيـا ليـدار، وهـي أحـد أشـكال المسـح بالليـزر فـي الجـو طـولا موجيـا غيـر مرئـي للعيـن البشـرية، ولكنهـا قـادرة علـى اختـراق الغطـاء النباتـي للكشـف عـن معالـم السـطح كمـا لـو أن الأرض كانـت جـرداء تمامـا. وفـي ظـروف معينـة، يصبـح بالإمـكان رؤيـة مـا هـو موجـود تحـت سـطح التربـة والإنشـاءات والمعالـم التـي لا يمكـن الكشـف عنهـا دون حفـر. ولهـذا السـبب أحدثـت تكنولوجيـا ليـدار ثـورة فـي المسـوحات الأثريـة فـي العديـد مـن دول العالـم. ففـي كامبوديـا علـى سـبيل المثـال، وحتـى وقـت قريـب، كان معظـم علمـاء الآثـار يعتقـدون أن منطقـة أنغكـور ثـوم التـي تعـود للعصـور الوسـطة (والتـي بنـي فيهـا معبـد آنغكـور وات والمعالـم المحيطـة بـه) تحتـل 9 كـم2، إلا أن تكنولوجيـا ليـدار كشـفت أن مسـاحة المدينـة والمعبـد تصـل إلـى 35كـم2. وفـي أمريـكا الوسـطى جـرى العمـل علـى دراسـة الآثـار فـي أراضـي المايـا المنخفضـة لأكثـر مـن 125 سـنة، وكان تركيـز هـذه الدراسـات لعـدة سـنوات علـى المراكـز التـي تقـام بهـا الشـعائر، ولـم يتـم مسـح المناطـق المحيطـة بهـذه المراكـز بالتفصيـل سـوى خـلال الخمسـين سـنة الأخيـرة. حـددت دراسـة أجرتهـا مؤخـرا مؤسسـة الحفـاظ علـى المحيـط الحيـوي لحضـارة المايـا فـي غواتيمـالا وجـود 61,480 إنشـاء ضمـن مسـاحة 2,114 كـم2، ممـا يوحـي بـأن المرحلـة الكلاسـيكية المتأخـرة (650 م – 800 م) فـي الأراضـي المنخفضـة الوسـطى شـهدت وجـود 7 – 11 مليـون نسـمة. وفـي حالـة موقـع كاراكـول المميـزة فـي بيليـز مسـحت تكنولوجيـا ليـدار مسـاحة 208 كـم2 (80 ميـل مربـع) بينـت حـدود المنطقـة بالكامـل، بينمـا لـم تنجـح 25 سـنة مـن البحـث سـوى فـي ترسـيم 13% مـن الموقـع.

يُركـز هـذا البحـث الميدانـي، الـذي أُجـري فـي صيـف 2019، علـى تحديـد المواقـع التاريخيـة التـي كانـت معروفـة سـابقاً فـي العصـور الرومانيـة والبيزنطيـة وأواخـر العصـر العثمانـي/ الانتـداب باسـتخدام نظـام ليـدار (نظـام لتحديـد المـدى عـن طريـق تتبـع الضـوء) (Light Detection and Ranging LiDAR). وعلـى الرغـم مـن أن مواقـع العصـور الرومانيـة والبيزنطيـة والعثمانيـة/ الانتـداب كانـت علـى مقربـة مـن تـل مجـدو، إلا أن مـا يبـدو منهـا علـى السـطح اليـوم لا يتجـاوز بضـع منشـآت. وبمـا أن الغطـاء النباتـي والتربـة تؤثـر علـى تمثيـل صـور ليـدار لخصائـص السـطح ومـا تحـت السـطح، فـإن العمـل المبدئـي المنجـز هنـا سـعى للتثبـت مـن مـدى وضـوح التضاريـس فـي صـور ليـدار وخصائـص معينـة للسـطح فيهـا لتثبيـت مرجعيـة أساسـية للدراسـة. يلخـص هـذا التقريـر بعـض النتائـج الأوليـة التـي خـرج بهـا هـذا البحـث.

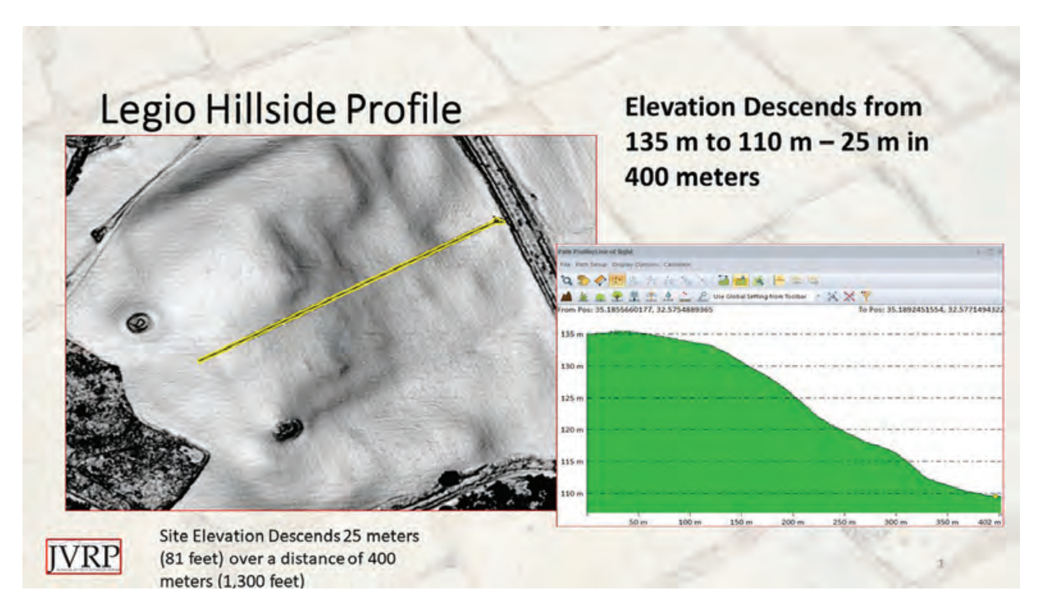


الشكل 1: المواقع الموجودة في مجدو الكبرى، المصدر: ج. هاوري من Arcgis.com

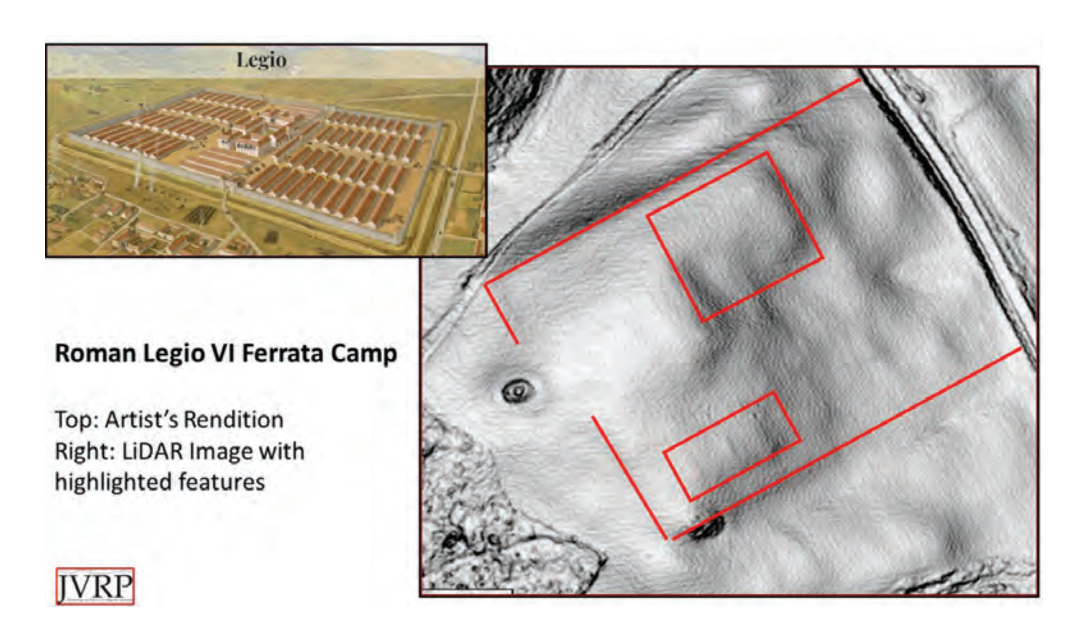
مخيم الفيلق الروماني السادس

تُبيّن الخريطة بشكل عام عدداً من المواقع الأثرية التي نشأت بشكل مباشر، أو غير مباشر، نتيجة الاحتلال الروماني، والطرق التجارية المجاورة. احتل الفيلق الروماني السادس «فيراتا» مخيم «ليجيو» في الفترة ما بين 192 – 316 بعد الميلاد،[3] ولأغراض هذه الدراسة، يعد هذا الموقع مرتكزاً للمواقع المجاورة في القرون الأولى من الألفية الأولى من العصر الحالي. ويبدو الشكل المستطيل التقليدي للمخيم الروماني واضحاً في صور ليدار الظاهرة في الشكل 2. ويخفي جانب التل المنحدر اليوم عدداً من المباني والشوارع التي ميّزت هذا الموقع الذي أقام فيه حوالى 5000 جندي من جنود الفيلق الروماني.

كشفت أعمال الحفر خلال عدد من مواسم التنقيب في العقد الماضي التركيبة المعقدة للمخيم. ومع أن العديد من المخيمات الرومانية اعتمدت تصميماً مستطيلاً يتضمن منشآت معينة، إلا أن مخيم ليجيو ينحدر 25 متراً على سفح التل على سلسلة من الحبلات التي تتقاطع مع شوارع تفصل ما بين المباني المتعددة (سكن الضباط، الثكنات العسكرية) التي يتكون منها المخيم في الشكل أدناه.

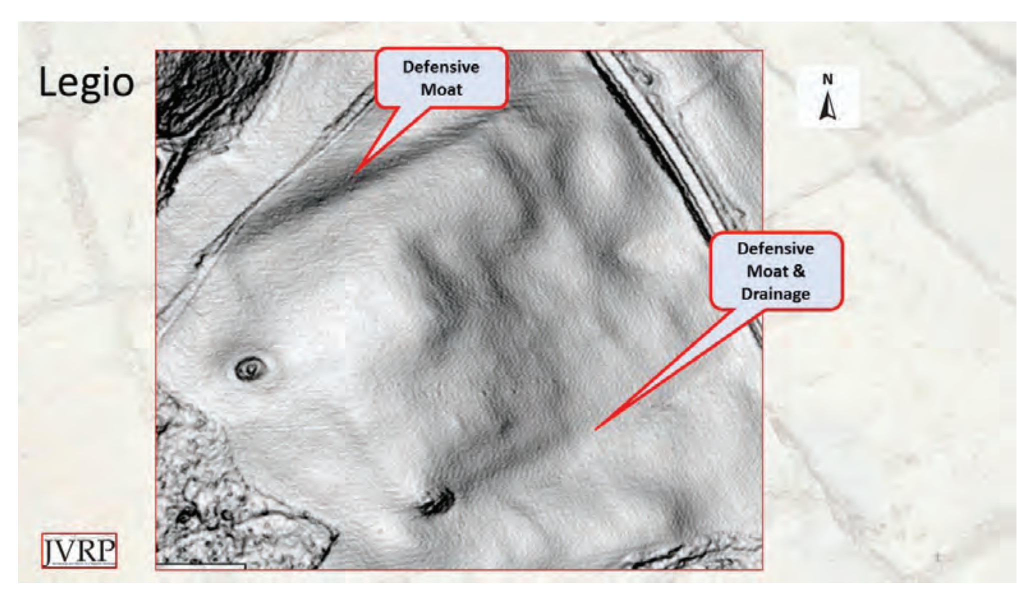


الشكل 2: صورة ليدار مقطع عرضي للتضاريس، مشروع منطقة مرج ابن عامر. المصدر: ج. هاوري



الشكل 3: مخيم الفيلق الروماني السادس ومنشآته، المصدر: مشروع منطقة مرج ابن عامر وج. هاوري

أما الشكل 3 فيبين عملاً قديماً لفنان رسم مخيم ليجيو، وهو يبين المخطط المستقيم المألوف في العديد من مخيمات الفيالق الرومانية. ولكن صورة ليدار المجاورة تُبين مخططاً أكثر تعقيداً، يتضمن عدداً من المستويات التي تفصل ما بين أجزاء المخيم. ولقد تم إبراز بعض الأجزاء المختلفة الموجودة على مستويات منفصلة بخطوط حمراء، إضافة للأسوار التي بنيت حول المخيم. ولقد أكدت أعمال الحفر الأخيرة وجود شوارع على مستويات متعددة، توجد تحتها أنابيب الصرف الصحي التي كانت تخدم المباني الموجودة في الأعلى. ويظهر التناقض ما بين مخططات المخيمات الرومانية التقليدية ذات الخطوط المستقيمة ومخيم الفيلق السادس بشكل واضح واستثنائي في صور ليدار.



الشكل 4: خندق ليجيو الدفاعي ونظام التصريف، مشروع منطقة مرج ابن عامر. المصدر: ج. هاوري

وتبين الدراسة المتأنية لصور ليدار الظاهرة في الشكل 4 الخندق الدفاعي الذي كان يحيط بالمخيم بوضوح، كما تظهر أيضاً حفرة التصريف الموازية للحد الجنوبي الشرقي للمخيم. ولقد كشفت أعمال الحفر التي أُجريت في مواسم التنقيب السابقة، وفي سنة 2019، عن عدد من خطوط التصريف التي كانت تتدفق بالاتجاه الجنوبي الشرقي، ما يوحي بأن جزءاً من مياه مجاري المخيم على الأقل كانت تتدفق عبر الخندق الموازي للمخيم.

نظرة عامة على القريتين وإرثهما الروماني

كانت مخيمات الفيالق الرومانية بحاجة لعدد لا بأس به من العمال بغرض توفير الدعم اللوجستي والعمالة بشكل عام، وكان لبعض الجنود أُسر تعيش خارج المخيم. ونتيجة لذلك، ارتبطت القرى التي يعيش فيها العمال والأُسر بمخيمات رومانية بعينها. ومن الأمثلة على هذه القرى قرية اللّجون، والتي تأخذ اسمها باللغة العربية من كلمة «Legion» وتعني «الفيلق اللاتينية». كانت المخيمات الرومانية تتضمن أنواعاً محددة من المباني والمنشآت المعمارية، وبالتالي فإنها كانت تحتاج لمواد وأساليب بناء مُعيّنة. ولقد وفرّت مواسم التنقيب المتعددة في مخيم ليجيو خلال العقد الماضي، ضمن مشروع منطقة مرج ابن عامر [4](JVRP)

العديـد مـن الأمثلـة التـي تبيّـن أنـواع المـواد المسـتخدمة فـي بنـاء المخيـم. ومـن أوضـح الأمثلـة علـى هـذه المـواد بـلاط الأسـقف السـيراميكية المنتشـرة فـي مختلـف أنحـاء المخيـم، وكانـت صناعـة هـذا النـوع مـن البـلاط تتطلـب بنـاء وتشـغيل معمـل فـي الجـوار. وكانـت هـذه إحـدى مهـن البنـاء الموجـودة فـي قريـة اللّجـون، والتـي كانـت تتواجـد علـى الأغلـب بقـرب وادي عيـن قنـي (Nahal Qeni) الـذي كان يوفـر الميـاه اللازمـة لإنتـاج بـلاط الأسـقف بكميـات كبيـرة.

تقـع قريـة اللجـون تاريخيـا فـي محافظـة جنيـن بحسـب تسـميتها زمـن الانتـداب البريطانـي (سـنجق عـكا فـي عهـد العثمانييـن وبالسـتينا بريمـا فـي عهـد الرومـان) وكذلـك قريـة أبـو شوشـة المجـاورة. ويمكن تتبـع وجود القريتيـن عبـر العصـور وصـولاً للعصـر الرومانـي المتأخـر (القـرن الثاني بعد الميـلاد) على الأقل، في حيـن أن تل أبو شوشـة الـذي يقـع علـى أقصـى التلال الشـرقية (المطلـة على مرج ابـن عامر) يمكـن تتبعه حتـى العصـر البرونزي.[5] وإلـى الغـرب مـن مخيـم ليجيـو، تأسسـت قريـة اللّجـون بوصـول الفيلـق السـادس حوالـي سـنة 192 بعـد الميـلاد. وتشـير المصـادر التاريخيـة أن القريـة كانـت تتألـف مـن ثلاثـة مجتمعـات محليـة فـي القـرون الحديثـة، ينتمـي كل منهـا إلـى عائلـة أو عشـيرة معينـة: اللّجـون الغربيـة وكانـت تقـع علـى رابيـة البازلـت المحاطـة بالحقـول مـن الشـرق والجنـوب؛ والموقـع الثانـي إلـى الجنـوب، بجانـب وادي عيـن قنـي الجـاري علـى مـدار العـام، أمـا الموقـع الثالـث فهـو إلـى الشـمال مقابـل الحقـول علـى أراض مرتفعـة أصبحـت تعـرف بمدينـة ماكسـيمنوبوليس الرومانية،[6] أما في الوقت الحالي فيقع عليها كيبوتس مجدو.

أمـا أبـو شوشـة فهـي قريـة ثانيـة تقـع علـى بُعـد سـتة كيلومتـرات شـمال غـرب مخيـم ليجيـو علـى سـفوح تُطِـل علـى شـرق مـرج ابـن عامـر. ليـس هنـاك معلومـات مؤكـدة حـول الفتـرة التـي أُهِـل فيهـا تـل أبـو شوشـة بالسـكان، فهـو واحـد مـن التـلال القليلـة التـي لـم تُجـرَ فيهـا أعمـال الحفـر. وتشـير المصـادر إلـى أن التـل كان مأهـولاً خـلال العصـور الرومانيـة المتأخـرة أثنـاء وجـود مخيـم ليجيـو. وتشـير الأبحـاث الأخيـرة إلـى أن القريـة كانـت تُعـرف باسـم غابـا هيبيـون،[7] وفـي الأغلـب أنهـا تأسسـت علـى يـد فرسـان هيـرود المتقاعديـن.

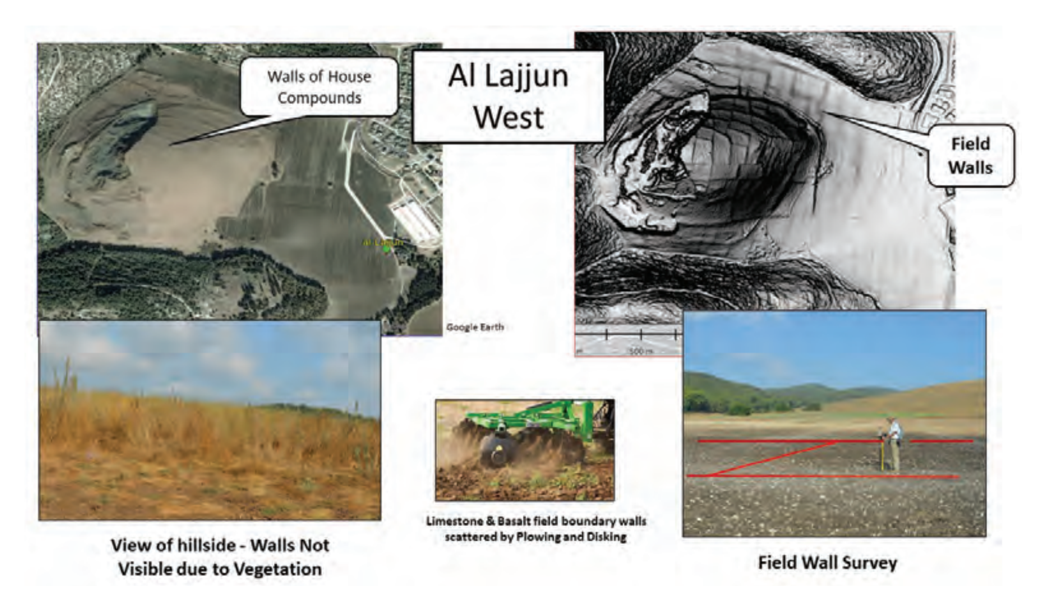
وسـنناقش هنـا هاتيـن القريتيـن مـن حيـث صـور ليـدار التـي تُبيّـن نوعيـن مـن المعالـم بشـكل منفصـل، والتـي لا يظهـر بعضهـا فـي المسـوحات الأرضيـة. وتُفصّـل هـذه الحـالات الدراسـية أنماطـا محـددة مـن أشـكال السـكن، وتوفـر فـي الوقـت ذاتـه أمثلـة توضـح كيـف يمكـن فيهـا لنظـام ليـدار أن يوفـر المعلومـات اللازمـة لفهـم المشـهد التاريخـي؛ أي أن نظـام ليـدار يمكـن أن يوفـر نظـرة استشـرافية مهمـة توجـه المسـوحات الأرضيـة لتكـون أكثـر تحديـداً، وبالـذات فيمـا يخـص اختبـارات مـا تحـت السـطح، إضافـة إلـى تحديـد معالـم رئيسـية لمـا تحـت السـطح لا يمكـن الكشـف عنهـا مـن دون إزالـة كميـات كبيـرة مـن التربـة خـلال أعمـال التنقيـب.

اللّجون

فـي بدايـة بحـث الكاتـب فـي صـور المنطقـة المحيطـة بمخيـم ليجيـو، كانـت الصـور المتوفـرة علـى غوغـل إرث، وخصوصـاً تلـك التـي يعـود تاريخهـا لسـنة 2010، توحـي أن جدرانـاً ضخمـة بنيـت فـي الماضـي علـى طـول جـزء مـن هـذه المسـتوطنة وضمـن الحقـول – أنظـر الشـكل 5 (يسـار الصـورة). أصبحـت المنطقـة محـط تركيـز تحليـل نظـام ليـدار بغـرض تحديـد فيمـا إن كان بالإمـكان رؤيـة هـذه المعالـم علـى الأرض أم لا.

تحـدد خريطـة للّجـون رسـمتها إدارة الانتـداب سـنة 1946 بشـكل واضـح عـدداً لا بـأس بـه مـن المنشـآت الموجـودة علـى التلـة. وكمـا تُبيّـن الصـورة، فـإن معظـم الجـزء المتبقـي مـن التلـة يعلـوه غطـاء نباتـي سـميك، مـا يجعـل المسـوحات السـطحية محـدودة للغايـة. ولكـن انتظـام النمـط فـي صـور ليـدار يدعـم فرضيـة أن المنـازل التـي أنشـئت علـى التلـة فـي السـابق كانـت محاطـة بأسـوار منخفضـة بأنمـاط منتظمـة. وفـي المقابـل، وفـي الحقـول الأكثـر اسـتواء، حيـث تظهـر أنمـاط غامقـة مسـتقيمة فـي صـور ليـدار، لـم يلاحـظ وجـود أي جـدران!

ومكنتنا زيارة ثانية للموقع، نُظّمت في الصباح الباكر هذه المرة، في الوقت الذي تكون فيه زاوية ضوء الشمس منخفضة، من ملاحظة ما كان في السابق جداراناً. وبدلاً من الجدران المنخفضة، نتجت الأنماط المستقيمة الغامقة هذه المرة عن حجر الجير الأبيض المنتشر بكثافة هنا، وحطام حجارة البازلت التي كانت في الماضي جداراناً محيطة بالحقول. ولقد تبعثرت الحجارة، التي كانت في السابق جداراناً حجرية، في المنطقة بسبب عقود من الحراثة باستخدام المحاريث التي تسحبها الجرارات أو المحاريث ذات الأقراص المستديرة. وكما يظهر في الجزء السفلي الأيمن من الشكل 5، يمكن تحديد النمط الكثيف من الأحجار المهشمة باستخدام جهاز التموقع الجغرافي، ومقارنة النتائج مع الأنماط المستقيمة الغامقة في صور ليدار.

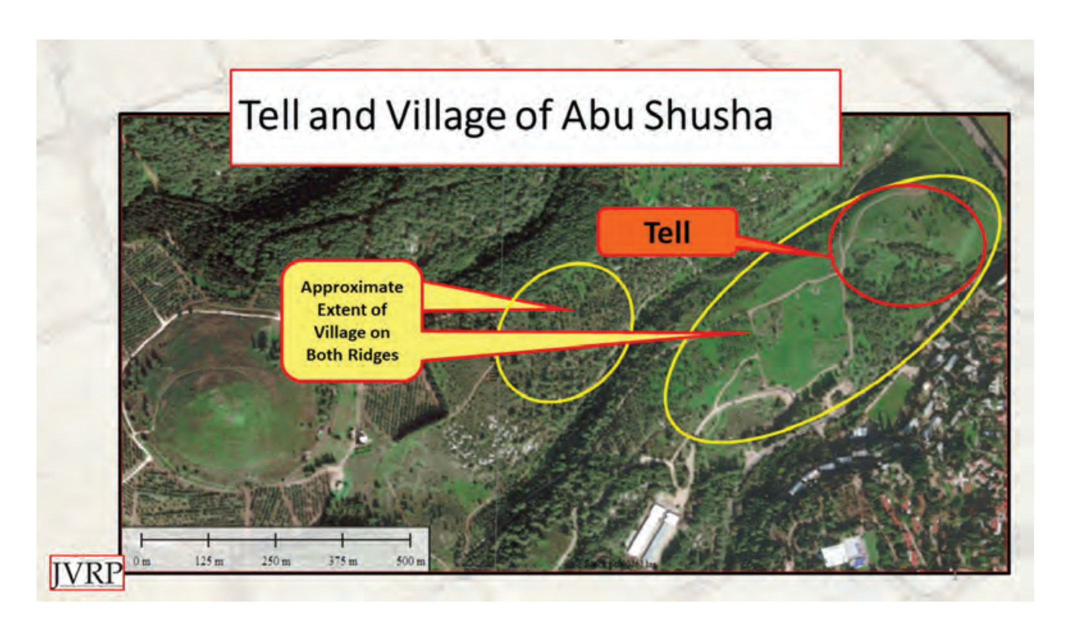


الشكل 5 – اللجون الغربية – جدران المنازل والحقول، المصدر: ج. هاوري

وتتمثل النظرة الاستشرافية المهمة التي يوفرها هذا الجزء من الدراسة في أنه على الرغم من أن الأدلة المادية على وجود منشآت القرية محدودة للغاية في المسح الأرضي، إلا أن النمط العام لمواقع المنازل ونمط الحقول المزروعة يبدو واضحاً في صور ليدار، خصوصاً عندما يتم ترشيحها لإظهار خصائص المستوى الأرضي. ولو كانت الظروف الأرضية مختلفة وتوفرت صور ليدار بوضوح أعلى، فإن بعض المعالم البارزة لمباني القرية ستكون أوضح. وسنقوم في القسم التالي، بدراسة قرية أخرى تبدو فيها المعالم السكنية المميزة أوضح، كما أن خصائصها المميزة ظهرت في صور ليدار المماثلة.

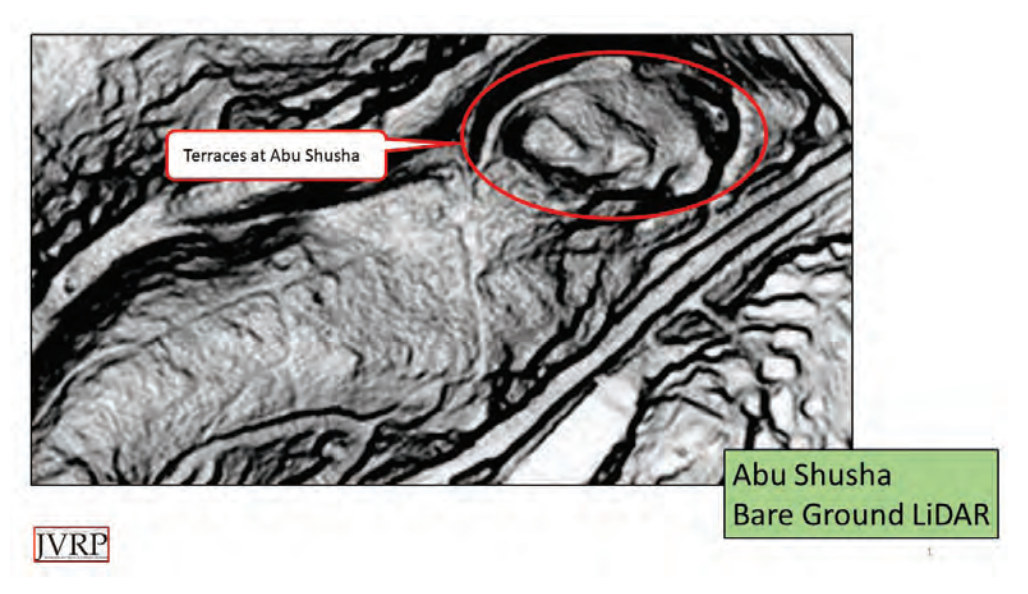
قرية أبو شوشة

وتقع على بعد 5 كيلومترات من تل مجدو قرية أبو شوشة الأصغر مساحة، والتي يواجه سفحها الشرقي وادي جزريل (مرج ابن عامر). تقع قرية أبو شوشة التاريخية على الجانب الغربي من التل، وتمتد نحو الجنوب الغربي عبر سلسلة التلال وفي موازاة سلسلة تلال أخرى إلى الشمال. احتلت مباني القرية ومنشآتها المرتفعات العليا من السلسلتين اللتين يفصل بينهما جدول ماء (الشكل 6).



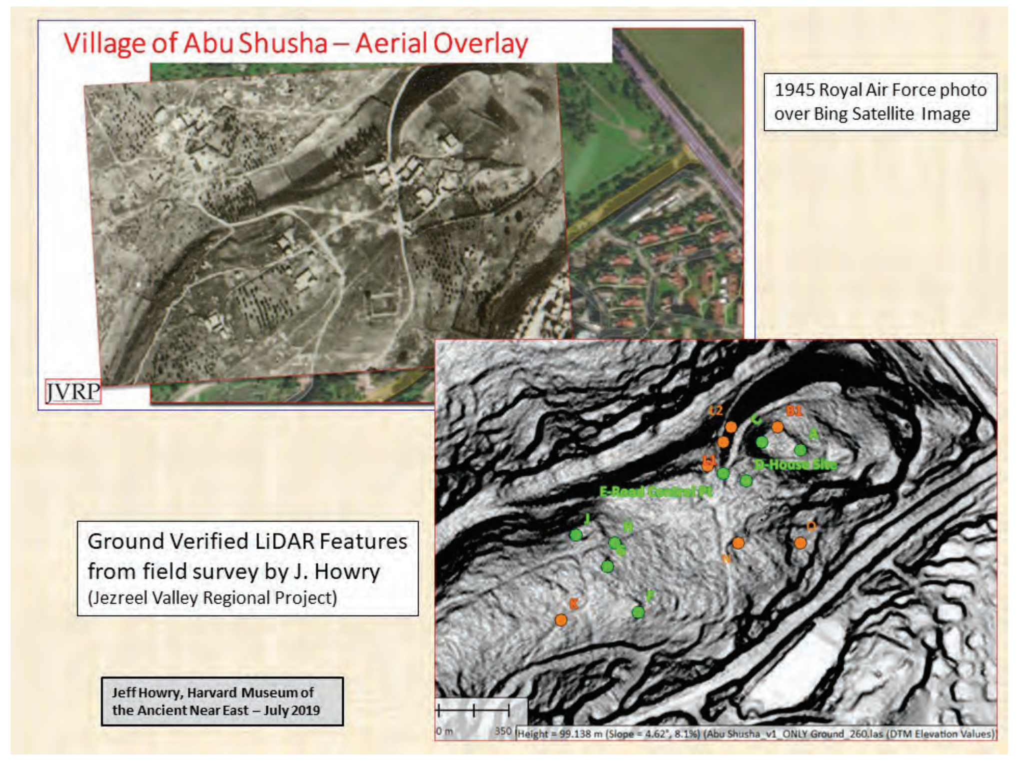
الشكل 6 – صورة أقمار صناعية تبين طبوغرافية تل وقرية أبو شوشة، المصدر: صورة من نظام Bing مع ملاحظات من ج. هاوري

تـم اختيـار هـذه القريـة لهـذه الدراسـة جزئيـاً لأن أساسـات بعـض المبانـي والمنشـآت السـابقة لا تـزال باديـة فـي المسـوحات الأرضيـة.[8] وإضافـة لذلـك، فـإن بدايـة تواجـد السـكان فـي التـل كانـت بشـكل رئيسـي علـى المنحـدر المواجـه للشـرق، والمطـل علـى مـرج ابـن عامـر. وسـوياً، تُبيـن هـذه المشـاهد عـدداً مـن المعالـم المتنوعـة التـي يمكـن تفسـيرها مـن خـلال نظـام ليـدار.



الشكل 7 مصاطب أبو شوشة، المصدر: ج. هاوري

تبـدو حبـلات تـل أبـو شوشـة، أو حبـلات القريـة، واضحـة علـى المنحـدرات الشـمالية الشـرقية فـي الإطـار الأيمـن لصـور الليـدار. وأكـدت المسـوحات علـى أرض الواقـع سـنة 2019 وجـود هـذه الحبـلات علـى الرغـم مـن أن الغطـاء النباتـي الكثيـف حجـب أي معالـم أرضيـة، سـوى تلـك الموجـودة علـى قمـة التـل، حيـث يظهـر الآجـر المقـدود، إضافـة إلـى منشـأة واحـدة ذات أقـواس (عقـد) تعـود للعصـر العثمانـي. وتوحـي الدلائـل الموجـودة علـى السـطح بـأن المنصـات قـد تكـون اسـتخدمت مـن قبـل سـكان القريـة حتـى نهايـة العصـر العثمانـي/ الانتـداب، ومـن قِبـل مـن سـكن التـل قَبـل ذلـك بكثيـر. وتتخـذ أعلـى مصطبـة شـكل المثلـث، تليهـا مصاطـب أخـرى تنحـدر إلـى أدنـى الجانـب الشـرقي للتلـة. وقـد تكـون بعـض هـذه المصاطـب مـن بقايـا القريـة الظاهـرة فـي الصـور الجويـة التـي التقطتهـا القـوات الجويـة الملكيـة سـنة 1945 .



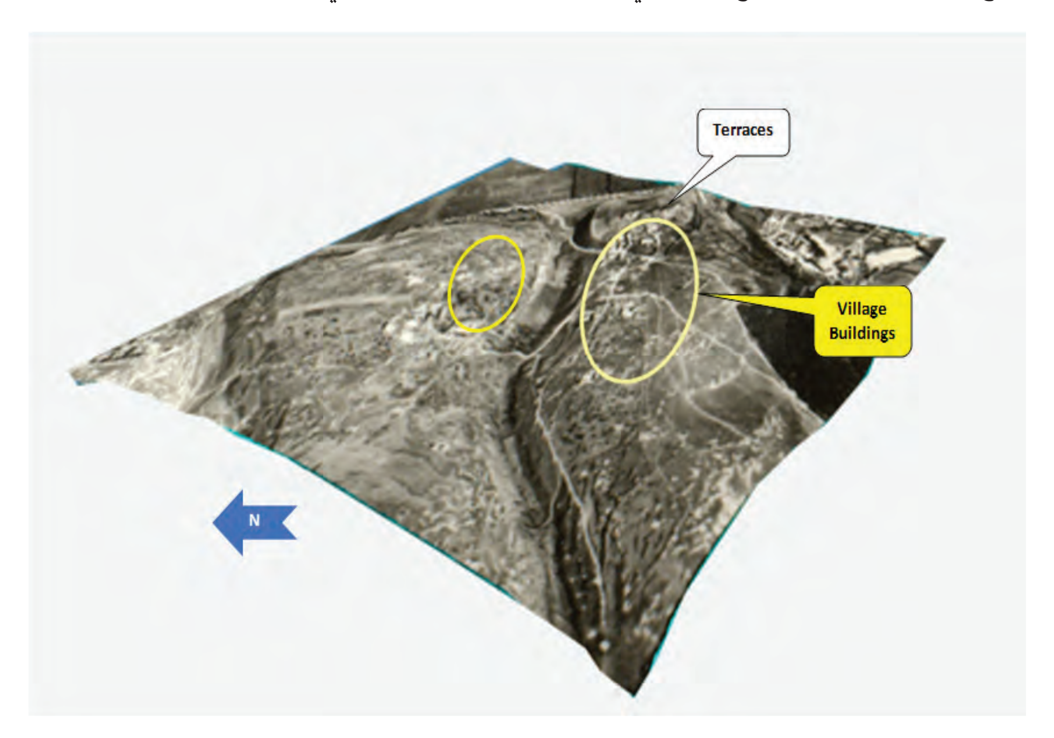
الشـكل 8: الصـور الجويـة مـن سـنة 1945 مركبـة فـوق صـورة الأقمـار الصناعيـة وصـورة ليـدار لـلأرض الجـرداء، المصـدر: أرشـيف الصـور الجويـة، دائـرة الجغرافيـا، الجامعـة العبريـة فـي القـدس؛ Bing والمؤلـف

أكـد مسـح أرضـي محـدود أن أساسـات المبانـي الظاهـرة فـي صـور سـنة 1945، بـدت واضحـة أيضـاً فـي صـور ليـدار. فإضافـة إلـى مواقـع المنـازل، تظهـر معالـم سـكنية أصغـر، كالأحـواض وحـدود المنـازل الواضحـة فـي الصـور الجويـة، وكذلـك فـي المسـوحات الأرضيـة التـي تسترشـد بصـور ليـدار.

توجهات الدراسة المستقبلية

تسلط الحالات الدراسية الموجودة في هذه المقالة الضوء على الحالات المختلفة التي يمكن فيها لصور ليدار أن تعطي بيانات مهمة حول بنية المواقع الأثرية التي كانت محتلة لآلاف السنين، وسياقها. فقد أتاحت الصور في اللّجون تسليط الضوء على أنماط الحقول التي تدمر العديد منها فعلياً خلال العقود الماضية. أما في أبو شوشة، فبيّنت صور ليدار الحبلات المتعددة الموجودة على أعلى المرتفعات. وسيتضمن التحليل المستقبلي مقارنة مفصلة بين صور ليدار والصور الجوية التي أُخذت سنة 1945، والقطع الأثرية التي وجدت في مسح أجري لتل أبو شوشة، وخلال دراسة أثرية مكثفة أجراها JVRP سنة 2017. وسيُقيّم تحليل لاحق لنتائج دراسة الآثار كيف يمكن لمجموعة السطح مع نظام ليدار أن تتيح تفسير الملامح القريبة من السطح. ومن المنتظر أن يسهم هذا التحليل في إظهار القيمة الإضافية في تفسير المشاهد التاريخية التي يمكن أن يسهم بها ليدار.

ومن خصائص ليدار الأخرى أنه يبين المواقع الجغرافية الدقيقة لنقاط يمكن ربطها مع الملامح التي يمكن تحديدها في الصور الجوية التاريخية كزاوية بناء أو تقاطع طرق. وسيكون بالإمكان مع توفر العديد من الصور من سنة 1945 بناء نموذج ثلاثي الأبعاد لمنشآت أبو شوشة كما كانت في ذلك الوقت، ومقارنتها جغرافياً مع ما تبقى منها اليوم. ويمكن للدمج ما بين صور ليدار والصور التاريخية أن يتيح عرض أبو شوشة ومواقع أخرى في المنطقة كذلك بشكل افتراضي.



الشكل 9: صورة لقرية أبو شوشة من الشرق باتجاه وادي جزريل (1945)، المصدر ج. هاوري

جيفري س.هاوري، باحث مشارك في متحف هارفارد لدراسات الشرق الأدنى، وهو مركز لدراسة لغات وحضارات الشرق الأدنى. اهتماماته البحثية في فلسطين التاريخية ترتكز على التغيير

الاجتماعـي فـي أواخـر العهـد العثمانـي والانتـداب البريطانـي وبدايـات الملاحـة المتوسـطية المبكـرة. يسـتعمل هـاوري تقنيـة الاستشـعار عـن بعـد عنـد بحثـه عـن المبانـي التاريخيـة والمناظـر الطبيعيـة لإيجـاد تفسـير أفضـل حـول الثقافـة والمبانـي التاريخيـة، لا سـيما تلـك التـي لـم تعـد مرئيـة بسـبب عمليـة التشـجير.

حصل هاوري على شهادة الماجستير والدكتوراه في علم الإنسان من جامعة هارفارد.

الهوامش:

1 رادار قيـاس الأرض والدراسـات الكهرومغناطيسـية الجيوفيزيائيـة لعلـم الآثـار- المخيـم الرومانـي فـي ليجيـو، إسـرائيل، جيسـي بينكـوس، تيموثـي س. دي سـميت، يوتـام تيبيـر وماثيـو آدامـز، نشـرة الآثـار المنشـورة علـى موقـع (wileyonlinelibrary.com) DOI: 10.1002/arp.1455

2 رادار مخترق للأرض، بينكوس.

3 مشـروع منطقـة مـرج ابـن عامـر هـو مبـادرة مسـتمرة مـن معهـد أولبرايـت للأبحـاث الأثريـة فـي القـدس. يشـرف د. ماثيـو آدامـز، مديـر المعهـد، علـى مشـروع مـرج ابـن عامـر الـذي وفـر الدعـم اللوجسـتي للبحـث الميدانـي كجـزء مـن موسـم الحفـر فـي ليجيـو 2019.

4 مشـروع منطقـة مـرج ابـن عامـر هـو مبـادرة مسـتمرة مـن معهـد أولبرايـت للأبحـاث الأثريـة فـي القـدس. يشـرف د. ماثيـو آدامـز، مديـر المعـه، د. علـى مشـروع مـرج ابـن عامـر الـذي وفـر الدعـم اللوجسـتي للبحـث الميدانـي كجـزء مـن موسـم الحفـر فـي ليجيـو.

5 تـل شـوش - https://en.wikipedia.org/wiki/Tel_Shush - أنظر آنفير رابات وآيلا سوسـمان، ميشـمار هـا إيمــاك – تــل شــوش: ISBN 965-406-029-9، 2013 .32

6 https://pleiades.stoa.org/places/678266

7 آزرايــل ســيجيلمان، «تحديــد موقــع غابــا هيبيــون»، مجلــة استكشــاف فلســطين الربعيــة 116 (تمــوز – كانــون الأول. 1984): 89 – 93. [https://www.tandfonline.com/doi/pdf/10.1179/peq.1984.116.2.89?needAccess=true]

8 كانــت القريــة مأهولــة بالســكان حتــى 1948 عندمــا هجرهــا ســكانها. كانــت أبــو شوشــة وعــدد مــن القــرى الأخــرى المحيطــة بهــا مســرحاً لعــدد مــن المواجهــات العســكرية فــي 1948 بسـبب موقعهـا المهـم الـذي أتـاح الوصـول لمـرج ابـن عامـر والسـيطرة عليـه.

فلسطين في الرؤية الذاتية للإمبراطورية الألمانية

غوستاف دالمان وأرشيف الحرب البافاري

سارة البلبيسي

مُلخَّص

يبحثُ هذا المقالُ في الهويات الثقافية التي رافقتْ السياسة شبه الاستعمارية للإمبراطورية الألمانية إبَّان الحرب العالمية الأولى. ويعاينُ التصورات التي مزجتْ تمثيلات الرؤية الذاتية للإمبراطورية الألمانية؛ الظاهرة في الآثار/ البقايا المرئية والنصية في المواد الأرشيفية لمهمة القوات الجوية الألمانية، وكذلك في العمل الأكاديمي والمُؤسسي لعالِم اللاهوت البروتستانتي والمستشرق غوستاف دالمان (Gustav Dalman) (1855 – 1941). توضح المؤلفة كيف ينعكسُ الجانبان (الدنيوي، والديني) المتعلقان بمهمة ألمانيا في نشر الحضارة؛ العمود الفقري الإيديولوجي لطموحات ألمانيا الاستعمارية، في الطُّرُق التي تتشكلُ من خلالها صورةُ فلسطين، وترتبطُ بالصراع على السلطة في الشرق الأدنى. تناقش المؤلفة مسألةَ أنَّ المهمة الدنيوية الأرضية سارت جنبًا إلى جنب مع تطلعاتها لتبشير الشرق. تتجلَّى المهمةُ الدينيةُ في تطلعات البيئة الاجتماعية لدالمان من خلال تفسير الحداثة على خلفية تاريخ الخلاص التوراتي بوصفها «نهاية الأزمنة». في هذا الصدد، نُظِرَ إلى فلسطين على أنها: مكان لتاريخ الخلاص، بالإضافة إلى أنها منطقة قوة وتأثير ثقافي وسياسي.

الوسوم/ الكلمات الدالة

الاستعمار الألماني، الاستشراق التوراتي، الحرب العالمية الأولى، النرجسية الإمبراطورية، غوستاف دالمان، أرشيف الحرب البافاري، فلسطين، ألوية القوات الجوية الألمانية.

يبحثُ هذا المقالُ في الهويات الثقافية التي رافقتْ السياسة شبه الاستعمارية للإمبراطورية الألمانية إبَّان الحرب العالمية الأولى، ويعاينُ التصورات التي مزجتْ تمثيلات الرؤية الذاتية للإمبراطورية الألمانية؛ الظاهرة في الآثار/ البقايا

المرئيـة والنصيـة فـي المـواد الأرشـيفية لمهمـة القـوات الجويـة الألمانيـة، وكذلـك فـي العمـل الأكاديمـي والمُؤسسـي لعالِـم اللغـة الألمانـي الشـهير والمستشـرق غوسـتاف دالمـان (1855 – 1941). أوضِّحُ كيـف انعكس جانبـان مـن جوانـب مهمـة ألمانيـا فـي نشـر الحضـارة – الدنيـوي والدينـي؛ العمـود الفقـري الإيديولوجـي لطموحـات ألمانيـا الاسـتعمارية، فـي الطُّرُق التـي تتشـكلُ مـن خلالهـا صـورة فلسـطين، وترتبـطُ بالصـراع علـى السـلطة فـي الشـرق الأدنـى. ولأكـون أكثـر تحديـدًا، ثمـة سـمتان رئيسـيتان، همـا: التجاهـل اللافـت للنظـر، الظاهـرُ فـي الآثـار/ البقايـا النصيـة والمرئيـة التـي خلفتهـا القـوات الجويـة الألمانيـة، ونفـذتْ مهمـات اسـتطلاعية فـي فلسـطين خـلال نهايـة الحـرب العالميـة الأولـى، والحمـاس البـارز والجلـي فـي العمـل الأكاديمـي للباحـث الألمانـي غوسـتاف دالمـان حيـن نشـر مجموعـة مختـارة مـن الصـور فـي أعقـاب الحـرب العالميـة الأولـى.

التمثيل العسكري أو زوال فلسطين في الشرق

انتقـد غوسـتاف دالمـان، فـي عـام 1928، قلـةَ البيانـات البصريـة التـي تعـرضُ الخصائـص «الحقيقيـة» أو «الموثوقـة» لفلسـطين، وعـزا السـبب فـي ذلـك إلـى التركيـز الأحـادي للمصوريـن المتميزيـن/ المحترفيـن علـى المواقـع المقدسـة والأماكـن التاريخيـة، لاعتمادهـم الاقتصـادي علـى المطالـب السـياحية.[1] مـن وجهـة نظـر دالمـان، تمكنـت ألويـة القـوات الجويـة الألمانيـة مـن تصويـر مـا فوَّتَـهُ هـؤلاء المصـورون. وعلـى أي حـال، فقـد نجحـت الألويـةُ فـي إعطـاء انطبـاعٍ بصـري شـامل عـن فلسـطين، ليـس لأنهـم كانـوا أكثـر موهبـة، أو لشـعورهم بالتـزامٍ أكبـر عنـد تقديـم صـورٍ تمثـل البلـد تمثيـلًا دقيقًـا، بـل علـى العكـس تمامًـا، إذ لـم يعنِهـم التصويـر المرئـي لـلأرض أساسًـا، حيـث كانـت صورهـم مجـرد نتـاجٍ جانبـيٍّ لمهماتهـم العسـكرية فـي تقصـي الحقائـق بهـدف اسـتطلاع العـدو، وبنيتـه التحتيـة، ومـوارده البشـرية والعسـكرية، ولمبـرراتٍ إسـتراتيجية أخـرى، مثلمـا تُظهِـرُ المـوادُّ الأرشـيفية. لـم تجـذب الأرضُ؛ فلسـطين بعينهـا، ذروةَ اهتمامهـم، بـل وجـود العـدو (البريطانـي) فـي هـذه الأرض.[2] نجـد الأدلـة فـي أرشـيف الحـرب المأخـوذ مـن أرشـيف ولايـة بافاريـا: مجموعـة مـن الأوامـر المكتوبـة بخـط اليـد موجهـة إلـى ضبـاط وجنـود الألويـة، ومنشـورات إعلاميـة للطياريـن تتضمـن تعليمـات حـول مـا يجـب مراقبتـه؛ وأشـكالٌ مـع إشـاراتٍ غامضـةٍ للتواصـلِ مـع القـوات البريـة بشـأن تحـركات العـدو وقواتـه وكشـفِ نوايـاه؛ ومذكـرات حـرب خطَّهـا مـلازم فـي الخدمـة يُدعـى بيرتولـد (Berthold) يصـف فيهـا المهـام اليوميـة لرحلاتـه الجويـة ومسـائل أخـرى بدقـة متناهيـة. وأولًا وقبـل كل شـيء، القلـق والانهمـاك المطلقـان بالقـوات البريطانيـة.

حتـى صـور الآثـار الألمانيـة فـي البـلاد، كالمسـتعمرات أو المؤسسـات، يبـدو أنهـا آثـارٌ جانبيـة عشـوائية تشـبه التضاريـس والمَشـاهِدَ الريفيـة وتلـك الحضريـة أيضًـا. لـم يُعثَـر علـى أيِّ معلومـاتٍ تتعلـق بـ «مهمـة جويـة آثاريـة» لسـلاح الجـو الألمانـي، علـى حـدّ تعبيـر نـدى الأطـرش، فـي المـواد الأرشـيفية.[3] إذ يبـدو أنـه لـم يعـطَ أيُّ أمـرٍ رسـميٍّ للجنـود، كمـا توحـي كلمـة «مهمـة» بطريقـةٍ مـا، بهـذا الخصـوص، وهـذا لا يعنـي أنـه لـم تكـن لديهـم مثـل هـذه الطموحـات والتطلعـات. يَذْكُـرُ شـولز (Schulz) فـي مقـالٍ لـه أنَّ ثيـودور ويغانـد (Theodor Wiegand)؛ مديـر معهـد الآثـار الألمانـي التركـي، طلـب مـن القـوات الجويـة التقـاطَ صـورٍ للمواقـع الأثريـة، الأمـر الـذي أدَّى بالقـوات الجويـة لتأسـيس علـم آثـار التصويـر الجـوي، بحسـب مـا أعلنـه غيـرد م. شـولز (Gerd M. Schulz) بافتخـار.[4] بنـاءً علـى هـذا الطلـب، تُظهـر الصـورُ آثـارًا تاريخيـة مـن الحقبـة التوراتيـة، وزمـن الحـروب الصليبيـة، والاحتـلال العثمانـي، والاسـتعمار الصهيونـي المبكـر؛ صـور الأهرامـات مـن أشـهرها. وهكـذا، يمكننـا التحـدث عـن المهمـة غيـر الرسـمية التـي قـام بهـا الجنـود بالفعـل علـى أكمـل وجـه. بالإضافـة إلـى ذلـك، تكشـفُ المـوادُّ الأرشـيفيةُ الثقافـةَ الإنسـانية التـي تمتـع بهـا بعـضُ الضبـاط حتمًـا؛ تجربـة منحتهـم هِبَـةَ تقديـرِ الآثـار التاريخيـة. وبهـذا، يمكننـا افتـراضُ أنَّ بعـضَ الصـورِ التُقِطَـتْ بسـبب اهتمامهـم الخـاص بالآثـار التاريخيـة. ومـا يفسـر ذلـك هـو أنَّ ملاحظـةً وُجِـدَتْ فـي المـواد الأرشـيفية تُوثـق محاولاتهـم لاسـتئجار سـفينة مـن الأسـطول البحـري بغيـة التعـرف علـى بعـض معالـم البـلاد.[5]

غيـرَ أننـا لـم نشـهدْ، بالاعتمـاد علـى المـواد الموجـودة فـي أرشـيف الحـرب البافاري،[6] وعلـى مـوادَّ أخـرى أيضًـا، مثـل روايـة بعنـوان «الرائـد فانغـارد باشـا» (Vanguard Pasha)[7] كتبهـا فـي ذلـك الوقـت ريتشـارد أورينجـر (Richard Euringer)؛ العضـو فـي مهمـة القـوات الجويـة الألمانيـة، أيَّ اهتمـامٍ حقيقـيٍّ مهـمٍّ أو حمـاسٍ للمواقـع أو القصـص التوراتيـة التـي انعكسـتْ فـي مختلـف وثائـق تلـك الفتـرة. وبـدلًا مـن ذلـك، فـإن البيانـات النـادرة المتعلقـة بالقضايـا غيـر العسـكرية فـي مـواد الأرشـيف البافـاري فكَّكـتْ الفكـرةَ العامـةَ القائلـةَ بـأنَّ فلسـطين انصهـرتْ بطريقـةٍ مـا فـي مشـرقٍ أو جزيـرة عربيـة أبعـد.

حرَّاسُ/ أوصياء المشرق الأبطال

عَـدَّ الجنـودُ الطيـارون أنفسَـهم «حرَّاسًـا» لهـذا الشـرق. هـذه الرؤيـة البطوليـة للـذات حاضـرةٌ فـي روايـة أورينجـر، وفـي مُثُـل الشـهامة العُليـا للرجولـة المتضَمَّنـة فـي شـهاداتٍ أرشـيفية تُكـرِّمُ بعـضَ الضبـاط عبـر ترقيتهـم إلـى رتبـة فـارس.[8] ترتبـط هـذه الصـورُ المثاليـةُ لذواتهـم ارتباطًـا وثيقًـا بتصـوُّرٍ معيـنٍ عـن الشـرق صقلـه الجنـودُ بأنفسـهم. إنـه إرثُ الفـرسِ والإغريـق القدمـاء (راجـع روايـة «الرائـد فانغـارد باشـا») الـذي اعتمـدوا عليـه مـن أجـل صورهـم، ورغباتهم، ومُثُلهـم فـي المقـام الأول. يبـدو أنهـم يربطـون شـوفينيَّتَهم العسـكرية بهـذا التـراث القديـم غيـر المسـيحي. تتمـازُ هـذه الرجولـةُ الأسـطوريةُ التـي يرتكـزُ عليهـا التصـور البطولـي للـذات لـدى الجنـود الألمـان عـن المألـوفِ عنـد الـذات العثمانيـة (سـواء أكانـوا أتـراكًا أم عربًـا). ترشـدُ تعليمـاتُ التواصـل المحفوظـةُ فـي أرشـيف الحـرب البافـاري الجنـودَ إلـى كيفيـة التعامـل مـع زملائهـم الجنـود والعمـال العثمانييـن والتحـدث إليهـم لرفـع كفاءتهـم البشـرية.[9] نجـد فـي تلـك الإرشـادات انعكاسًـا للعجـز النمطـي المنسـوب إلـى الشـخصية الشـرقية بصـورة عامـة. لا يـزال التقليـلُ مـن قيمـة الـذات العثمانيـة أو «التركيـة» العاديـة (كمـا أشـار الألمـانُ إلـى العثمانييـن عـادةً) مقارنًـا بإضفـاء المثاليـة علـى شـخصية البطـل القديـم، بوصفـه أسـطوريًا، يجسِّـدُ الأوروبـيَّ والشـرقيَّ فـي الوقـت نفسـه، وعلـى خطاهـم يسـيرُ الجنـودُ الألمـانُ. يبـدو أنَّ الجنـودَ أسسـوا للاسـتمراريةِ بيـن القديـم والمعاصـر مـن خـلال شـخصية البطـل، حيـث كانـوا قادريـن علـى دمـجِ الشـرق فـي أوروبـا، بوصفهـم حرَّاسًـا للشـرق، أو رؤيـة الشـرق امتـدادًا جزئيًّـا لأوروبـا، كأصـلٍ مظلـمٍ وأسـطوريٍّ للهيمنـة الأوروبيـة المُعاصـرة. يصـفُ زانتـوب (Zantop) السـعيَ الألمانـيَّ الحثيـثَ مـن أجـل إقامـة المسـتعمرات علـى نحـوٍ يتجسَّـدُ فـي الوعـي العـام، عبـر تحليـل الروايـة الاسـتعمارية، كمـا يتحـدثُ عـن هـوسِ المسـتعمرات لمجتمـع الإمبراطوريـة الألمانيـة.[10] اسـتُعيدَ هـذا التصـورُ مـن روح العصـر الأوروبـي للحقبـة الجميلـة والهادئـة التـي سـبقت الحـرب العالميـة الأولـى، وغرسـتْ التاريـخ اليونانـي والفارسـي، واعتُقِـدَ بأنـه سـابقٌ للثقافـة الأوروبيـة.

تلعـبُ فلسـطين – بقيمتهـا الرمزيـة فـي الهويـة والثقافـة المسـيحية – دورًا ثانويًّـا فـي مخيلـة هـذا الشـرق. حيـث تُعطـي المـوادُّ الأرشـيفيةُ فـي ميونـخ الانطبـاعَ بـأنَّ فلسـطين جـزءٌ مـن الإمبراطوريـة العثمانيـة، فـي المقـام الأول، أو أنهـا شـرقٌ وهمـيٌّ. أمَّـا الأرشـيف البريطانـي، فمـن المرجَّـحِ أن يرسـم صـورةً أخـرى، فقـد لعبـتْ فلسـطين دورًا حاسـمًا فـي إسـتراتيجية فـرِّقْ تسُـدْ لسياسـتها الاسـتعمارية، التـي تـمَّ تصوُّرهـا بالفعـل خـلال الحـرب العالميـة الأولـى (مثـل وعـد بلفـور فـي عـام 1917). فـي الملاحظـات المتعلقـة بالمحادثـات مـع العمـلاء والأسـرى (تلـك التـي لـم يجرهـا ضبـاط القـوات البحريـة)، حُـدِّدَتْ الجزيـرة العربيـةُ –وليـس فلسـطين– بوصفهـا الواضـح بأنهـا «الهـدف» الـذي يَنشُـدُهُ العـدوُّ، كمـا عُـدَّتْ «مُهمـةً للغايـة بالنسـبة للبريطانييـن لاعتبـاراتٍ سياسـية وماليـة تمنعهـم مـن التخلـي عنهـا».[11] أصبحـت الجزيـرة العربيـة –وليـس فلسـطين– هـدفَ الألمـان المنشـود بسـبب قيمتهـا المعاديـة علـى خلفيـة تجربـة القـوة الأوروبيـة خـلال الحـرب العالميـة الأولـى. انتقلـتْ فلسـطينُ إلـى دائـرة الضـوءِ الألمانيـة فقـط عنـد انتقـال الحـدود الشـرقية للمواجهـات العسـكرية مـع البريطانييـن مـن سـيناء إلـى فلسـطين. ومـع أنَّ العديـدَ مـن ممثلـي النُّخَـب السياسـية البريطانيـة كانـوا صهاينـة مخلصيـن أيديولوجيًّـا وداعميـن للأهـداف القوميـة للمسـتوطنين اليهـود الصهاينـة، مـن أجـل تحقيـق مصالحهـم الخاصـة، إلّا أنَّ الإمبراطـور الألمانـي كان يحتـرم حليفـه المقـرب؛ السـلطان العثمانـي، دائمًـا وكثيـرًا، بغيـة تعزيـز الحركـة القائمـة بالفعـل للمسـتوطنين الألمـان فـي الأرض المقدسـة، وتكريسـها للصهيونيـة المسـيحية.

فلسطين بوصفها تجسيدًا للماضي التوراتي

ومع ذلك، كان ثمة ألمان عاصروا تلك الفترة التي تميزت فيها فلسطين بقيمتها الجوهرية، على الرغم من أنَّ هذه القيمة استندتْ إلى تجسيدِها للماضي التوراتي. كان غوستاف دالمان؛ عالم اللاهوت البروتستانتي الألماني، شخصية تاريخية، تَخصَّصَ في العهد القديم؛ أي الكتاب المقدس العبري، وكان باحثًا في الدراسات الفلسطينية، وقاد المعهد الإنجيلي الألماني للدراسات الكلاسيكية/ القديمة للأراضي المقدسة، المعروف باسم معهد فلسطين في القدس، من 1902 إلى 1917. كان معهدُ فلسطين الوحيد المقام على أرض فلسطينية من بين عدةِ معاهد بحثية ألمانية معنية بفلسطين، حيث تأسس في عام 1903 بعد تأسيس الجمعية الألمانية الفلسطينية في عام 1877، ومن ثمَّ شكَّلتْ نظيرَتَها الفكرية. اختلف المعهدُ عن الجمعية في توجهه الإنجيلي الواضح؛ حيث مثَّلَ الكنيسة الإنجيلية الألمانية في فلسطين، في حين أنَّ الجمعية عرَّفتْ نفسَها على أنها عقائدية. منعتْ الحربُ العالميةُ الأولى دالمان من العودةِ إلى فلسطين حتى نهايتها، وخلال هذا الوقت، قبِل درجة الأستاذية في العهد القديم والدراسات الفلسطينية في غرايفسفالد (ألمانيا)، وهناك أسس معهد الدراسات الإقليمية والتاريخية التوراتية، المعروف الآن باسم معهد غوستاف دالمان.

عاد دالمان إلى فلسطين في عام 1921، وأصبح رئيس كنيسة الفادي في القدس، كما كان محرِّرًا لمجلة «كتاب فلسطين السنوي» (Palestine Yearbook). ألقى عدة محاضرات لجمهوره من علماء اللاهوت الشباب الألمان، خلال الفترة التي قضاها في فلسطين، حيث بحث، وصوَّرَ، ووثَّقَ حياة الفلاحين والبدو الفلسطينيين. تُقدِّمُ أعمالُهُ رؤىً فريدةً لا نظيرَ لها لظروف حياة الناس العاديين خلال العصر العثماني. أمَّا في مجال أبحاثه الثانية؛ أي في الدراسات اليهودية، فقد نشر أعمالًا في قواعد وقواميس اللهجات الآرامية واللغة العبرية ما بعد الكتاب المقدس، والتي أصبحت فيما بعد أعمالًا قيمتها باقية في هذا الحقل. إنَّ أكثر ما يثير الدهشة في نهج دالمان العلمي هو الإطار الأيديولوجي الذي استخدمه في بحثه: فقد حاول استخلاص النتائج من عمله الميداني المتعلق بتاريخ إسرائيل والشرق في العصور القديمة، ولهذا نجد علم الآثار والدراسات الإقليمية متشابكة للغاية في عمله.

بما أنه شخصية دينية رفيعة المقام، أو بالأحرى ممثل للمعتقد والفكر البروتستانتي، بالإضافة إلى أنه باحث مهتم بطُبوغرافيا (تضاريس)، وجغرافية، وتاريخ فلسطين نفسها، فقد طمس دالمان الخطوطَ المفهومةَ عادةً بين فئات الاستشراق (التوراتي) واحتلاله الميتافيزيقي للبلاد، متجاهلًا سعيَ الباحثِ للحصولِ على معرفةٍ دقيقةٍ عن الأرض نفسِها. حدد الاستشراقُ التوراتي[12]فلسطين بديلًا/ مكانًا للمعرفة عن التفسير التوراتي؛[13]أي أنَّ البحثَ عن فلسطين لا يهدفُ إلى الدراسة التاريخية لفلسطين في حدِّ ذاتِها، ولكن إلى الفهم التوراتي، ووضع العلم في خدمة المصالح الدينية. وهكذا صُوِّرَت الدراساتُ حول فلسطين على أنها دراسات للأراضي المقدسة – وغالبًا ما يسعى خلفَها العديدُ من المهتمين وشبه الأكاديميين، من أمثال: اللاهوتيين، والأطباء، والمعلمين، والمبشرين – وعلى هذا النحو، يُنظَرُ إليها في سياقِ المعرفة الإمبراطورية المسيحية. لم يكن دالمان، من جهة أخرى، لاهوتيًّا متكلِّمًا فقط، بل كان أيضًا عالمًا متميزًا ومحترفًا. ومع أنه ينبغي عَدُّهُ ممثلًا للعلم المسيحي الإمبراطوري (1871 – 1918)، إلّا أنَّ نقدَهُ الذي هدف إلى إضفاءِ الطابع الرومانسي على فلسطين يتعارضُ مع الاستشراق التوراتي. وكما نرى في ملاحظاته الافتتاحية، فإنه يأسفُ لعدم الدقة ونقص الإرادة في عرضِ رؤيةٍ حقيقية/ صادقة للمشهد الفلسطيني بسبب الصورة الرومانسية والمثالية للبلاد، تلك التي وصفها بالمرض.[14] ونتيجة لهذا النقد، فإنَّ اختياره لمئة صورة فوتوغرافية من «مجموعة صور فلسطين» (Bildsammlung Palästina) في كتاب الصور «مئة صورة جوية ألمانية من فلسطين» يعتمدُ على نية توفير مواقع مختلفة في فلسطين.[15] ظاهريًّا فقط، تتحدَّى الجِبِلَّةُ الأكاديمية لدى دالمان المفاهيمَ الاستشراقية المحددة سلفًا، بيد أنَّ تفكيرَ دالمان، كمعظم مجايليه، تخلله نوعٌ معينٌ من الاستشراق. ومع أنَّ إدوارد سعيد لم يتطرق إلى الجوانب

الدينيـة للاستشـراق، إلّا أنـه أشـار بوضـوح إلـى الأواصـر الوثيقـة بيـن المسـيحية والاستشـراق، لا سـيما البعثـات البروتسـتانتية والتوسـع الاسـتعماري الأوروبـي عبـر تسـليط الضـوء علـى جـذور التوسـع الاسـتعماري الأوروبـي فـي الخطـاب الدينـي المسـيحي.[16]

افتتـح معهـد فلسـطين (أو المعهـد الإنجيلـي الألمانـي للدراسـات الكلاسـيكية/ القديمـة للأراضـي المقدسـة) الإمبراطـور الألمانـي غليـوم الثانـي (فيلهلـم الثانـي) فـي عـام 1898، وكان دالمـان أولَ مديـرٍ لـه. يشـير اسـمُ المعهـد بالفعـل إلـى هويتـه العقائديـة وإلـى المعاهـد الأثريـة الألمانيـة الأخـرى التابعـة لـوزارة الخارجيـة الألمانيـة فـي أثينـا وروما فـي الوقـت نفسـه. لـم تُنشَـأ هـذه المؤسسـةُ لتمثـلَ الكنيسـة الإنجيليـة الألمانيـة فقـط، بـل أيضًـا لتمثـلَ الموقـفَ الإنجيلـيَّ فـي الأبحـاث الدوليـة المتعلقـة بفلسـطين.[17] كانـت الدراسـاتُ الدوليـة حـول فلسـطين حقـلًا كثيفًـا وشـاملًا يسـيطرُ عليـه صنـدوق استكشـاف فلسـطين البريطانـي الـذي كان سـائدًا فـي إنتـاج المعرفـة المتعلقـة بفلسـطين. اقتصـر دورُ الأبحـاث الألمانيـة بصـورة أساسـية علـى تفسـير البيانـات والمعرفـة التـي ينتجهـا صنـدوق استكشـاف فلسـطين البريطانـي أو غيـره مـن الجهـات الميدانيـة المهيمنـة الأخـرى.[18] مـن الجديـر بالذكـر أنَّ كلمـة «فلسـطين» فـي السـياق البريطانـي كانـت تشـير إلـى بـلاد العهـد القديـم. يجـب أنْ تُوفِّـرَ المعرفـةُ الدقيقـةُ بـالأرضِ المقدسـةِ؛ أي ممارسـات العلـوم الدنيويـة، نظـرةً ثاقبـةً للنـص الدينـي للكتـاب المقـدس. لـم يكـن الاهتمـامُ بالكتـاب المقـدس دينيًّـا فقـط، فلقـد عَـدَّ البريطانيـون الكتـابَ المقـدسَ ملحمـةً وطنيـة، مرتبطـة بأبنـاء إسـرائيل. لـذا، فإننـا نـرى فلسـطين علـى اعتبـار أنهـا امتـدادٌ لإنجلتـرا، وجـزء أساسـي مـن الهويـة البريطانيـة.[19] وبينمـا اقتصـر البريطانيـون فـي أبحاثهـم علـى فلسـطين لتوضيـح الكتاب المقـدس وتفسـيره، اتبـعَ النهـجُ الألمانـيُّ العقائـدي (لجمعيـة فلسـطين) منهجيـاتٍ علميـة كانـت أكثـر اسـتقلاليةً عـن الطموحـات اللاهوتيـة والكنسـية للبريطانييـن. تجلَّـى هـذا الأمـرُ فـي حقـولٍ كالأبحـاث التوراتيـة، أو مـا يسـمى بالنقـد العالـي للكتـاب المقـدس، وكذلـك فـي طلـب المعرفـة الشـاملة الميدانيـة فـي الاستكشـافات الإثنوغرافيـة، والديموغرافيـة، والإحصائيـة لفلسـطين المعاصـرة.[20] يمكـنُ لدالمـان، وتوجُّـه معهـد فلسـطين الـذي يقـوده، أن يتوسَّـطَ التوجهـات الدنيويـة للجمعيـة الألمانيـة الفلسـطينية والتطلعـات اللاهوتيـة التـي يسـعى إليهـا صنـدوق استكشـاف فلسـطين البريطانـي، علـى الرغـم مـن هويتـه العلمانيـة. رأى دالمـان أنَّ وظيفـةَ معهـد فلسـطين تكمـنُ فـي تفسـير الأرض المقدسـة وفقًـا لمعاييـر العلـوم اليوم.[21] حيـث خُصِّـصَ حقـلُ أبحـاث المعهـد للدراسـات الإقليميـة؛ وكان الهـدف منـه استكشـاف البـلاد بتوظيـف أهميتهـا كأرض مقدسـة. عَـدَّ دالمـان اللغـات، والعـادات، والنباتـات والحيوانـات، والجيولوجيـا (علـم طبقـات الأرض)، والظـروف المُناخيـة، والآثـار، والجغرافيـا، وطـرق المـرور/ الحركـة، والمحميـات، والمبانـي السـكنية، والمقابـر، والنقـوش أو الكتابـات أجـزاءً أساسـيةً مـن الدراسـات الإقليميـة. هدفـت هـذه الأبحـاث إلـى ربـط الماضـي التاريخـي بِمَشـاهِد التضاريـس، واكتشـاف الماضـي فـي الحاضـر. أمَّـا التعليـم فقـد هـدف إلـى إضفـاء خلفيـة ملونـة للروايـات المقدسـة.[22]

وبهـذا، فـإنَّ التاريـخَ الـذي نُظِـرَ إليـه علـى أنـه كامـنٌ فـي ماضـي البـلاد، كان بالطبـع توراتيًّـا. هـدفَ التاريـخُ التوراتـيُّ إلـى اكتشـافِ «الحقيقـة المخبـوءة» وراء المَشـاهِدِ الأسـطورية، وفـي عـادات شـعوبها أيضًـا. أصبـح كلُّ شـيءٍ، بـدءًا مـن الحجـارة وانتهـاءً بالآثـار، وفقًـا لهـذا المنظـور، بقايـا مـاضٍ مقـدس يُذكِّرُنـا بقداسـةٍ نسـيَها الزمـن. قـد يفتـرض المـرءُ، بنـاءً علـى هـذه المفاهيـم، أنَّ دالمـان مُنظِّـرٌ ضعيـف، ولكـن علـى عكـس هـذه التوقعـات كان إثنوغرافيًّـا(*) مخلصًـا. شـكَّلتْ الرحـلاتُ التـي تسـتغرقُ عـدةَ أيـام جـزءًا أساسـيًّا مـن المناهـج الدراسـية لعلمـاء اللاهـوت، وأعطيـتْ أولويـة أكبـر بكثيـر مـن المحاضـرات. رأى دالمـان أنَّ ممارسـة الدراسـة والمراقبة المسـتقلتين مفتـاح عمليـةِ التعلُّـمِ الناجحـة. شـملتْ الموضوعـاتُ الأربعـةُ الثابتـةُ التـي كان دالمـان يدرِّسُـها فـي محاضراتـه بانتظـام: القـدس وبيئتهـا فـي علمَـيْ الطبوغرافيـا والآثـار، والعمـل والعـادات، والجغرافيـا والدراسـة الإقليميـة، بالإضافـة إلـى علاقـات فلسـطين بالعهـد الجديـد. كمـا قـدَّمَ دوراتٍ لتدريـس القـراءة باللغـة العربيـة، وألقـى

(*) العالم بوصف الأجناس البشرية. (المترجم).

محاضـراتٍ عـن اللغـة، والجغرافيـا التاريخيـة لفلسـطين، والتاريـخ المعمـاري للقـدس، ومناطـق قبائـل إسـرائيل، والإسـلام الحديـث، والكنيسـة الأرثوذكسـية اليونانيـة فـي فلسـطين، والبعثـة البروتسـتانتية.[23] تمكَّـنَ دالمـان مـن القبـضِ علـى جميـعِ خبراتـه، ودراسـاته، وتعاليمـه، فـي تلـك السـنوات، التـي تـرأس خلالهـا معهـد فلسـطين، فـي كتابـه الهائـل المكـوَّن مـن سـبعة مجلـدات «العمـل والعـادات فـي فلسـطين،» وهـو عمـلٌ متأخـرٌ تطـوَّرَ تدريجيًّا فـي غرايفسـفالد.[24] وبهـذه النتيجـة المثمـرة لسـنواتٍ قضاهـا فـي فلسـطين، أسـس الدراسـات الألمانيـة الفلسـطينية كفـرعٍ علمـيٍّ خـاص بهـا.

يبـدأ دالمـان فـي كتابـه «العمـل والعـادات فـي فلسـطين» بوصـفٍ تفصيلـي للفصـول المختلفـة والروتيـن اليومـي، وكيـف يشـعر المـرءُ بالبـرد والحـرارة، ومـن ثـمَّ ينتقـلُ إلـى مناقشـة: ظـروف الأرض، والزراعـة، وحصـاد القمـح؛ وإنتـاج الخبـز والزيـت والنبيـذ؛ والنباتـات المفيـدة وكيفيـة الاسـتفادة منهـا فـي الغـزل والنسـيج؛ وزراعـة الصـوف ومختلـف وبـر/ شـعر الحيوانـات وكيفيـة الاسـتفادة منهـا. يصـفُ فئـاتٍ مختلفـة مـن السـكان الفلسـطينيين، كالبيئـة البدويـة، وحيـاة البـدو فـي الخيـام ومـع المواشـي ومنتجـات الألبـان، والقنـص وصيـد الأسـماك، والمُزارعيـن المسـتقرين فـي بيوتهـم، مـع دواجنهـم، يزرعـون، ويُرَبُّـونَ النحـلَ والحَمـام. وأخيـرًا، يقـدِّمُ تفاصيـلَ حـول الأغانـي، والموسـيقا، والعـادات فـي أوقـات الـولادة، والأعـراس، والوفـاة. خلـق دالمـان؛ هـذا الجامـعُ، بالحيـاة والـروح معًـا، كنـزًا موسـوعيًّا مـن المعلومـات التـي لا تُعَـدُّ ولا تُحصـى حـول كلِّ مـا يتعلـقُ بالحيـاة الفلسـطينية. يمكـن قـراءةُ هـذا الكتـابِ كخلاصـةٍ وافيـةٍ للعديـد مـن الكتيبـات حـول مختلـف المواضيـع – مـن الطهـي والخَبـز إلـى الطقـوس، والمُنـاخ، والحيوانـات، بالإضافـة إلـى قواميـس أعدَّهـا للهجـاتٍ فلسـطينيةٍ مختلفـةٍ حـول كل جانـبٍ ممكـن مـن جوانـب الحيـاة العامـة، والخاصـة، وحيـاة العمـل للسـكان، وكذلـك التربـة، والتضاريـس الريفيـة والحضريـة فـي الماضـي. وهكـذا، يجمـع الكِتـابُ مختلـفَ فـروعِ المعرفـة العلميـة – الإثنوغرافيـا، والجغرافيـا، وعلـم فقـه اللغـة وغيرهـا – تحـت المظلـة الشـاملة لدراسـات فلسـطين والفلسـطينيين. تكمـنُ الفكـرةُ الحاسـمةُ فـي جميـع أعمـال دالمـان، والتـي يريـدُ أن ينقلَهـا، وفقًـا لجوليـا مانشِـن (Julia Männchen)، فـي المـدى الـذي اسـتطاعت الأرضُ وخصائصُهـا مـن خلالـه قولبـةَ هـذا الشـعبِ وتشـكيلَه وترسـيخَه فـي أصغـر تفاصيـل حياتـه – مـن المـأكل والملبـس إلـى الاحتفـالات.[25]

المهمة الألمانية لنشر الحضارة

أقتـرحُ أن أنظـرَ إلـى دالمـان بوصفـه عالمًـا فـي الأنثروبولوجيـا (علـم الإنسـان) لفلسـطين القديمـة، أو بالأحـرى أنثروبولوجيًّـا للمُقدَّسـات. اعتمـد نهجـه العلمـي علـى إعـادةِ بنـاءِ كل جانـبٍ مـن جوانـبِ الحيـاة (العضويـة وغيـر العضويـة) مـن الحجـارة إلـى البشـر فـي الماضـي التوراتـي الآتـي مـن الحاضـر – أو بصـورةٍ أكثـر تحديـدًا خـلال حيـاة المسـيح. وفـي ضـوء ذلـك، علينـا أنْ نـرى أيضًـا هوسـه فـي استكشـافه للَّهجـات الفلسـطينية المختلفـة. حيـث قـام بضفْرِهـا معًـا بعنايـة ضمـن أوصـاف سـياقات العمـل والحيـاة المختلفـة للسـكان الذيـن راقبهـم. إضافـةً إلـى المفـردات الفلسـطينية، فإنـه يضيـفُ دائمًـا مفـرداتٍ عبريـة وآراميـة ذات صلـة، ويضيـفُ أحيانًـا مفـرداتٍ يونانيـة حتـى. وهكـذا، رأى ماضـيَ الأرضِ، التـي اختارهـا اللـهُ لتكـون مقدسـةً، بـل وانعكـس ذلـك أيضًـا فـي لغـة النـاس، حيـث شـاهدَ النـاسَ وعايـنَ ثقافتهـم المتجـذرة فـي أرضٍ ذاتِ تقاليـد مقدسـة مختلفـة ورِثـتْ تقاليـدَ بعضِهـا بعضًـا عبـر الزمـن. بالنسـبة لـه، يبـدو أنَّ الماضـي والحاضـر يذوبـان معًـا أمامـه. إنـه يلمـس ويـدركُ الآثـارَ الإلهيـة للمسـيح التـي يتـردد صداهـا فـي تضاريـس البـلاد والنـاس. لا يعـرفُ تاريـخُ الخَـلاصِ؛ الـذي يتخلـلُ ويغمـرُ كلَّ شـبرٍ فـي البـلاد، الماضـيَ أو الحاضـرَ. لا بـدَّ أنَّ دالمـان قـد رأى موضـوع بحثـه عبـر موشـور وعـيٍ لـ «زمـنٍ دوريٍّ». وكخلفيـة لهـذا الأمـر، يصبـحُ مـا يبـدو غريبًـا للوهلـة الأولـى مفهومًـا: دراسـة مـا هـو مُعاصِـرٌ كعدسـةٍ يمكـن مـن خلالهـا دراسـة الماضـي. وعلـى النقيـضِ مـن كتابـة التاريـخ الإسـرائيلي الأوروبـي فـي وقـتٍ لاحـق، فلـم يُمْـحَ السـكانُ مـن الزمـان أو المـكان، بـل اعتُبِـروا جـزءًا أساسـيًّا منهمـا، أساسـيًّا وضروريًّـا جـدًّا لدرجـة أنهـم كانـوا بمثابـة مصـدرٍ علمـيٍّ للبحـث فـي العصـور التوراتيـة.

ولكـن، كيـف ينظـرُ دالمـان إلـى التصـور الـذي يحملـه ضبـاط سـلاح الجـو ممـن توهَّمـوا أنْ يكونـوا جـزءًا مـن الشـرق كحـرَّاس/ أوصيـاء وخُلفـاء لـه؟ إنـه اسـتيلاءٌ أخلاقـيٌّ، أو فكـريٌّ علـى الأرض، فـي واقـع الأمـر، مـن أجـل خلاصهـم الفـردي والجماعـي، سـواء أكان ذلـك علـى شـكل تصوراتٍ لجيـشٍ شـعبيٍّ فعـال يسـيرُ علـى خطـى الملـوك والأبطـال الشـرقيين، الأسـطوريين، القدمـاء لهوياتهـم وبنـى أجسـادهم الشُّـجاعة، أم علـى شـكلِ حلـمِ التبشـيرِ فـي الأرض المقدسـة. ومـع ذلـك، تظهـرُ فلسـطين علـى أنهـا مجـردُ جـزءٍ مـن الشـرقِ as a whole in the former، فـي حيـن أنهـا لعبـتْ دورًا حاسـمًا فـي الثانـي. يَعكـسُ الاختـلافُ فـي أهميـة فلسـطين ككيـانٍ بحـدّ ذاتـه فـي مصـادر أرشـيف الحـرب، مـن جهـة، وفـي مصـادر صـور وكتابـات دالمـان، مـن جهـة ثانيـة، الإطـارَ المتغيـر لظـروف نشـأتها. جـاءتْ مهـامُّ سـلاح الجـو البافـاري فـي سـياق الطموحـات المتنافسـة للهيمنـة علـى الشـرق الأوسـط بيـن القـوى الأوروبيـة العظمـى فـي سـياق الحـرب العالميـة الأولـى، فـي حيـن أنَّ أعمـالَ دالمـان، بصـورة عامـة، واختيـاره لصـور القـوات الجويـة البافاريـة علـى وجـه الخصـوص، يجـب أن يُنظَـرَ إليـه بنـاءً علـى خلفيـة المصالـح الاسـتعمارية للإمبراطوريـة الألمانيـة فـي الشـرق الأدنـى. ومـع أنَّ الإمبراطوريـة الألمانيـة كانـت فـي المقـام الأول مهتمـة بالتضامـن السياسـي مـع الإمبراطوريـة العثمانيـة، إلّا أنهـا كانـت حريصـةً علـى تكثيـفِ نفوذِهـا فيمـا يتعلـقُ بالقضايـا الاقتصاديـة والعسـكرية، لأسـباب ليـس أقلهـا الاسـتفادة مـن صناعـة الأسـلحة الألمانيـة. يُعَـدُّ الاختـراقُ السـلميُّ «Pénétration pacifique» مزيجًـا مـن السياسـات بيـن التضامـن وتعظيـم المصالـح.[26]

وهكـذا، ربطـتْ الرؤيـة الذاتيـة للإمبراطوريـة بيـن التجـذرِ فـي مُثُـلِ العصـر الهلنسـتي – المتجسـدة فـي المُثُـلِ العسـكرية البطوليـة لأعضـاء القـوات الجويـة الألمانيـة – وإعـادةِ بنـاءِ فلسـطين التوراتيـة. وتطـوَّرَ كلا التصوُّريـن ضمـن مهمـة نشـر الحضـارة فـي سـياق المصالـح الاسـتعمارية الألمانيـة فـي الشـرق. نقـل التعليـمُ العالـي الألمانـي فـي القـرن التاسـع عشـر التطابـق مـع إرث الحضـارة اليونانيـة؛ الـذي شـكَّلَ بـدوره جـزءًا حيويًّـا مـن هويـة الحداثـة فـي السـياق الألمانـي. مـرَّ جميـعُ الألمـان الحاصلـون علـى درجـة تعليميـة عليـا بالمناهـج الدراسـية نفسـها، وبهـذا فإنهـم اسـتوعبوا «الهويـة الهلنسـتية البديلـة،» التـي سـمحتْ «للنرجسـية الإمبراطوريـة» برؤيـة غـرب الأناضـول، وآسـيا الصغـرى، وبـلاد الشـام، وبـلاد الرافديـن، علـى أنهـا امتـدادٌ للـذات الألمانيـة المهيمنـة.[27] سـعتْ الإيديولوجيـة ذاتهـا إلـى تحويـل العالَـم، والمجتمـع، والعمـل إلـى عالَـمٍ متقـدمٍ تقنيًّـا وذي كفـاءة متزايـدة.

سـارتْ المهمـةُ العلمانيـة الألمانيـة، التـي كانـت تهـدف إلـى فـرضِ نظـام القيـم الأوروبيـة العابـرة للحـدود فـي القـرن التاسـع عشـر والمعـروف باسـم الحداثـة، جنبًـا إلـى جنـب مـع تطلعاتهـا لتبشـير الشـرق؛ أي رسـالتها الدينيـة، التـي نراهـا فـي تطلعـات الوسـط الاجتماعـي لدالمـان. وفـي خبايـا السـطح العلمانـي للحداثـة الغربيـة، فسَّـرتْ القـوى الأوروبيـة العظمـى الحداثـةَ علـى خلفيـة تاريـخ الخـلاص التوراتـي بوصفهـا «نهايـة الأزمنـة»؛ أي أنهـا حقبـة مـن التبشـير العالمـي و/أو إعـادة البنـاء اليهـودي الوطنـي كمقدمـةٍ لــ «مملكـة اللـه علـى الأرض». وفـي هـذا الصـدد، كان يُنظَـر إلـى فلسـطين بوصفهـا مكانًـا لتاريـخ الخـلاص، بالإضافـة إلـى أنهـا منطقـة قـوة وتأثيـر ثقافـي وسياسـي. هـذا هـو السـبب فـي أنَّ نمـوذج التقدميـة لا يتعـارضُ مـع التطلـع نحـو الماضـي التوراتـي. كان مـن المتوقـع أنْ ينفتـح الشـرقيون الراكـدون علـى التفـوق الأوروبـي فـي هـذا الصـدد، كمـا رأينـا سـابقًا فـي إرشـادات التواصـل للضبـاط الألمـان حـول كيفيـة التحـدث إلـى الشـرقيين مـن أجـل زيـادة كفاءتهـم فـي العمـل. بـدا التاريـخُ الإسـلامي للمنطقـة، والديموغرافيـا ذات الغالبيـة المسـلمة، للكثيريـن منهـم كعقبـة أمـام «التقـدم» الحضـاري أو ذاك المرتبـط بالخـلاص. ويقطـعُ دالمـان مـن خـلال التعـرف علـى الحضـارة الآراميـة للمسـيح وعائلتـه فـي الثقافـة المتزامنـة مـع السـكان الفلسـطينيين، وعَبْـر رسـم أوجـه التشـابه بيـن السـكان الأصلييـن المسـلمين والمسـيحيين المعاصريـن وأسـلافهم مـن الآرامييـن والعبرانييـن فـي العصـور القديمـة، بـكل تأكيـد العديـدَ مـن المقدمـات الكامنـة خلـف أيديولوجيـة إعـادة اليهـود، التـي سـاوتْ يهـود أوروبـا الحديثـة مـع العبرانييـن القدمـاء فـي الفتـرة الهادئـة التـي سـبقت الحـرب العالميـة الأولـى. ومـع ذلـك، فمـن خـلال إسـقاط الماضـي التوراتـي عليهـم، فإنـه يمحـو وجودهـم الإنسـاني، أيضًـا.

سـارة البلبيسـي؛ باحثـة مشـاركة فـي معهـد الشـرق فـي بيـروت. حصلـت علـى درجـة الدكتـوراه مـن جامعـة لودفيـغ ماكسـيميليان فـي ميونـخ، حيـث عملـتْ باحثـة مسـاعدة ومنسـقة لمشـروع حـوار التعليـم العالـي (*DAAD*) «العنـف، والهجـرة القسـرية، والنفـي،» بيـن الجامعـات الفلسـطينية واللبنانيـة.

الهوامش:

1 جوستاف دالمان Gustav Dalman, Hundert deutsche Fliegerbilder aus Palästina (Gütersloh: 1928), 3.

2 منشورة، كل شيء يتمحور حول العدو "Everything Revolves Around the Enemy," leaflet, BayHStA, Abt. IV Kriegsarchiv, Kraftfahr- und Fliegertruppen (WK), 2089, 1917–18 .

3 ندى أطرش، رسم خرائط فلسطين، التصوير الجوي لقوات الجو البافارية في الحرب العالمية الأولى، فصلية القدس 56، 2014: 98.

4 جيرد شولز Gerd M. Schulz "Der Einsatz und die Erfolge der Fliegerabteilung 304 in Palästina" in Blätter zur Geschichte der Deutschen Luft- und Raumfahrt 19 (2013): 92, online at (dglr.de) bit.ly/30LrLmR (accessed 23 May 2020).

5 BayHStA, Abt. IV Kriegsarchiv, Kraftfahr- und Fliegertruppen (WK), 2087, 1917.

6 أرشيف الدولة البافاري، قصم 4، أرشيف الحرب، ميونيخ.

7 ريتشارد أورينجر Richard Euringer Vortrupp Pascha [Vanguard Pasha] (Hamburg: Hanseatische Verlagsanstalt, 1937).

8 BayHStA, Abt. IV Kriegsarchiv, HS 2557, 1919–20.

9 BayHStA, Abt. IV Kriegsarchiv, Kraftfahr- und Fliegertruppen (WK), 2090, 1918.

10 سيوزان زانتوب، التخيلات الاستعمارية (لندن، جامعة دوك) Susanne Zantop, Colonial Fantasies:Conquest, Family, and Nation in Precolonial Germany, 1770–1870 (Durham/London: Duke University Press, 1997). See also Malte Fuhrmann, Der Traum vom deutschen Orient: Zwei deutsche Kolonien im Osmanischen Reich 1851–1918 [The Dream of the German Orient: Two German Colonies in the Ottoman Empire, 1851–1918] (Frankfurt/New York: Campus Verlag, 2006), 21.

11 BayHStA, Abt. IV Kriegsarchiv, Kraftfahr- und Fliegertruppen (WK), 2086, 1918.

12 خالد فوراني ودان روبينوفيتز، الوصول الاثنوغرافي لفلسطين (2011): Khaled Furani and Dan Rabinowitz, "The Ethnographic Arriving of Palestine," Annual Review of Anthropology 40 (2011): 475–91.

13 ماركوس كيرشوف Markus Kirchhoff, Text zu Land: Palästina im wissenschaftlichen Diskurs 1865–1920. (Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht, 2005).

14 جوستاف دالمان Gustav Dalman, Hundert deutsche Fliegerbilder aus Palästina (Gütersloh: 1928), 3.

15 دالمان، هاندلر، Dalman, Hundert deutsche Fliegerbilder, 5.

16 هيرب سوانسون، استشراقية سعيد ودراسة البعثات المسيحية (تموز 2004) Herb Swanson, "Said's Orientalism and the Study of Christian Missions," International Bulletin of Missionary Research 28, no. 3 (July 2004): 108, online at (internationalbulletin.org) bit.ly/2C5uPju (accessed 19 May 2020)).

17 ماركوس كيرشوف Markus Kirchhoff, Text zu Land: Palästina im wissenschaftlichen Diskurs 1865–1920 (Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht, 2005), 173.

18 كيرشوف Kirchhoff, Text zu Land, 168.

19 كيرشوف Kirchhoff, Text zu Land, 152.

20 كيرشوف Kirchhoff, Text zu Land, 168, 172.

21 خوليا مانشين Julia Männchen, Gustav Dalman als Paläs-tinawissenschaftler in Jerusalem und Greifs-wald 1902–41 (Wiesbaden: Harrassowitz, 1993), 36. Also Julia Männchen, Gustaf Dalmans Leben und Wirken in der Brüderge-meine, für die Judenmission und an der Uni-versität Leipzig 1855–1902 (Wiesbaden: Har-rassowitz, 1987).

22 مانشين، جوستاف دالمان، Männchen, Gustav Dalman als Palästinawis-senschaftler, 37.

23 مانشين، جوستاف دالمان، Männchen, Gustav Dalman als Palästinawis-senschaftler, 39–41.

24 مانشين، جوستاف دالمان، Männchen, Gustav Dalman als Palästinawis-senschaftler, 206.

25 Männchen, Gustav Dalman als Palästinawis-senschaftler, 208.

26 مالتي فيرمان Malte Fuhrmann, Der Traum vom deutschen Orient: Zwei deutsche Kolonien im Osmanischen Reich 1851–1918 (Frankfurt/New York: Campus Verlag, 2006), 156.

27 فيرمان Fuhrmann, Der Traum vom deutschen Orient, 87.

رؤى فلسطينيّة

تصوّرات بريطانيّة للأرض المقدّسة

مايكل تالبوت, آن كالدويل,
كلوي إيموت

ملخص

يدرس هذا المقال تصويرات فلسطين مِن أعلى، بأشكالها المختلفة، بما فيها الخرائط والصور والرسومات المأخوذة من ارتفاعات عالية، والصور الجوية. فسوف ندرس عَبْر تتبع تمثيلات فلسطين من منتصف القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين كيف أعاد تشكيل فرض المشهد التوراتي المدعوم بمسوحات الخرائط الحديثة، وآخر البعثات التوراتية، الأرض المقدسة في المخيّلة البريطانية. إضافة لذلك، طمَسَ فَرْض الماضي القديم إلى حدّ كبير المشهد الحديث، وأجبره على التوافق مع صور محددة لفلسطين كما كانت في الماضي، وكما يجب أن تكون مرّة أخرى. فالنظر إلى مجموعة من الوسائط، يتيح لنا تمييز الكثير من الصور والاستعارات المنتشرة ومشهد الصور الجوية الذي تم تحويره ليتوافق مع الرؤية التوراتية التي نشأت من مسوحات الخرائط، حيث أنشأ تحديد الهوية الذاتية التوراتية البريطانية، الذي تماشي يداً بيد في كثير من الأحيان مع توطين اليهود في فلسطين وزيادة المصالح الاستعمارية وانخراط الإمبراطورية البريطانية في المنطقة، نوعاً من الإيمان الإمبريالي بالآخرة، غذته ودعمته هذه التصويرات التي طمست الحدود ما بين الماضي والحاضر والمستقبل في الأرض المقدسة.

الكلمات الرئيسية

بريطانيا، الخيالات التوراتية، صندوق استكشاف فلسطين، علم الآثار، الخرائط، اللوحات، الصور الفوتوغرافية

مقدمة

عيّنت الحكومة البريطانية، في صيف 1838، لأول مرة نائب قنصل مقيم في مدينة القدس.[1] سعت بريطانيا مستفيدة من النظام السياسي الجديد الذي نشأ في المنطقة بعد احتلال حاكم مصر، محمد علي

باشا، لسوريا وفلسطين، لتوسيع نفوذها السياسي والاقتصادي في بلاد الشام.[2] وقع الاختيار على ويليام تانر يونغ، تلميذ إيرل شافتسبوري، الداعم المتحمس «للحركة الإصلاحية المسيحية في بريطانيا»، والتي تقوم على أن عودة المسيح يمكن أن تتحقق فقط عند عودة يهود العالم إلى الأراضي المقدسة بحماية بريطانية. وقبل أن يغادر إلى فلسطين، كتب يونغ لوزير الخارجية، الفيكونت بالميرستون، يقترح أن يأخذ جولة في مكان عمله الجديد، ظاهرياً بهدف إعداد تقرير للندن حول إمكانيات التجارة هناك وطبيعة مسؤولياته.[3] وأرفق برسالته ما سماه «أحدث خريطة للمنطقة».[4] تتضمن هذه الخريطة (الشكل 1)، والتي نشرها في كانون الثاني 1836 رسام الخرائط المعروف ر. هـ. لاوري، الطريق الذي سيسلكه يونغ في البلاد مرسوماً بخطّ يده؛ يتضمن يافا والقدس وضواحيها والمراكز الشمالية كطبريا وصفد، وركز بشكل كبير على فهم يهود المنطقة من أجل توفير الحماية البريطانية لهم لأسباب تجارية وأسباب تتعلق بعلم الآخرة. ولكن هذه الخريطة لم تكن



الشكل 1: خريطة فلسطين والأرض المقدسة (1836) مع ملاحظات ويليام تانر يونغ (1838) (TNA، FO78/340)

خريطة فلسطين العثمانية، بل خريطة لمشهد توراتي مُتخيّل، وبالتالي فهي لم تكن دقيقة جغرافيا، فتقسيم المحافظات لم يكن بحسب الولايات والألوية أو المتصرفيات العثمانية، بل بحسب المناطق المفترضة لأسباط إسرائيل الاثني عشر. ولقد بينت الخريطتان المرفقتان تيه بني إسرائيل من مصر إلى بلاد كنعان، «ومخططاً للقدس وضواحيها»، يُظهر المدينة في زمن الهيكل اليهودي بدلاً مما كانت عليه سنة 1838.

توفر خريطة يونغ مدخلاً مهماً لفهم الطريقة التي تخيل فيها البريطانيون فلسطين من السماء في القرن التالي، حيث تقاطع الاهتمام السياسي والتجاري الحقيقي بأرض فلسطين المعاصرة دائماً مع الرغبة في إعادة تشكيل فلسطين لتعود كما كانت في ماض إنجيلي قديم لا يزال حياً. ستتبع هذه الورقة العلاقة ما بين بريطانيا وفلسطين من طريقة تصوير المشهد الفلسطيني وتمثيله من الأعلى، من خلال الخرائط تحديداً، وأيضاً من خلال الأعمال الفنية والصور المأخوذة من مرتفعات عالية. فالصور ثنائية الأبعاد هي أكثر من مجرد رسومات، حيث إنها قامت بتشكيل وإضافة مستويات جديدة للفهم البريطاني لفلسطين

كمكان يمكن فيه للأفكار والمُثل أن تتحول إلى واقع. تساعدنا دراسة الخرائط والصور الأخرى لفلسطين من أعلى على فهم العلاقة ما بين الواقع والمثالية في التصويرات البريطانية لفلسطين. وستظهر هذه التوترات واضحة في حال طبّقنا الإطار الذي طوره هنري ليفيبفري في مقالته المؤثرة «إنتاج المكان»، وهو نص مهم حول «التحول المكاني» في مجال التاريخ.[5] حيث تناول فكرة «المكان» من ثلاثة جوانب، وقسّمها إلى «الممارسة المكانية» والتي تشكل فيها الممارسات والروتين اليومي مكاناً معيناً، «وتمثيلات المكان» حيث تبتكر الأماكن وتتحدد مفاهيمها من خلال الخرائط والنماذج و«الأماكن التمثيلية» التي يتم فيها تخيّل الأماكن ووضع النظريات حولها.[6] وفي حالة بريطانيا وفلسطين، شكّل الفهم الديني والتاريخي للأرض المقدسة (المكان التمثيلي) الطريقة التي تم فيها تصوير فلسطين (تمثيلات المكان)، ولكنها نادراً ما عكست فلسطين العثمانية كأرياف ومدن حية وفاعلة (ممارستها المكانية). أوجدت الصور التي أنتجها البريطانيون وأعادوا إنتاجها لفلسطين في القرنين التاسع عشر والعشرين مجموعة محددة من الأماكن التي حاولت تغيير ومصادرة فلسطين في صورة بريطانيا نفسها، وتغيير الصور والتسميات والمفاهيم من مجرد أفكار وتمثيلات على صفحات الخرائط لأدوات تؤثر على الهيكليات السياسية والمادية في فلسطين نفسها.

مناظر من البحار والجبال والسماء

كان وصول يونغ إلى مكان عمله في القدس في نهاية سنة 1838 بداية النشاط البريطاني المكثف في فلسطين، والذي مثّل فيه رسم الخرائط جزءاً أساسياً من فهم جغرافية المنطقة وتشكّلها.[7] نشأ هذا جزئياً عن انخراط بريطانيا بشكل مباشر عسكرياً في المنطقة مع نشوء الأزمة الشرقية سنة 1840، حيث نفذت بريطانيا عملية بحرية ضد قوات محمد علي على السواحل الفلسطينية والسورية. رافق رسّامو الخرائط بعثة البحرية الملكية في شرق المتوسط، وحاول هؤلاء تصوير السواحل الفلسطينية وأجزاء من الداخل الفلسطيني بدقة في سلسلة من المسوحات التي أُرسلت إلى لندن سنة 1840 و1841، معتمدين على ملاحظات سابقة سُجلت في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.[8] رُسمت بعض هذه الخرائط لتبين الدمار الذي ألحقه القصف البريطاني بالحصون الساحلية كعكا، وقامت بذلك من زاويتين؛ زاوية عين الطائر من الأعلى ومن زاوية سفينة مطلة على الساحل.[9] بينما هدفت مسوحات أخرى لتوفير خرائط عسكرية عملية تُعطي معلومات مفصّلة حول عدد من الخصائص، مثل تصوير لغزة سنة 1841، لم يُظهر فقط معسكرات الجيش، وإنما أظهر أيضاً الطرق والمباني الدينية والآبار والبساتين.[10] ولقد أنتجت رحلة الاستكشاف العسكرية في فلسطين الكثير من منتجات الخرائط التي كانت تهدف لمسح المنطقة لأغراض أبعد من الأغراض العسكرية فقط، بما فيها الخرائط المجسمة التي أعدها فريدريك هولت روب وحسابات التثليث التي أعدها ج. ف. أ سايمودز.[11] ومن ثم امتزج التركيز الجديد على الدقة مع الاستعارات التوراتية الموجودة، ما شجع على استخدام الخرائط الحديثة لتوضح الماضي والمستقبل المحتمل للأرض المقدسة.

وتُعد خرائط القدس، التي طالما سحرت رسامي الخرائط البريطانيين، مثالاً مهماً على الطريقة التي تحولت فيها خرائط فلسطين بفعل المسوحات العلمية الجديدة، خصوصاً مع خريطة ويليام آلدريتش للمدينة، التي رُسمت بعد الأزمة الشرقية، وبينت المخطط الحديث للمدينة، وشبكة الطرق، ولكنها استخدمت مسميات دينية بطبيعتها.[12] ونجد بين المواقع التوراتية «المبنى الجديد للكنيسة البروتستانتية» مقابل المعسكر العثماني بجوار القنصلية البريطانية، وهي قطعة أرض خُصصت لبناء كنيسة بروتستانتية جديدة في المدينة المقدسة. أظهرت إضافة المعالم البريطانية لخريطة مدينة القدس الطموحات الثقافية والسياسية للملكة المتحدة في الأرض المقدسة. وفي 1845، أرسل القنصل يونغ خريطة أخرى مع ملاحظاته إلى لندن، وكانت هذه الخريطة في هذه المرّة بمثابة نسخته الشخصية من خريطة المهندس فريدريك كاثروود للقدس، وهي واحدة من أوائل الخرائط المسحية للمدينة (الشكل 2)،[13] وتميزت إضافة لكونها خريطة مفصّلة ودقيقة للقدس، بالصورة البانورامية التي أخذها كاثروود من زاوية مرتفعة من موقع «منزل بيلاتيه» المتميز،

الـذي أصبـح فيمـا بعـد مسـكن الحاكـم التركـي».[14] أظهـرت هـذه الخريطـة تفاصيـل المدينـة الحديثـة ممزوجـة بالمواقـع التوراتيـة، وعلـى نسـخته، سـجل يونـغ بحمـاس الموقـع الحقيقـي لبركـة سـيحون، وأضـاف بقلـم رصـاص مواقـع المقابـر اليونانيـة والأمريكيـة والبريطانيـة إلـى قائمـة المواقـع المسـيحية المهمـة علـى الخريطـة.

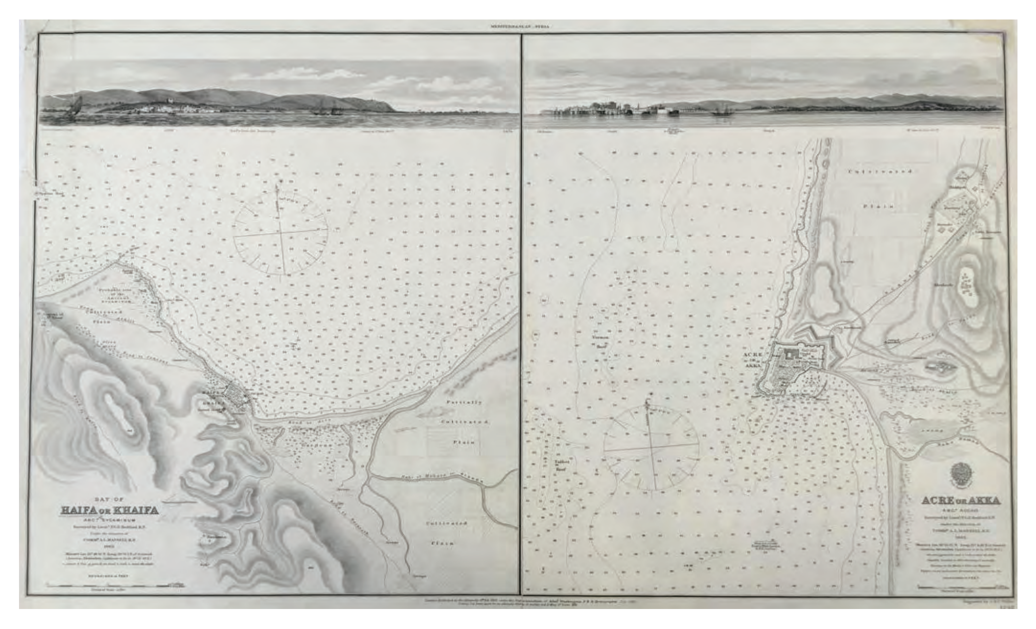


الشكل 2: «مخطط القدس بحسب ف. كاثيروود» (1835) مع ملاحظات تانير يونغ (1845) (TNA، FO78/626)

وكانـت المصالـح الدينيـة أحـد أهـم الدوافـع للتواجـد السياسـي والعسـكري والفكـري المتزايـد فـي فلسـطين ابتـداء مـن 1830. ولقـد أتاحـت المعـارف الجديـدة التـي تولـدت عـن المسـوحات العسـكرية والبحريـة المختلفـة تطويـر تصويـرات أكثـر تفصيـلاً وقـدرة علـى الإقنـاع للمواقـع والقصـص التوراتيـة، ووضعهـا الحالـي، وعرضهـا علـى الجمهـور المحلـي. وفّـر رسـامو الخرائـط والفنانـون منظـوراً جديـداً وشـاملاً لـلأرض المقدسـة مـن عـدد مـن المواقـع المميـزة، أتـاح تجميعهـا مـع بعضهـا البعـض تركيـب صـورة معينـة لفلسـطين. وتنقسـم هـذه التصويـرات إلـى ثـلاث

فئات: خرائط مرفقة برسومات مجسمة رسمت من السفن؛ الرسوم التوضيحية من زاوية عالية والتي كانت ترفق بالخرائط في العديد من الأحيان؛ والخرائط التاريخية التي كانت تتضمن بعض المرفقات أحياناً.

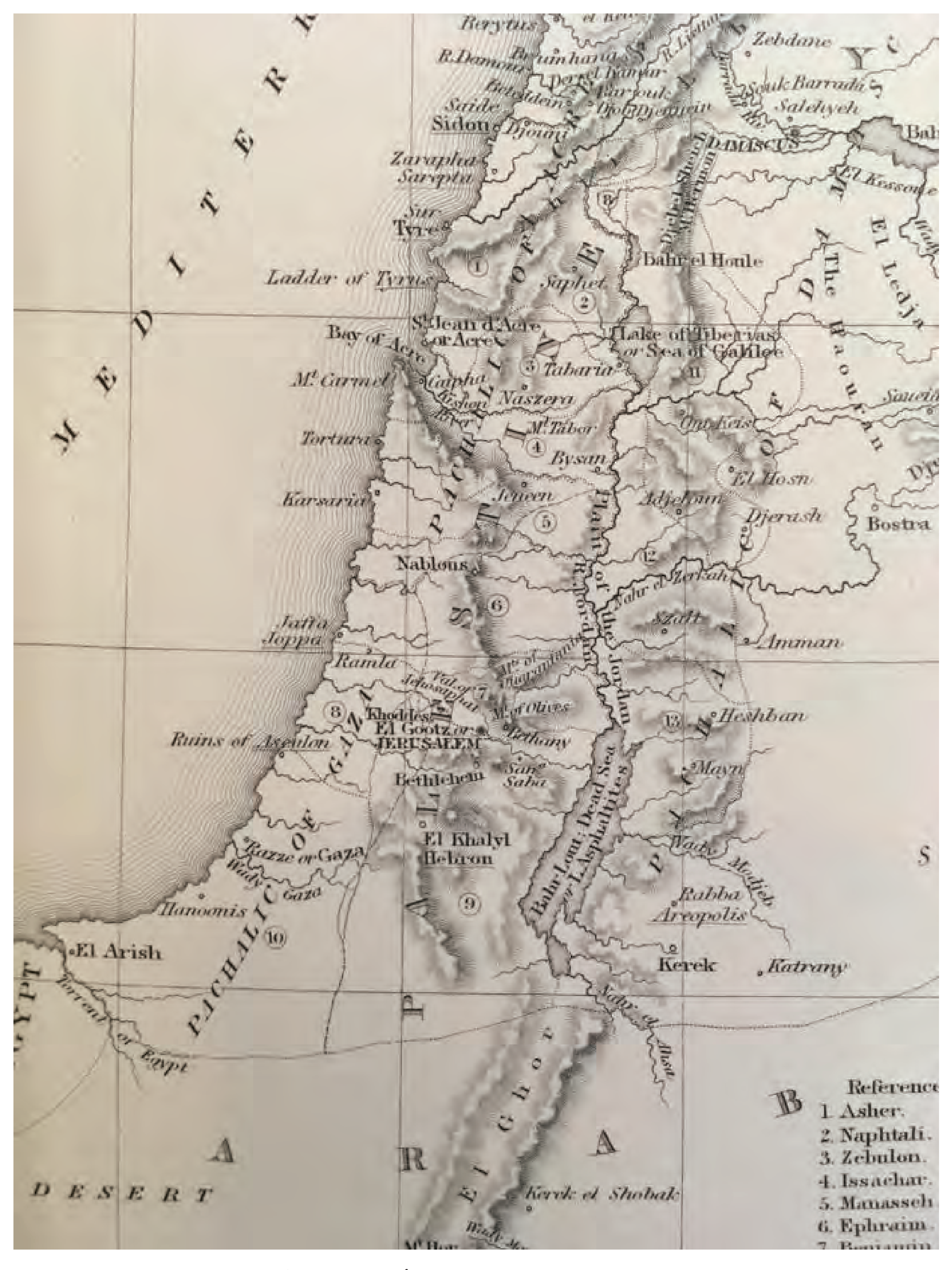
ونظراً للطبيعة البحرية للعديد من بعثات رسم الخرائط العسكرية في القرن التاسع عشر، كانت الخرائط الملاحية والصور البانورامية المأخوذة من البحر طرقاً فعالة وشائعة لتكوين صورة بصرية لفلسطين من الأعلى وبالأبعاد الثلاثة. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك رسم لخليج حيفا رسَمه ملازم البحرية الملكية ف.ج.د. بيدفورد سنة 1862، تضمن مسوحات مفصّلة للسواحل بمياهها وبرّها، ومخططات مدن حيفا وعكا (الشكل 3).[15] تركز هذه الخريطة بشكل خاص على المناظر المعاصرة، وتبين المرتفعات والطرقات والبساتين والمزارع، إضافة لمخططات دقيقة للمدينتين ومعالمهما القديمة والحديثة. رافق الخريطة رسمان جميلان لحيفا وعكا كما تبدوان من السفينة، مع رسوم توضيحية للمدينة والأرياف المحيطة بها، ما مكّن المتفرج من الجمع ما بين المنظرين لفهم مادية الأرض بشكل أفضل مما يتيحه تسطيح الخرائط البحرية. بدأت هذه التصويرات العسكرية بإنتاج كم من المعارف عن فلسطين شكلت فيما بعد قالباً علمياً محدداً رُكِّبت عليه أفكار وخيالات نصوص الكتاب المقدس والتاريخ وعلم الآثار.



الشكل 3: «حوض البحر الأبيض المتوسط – سوريا: خليج حيفا/ عكا» ((BL Maps SEC.5 (1242)) (1863).

ولكن قدرة هذه الخرائط على إشباع الخيال ظلّت محدودة، وأدت محاولات إضافة التفاصيل لخرائط فلسطين إلى نصوص مصورة رائعة، أهمها «الكتاب المصور لسوريا والأراضي المقدسة وآسيا الصغرى»، الصادر في ثلاثة أجزاء وصف فيها جون كارني بالتفصيل 120 رسماً توضيحياً لحوض البحر الأبيض العثماني، مع التركيز بشكل خاص على سوريا وفلسطين.[16] يتضمن الجزء الثالث خريطة للمنطقة التي يغطيها الكتاب، وتظهر فيها فلسطين بشكلها القديم، حيث يبدو الخط الساحلي بعكس المسوحات البحرية الحديثة التي كانت تبين ساحلاً أقل تعرجاً – وتبين الخريطة كذلك مواقع أسباط إسرائيل الاثني عشر، مع خريطة مرفقة للقدس تبدو فيها وكأنها رُسمت بناء على تخيلات كاثروود.[17] يجمع الكتاب ما بين هذه الإشارة ونصوص وتوضيحات تنقل القارئ إلى المنطقة الموصوفة. رُسمت العديد من هذه الصور من مرتفعات عالية، وأهمها رسم «سهل الأردن وإطلالة على البحر الميت».[18] وبما أن هذا المصدر هو مصدر متعدد

الوسـائط فيجـب اسـتيعاب الخرائـط (الشـكل 4) والرسـومات (الشـكل 5) والنصـوص (وفيمـا يلـي اقتبـاس منهـا) مـع بعضهـا البعـض:



الشكل 4: تفاصيل خريطة فلسطين الموجودة في «الكتاب المصور لسوريا والأراضي المقدسة وآسيا الصغرى» (1840)



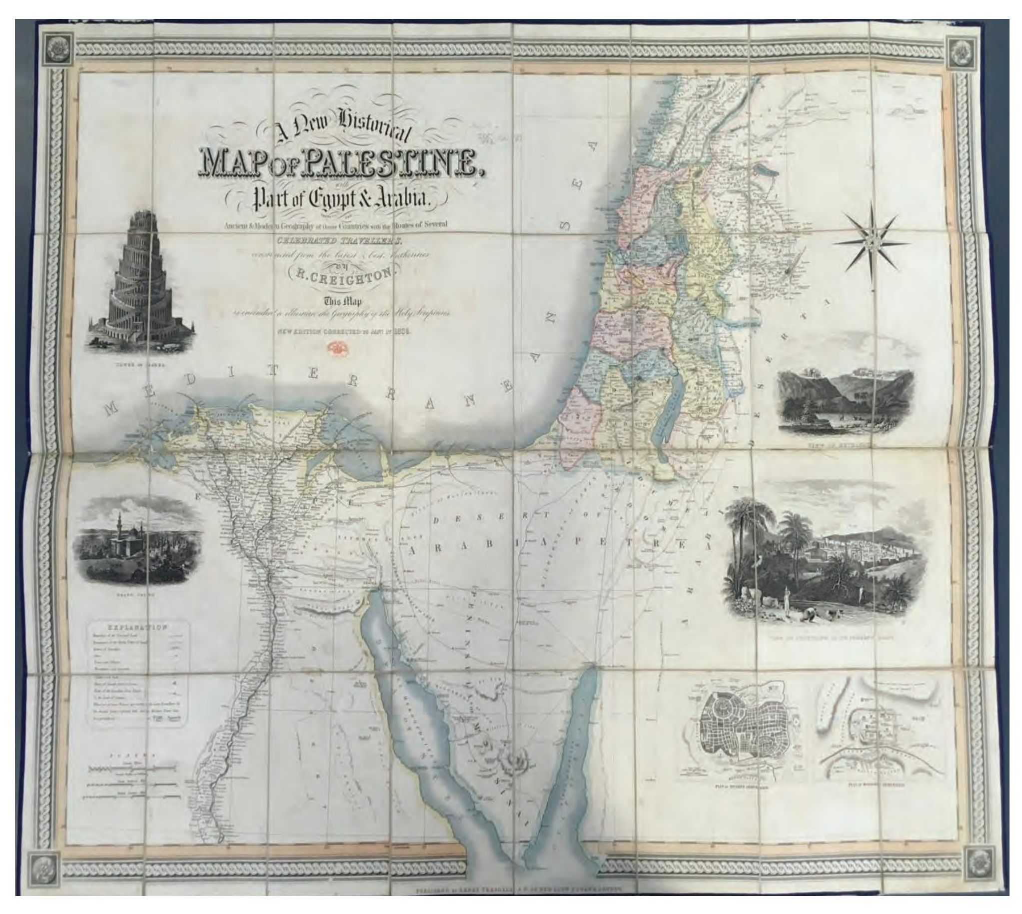
الشكل 5: تفاصيل «سهل الأردن وإطلالة على البحر الميت» في «الكتاب المصور لسوريا والأراضي المقدسة وآسيا الصغرى» (1840)

> يبدو سطح السهل لأميال عدة قبل الوصول للبحر الميت قاحلاً وجافاً، لا تتخلله شجيرة ولا زهرة ولا ورقة عشب. أما في المناطق الأعلى ارتفاعاً، تَسرّ الخضرة التي تحيط بالنهر والتي تعج بالشجر والزهور البرية والشجيرات عين الناظر؛ وتروقه ظلالها ورائحتها بجانب مجرى المياه الأزلي. ويبدو أن هذا الوصف ينطبق على المنطقة في الصيف، عندما ينحسر مجرى نهر الأردن، وتصبح مياهه ضحلة وثابتة. أما في الشتاء، يرتفع منسوب المياه وتزيد سرعتها، لتصل تقريباً إلى مستوى ضفة النهر. وينزل البدو من الجبال إلى المراعي على ضفتي النهر؛ وينصبون خيامهم في مجموعات أو متفرقة في أرجاء السهل، ليعكروا عزلتها فترة من الوقت: وعندما يشعلون نيرانهم، يجتمعون حولها على العشاء، يتبادلون أطراف الحديث ويلوحون بأيديهم، ومن ثم يسجدون في الهواء الطلق أمام باب الخيمة يذكرون رسول الله، حيث صب بنو إسرائيل يوماً عذاباتهم هناك أمام الرب. ومن ثم تهدأ أصواتهم الخافتة التي تسمع في السكون من بعيد، ليخيم الصمت مرة أخرى على السهل. يحمل كل عربي حربة طويلة وبندقية آلية، فليس آمنا أن تسافر في هذا السهل دون حارس؛ فلم يعبر مسافر واحد هذا السهل من أريحا إلى بحيرة طبريا، مع أن الرحلة تستحق العناء والمخاطرة.[19]

تستحضر الخريطة والصور المرسومة من المرتفعات والنص، الحواس، وتحوِّل المشاهد لمشارك، وتنقله إلى الأراضي المقدسة ليختبر مشاهدها الأزلية، وأصداءها التوراتية وبريتها ومخاطرها المعاصرة. وحملت مشاهد مشابهة، رُسمت كذلك من المرتفعات، لعكا ويافا وجبل الكرمل وخليج حيفا والحياة البرية في الريف وبحيرة طبريا والقدس، نفس فكرة إظهار فلسطين كما كانت في أواخر الثلاثينيات من القرن

التاسع عشر، لكن مع تسليط الضوء على استمرارية مشهد الماضي التوراتي.[20] وشكّلت نصوص كارني المصورة نموذجاً لرحلات التصوير والتصوير ثلاثي الأبعاد اللاحقة في الأراضي المقدسة في محتواها ونبرتها التجريبية، وأتاحت للقراء رؤية فلسطين من زوايا مختلفة، وتجميل تصويرات الخرائط بمناظر مأخوذة من زوايا مرتفعة أوجدت من ناحية فهماً وارتباطاً جديداً بالسرديات التوراتية التاريخية، وشكّلت من ناحية أخرى وجسدت فهماً لفلسطين من منظور توراتي معاصر كأرض مهملة غنية بالثروات تنتظر السكان المناسبين والقادرين على إحياء جمالها مرّة أخرى. تَظهر العلاقة ما بين المناظر الجوية والمناظر المأخوذة من المرتفعات للأراضي المقدسة بحسب النصوص الإنجيلية والمحاولات البريطانية لتشكيل تدفق الزمن المعاصر واضحة بشكل خاص في هذه المنتجات، متيحة للمشاهدين مَلء المكان بأفكارهم وصورهم الخاصة.

ارتبطت العلاقة ما بين الجانب الزمني لتصويرات فلسطين من الأعلى بشكل متزايد برغبة في السيطرة على هذا المكان من خلال رسم خرائط أكثر دقة. توفر عدد من مصادر رسم الخرائط في الأرشيفات البريطانية سرديات تاريخية، لها أحياناً خطوط زمنية متعددة، ليس فقط من أجل تمثيل فلسطين من أعلى ببساطة، ولكن لاستخدام مثل هذه التمثيلات في توصيل سرد ديني وسياسي، وبعضها تصويرات تعليمية بسيطة للجغرافيا التوراتية، مثل خريطة فرانسيس وود لفلسطين، والتي تتضمن المدن



الشكل 6: «خريطة تاريخية جديدة لفلسطين» (1383) (خرائط المكتبة البريطانية a.1.16)

التوراتيـة والمعالـم الأخـرى، والتـي اسـتخدمت فـي مـدارس يـوم الأحـد، أو مخطـط تصويـري ليثوغرافـي يبيـن المناطـق التـي كان يعيـش فيهـا الأسـباط الاثنـا عشـر فـي المـدارس.[21]

ولكـن، جمعـت الكثيـر مـن الخرائـط مـا بيـن السـرديات التوراتيـة والمعاصـرة، وتتواجـد اثنتـان مهمتـان منهـا فـي مجموعـة المكتبـة البريطانيـة. الأولـى هـي خريطـة مجسـمة، نُشـرت سـنة 1845 وأهديـت للملكـة فيكتوريـا،[22] وهـي تقسـم الأرض المقدسـة إلـى كيانـات توراتيـة مثـل فيلسـتيا ويهـودا، وتُبيّـن شـبكة الطـرق الحديثـة، وتتضمـن قائمـة مفصلـة مأخـوذة عـن خريطـة «المـدن والقـرى التـي تـم تحديدهـا فـي الأراضي المقدسـة»، بحسـب أسـمائها التـي وردت فـي الكتـاب المقـدس ومرادفاتهـا الحديثـة باللغـة العربيـة. وتُبيـن الخريطـة الثانيـة بشـكل أوضح كيـف اسـتخدم البريطانيـون الخرائـط للتعبيـر عـن مراحـل مختلفـة مـن التاريـخ، موجديـن بذلـك صلـة فوريـة بالزمـن والمـكان. يوحـي اسـم الخريطـة «خريطـة تاريخيـة جديـدة لفلسـطين،» التـي رسـمها ر. كريغتـون (الشـكل 6) ونشـرت سـنة 1383، بأنهـا تهـدف لتوضيـح جغرافيـة النصـوص المقدسـة»،[23] فعلـى جانبـي الخريطـة ظهـرت أربـع رسـومات توضيحيـة، لبـرج بابـل والقاهـرة الكبـرى وبيـت لحـم والقـدس «بوضعهـا الحالـي». وتهـدف الخريطتـان المرفقتـان للمقارنـة مـا بيـن القـدس بأمجادهـا التوراتيـة، ووضعهـا المعاصـر المأسـاوي. وتبـدو فلسـطين نفسـها فـي الخريطـة ملوّنـة ومقسـمة بحسـب حـدود الأسـباط الاثنـي عشـر، وتذكـر أسـماء هـي مزيـج مـن الأسـماء التوراتيـة والكلاسـيكية والعربيـة الحديثـة. يتقاطـع فـي المشـهد عـدد مـن الخطوط التـي نُسِـجت عبـر الزمـن والمـكان، ولا سـيما مـع الطـرق القريبـة الموازيـة لرحلـة أبنـاء إسـرائيل فـي تيههـم نحـو أرض كنعـان، وأسـفار الرحالـة الأوروبييـن الحديثـة، وطريـق حـج المسـلمين المعاصـر إلـى مكـة (الشـكل 7). عـزز هذا الطمـس للخطـوط الزمنيـة مـن الرسـالة السياسـية والدينيـة المقصـودة، وهـي أن البريطانييـن يحملـون مفاتيـح إطـلاق الإمكانيـات التوراتيـة فـي فلسـطين، وكانـت الخرائـط جـزءاً مـن إنتـاج المعرفـة التـي خلقـت قَـدَراً متداخـلاً لفلسـطين والإمبراطوريـة البريطانيـة، فالأولـى تنتظـر تحريـراً إلهيـاً، والثانيـة تبـدو مـن بيـن جميـع قـوى العالـم، الأقـدر علـى القيـام بذلـك.

الشـكل 7: تفاصيـل مـن «خريطـة تاريخيـة جديـدة لفلسـطين» (1383) تبيـن أسـفار يوهـان لودفيـج بوركهـاردت، تيـه بنـي إسـرائيل فـي الصحـراء، وطريـق الحجـاج إلـى مكـة. (خرائـط المكتبـة البريطانيـة a.1.16)

وبحسب ديبي ليزل، لا تتولد مثل هذه الخرائط من تلقاء نفسها في فراغ فكري وثقافي، ولكنها دائماً استطرادية ومنطقية فقط بالقدر الذي يتم فيه تعزيزها بالأساطير والرسائل والمعاني من العالم.[24] فرسم الخرائط بحسب ديبي هو أكثر من مجرد رحلة خطية نحو قيم التنوير كالدقة والمنطق والموضوعية؛ وتربط ليزل تحليلها بنهج ديريك غريغوري الذي كان يرى أنه على الرغم من كثرة استخدام المؤرخين للخرائط (وبالطبع غيرها من المصادر البصرية) كوسائل إيضاحية، إلا أن أهميتها كمصادر تاريخية هي في فهم علاقتها بما يسميه غريغوري «المعرفة بأنظمة السلطة».[25] ومن الأمثلة المهمة على هذا، مسح غرب فلسطين، وهو مشروع ضخم موله صندوق استكشاف فلسطين لرسم خرائط للأراضي المقدسة، ونُفذ بخبرة المهندسين الملكيين في الفترة ما بين 1871 و1877. أنتج المسح 26 صفحة تتضمن خرائط نُشرت ما بين 1881 – 1888، مع ستة أجزاء من «المذكرات» التي تتضمن ملاحظات حول الآثار والحياة النباتية والحيوانية والمجاري المائية والعادات والآداب وأسماء الأماكن، كما نُشرت خرائط توضح العهدين القديم والجديد. كذلك توفر المذكرات الست، المرتّبة بحسب الجغرافيا التوراتية إلى مناطق كـ«الجليل» و«السامرة» نظرة أعمق على الاهتمامات التوراتية للمسح، وتوضح إلى أي مدى كانت فكرة فلسطين التوراتية جزءاً لا يتجزأ منه. تلفت مقدمة الجزء الأول نظر القارئ «لأهمية وجود مجتمع كامل ملتزم بالعمل على جمع الحقائق والمعلومات المتعلقة بالأراضي المقدسة وجغرافيتها وآثارها وشعبها وعاداتها،» وتضمنت رسماً رومانتيكياً لفارس، وهي صورة تشدد على الحاجة لحملة صليبية تسترجع فلسطين مرّة أخرى.[26]

جاء مسح غرب فلسطين في وقت كانت فيه مذكرات الترحال في فلسطين منتشرة جداً، وكانت معظم هذه الأعمال من نوع جغرافيا النصوص المقدسة التي وصفها إدوين آين، في عمله الذي حمّل الاسم نفسه، بمذكرات مسيحية عن الأراضي المقدسة، والتي رسم خرائطها وشرحها بحسب ارتباطها بالإنجيل، في تقليد يعود للعهد الروماني.[27] ويصنف جزء كبير من الأعمال العلمية والمشهورة التي نُشرت عن فلسطين في القرن التاسع ضمن هذه الفئة، وكذلك هي بالتأكيد حالة خريطة ويليام تانر يونغ. ومن الأعمال البريطانية المهمة في هذا المجال كتاب إدوار روبنسون المؤثر«الأبحاث التوراتية في فلسطين وجبل سيناء والعربية البترائية» (1841)، وكتاب جون ماك جورج، الذي أعده بالتعاون مع صندوق استكشاف فلسطين، والذي يحمل عنوان «روب روي حول الأردن/ النيل والبحر الأحمر وطبريا وغيرها: رحلة قارب في فلسطين ومصر ومياه دمشق» (1869)، وكتاب السياسي والمؤلف لورنس أوليفات «أرض جلعاد: مع رحلات في لبنان» (1881)، وكتاب تشارلز ويلسون الذي شارك في المسح «فلسطين وسيناء ومصر المصورة»، والذي صدر في جزئين (1881 و1883).[28]

تزايدت أعداد البريطانيين الذين ذهبوا لرؤية الأراضي المقدسة بأنفسهم، خصوصاً مع طرح شركة توماس كوك لرحلات إلى فلسطين ابتداء من نهاية ستينيات القرن التاسع عشر، وخطوط سير محددة موجودة في الأدلة والخرائط ابتداء من سبعينيات القرن ذاته.[29] وشكل رسم خرائط فلسطين إضافة إلى السياحة والمتعة جزءاً من المشروع الإمبريالي لـ«التعرف» على العالم والسيطرة عليه مادياً وفكرياً، وتوثيقه في أشكال المعرفة الغربية.[30] فكما تقول نادية أبو الحاج، كان الهدف من هذه الجهود هو «تقديم ماض تاريخي بشكل مرئي مادي على الخرائط والمشهد المعاصر،» وهو ما رأيناه في العديد من تصويرات فلسطين من السماء.[31] تطلّب إبراز الماضي التاريخي التركيز على الآثار والمواقع الأثرية، التي تم مسحها بدقة، وتسجيل الملاحظات حولها لحملات الحفر المستقبلية. وكان اكتشاف المواقع القديمة جزءاً من الإحياء المادي للماضي التوراتي والقديم الموجود بجانب هيكليات فلسطين الحديثة ويتفوق عليها كذلك. ويذكر كوندو الأساليب التي استخدمها المسح فيما يتعلق «بالآثار»:

> وفيما يلي الأسلوب المستخدم: تتم زيارة جميع المواقع الأثرية والمثيرة للاهتمام وتسجيل الملاحظات حولها على الفور. ولا يتم التبليغ عن المواقع التي لا تثبت أهمية خاصة لها، ولكنها تُسجل في القوائم الأبجدية التي أُعدت لكل صفحة في تلك الخريطة. أما المواقع التي يتضح فيها وجود آثار فيتم التبليغ عنها على الفور، وأقوم بزيارتها بنفسي. ويتم التخطيط لزيارة جميع المباني التي يعود تاريخها لما قبل الاحتلال التركي بمزيد من التفاصيل إلى حدّ ما، نظراً لأهميتها.[32]

ومـن الجديـر بالذكـر أن تصنيـف «الآثـار» كان يُطلـق فقـط علـى تلـك التـي تسـبق التواجـد العثمانـي فـي فلسـطين، الأمـر الـذي عـزز رؤيـة وسـرد الماضـي الـذي يـودّ البريطانيـون طرحـه؛ فهـو مـاض كان فيـه الغـرب، والبريطانيـون تحديـداً، الورثـة الحقيقييـن لـلأرض المقدسـة. وعبّـر رئيـس أسـاقفة يـورك عـن هـذا الإحسـاس بملكيـة فلسـطين فـي الاجتمـاع الأول لصنـدوق استكشـاف فلسـطين، حيـث قـال «أرض فلسـطين هـذه هـي ملككـم وملكـي، فهـي فـي الواقـع ملكنـا نحـن.»[33]

وبإلغائهـم للفتـرة العثمانيـة مـن «الآثـار» المدرجـة فـي قوائـم الأماكـن ذات الأهميـة التاريخيـة، قـام البريطانيـون بنـزع الشـرعية عـن التواجـد العثمانـي فـي فلسـطين والتقليـل مـن أهميتـه. حيـث إن الفتـرة العثمانيـة لـم تعتبـر جديـرة بـذات الاهتمـام، ولـم يتـم التعامـل معهـا علـى أسـاس أنهـا جـزء مـن قصـة فلسـطين كمـا هـي الآثـار التوراتيـة والكلاسـيكية والصليبيـة، فهـذه الفتـرات تؤكـد علـى مـا هـو مهـم بالنسـبة للغـرب، صـورة مسـيحية لفلسـطين، وصـورة تَحُـد مـن - إن لـم تلـغِ - فلسـطين الإسـلامية والعثمانيـة. ولـذا تمـت إعـادة رسـم فلسـطين بوحـي مـن نصـوص الكتـاب المقـدس، الأمـر الـذي يظهـر فـي تصويـرات الأرض التـي تـم تأطيرهـا بالعهديـن القديـم والجديـد فـي المسـح نفسـه (الشـكل 8). وينطبـق هـذا علـى نمـط أوسـع، عرّفتـه زينـب بحرينـي، يتـم فيـه بنـاء قصـة الحضـارة الغربيـة كإرث مـن الشـرق الأوسـط القديـم مـن خـلال إنـكار الصـلات مـا بيـن المشـهد القديـم والسـكان المعاصريـن، وإيجـاد سـرد بـدلاً مـن ذلـك انتقلـت فيـه الحضـارات غربـاً مـن بـلاد مـا بيـن النهريـن لمصـر ثـم إلـى اليونـان، لتصـل ذروتهـا أخيـراً فـي أوروبـا الغربيـة الحديثـة.[34] ولـذا فـإن تقسـيم فلسـطين فـي العديـد مـن الخرائـط الـواردة هنـا كخريطـة يونـغ (الشـكل 1) «وخريطـة فلسـطين التاريخيـة الجديـدة» (الشـكل 6) إلـى المناطـق المفترضـة لأسـباط إسـرائيل الاثنـي عشـر، هـو مثـال علـى الطريقـة التـي تـم فيهـا تجاهـل السـكان المعاصريـن فـي فلسـطين، وخصوصـاً المسـلمين منهـم، لصالـح اليهـود – المسـيحيين والصـلات الكلاسـيكية.

الشكل 8: غرب فلسطين يوضح العهد القديم، الأسفار المنتحلة وجوزيفوس.
مجموعـة ديفيـد رمسـي للخرائـط التاريخيـة: (1880) 6930.037. الصفحـة الإلكترونيـة: www.davidrumsey.com، (تمـت زيـارة الصفحـة فـي 2020/5/22

تعـد الخطـط الأركيولوجيـة المفصلـة للآثـار فـي المسح مثـالاً آخـر علـى تأطيـر فلسـطين بهـذا الشـكل، والصور الجويـة لبيسـان بالـذات هـي مـن الأمثلـة التـي توضـح ذلـك بشـكل خـاص. حيـث يبيـن المخطـط (الشـكل 9) مواقـع المعالـم الأثريـة كالأعمـدة والعواصـم والمـدن القديمـة بتفصيـل شـديد، بينمـا تصـور القريـة الحديثـة علـى أنهـا مجموعـة مـن المبانـي غيـر المتمايـزة، وتوصـف علـى أنهـا «قريـة بائسـة تتضمـن حوالـى 60 كوخـاً طينيـاً».[35] كمـا تبيـن صـورة رُسـمت مـن مرتفـع عـالٍ الموقـع أيضـاً وكأنـه منطقـة خاليـة مـن الحيـاة الحديثـة.[36] ويتوافـق هـذا التعامـل مـع بيسـان علـى أنهـا موقـع توراتـي ومـن ثـم كلاسـيكي، أعـاد البريطانيـون اكتشـافها حاليـاً، ورَثـوا لوضعهـا الراهـن – وتخيلـوا إمكانياتهـا المسـتقبلية – بمـا يتوافـق مـع التقـدم مـن الشـرق إلـى الغـرب.



الشكل 9: مخطط بيسان/ سكيثوبوليس من مسح غرب فلسطين، الجزء 2، 105 (1881)

وبقـدر مـا كان مسـح غـرب فلسـطين حريصـاً علـى تمثيـل فلسـطين بشـكل صحيـح مـن خـلال الخرائـط، فإنـه كان يهـدف أيضـاً ليكـون دليـلاً لفلسـطين التوراتيـة كمـا ظهـرت فـي الخيـال الثقافـي البريطانـي.[37] فهـي كانـت خريطـة تهـدف لاستكشـاف «حقيقـة» الإنجيـل كمـا هـو مُسـوّغ فـي المشـهد.

وكمـا تقـول زايـدة آنتريـم فـي دراسـتها المهمـة حـول رسـم خرائـط الشـرق الأوسـط، كان علـم رسـم الخرائـط فـي الأراضـي المقدسـة بحثـاً عـن انتمـاء، كمـا كان تمرينـاً عسـكرياً تدفعـه المخـاوف الجيوسياسـية.[38] وفيمـا كان لمسـاعي إيجـاد «الانتمـاء» هـذه دون شـك حوافـز سياسـية تتمحـور حـول المصالـح الإمبرياليـة فـي مصـر والأراضـي الأبعـد منهـا، فتـح البريطانيـون - بإثبـات صلاتهـم بفلسـطين مـن خـلال رسـم خرائـط للبـلاد كمـا يتخيلونهـا - الطريـق فكريـاً للانتـداب. كانـت هـذه الصـلات دينيـة بالأسـاس، حيـث كانـت المنظمـات البروتسـتنتية تعمـل فـي كثيـر مـن الأحيـان كوسـيط بيـن الحكومـة العثمانيـة والبريطانيـة.[39] وتـم تعزيزهـا مـن قبـل البريطانييـن بمـا سـماه إيتـان بـار – يوسـف «الثقافـة التوراتيـة المحليـة»، والتـي تعتبـر الإنجيـل والأرض المقدسـة جـزءاً أساسـياً مـن الثقافـة البريطانيـة، وتعتبـر البريطانييـن شـعباً مختـاراً، وهـو سـرد اسـتُخدم لتبريـر أفعـال الإمبراطوريـة ومـن ثـم الانتـداب البريطانـي

عـن طريـق إيجـاد سـرد تاريخـي متمحـور حـول الإنجليـز تكـون فيـه بريطانيـا (وتحديـداً إنجلتـرا) الوريـث الحقيقـي للحضـارة بمصادرتهـا إنجـازات العالـم القديـم.[40] وكمـا تقـول ناديـة أبـو الحـاج «قـدم علـم رسـم الخرائـط فلسـطين كأرض تاريخيـة واضحـة محسوسـة ومتماسـكة، وموضـوع مسـتمر للبحـث العلمـي، مرسـومة ومُعرّفـة علـى الخرائـط الحديثـة، ويتـم العمـل علـى استكشـافها مـن خـلال حمـلات الحفـر المسـتمرة للآثـار القديمـة».[41] وعـززت مشـاهد فلسـطين مـن الأعلـى فـي القـرن التاسـع عشـر بوضـوح الصـلات الفكريـة بيـن السياسـة وعلـم رسـم الخرائـط وعلـم الآثـار لـدى البريطانييـن. ووفـرت المسـوحات العسـكرية الأسـس اللازمـة لتركيـب مشـهد الماضـي علـى طبوغرافيـة الحاضـر، والـذي دعـم بـدوره المزاعـم الإمبرياليـة بحقهـا فـي الأراضـي المقدسـة.

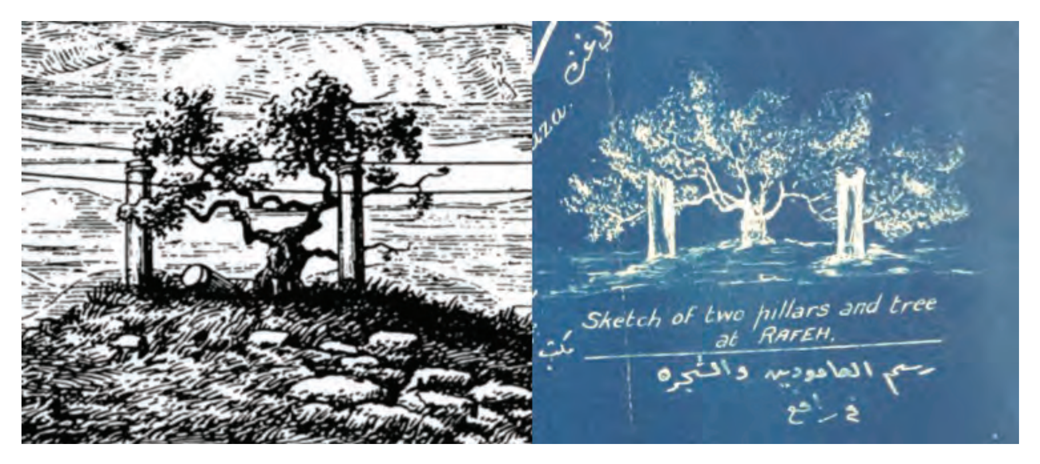
تحويل فلسطين إلى أرض بريطانية

تسـبب توجيـه الأولويـة فـي نظـام رسـم الخرائـط لصـور الماضـي بـدلاً مـن الواقـع الحالـي إلـى إهمـال أو تجاهل السـلطة العثمانيـة فـي المنطقـة فـي العديـد مـن الصـور الجويـة. وكمـا ركـزت مشـاريع رسـم الخرائـط المبكـرة فـي ثلاثينيـات وأربعينيـات القـرن التاسـع عشـر علـى احتـلال محمـد علـي للأراضـي العثمانيـة، ركـزت المشـاريع التـي أنجـزت فـي سـبعينيات القـرن نفسـه علـى مديونيـة دولـة البـاب العالـي لأوروبـا، وحاجتهـا المتزايـدة للدعـم البريطانـي والفرنسـي فـي السـاحة الدوليـة، الأمـر الـذي أصبـح أكثـر وضوحـاً بعـد هزيمتهـا الفادحـة أمـام روسـيا فـي حـرب 1877 – 1878. يتضمـن الأرشـيف الوطنـي البريطانـي، فـي ملـف الخرائـط المأخـوذة مـن المراسـلات القنصليـة فـي الأراضـي العثمانيـة خطـة لتقسـيم دول البلقـان مـا بيـن بريطانيـا وروسـيا وفرنسـا وإيطاليـا بعـد انتهـاء الصـراع، ويتضمـن الملـف خريطـة أخـرى تبيـن نوعـاً آخـر مـن أشـكال السـيطرة المقترحـة. ونشـر مهنـدس اسـمه ماكبيـن فـي سـنة 1876 كتابـاً يقتـرح فيـه إقامـة خـط سـكة حديـد يصـل مـا بيـن بريطانيـا وفلسـطين ومصـر والهنـد، حيـث يمكـن أن تكـون هـذه السـكة، برأيـه، إجـراء اسـتباقياً للمسـألة الشـرقية؛ أي مـا يجـب القيـام بـه فـي حـال انهـارت الإمبراطوريـة العثمانيـة – والتأكيـد علـى المصالـح البريطانيـة مقابـل المصالـح الروسـية أو أي مصالـح أخـرى.[42] وإدراكاً منـه لوجـود فرصـة لتحقيـق خطتـه بعـد هزيمـة الدولـة العثمانيـة، أرسـل نسـخة مـن خريطتـه للسـلطات.[43] ويعبـر الخـط الأحمـر الغامـق الـذي يـدل علـى خـط سـكة الحديـد المقترحـة الإمبراطوريـة العثمانيـة وإيـران متجاهـلاً الحـدود والطـرق، موجـداً مشـهداً جديـداً يتمركـز حـول المصالـح البريطانيـة، وتكـون فيـه فلسـطين نقطـة وصـل رئيسـية ضمـن المشـهد الإمبريالـي الأوسـع.

أمـا المسـوحات البحريـة للمنطقـة فكانـت تميـل لأن تضـم فلسـطين لمنطقـة أوسـع تتمركـز حـول فلسـطين. وقامـت السـفن البريطانيـة فـي الخمسـينيات والسـتينيات مـن القـرن التاسـع عشـر، ونتيجـة لامتيـاز بنـاء قنـاة السـويس، بمسـح فلسـطين كجـزء مـن منطقـة مصالـح أوسـع، حيـث أنتـج المسـح الـذي قـام بـه أ. ل. مانسـيل سـنة 1856 عـدداً مـن الخرائـط التـي وضعـت فلسـطين ضمـن سـاحل مصـري ممتـد.[44] تمـت مراجعـة هـذه الخرائـط وتعديلهـا وتوسـيعها طـوال القـرن التاسـع عشـر وبدايـة القـرن العشـرين، وتتضمـن أرشـيفات الدولـة البريطانيـة مجموعـة مهمـة مـن خرائـط المنطقـة قبـل انـدلاع الحـرب العالميـة الأولـى سـنة 1914. فعلـى سـبيل المثـال، تـم فـي سـنة 1904 تحديـث المسـح الـذي أُجـري سـنة 1862، وتمـت إضافـة بعـض التفاصيـل علـى خريطـة مانسـيل المفصّلـة لفلسـطين وسـاحلها مـن رأس الناقـورة وحتـى العريـش، بهـدف تقديـم لمحـة عامـة مُحدّثـة تسـاعد البريطانييـن علـى التقـدم فـي فلسـطين العثمانيـة سـنة 1917.[45] وبالتأكيـد، فـإن المجموعـة الكبيـرة مـن الصـور العسـكرية والثقافيـة لفلسـطين مـن الأعلـى كانـت لا تقـدر بثمـن بالنسـبة للبريطانييـن مـن بدايـة الحـرب بيـن المملكـة المتحـدة والإمبراطوريـة العثمانيـة سـنة 1914، حيـث سـرعان مـا أصبحـت فلسـطين مركـزاً تسـتهدفه العمليـات البريطانيـة، لعـدة أسـباب، أهمهـا فرصـة إعـادة تشـكيل الأراضـي المقدسـة بصـورة بريطانيـة.

وكان الاحتـلال العسـكري البريطانـي لمصـر مـن 1882 – والـذي قـام فيـه بعـض المشـاركين فـي حملـة مسـح غـرب فلسـطين بـدور مهـم – بدايـة لاتخـاذ بريطانيـا لـدور أكثـر فعاليـة فـي تشـكيل فلسـطين نفسـها. ففـي القـرن التاسـع عشـر، كانـت الحـدود مـا بيـن مصـر الخديويـة والإمبراطوريـة العثمانيـة تعبـر شـبه جزيـرة سـيناء، ولكـن النزاعـات مـا بيـن بريطانيـا والعثمانييـن، وتهديـد المملكـة المتحـدة باسـتخدام القـوة أدى إلـى ترسـيم الحـدود سـنة

1906، علـى نفـس خـط الحـدود التـي تفصـل مـا بيـن مصـر وإسـرائيل اليـوم تقريبـاً.[46] تتضمـن الأرشـيفات الوطنيـة البريطانيـة مجموعـة رائعـة مـن الخرائـط التـي توضـح مخططـات رسـم الحـدود الجديـدة هـذه سـنة 1900، وهـي تسـتخدم مسـاحة فلسـطين بشـكل مثيـر للاهتمـام. حيـث تُبيّـن واحـدة مـن هـذه الخرائـط، والتـي كُتبـت نصوصهـا باللغتيـن الإنجليزيـة والعربيـة، علامـة مهمـة علـى الحـدود مـا بيـن مصـر وفلسـطين حيـث تتضمـن «رسـماً لعمودين وشـجرة فـي رفـح».[47] ويُذّكـر هـذا المنظـر بصـورة نُشـرت فـي مجلـة استكشـاف فلسـطين الربعيـة قبـل بضـع سـنوات (الشـكل 10). أجـرى المهنـدس الألمانـي وعالـم الآثـار، غوتليـب شـوماخر، عـدداً مـن مسـوحات الآثـار فـي فلسـطين فـي 1880، نشـر العديـد منهـا فـي مجلـة استكشـاف فلسـطين الربعيـة، بمـا فيهـا بحثـه الـذي حمـل عنـوان «أبحـاث فـي جنـوب فلسـطين».[48] يصـف شـوماخر موقـع «خربـة رفـح»، والـذي يتضمـن عموديـن قائميـن مـن الجرانيـت وثالـث مُهـدّم [...] تبعـد عـن بعضهـا 18 قدمـاً تحـت شـجرة سـدر ذاويـه»، وهـذا الموقـع هـو دلالـة علـى الحـدود مـا بيـن سـوريا ومصـر.[49] ولاسـتخدام هـذه الصـورة وأصدائهـا التوراتيـة علـى خريطـة للحـدود الفلسـطينية – المصريـة الحديثـة آثـار أوسـع تتعلـق بفـرض السـلطة البريطانيـة علـى مشـهد الأرض المقدسـة باسـتخدام صـور مـن النصـوص المقدسـة والتاريـخ وعلـم الآثـار للتأكيـد علـى مطالبهـم الجديـدة.



الشـكل 10: (الصـورة اليسـرى) تفاصيـل مـن صـورة خربـة رفـح. يبـدو تـل رفـح فـي الأفـق، الحـدود مـا بيـن مصـر وسـرويا فـي بحـث غوتليـب شـوماخر، «أبحـاث فـي جنـوب فلسـطين»، صنـدوق اكتشـاف فلسـطين 18:183؛ (الصـورة اليمنـى) تفاصيـل مـن الأرشـيف الوطنـي، كيـو، 1000/MFQ 1، رسـم خريطـة البـلاد عنـد الجبهـة التركيـة – المصريـة (مرفـق فـي لـورد كرومـر رقـم 37 فـي 1900/2/22).

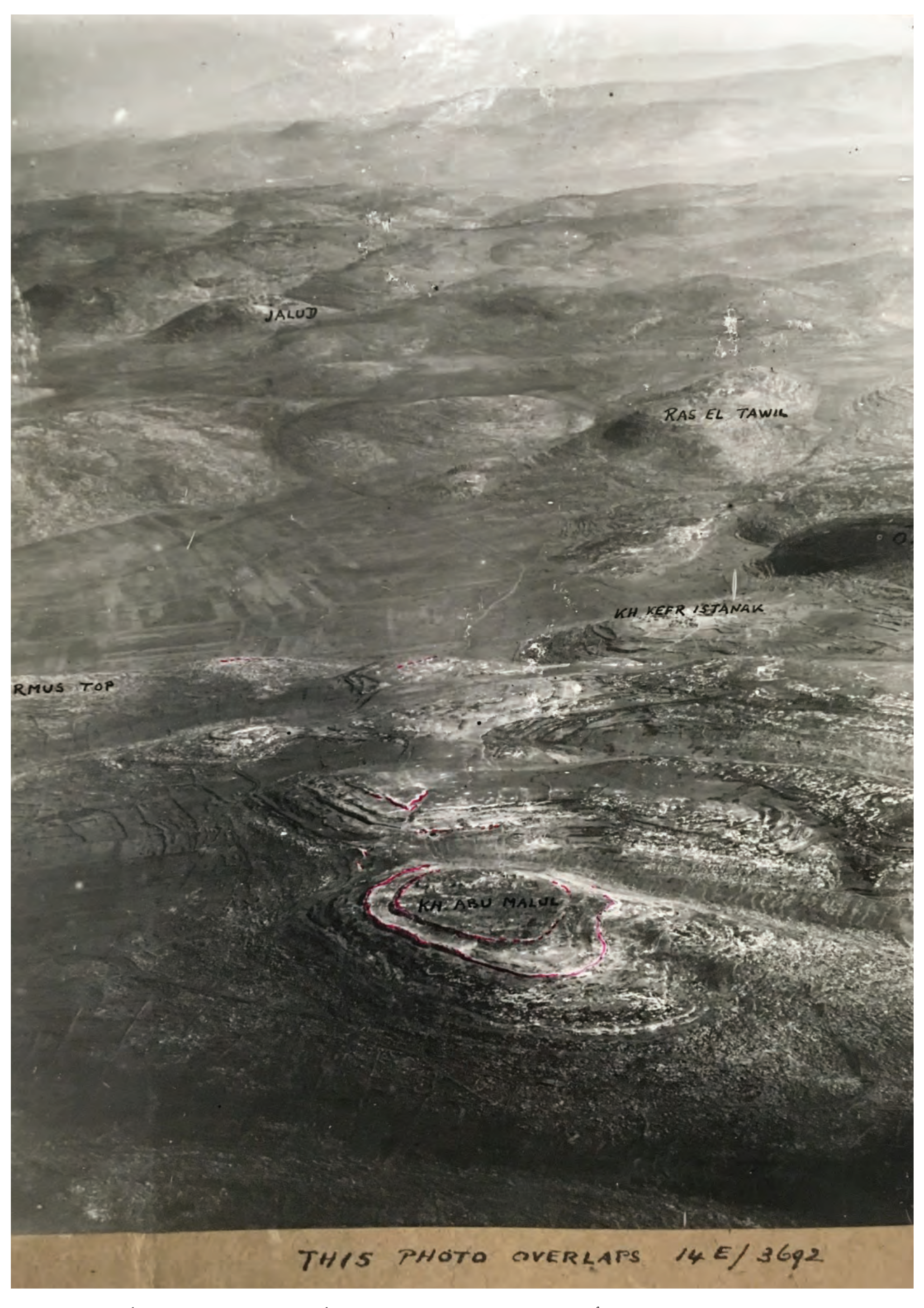
كان لظهـور تفاصيـل جديـدة فـي الحـرب العالميـة الأولـى، وتحديـد مواقـع الصفـوف الأماميـة والثكنـات العسـكرية وخطـوط المسـير دور فـي تفسـير المعرفـة التـي تراكمـت علـى مـرّ العقـود الماضيـة. حيـث وضعـت إشـارات بالألـوان الأزرق والأحمـر والرصـاص الأسـود علـى مجموعـة مـن الخرائـط الموجـودة فـي الأرشـيفات الوطنيـة، والتـي رُسِـمت بنـاء علـى الخرائـط التـي طُـورت فـي الأربعينيـات والسـتينيات مـن القـرن التاسـع عشـر، تُبيّـن المعلومـات الاسـتخبارية المأخـوذة عـن الخرائـط العثمانيـة التـي تـم الحصـول عليهـا، كمـا سـاهم فـي زيـادة هـذه المعرفـة العسـكرية الخطـط المشـروحة للجبهـة التـي أعدهـا القائـد العثمانـي كوتشـوك كمـال باشـا.[50] أمـا المسـح العسـكري العـام لفلسـطين، والـذي أجـري مـا بيـن 1917 –1918، فهـو مثـال مختلـف علـى الطريقـة التـي سـاهم فيهـا تغييـر أسـماء الأماكـن والمعالـم الجغرافيـة فـي إيجـاد نـوع مـن الألفـة مـع المـكان والشـعور بالملكيـة لـه.[51] فبـدلًا مـن «إعـادة التسـميات» التوراتيـة، تعطينـا هـذه الخرائـط فكـرة عـن روح الفكاهـة والمواقـع المألوفـة والغطـاء النباتـي والحيوانـي وببسـاطة اللغـة التـي اسـتخدمها الجنـود البريطانيـون خـلال الحملـة الفلسـطينية. حيـث نجـد أنهـم غيـروا أسـماء الوديـان علـى خرائـط يحيـى وجـروال وبريـر وأعطوهـا أسـماء إنجليزيـة مثـل «وادي دانـدي» (Dundee Wadi) و«وادي الشـوك» (Thistle Wadi) و«وادي الطيهـوج» (Grouse Wadi)، وهـي أماكـن وحيوانـات ونباتـات معروفـة فـي الجـزر البريطانيـة أكثـر منهـا فـي

الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط شبه الجاف. وعلى الرغم من أن هذا التغيير في الأسماء لم يكن دائماً، إلا أنه وعلى الرغم من ذلك يعتبر مثالاً للطرق التي ابتدع فيها البريطانيون مشهداً متخيلاً مألوفاً لهم، أكثر مما هو مألوف للسكان المحليين.[52]

فتمّت في بعض الأحيان إضافة هذه الأسماء من منطلق الجنود الموجودين على الأرض، والذين يقومون بعملية المسح من مواقع عالية.[53] ولكن التقنيات الجديدة وفرت منظوراً جديداً لفلسطين، حيث قدمت الطائرات منظراً مختلفاً كلياً، ولكن مألوف في الوقت ذاته لفلسطين من الأعلى. وكان هناك في كثير من الأحيان تكرار للأساليب السابقة، فكما تضمن مسح الملازم بيدفورد لخليج حيفا/ عكا سنة 1862 منظراً بانورامياً من زاوية السفينة أُرفق بالخريطة المفصّلة، تضمن مسح أجري سنة 1916 للعقبة سلسلة من الصور التي ألصقت مع بعضها البعض لتُشكل خريطة مأخوذة من زاوية عين الطائر، فوق مجموعة أخرى من الصور التي تُشكل صورة بانورامية أخذت من على متن طائرة HMS Raven II.[54] وتعد الجماليات المعكوسة للمسح البحري المرسوم باليد سنة 1862 والمسح البحري والجوي المصور سنة 1916 مؤشراً على الترابط الأوسع ما بين تصويرات فلسطين من أعلى.

ومن المؤكد أنه كان لبعض هذه الصور كصورة بلدة طولكرم، أو آثار قصف سكة حديد القطرانة، استخدامات محددة.[55] ولكن صور المسوحات أتاحت للمتفرج بناء المشهد بطريقة أخرى، والمفاجئ في الصور الجوية أنها عكست مسوحات رسم الخرائط السابقة ورسوماتها التوضيحية. ومن الخصائص المثيرة للاهتمام في تصوير فلسطين في الوسائل الإعلامية المختلفة هي أنها توحي بوجود نوع من الفراغ في البلاد. فعلى سبيل المثال، تتشارك اللوحات الجوية لفنانيّ الحرب البريطانيين سيدني وريتشارد كارلين للمشهد الفلسطيني بالمواضيع نفسها التي ظهرت في الرسومات التوضيحية المأخوذة من مرتفعات عالية في الكتاب المصور لسوريا والأرض المقدسة وآسيا الصغرى كما هو ظاهر في الشكل 5، بينما كانت تعكس لوحة سيدني لبحيرة طبريا ما ورد في كتاب صدر في 1840 وصف شواطئ البحيرة على أنها خالية من البشر والحضارة، على الرغم من وجود مراكز سكانية رئيسية وزراعة.[56] ويظهر في العديد من تصويرات فلسطين من الأعلى عدد قليل جداً من السكان في أحسن الأحوال، بينما تبدو مهجورة تماماً في أسوئها.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن المعالم التي ظهرت في المسوحات الجوية الفوتوغرافية أخذت مباشرة من المسوحات العسكرية والأثرية السابقة. وفي نهاية 1918، وفي المراحل النهائية من الحرب، التقطت طائرة بريطانية سلسلة من الصور من فوق خطوط الجبهة ما بين نابلس وأريحا (الشكل 11). وهناك خاصية فنية أزلية لجماليات هذه الصور تعكس اللوحات والرسومات القديمة.[57] فبدءاً من قرى قريوت وتلفيت تحركت الطائرة باتجاه الجنوب الشرقي فوق جالود والمغيّر ودوما ومجدل بني فاضل، قبل أن ينتهي المنظر البانورامي في فصايل. وأضاف ضباط الاستخبارات إلى شرح أسماء هذه القرى ووضع علامات تحدد أماكن وجود خطوط الدفاع العثمانية، كذلك أسماء المعالم الجغرافية مثل الوديان والتلال المهمة. واستخدموا في أحيان الأسماء العربية المحلية، وفي أحيان أخرى اخترع الجنود البريطانيون أسماء خاصة بهم كما ذكرنا سابقاً، ولذا نجد اسم وادي باب الخرجة إلى جانب وادي تشيشاير، وراس الطويل مع بولدر بويل، ومعلم واحد ظهر باللغتين هو قرن سرطبة (Milly's Tit). ومن المهم أن نذكر هنا أن المعالم الرئيسية كانت مواقع مثل خربة صرة وخربة أبو معلول وخربة جبعيت، فهذه كلّها كما يبدو من أسمائها بالعربية هي عبارة عن آثار. تم مسح هذه الآثار، كما هي حال الآثار الأخرى في فلسطين، ووصفها في مسح غرب فلسطين سنة 1870 (الشكل 12). فوصفت خربة أبو معلول بأنها عبارة عن «أساسات، وخزانات مياه وقبور مدفونة»؛ أما خربة سرة فوصفت بأنها «أساسات وخزانات مياه»، و Kulasun بأنها «أكوام من الحجارة على قمة التل»، ولقد أصبحت هذه المواقع علامات جغرافية رئيسية بالنسبة للقوات البريطانية.[58] وبما أن بعض عناصر المؤسسة البريطانية، بما فيها الجيش، كانت تتعامل مع حملة فلسطين من منطلق توراتي، كان بروز المعالم القديمة على أرض المعركة مهماً.[59] شكل المسح الأثري والتوراتي أساس رسم خريطة معركة بريطانيا من أجل فلسطين، وعندما اجتمعت مع المنظر من السماء، أعادت تكوين الخطوط الزمنية الضبابية للمَشَاهد السابقة لفلسطين من الأعلى، بشكل فوتوغرافي هذه المرة، وفيها يبدو التراث الغارق في القدم جنباً إلى جنب مع المشهد المعاصر ويتفوق عليه في بعض الأحيان.



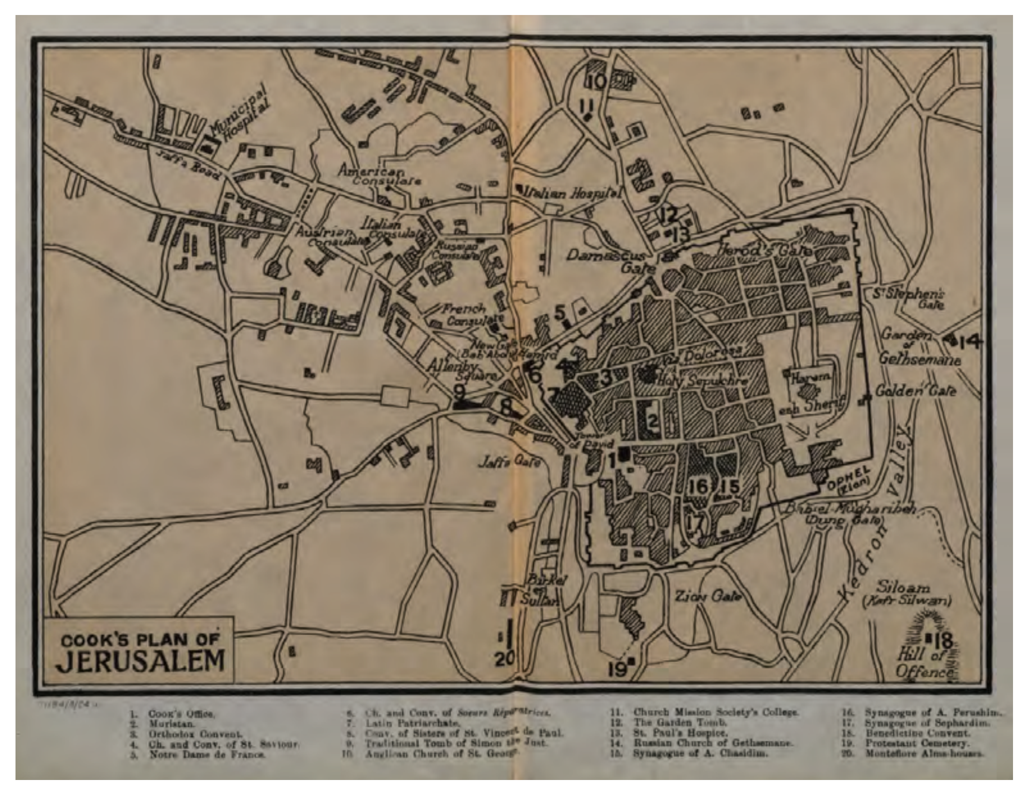
الشكل 11: صورة للمشهد ما بين خربة أبو معلول وجالود، مع شروحات للأسماء المحلية العربية والأسماء الإنجليزية الجديدة، كما تبدو الخطوط العثمانية الدفاعية (TNA WO 319/3 (1918))



الشكل 12: تفاصيل من مسح غرب فلسطين، الورقة 15 التي تبين نفس المشهد البادي في الشكل 9.

تزاوجـت المناظـر المأخـوذة مـن السـماء فـي الصـور والأعمـال الفنيـة، مـع تلـك المأخـوذة مـن مرتفعـات عاليـة لتظهـر أن الأرض الخاليـة، ولكنهـا تعـج فـي الوقـت ذاتـه بخصوبـة توراتيـة، جاهـزة للنمـو والتطـور. وكان الاعتقـاد بـأن الأرض غيـر مسـتخدمة، وأن أمجادهـا التوراتيـة قـد غابـت، هـو الأسـاس الـذي بنيـت عليـه السياسـة البريطانيـة فـي فلسـطين، بينمـا تطـور «الإدراك العلمـي» ليركـز علـى كيفيـة إنقـاذ فلسـطين مـن التصحـر الـذي تسـبب فيـه العـرب والعثمانيـون.[60] وفيمـا لـم تكـن الجهـود الكولونياليـة لإعـادة بنـاء أسـاليب الزراعـة المحليـة خاصـة بفلسـطين فقـط، إلا أن العنصـر التوراتـي أثّـر علـى هـذه الجهـود، حيـث أعطـى نوعـاً مـن الشـرعية للسـيطرة البريطانيـة. حيـث يقـول ليفيـن وآخـرون فـي كتابـه إن الخرائـط «شـكلت الطـرق التـي تخيلـت فيهـا الدولـة الكولونياليـة سـيادتها، وطبيعـة النـاس الذيـن تحكمهـم، وجغرافيـة المنطقـة وشـرعية الأجـداد الذيـن عاشـوا فيهـا».[61] وفـي حالـة فلسـطين، اسـتمر الجانـب التوراتـي فـي توفيـر المعلومـات للجانـب الكولونيالـي.

تُذّكـر خريطـة جـورج آرمسـترونغ «المصـورة والمجسـمة لفلسـطين» سـنة 1921 بالخرائـط التوراتيـة المذكـورة سـابقاً.[62] ومـن ناحيـة أخـرى اسـتمرت شـركة تومـاس كـوك بإثبـات أهميـة السـياحة التوراتيـة فـي فلسـطين، وإنتـاج الأدلـة والكتيبـات وتنظيـم الرحـلات المصممـة لتعطـي لمحـة عـن هـذا الماضـي الدينـي. نشـرت خطـة «خطـة كـوك لفلسـطين» «دليـلاً للقـدس ويهـودا» (أنظـر الشـكل 13) تركـز علـى البلـدة القديمـة وأماكـن العبـادة، مـع ذكـر هامشـي للاسـتعمار الغربـي.[63]



الشكل 13: دليل للقدس ويهودا، (لندن: توماس كوك، 1924)

وفـي ورقتـه المنشـورة سـنة 1917، «فلسـطين: مواردهـا وديمومتهـا للاسـتعمار»، وصـف ي.و.ج. ماسـترمان الأرض علـى أنهـا «فريـدة مـن نوعهـا فـي التاريـخ والحـس الدينـي»، ولكنهـا خاليـة مـن السـكان وفيهـا «صحـارى جـرداء» يمكـن «أحيـاء خصوبتهـا القديمـة».[64] وأظهـرت الصـور التـي تضمنتهـا ورقتـه، والتـي عرضـت فـي الجمعية الجغرافيـة الملكيـة ونشـرت بعـد ذلـك، أراضيَ صحراويـة مهجـورة. ويختتـم قائـلاً «لا فائـدة مـن الاسـتيطان فـي فلسـطين لمـن هـو غيـر مسـتعد للزراعـة ».[65] تضمنـت خرائـط، كتلـك التـي جمعهـا مكتـب الحـرب سـنة 1918، «قسـماً للمراجـع» يذكـر أشـكالاً مختلفـة للمجـاري المائيـة والغطـاء النباتـي بمـا فيـه كـروم العنـب والبسـاتين والحدائـق والغابـات والشـجيرات وشـجر النخيـل والشـوح إضافـة للأغـوار، وتـم إعطـاء رمـز خـاص لـكل مـن هـذه الأشـياء والإشـارة إليهـا بشـكل واضـح علـى الخرائـط.[66] تتضمـن خرائـط بارثولوميـف (بمقيـاس ربـع بوصـة للميـل) سـنة 1923 (إسـرائيل S/G.30، RGS)، مرفقـاً بعنـوان «خرائـط النباتـات فـي فلسـطين الحديثـة» يـدرج «الأراضـي القابلـة للاسـتصلاح» علـى طـول السـاحل.[67] وفيمـا لـم تكـن الزراعـة هـي المصلحـة الرئيسـية لجميـع المشـاريع الكولونياليـة – فرودسـيا علـى سـبيل المثـال كانـت أفضـل لاسـتخراج المعـادن الخـام، ولـم تهتـم الحكومـة الكولونياليـة أو داعميهـا برسـم خرائـط للأراضـي الزراعيـة فيهـا – إلا أن الاهتمـام برسـم الخرائـط وإعـادة تشـكيل

القطـاع الزراعـي موجـود فـي مشـاريع بريطانيـة كتلـك الموجـودة فـي جنـوب إفريقيـا ومصـر والهنـد، والتـي اسـتمرت اثنتـان منهـا بالقيـام بـدور المُصّـدر الزراعـي الرئيسـي للإمبراطوريـة طـوال عهـد الانتـداب.[68]

وكان الـدور الصهيونـي، والـذي بـرز الدعـم البريطانـي الرسـمي لـه خـلال الحـرب العالميـة الأولـى، هـو دور الوسـيط مـا بيـن التفسـيرات التوراتيـة وإعـادة التخيـل الكولونيالـي للمشـهد، بالطريقـة نفسـها التـي كان يُنظـر فيهـا للمسـتوطنين اليهـود الصهاينـة «كعـرق وسـط بيـن الأوروبييـن والسـكان المحلييـن.»[69] وفيمـا قـد تظهـر مسـتوطنات مثـل بيتـاح تكفـا وضواحـي تـل أبيـب فـي الخرائـط التـي سـبقت عهـد الانتـداب، إلا أن ظهورهـا أصبـح أكثـر تكـراراً، وفـي بعـض الحـالات أكثـر بـروزاً. فعنـد المقارنـة مـا بيـن خرائـط سـكك الحديـد فـي فلسـطين وشـرق الأردن فـي الفتـرة مـا بيـن 1922 و1929، والتـي تـم إعدادهمـا خـلال مسـح مصـر، ارتفـع عـدد المسـتوطنات الصهيونيـة الظاهـرة فيهـا مـن 5 إلـى 18، وتـم وضـع رمـز نجمـة صهيـون بشـكل واضـح علـى مواقعهـا فـي الخريطـة لتُبـرز للقـارئ الأهميـة المعطـاة لهـا.[70] وبـدأت شـركة تومـاس كـوك تشـمل فـي برامجهـا رحـلات يوميـة للمسـتوطنات الصهيونيـة، وكانـت تطلـق عليهـا أسـماء مثـل «كيـف تـرى فلسـطين الحديثـة؟»، حيـث يـزور السـياح المـدارس الزراعيـة الصهيونيـة، ومحطـة التجـارب الزراعيـة الصهيونيـة، وبالطبـع بعـض المسـتوطنات الزراعيـة.[71] ولـم تعـد تـل أبيـب مجـرد ضاحيـة أو «مسـتوطنة يهوديـة»، بـل تحولـت إلـى مدينـة بـذات أهميـة يافـا فـي أوصـاف الرحـلات والخرائـط كذلـك. لاحـظ فـي الشـكل 14 ظهـور تـل أبيـب فـي موسـم كـوك لسـنة 1929/ 30، مـع أنهـا لـم تظهـر أبـداً فـي الدليـل رقـم 27/ 28. ويقـول كوبـي كوهيـن أن ذلـك يعـود جزئيـاً لظهـور مكتـب الإعـلام الصهيونـي للسـياح،[72] ولكننـا نسـتطيع أن نجـادل بسـهولة أن إنشـاء هـذا المكتـب بحـدّ ذاتـه كان اسـتجابة للاهتمـام المتنامـي بفلسـطين التـي أصبـح فيهـا الزمـن التوراتـي هـو الزمـن الحديـث.





الشكل 14 موسم توماس كوك 1927 – 8 وموسم توماس كوك 1929 - 30

الخلاصة

يغمـز الاهتمـام الـذي انصب علـى المسـتوطنات الصهيونيـة فـي أدب الرحـلات فـي بدايـة القـرن العشـرين إلـى التحديـث البريطانـي للأراضـي المقدسـة، والتركيـز علـى الـولادة الجديـدة لأرض يفتـرض أنهـا فقـدت خصوبتهـا القديمـة، وبالتالـي، فـإن تصويـر فلسـطين فـي خرائـط كـوك فـي عشـرينيات القـرن الماضـي يتشـارك برؤيـة فكريـة وإمبرياليـة مـع الخريطـة التـي كان يعتـز بهـا ويليـام تانـر يونـغ سـنة 1830. وتبيـن تصويـرات فلسـطين مـن الأعلـى بأشـكالها المختلفـة الموجـودة فـي الأرشـيفات والمكتبـات البريطانيـة بـروز عـدد مـن المواضيـع الرئيسـية، حيـث طمـس البريطانيـون حـدود الزمـن والمـكان فـي تركيبهـم للمشـهد التوراتـي علـى المخطـط الحديـث، وهـو الـذي أصبـح أكثـر دقـة وتفصيـلاً مـع توجـه المزيـد مـن البعثـات البريطانيـة لمسـح الأراضـي ورسـم خرائـط لهـا باسـتخدام أسـاليب أكثـر تقدمـاً، ولكـن التركيـز ظـل منصبـاً علـى الماضـي، وشـكل مسـح غـرب فلسـطين والمسـوحات التـي تبعتـه الفهـم البريطانـي لفلسـطين أكثـر، ومـلأ المسحُ المشـهد بآثـار ومواقـع لا متناهيـة ذات أهميـة توراتيـة وكلاسـيكية تضمـن أن تطغـى أمجـاد الماضـي علـى الجغرافيـا المعاصـرة. وكان أثـر هـذه الخرائـط مـع الرسـومات التوضيحيـة التـي رافقتهـا هـو التشـديد علـى صـورة فلسـطين كأرض مهجـورة متداعيـة جاهـزة لتُحيـى مـن جديـد تحـت الإدارة الصحيحـة. ولقـد غـذت المصالـح الإمبرياليـة التـي تزاوجـت مـع الإحسـاس بالتحديـد الذاتـي للهويـة التوراتيـة، وإلـى حـدّ مـا الإيمـان بالآخـرة المعتمـد علـى عـودة اليهـود إلـى موطنهـم الدينـي، مشـاريع رسـم الخرائـط هـذه، ولكـن هـذه التصويـرات لفلسـطين مـن الأعلـى وفّـرت مـواد سـمحت بتطـور هـذه السـرديات أكثـر. وكان للإحسـاس البريطانـي المتنامـي بالحـق فـي فلسـطين - والـذي كان واضحـاً فـي إعـادة رسـمها وتسـميتها لحـدود البـلاد والأماكـن الموجـودة فيهـا - أثـر مباشـر علـى الثقافـة السياسـية التـي تريـد اسـتعادة فلسـطين مـن خـلال غزوهـا والسـيطرة عليهـا فـي 1917 و 1918.

تتيـح لنـا التصويـرات الجويـة والمأخـوذة مـن ارتفاعـات عاليـة لفلسـطين مـن المنظـور البريطانـي فـي القـرن التاسـع عشـر وبدايـة القـرن العشـرين تصـور كيفيـة تطـور سـرديات السـيطرة، فإبـراز المشـهد التوراتـي القديـم الـذي محـى التجربـة الحياتيـة للفلسـطينيين المعاصريـن وإعطـاءه الأولويـة هـو بالطبـع أمـر مألـوف فـي سـياق فلسـطين اليـوم. تُصّور هـذه الخرائـط والرسـومات والصـور فلسـطين كقطعـة قمـاش يمكـن فـرض طموحـات وخيـالات البريطانييـن الدينيـة والإمبرياليـة عليهـا. ففلسـطين الحاضـر أصبحـت مكانـاً يحتـاج للتحسـين بحسـب رؤيـة ويليـام تانـر يونـغ لهـا كأرض حبلـى ببقايـا الماضـي التوراتـي الموجـودة مباشـرة تحـت السـطح، بانتظـار مجـيء اليهـود تحـت الحمايـة البريطانيـة لتصبـح أرضـاً مثمـرة مـرة أخـرى علـى مـرّ قـرن مـن الزمـن مـن خـلال الطريقـة التـي تـم التعبيـر عنهـا فـي علـم رسـم الخرائـط والفنـون والتصويـر. وبالتالـي فـإن فلسـطين كمـا قـام البريطانيـون بتمثيلهـا أصبحـت معروفـة جـداً، وتمـت إعـادة إنتاجهـا ومناقشـتها علـى الأقـل فـي أحـدث الدراسـات والتقنيـات، حتـى شـكلت هـذه التمثيـلات بالفعـل فلسـطين كمـكان حـيّ.

مايكل تالبوت محاضر رئيس في تاريخ الإمبراطورية العثمانية والشرق الأوسط الحديث في جامعة غرينتش.

آن كالدويـل طالبـة دكتـوراة فـي جامعـة كنـت، تبحـث أطروحتهـا فـي تمثيـل الإعـلام البريطانـي للإنتـاج الصهيونـي مـن البرتقـال فـي العشـرينات مـن القـرن الماضـي.

كلويـه إيمـوت طالبـة دكتـوراه فـي جامعـة غرينتـش، تبحـث أطروحتهـا فـي الأعمـال البريطانيـة للبحـث عـن الآثـار فـي فلسـطين فـي نهايـة العهـد العثمانـي وفتـرة الانتـداب البريطانـي.

يتقـدم المؤلفـون بجزيـل الشـكر لمؤسسـة عبـد المحسـن القطـان لإشـراكهم فـي مشـروع مهـم ومفتـوح للجمهـور كمشـروع «فلسـطين مـن الأعلـى»، وللدعـم الـذي قدمتـه المؤسسـة لهـذا البحـث وزيارتهـم

لفلسطين في كانون الأول *2019*. كما يتوجهون بشكر خاص لأحمد ياسين ويزيد عناني، وأيضا للمشاركين في ورشة العمل التي نظمت في رام الله في كانون الأول *2019* لملاحظاتهم وانتقاداتهم البناءة والداعمة، خاصة زينب تشيليك وسليم تماري وكارول خوري وآندرو ييب. أخيرا نود أن نتقدم بالشكر لأمناء المكتبة والأرشيف اللذين ساعدونا في إيجاد وفحص هذه المصادر.

الهوامش:

1 للمزيد حول إنشاء القنصلية، أنظر:
Meyir Vereté, 'Why was a British consulate established in Jerusalem?', The English Historical Review 85:335 (1970), 316-345; Mordechai Eliav, 'Ha-Qonsuliyah ha-Britit be-Yerushalayim (1838-1914)' in Yehoshua Shwartz, Zohar Amar & Irit Tsifer (eds.), Yerushalayim ve Eretz-Yisra'el (Tel Aviv & Jerusalem: Merkaz Ingeborg Renart le-Limudei, Universitat Bar Ilan & Muzeion Eretz-Yisra'el, 2000), 199-217; Abdul Latif Tibawi, British Interests in Palestine, 1800-1901: A Study of Religion and Educational Enterprise (Oxford: Oxford University Press, 1961); Michael Talbot, 'Divine imperialism: The British in Palestine, 1753-1842' in Martin Farr & Xavier Guégan (eds.), The British Abroad Since the Eighteenth Century. Volume 2: Experiencing Imperialism (London: Palgrave Macmillan, 2013), 36-53.

2 للمزيد حول حكم محمد علي في سوريا وفلسطين أنظر:
Khaled Fahmy, All the Pasha's Men: Mehmed Ali, His Army, and the Making of Modern Egypt (Cairo & New York: The American University in Cairo Press, 1997), 38-75 especially 40-55; Khaled Fahmy, Mehmed Ali: From Ottoman Governor to Ruler of Egypt (London: Oneworld Publications, 2013), chapter 6; Muhammed H. Kutukoğlu, The Egyptian Question, 1831-1841: The Expansionist Policy of Mehmed Ali Paşa in Syria and Asia Minor and the Reaction of the Sublime Porte (Istanbul: Eren, 1998).

3 الأرشيف الوطني، Kew [TNA]، مكتب الخارجية 340/78، ويليام تانر يونغ إلى الفيكونت بالميرستون، 1838/8/16.

4 المرجع السابق نفسه، المرفق 1، «خريطة فلسطين، الأرض المقدسة أو أرض كنعان» (لندن: ر.هـ. لاوري، 1836).

5 Henri Lefebvre, The Production of Space, trans. Donald Nicholson-Smith (Oxford: Blackwell, 1991).

6 المرجع السابق نفسه، 38 – 39.

7 لنقاش عام حول فلسطين ورسم الخرائط في هذه المرحلة أنظر:
Haim Goren, 'Edward Robinson, Eli Smith and the cartography of Berghaus and Kiepert' in Haim Goren, Jutta Faehndrich & Bruno Schelhaas with Petra Weigel (eds.), Mapping the Holy Land: The Foundation of a Scientific Cartography of Palestine (London & New York, I.B. Tauris, 2017), 5-54.

8 مثلاً:
British Library [BL] Maps SEC.5.(1241.), 'Kaïfa in the Bay of Acre by Jonathan Aylen Master of HMS Madagascar 1832' (London: Office of the Admiralty, 1839).

9 TNA, Maps and plans extracted to flat storage from the records of the Foreign Office [MPK] 1/294, 'Plan of the Southeast Front of Jean D'Acre' (1840).

10 TNA MPK 1/294, 'Reconnoissance of Gaza, of the villages of Harrat It Te Fear and Sejaeah by Lt Aldrich R[oya]l Eng[ineer]s' (1841). See also: TNA MPK1/294, 'Plan of Jaffa' (1841); TNA MPK1/294 'Plan of Jaffa' (1841); TNA MPK1/294, 'Plan of the Defences of the Town of Kaiffa' (1841); TNA MPK1/294, 'Acre' (1841). More polished drafts of these maps can be found in: TNA, Maps and plans extracted to flat storage from the records of the War Office [MPH] 1/127.

11 TNA, War Office [WO], 78/1000. See also: BL Maps 48885.(1.), 'Plan of Jaffa, Taken from a Sketch by Major Robe' (London: Quarter Master General's Office, 1841).

12 TNA MPK 1/294, 'Plan of the Town and Environs of Jerusalem' (1841).

13 TNA MPK 1/39, 'Plan of Jerusalem by F.Catherwood' (London: F. Catherwood, 1835), extracted from William Tanner Young's letter of 1 Sep. 1845 in TNA FO78/626. For a discussion

of the map's significance, see: Yehoshua Ben-Arieh, 'The Catherwood Map of Jerusalem', The Quarterly Journal of the Library of Congress 31:3 .(1974), 150-160

14 المرجع السابق نفسه؛
Robert Burford & F. Catherwood, Description of a View of the City of Jerusalem and the Surrounding Country, Now Exhibiting at Panorama, Leicester Square (London: T. Brettell, 1835).

15 BL Maps SEC.5.(1242.), 'Mediterranean – Syria: Bay of Haifa or Khaifa / Acre or Akka' (London: .The Admiralty, 1863)

16 John Carne, Syria, the Holy Land & Asia Minor Illustrated, 3 vols. (London & Paris: Fisher, Son & .(Co.: 1840

17 المرجع السابق نفسه، الجزء 3، 5.

18 لمرجع السابق نفسه، الجزء 3، 69، مع النص المرافق 69 – 72.

19 المرجع السابق نفسه، الجزء 3، 69.

20 المرجع السابق نفسه، الجزء 1، 26، الجزء 2، 68، الجزء 3، 75، الجزء 3، 77، الجزء 3، 94

21 BL Maps 48840.(51.), Frances Wood, 'Picture Map of Palestine, Canaan, or the Holy Land' (London: The Sunday School Union, 1902); BL Maps 705 .(97), 'Palestine' (1874)

22 BL Maps RM 88, 'Relievo Map of Palestine or the Holy Land, Illustrating the Sacred Scriptures and the Researches of Modern Travellers' (London: .Dobbs, Bailey & Co., 1845)

23 BL Maps 16.a.1, R. Creighton, 'A New Historical Map of Palestine with part of Egypt & Arabia shewing the Ancient & Modern Geography of those Countries with the Routes of Several .Celebrated Travellers' (1838)

24 Debbie Lisle, The Global Politics of Contemporary Travel Writing (Cambridge: Cambridge University .Press, 2006), 138

25 المرجع السابق نفسه، 6 – 7.

26 C.R. Conder & Walter Besant, The Survey of. Western Palestine: Memoirs of the Topography, Orography, Hydrography, and Archaeology. Volume 1: Sheets I-VI, Galilee (London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1881), 1. On crusading see: James E. Kitchen, '"Khaki Crusaders": Crusading Rhetoric and the British Imperial Soldier during the Egypt and Palestine Campaigns, 1916-18', First World War .Studies 1:1 (2010), 141-160

27 Edwin James Aiken. Scriptural Geography: Portraying the Holy Land (London; New York : .I.B. Tauris 2009), 18-56

28 للاطلاع على فكرة مفصلة عن هذا النوع من المؤلفات اقرأ المرجع التالي، وتحديداً الفصل الثالث:
Yehoshua Benarieh Ben-Arieh "Nineteenth-Century Historical Geographies of the Holy Land." Journal of Historical Geography 15:1 (1989): 69–79. and Eitan Bar-Yosef,. The Holy Land in English Culture, 1799–1917: Palestine and the Question of Orientalism, (Oxford: Clarendon Press 2005)

29 أنظر:
See: Felicity Cobbing, 'Thomas Cook and the Palestine Exploration Fund', Public Archaeology 11:4 (2012), 179-194. Thomas Cook Ltd., Cook's Tourists' Handbook for Palestine and Syria (London: Thomas Cook & Son, 1876); BL Maps 43340 (40), 'Map of Cook's Tours in Palestine (the Holy Land)' (Edinburgh & London 1873).

30 Nadi Abu El-Haj, Facts on the Ground: Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society (Chicago: University of Chicago Press, 2008), 24-25

31 نفس المرجع السابق، 25.

32 Palestine Exploration Fund [PEF], WS/CON/511, 'Notes on the Western Survey by C. R. Conder .((1874

33 'Report of the Proceedings at a Held in Willis's Rooms, St. James's, on Friday, June 21nd, 1865. His Grace the Archbishop of York in the Chair', Palestine Exploration Quarterly 1 (January 1865), 1–24

34 Zainab Bahrani. 'Conjuring Mesopotamia: Imaginative geography and a world past', in L. Meskell (ed.), Archaeology Under Fire: Nationalism, politics and heritage in the Eastern Mediterranean and Middle East,(London: .Routledge, 1998), 162-164

35 C.R. Conder & H.H. Kitchener, Survey of Western Palestine. Vol. II: Sheets VII-XVI, Samaria (London: Committee of the Palestine Exploration .Fund, 1882), 83

36 نفس السابق نفسه، 107.

37 يقـدم بـار – يوسـف أفـكاراً مفصلـة حـول مـكان الأرض المقدسـة فـي الثقافـة الإنجليزيـة فـي ذلـك الوقـت: Eitan Bar-Yosef, The Holy Land in English Culture, 1799–1917: Palestine and the Question of Orientalism (Oxford: Oxford University Press, 2005).

38 Zayde Antrim, Mapping the Middle East. (London : Reaktion Books 2018): 145-146

39 Laura Robson, 'Church, State, and the Holy Land: British Protestant Approaches to Imperial Policy in Palestine, 1917–1948', The Journal of Imperial and Commonwealth History 39:3 (2011), 457–77 .at 458

40 Bar-Yosef . The Holy Land in English Culture, 11; Bruce Trigger 'Alternative archaeologies: nationalist, colonialist, imperialist'. Man 19:3 .(1984), 355-70 at 365

41 .Abu El-Haj, Facts on the Ground,, 23

42 S. McBean, England, Palestine, Egypt & India, Connected by a Railway System (London: Wm H. .Allen & Co., 1876)

43 TNA MPH 1/131, S. McBean, 'Map Shewing Proposed Railway System Connecting England, Palestine, Egypt and India, in Conjunction with European System' (1876), extracted from FO .78/2892 dispatch of 8 July 1878

44 TNA, MPK 1/436, 'Plan No.1: Southern Part of the Levant. Soundings from the Survey of 1856 and .the Coast between Faramah and El-Arish'

45 TNA, Colonial Office [CO] 1047/719, 'Yafa (Jaffa) Anchorage, surveyed by Mr F.B. Christian, Master, R.N., H.M.S. "Firefly" in 1862 with additions by Commander Hughes C. Lockyer, R.N., H.M.S. "Bulwark", 1904'; ibid., 'Ras en-Nakúra to El Arish surveyed by the Officers of H.M. Ship Firefly under the direction of Commr A.L. Mansell R.N. .1862' (1917)

46 For a discussion of these border issues, see: Yitzhak Gil-Har, 'Egypt's North-Eastern Boundary in Sinai', Middle Eastern Studies 29:1 (1993), 135-148; A. Halûk Dursun, 'Akebe Meselesi, 1906: Ortadoğu'da Osmanlı-İngiliz Rekabetine Bir Örnek', doctoral .thesis (Istanbul: Marmara University, 1994)

47 TNA, Maps and plans extracted to flat storage from records of various departments held at the Public Record Office, Kew (MFQ) 1/1000, title missing but this is a version of 'Sketch Map of .Country round Turko-Egyptian Frontier' (1900)

48 G. Schumacher, 'Researches in Southern Palestine', Palestine Exploration Quarterly 18:4 (1886), 171-194

49 المرجع السابق نفسه، 183 - 184

50 TNA, Maps and plans extracted to extra large flat storage from records of the War Office (MPHH) 1/674, 'Syria: Jerusalem (Kuds-esh-Sherif)' (1915, reprinted 1917); 'Egypt and Syria' (1913); WO 303/13 , Tur-ı Sina Şube ceziresi, Akabe paftası, .El-Ariş vadisi (1914)

51 الجمعية الجغرافية الملكية، إسرائيل G.24.

52 Naom Levin, Ruth Kark, and Emir Galilee, "Maps and the Settlement of Southern Palestine, 1799-1948: An historical/GIS analysis", Journal of .Historical Geography36 (2010), 1

53 على سبيل المثال:
TNA, WO 319/2, ''Panorama photographs of the country in the vicinity of Gaza' (1917)

54 TNA, WO 319/1, 'Akaba: Photographic Survey by HMS "Raven II"

55 TNA, Photographs Extracted from AIR series (CN) 5/2, 'AI.NN.3182. Tulkeram from the North West, 10:00H 8,000 HT, 5.9.18'; ibid., 'AI.NN.2776, 07:00H, 15.8.18, Bombs bursting on .station (Kutrani) from N 7000 ft'

56 متحـف الحـرب الإمبراطـوري، فـن 3080، سـيدني كارلـين، «بحيـرة طبريـا: طائـرات تهاجـم القـوارب التركيـة» (1919)؛ كارنـي، سـوريا، الجـزء 3,77

57 يمكـن رؤيـة جماليـات مشـابهة فـي الأفـلام البريطانيـة عـن الجبهـة مثـل المشـاهد الافتتاحيـة البانوراميـة المأخـوذة مـن ارتفـاع عـال فـي فيلـم 38 فـي متحـف الحـرب الإمبراطـوري، «التقـدم فـي فلسـطين» الأسـطوانة 1 (1919)، وفـي صـور الحـرب كتلـك الموجـودة أيضـاً فـي متحـف الحـرب الإمبراطـوري، Q12308، جـورج ويسـتموريلاند، «منظـر مـن طريـق نابلـس – بيسـان بالقـرب مـن طوبـاس ونابلـس»، ولوحـات فنانـي الحـرب الآخريـن مثـل سـتوارت ريـد، Art 3073، «طائـرة هاندلـي بيـج تقـف فـي نابلـس فـي الليـل».

58 E.H. Palmer & Walter Besant (eds.), The Survey of Western Palestine: Memoirs of the Topography, Orography, Hydrography & Archaeology, vol.II, sheets VII-XVI, Samaria (London: Committee of .the Palestine Exploration Fund, 1882), 391, 394-5

59 أنظر:
See: Eitan Bar-Yosef, 'The Last Crusade? British Propaganda and the Palestine, 1917-18', Journal of Contemporary HIstory 36:1 (2001), 87-109 and Kitchen, '"Khaki Crusaders"'. An example of contemporary use of the crusading ideal can be seen in IWM, Film 17, 'The New Crusaders: With the British Forces on the Palestine Front (1918).

60 Diana K. Davis, The Arid Lands: History, Power, Knowledge (London: The MIT Press, 2016), 114-115.

61 Levin et al, 'Maps and the Settlement of Southern Palestine', 1.

62 RGS, Israel G.131, George Armstrong Photo Relief Map of Palestine, Scale [1:650 000 approx.], (London : Palestine Exploration Fund, 1921).

63 Thomas Cook Archive [TCA], 'A Guide to Jerusalem and Judea', (London: Thomas Cook, 1924). Guide and map reprinted from The Traveller's Handbook for Palestine and Syria.

64 EWG Masterman, 'Palestine: Its Resources and Suitability for Colonisation", given on 19 March 1917 at the Royal Geographic Society; and The Geographical Journal, Vol. 50.1 (July 1917); 12-26.

65 المرجع السابق نفسه.

66 الجمعيــة الجغرافيــة الملكيــة، إســرائيل G.87، خريطــة صنــدوق استكشــاف فلســطين. كان لهــا غــرض عســكري واضــح، حيــث تضمنــت ملاحظــات عــن الطــرق مثــل: «طـرق مرصوفـة»، «فـي الأغلـب أنهـا صالحـة لحركـة جميع أشـكال المــرور»، «وصالحــة للأســلحة ومقدمــة عربــات المدفــع» أو «صالحــة لمــرور القطعــان والمجاميــع»، بينمـا تضمنـت الخرائـط اللاحقـة إشـارات لطـرق النقـل باســتخدام الخيــول.

67 الجمعية الجغرافية الملكية، إسرائيل 6.30.

68 Elizabeth Haines, "'Pledging the Future': Investment, risks and rewards in the topographic mapping of Northern Rhodesia, 1928-1955", Environment and Planning A, Vol 48:4 (2016), 648-664.

69 Jacob Norris, Land of Progress:Palestine in the Age of Colonial Development, 1905-1948 (Oxford: Oxford University Press, 2013), 85.

70 RGS, Israel G.41, Railway Map of Palestine and Transjordania. [Scale 1:750,000] Survey of Egypt, 1922 (mr Israel G.41) and Israel G.48, Railway Map of Palestine and Transjordan. Survey of Egypt. [Scale 1:750,000] Survey of Egypt, 1929.

71 Thomas Cook Archive, Cook's Nile Services and Palestine Tours: Season 1929-30 (London: Thomas Cook & Son Ltd); 78-79.

72 Kobi Cohen-Hattab, "Zionism, Tourism, and the Battle for Palestine: Tourism as a Political-Propaganda Tool" Israel Studies, 9:1 (2004), 67

تصوّرات عثمانيّة لفلسطين

سكك الحديد، خرائط، وصور جوّيّة

زينب شيليك, زينب أزيرباديجان

ملخص

تدرس هذه الورقة التغير في التوجهات الثقافية الرسمية العثمانية في أواخر العهد العثماني، بحجة أن فلسطين جزء أساسي من جغرافية الإمبراطورية باستخدام التكنولوجيا وأساليب التصوير ورسم الخرائط والقتال الحديثة. تمتد هذه الفترة الزمنية من بداية إنشاء سكة حديد الحجاز في الثمانينات من القرن التاسع العشر وحتى الاحتلال البريطاني للقدس سنة 1917. اعتمدت الدراسة على الوثائق البصرية (الصور، الخرائط والبطاقات البريدية) المأخوذة من الأرشيف العثماني، إضافة لتغطية الصحافة العثمانية آنذاك، وخاصة صحيفة «ثروة الفنون». تناقش هذه الورقة ثلاث مراحل أساسية؛ الأولى هي إنشاء خط سكة حديد الحجاز، والتي تم توثيقها بالخرائط وعدد كبير من الصور. تبين الصور المأخوذة من أعلى مشاهد لا متناهية تقطعها سكك الحديد والجسور والأنفاق – وتعج بالضباط العثمانيين. أما الفترة الثانية فهي فترة تمسك العثمانيين في فلسطين من خلال رسم الخرائط التي شملت خرائط طبوغرافية وإثنية وسياحية نظمت وأبرزت العديد من المعلومات حول المنطقة. أما الفترة الثالثة فهي تركز على المعارك التي دارت على جبهة غزة سنة 1917 وتتبع تقدم وتراجع الجيش العثماني بحسب ما تم توثيقه في سلسلة من الخرائط التي رافقتها تقارير حسين هوسنو أمير اليومية التي كانت تنشر في صحيفة يلدريم 1921. وفي الواقع أن الحرب العالمية الأولى نقلت فلسطين إلى رأس الأجندة العسكرية والسياسية في الدولة العثمانية كما تبين المنشورات المصورة في جريدة الحرب العثمانية (Harb Mecmuası) المتخصصة بأخبار الحرب.

الكلمات الرئيسية

التصوير، رسم الخرائط، أواخر الدولة العثمانية، الحداثة، سكة حديد الحجاز، السياحة، الحرب العالمية الأولى، جيش يلديريم.

التصوير، إنشاء سكك الحديد، ومنظور جديد لفلسطين

طرأ على السياسات العثمانية في أواخر عهدها تغير ملحوظ في توجهاتها نحو فلسطين، فبدلاً من مجرد التعامل السلبي مع وجودها، تحوّلت السياسات الجديدة لتزعم أن فلسطين جزء لا يتجزأ من أراضي الإمبراطورية العثمانية. ويعود هذا التغير إلى السياسات الأوسع التي جدت بعد التنظيمات العثمانية (Tanzimat)، والتي وجهت أنظارها إلى الولايات العربية (والأناضول) طمعاً في مكاسب اقتصادية تُعوّض عن الخسائر التي تكبدتها الإمبراطورية في أجزائها الغربية. كما سعت هذه السياسات نفسها إلى إيجاد منصة جديدة للتضامن الاجتماعي عبر شرق البحر المتوسط. شدّد أحمد جمال باشا، أحد زعماء الحركة الإصلاحية، على هذا المبررات في مذكرة أرسلها إلى السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1878، حيث قال فيها: «بسبب دمار روملي، انخفضت إيرادات الحكومة بمقدار النصف، وللتعويض عن هذه الخسارة، فإن القضية الأهم، بالنسبة لنا الآن، هي دعم الازدهار وزيادة الثروة في الأناضول والولايات العربية».[1] وتجلّى هذا التَحوُّل في التعامل مع الشرق بطرق عدة، منها ارتفاع مرتبات كبار الضباط نسبياً هناك، وتعيين «أقدر» الولاة في هذه المنطقة.[2] كما أصبحت الأولوية للمنطقة في الاستثمار، وتحوّلت، كما بدا واضحاً من تدخلات البنى التحتية والحضرية والمعمارية المتزايدة، إلى منطقة أساسية لمشاريع التحديث. ومن ضمن مشاريع البنى التحتية الجديدة جاءت سكك الحديد، التي تربط ما بين أطراف الإمبراطورية، في قلب الإصلاحات التي نُفذت بعد حركة «التنظيمات». ولتتمكن من تنفيذ برامج المركزية على أوسع نطاق ممكن، كان الربط بين الولايات بشكل كامل ضرورياً من خلال شبكة كفؤة تربطها ببعضها البعض وبالعاصمة كذلك.

ترافق التصوير وبناء سكك الحديد، وكلاهما شكلان جديدان من أشكال التكنولوجيا، بشكل وثيق خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث انتشر في أوروبا وأمريكا عرض صور مشاريع البنى التحتية عادة في ألبومات تحمل عناوين محددة. كانت هذه الصور التي أظهرت أعمالاً منجزة وأخرى قيد الإنشاء، شاهداً على عبقرية المهندسين وبراعة عمال البناء. وجاءت هذه الممارسة نتيجة عرف اتفق عليه رؤساء الدول والمنظمات الحكومية والمستثمرين الماليين في خمسينيات القرن التاسع عشر لتعزيز إنجازاتهم، وبالتالي مثلت هذه الصور «مؤشرات رسمية لتقدم العمل».[3] وقد تكون ألبومات قناة السويس (1859 – 1869) وقناة بنما (1881–1914)، وهما المشروعان اللذان أطلقهما فرديناند ديليسبس، الأمثلة الأكثر شهرة على ذلك، حيث احتفت هذه الألبومات بالهندسة الفرنسية في الخارج عن طريق توثيق تقدم العمل في الإنشاءات وتسليط الضوء على الصعوبات الطبوغرافية والفنية التي تم تجاوزها بنجاح.[4] كما تمت الإشادة، كذلك، بالإنجازات المحلية، وبخاصة في مجال إنشاء سكك الحديد، من خلال تكليف مصورين معروفين، كإدوارد بالدوس، وأوغوست كولارد، بتصوير هذه الإنجازات خلال الجمهورية الثانية.[5]

كانت الصور التي لا تحصى لمشاريع البنية التحتية التي التقطت في الإمبراطورية العثمانية عامة بطبيعتها، ولكن التوثيق المُكثّف لأعمال سكة حديد الحجاز كان شاهداً على المكانة المميزة لهذا المشروع (الشكل 1). فالغرض من سكة الحديد هو تيسير الحج بتسهيل وصول الحجاج لمكة والمدينة. وإضافة إلى الخط الواصل ما بين الشمال والجنوب الذي يخدم هذا الغرض بالتحديد، تم بناء خطوط تصل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط لتشجيع تنمية الزراعة في المنطقة، وتيسير نوع آخر من السياحة الدينية لفلسطين، يستهدف المسيحيين هذه المرة.[6]

ولم تحتفِ الصور فقط بالجسور والأنفاق والسكك المنجزة، ولكنها احتفت، أيضاً، بعمليات الإنشاء نفسها، حيث تم جمع الصور في ألبومات ركزت على منطقة مُعيّنة في وقت مُعيّن، وظهرت أحياناً كصور منفردة في العديد من الإصدارات، حيث تم تخصيص ألبوم ذي غلاف أنيق، صدر سنة 1905



الشكل 1: خريطة تبين سكك الحديد والطرق البرية في الإمبراطورية العثمانية. المصدر: (BOA HRT_377).

أو 1906، مُهِر غلافه الخلفي بطغرة السلطان عبد الحميد الثاني، لمقطعين من سكة حديد الحجاز؛ مقطع يمتد على مسافة 460 كم يصل ما بين دمشق ومعان في الاتجاه الشمالي الجنوبي، ومقطع يمتد على مسافة 161 كم يربط ما بين درعا (*Müzeyrib*) وحيفا على الساحل، وكلاهما أُنجز سنة 1905. كما أشاد الألبوم بالمقطع الذي يربط ما بين يافا والقدس، الذي أنجز بعد سنتين من ذلك التاريخ.[7] تم تصميم الألبوم بطريقة واضحة ومنظمة؛ حيث يتألف من جزأين، بدأ بصور خط معان، ومنه جنوباً، ومن ثم انتقل إلى خط حيفا، ومنه غرباً من بر البلاد إلى البحر الأبيض المتوسط. وعرض كل جزء من الألبوم صور البنى التحتية التي أُنجزت، والتي ما زالت قيد الإنشاء، منتهياً بالمحطات النهائية.

ومن بين الأربعين صورة الموجودة في الألبوم، تُبيّن تسع منها الجزء الذي يصل ما بين دمشق



الشكل2: صور تبين العمال على الجسر الخشبي المؤقت الذي يربط ما بين العمودين الحجريين الرئيسيين للجسر فوق النهر في خط حيفا من سكة حديد الحجاز. التعليق: «قسم حيفا من الخط العظيم وإنشاء الأعمدة الحربية في بداية أقواس جسر سكة الحديد (110 أمتار) على الكيلومتر رقم 94 من خط حيفا».

ومعان، بينما تُظهر الصور المتبقية (31 صورة) خط حيفا. وفي الأغلب أن جغرافية المنطقتين هي التي حددت عدد الصور لكل منهما في الألبوم، حيث تتناقض طبيعة منطقة جنوب دمشق، التي هي عبارة عن صحراء منبسطة نسبياً، بشكل واضح، مع المسافة القصيرة نسبياً التي تمتد ما بين درعا وساحل البحر المتوسط، والتي تتميز بالجبال والوديان والأنهار والسلاسل والغطاء النباتي الخصب. تطلب المشهد الفلسطيني المُعقد إنشاء هيكليات جريئة تعبر البيئة الطبيعية الدراماتيكية؛

حيث كانت هذه الهيكليات والمشهد ذاته مواتياً لمناظر رائعة يمكن تصويرها من زوايا مختلفة. فعلى سبيل المثال، ركّز منظر «للأجزاء الحجرية» لجسر الحديد الذي يمتد على طول 110 أمتار على الكيلومتر 110 على خط حيفا (الشكل 2)، ومنظر ثانٍ للأبعاد نفسها على الكيلومتر 94 (الشكل 3) على قمم الدعامات التي تظهر بذكاء أمام الحجم المتواضع للأجسام البشرية.

وفيما أعطت هذه الصور فكرة عن المشاهد المجاورة إلى حد ما، بيّنت صور أخرى المشاريع في سياقها الأوسع الذي قزّم في كثير من الأحيان التدخلات الضخمة. فكما قال كل من هامبورغ، وهايلبورن، ونيجاو، عن صور نادار للمناظر الجوية الفارسية؛ تُعزز الارتفاعات من «مشاعر الهيمنة والقوة» و«الضخامة والطبيعة البشرية الخارقة»،[8] ويتجلى هذا الأثر، بشكل أوضح، إن تحديت المتفرج ليحدد المشاريع من زاوية عريضة. فعلى سبيل المثال، تشير واحدة من التعليقات على الصور إلى «النفق رقم 1» الذي يمتد طوله لمسافة 224 متراً ابتداءً من الكيلومتر 104 (الشكل 4)، ولكن الصورة



الشكل3: صورة تبين المشهد وانحناء النهر على خط حيفا من سكة حديد الحجاز مع أربعة أنفاق مقوّسة تبدو في أيمن الجزء الأوسط من الصورة. التعليق: قسم حيفا من الخط العظيم والمدخل من جانب حيفا للنفق الذي يمتد لمسافة 227 متراً على الكيلومتر رقم 104 من السكة».



الشكل4: صورة تبين محطة قطار معان، ويظهر فيها سبعة رجال بطرابيش يرتدون بدلات بألوان مختلفة. كما يظهر أشخاص عدة في الخلف حول مبنى المحطة، وثلاثة أشخاص على السقف يكملون أعمال البناء هناك. التعليق: «منظر عام لمحطة معان ومنشآت أخرى على طريق خط الحجاز الحميدية أمجاد مباني الإمبراطورية وأعمال المؤسسات التاريخية التابعة لحامي الخلافة».

تبين منحدر نافورة ضخمة تصب في نهر الوادي، ويبدو مدخل النفق كنقطة سوداء بالكاد يمكن رؤيتها على يسار الصورة؛ ولا يمكنك أن ترى -إلا إن دققت النظر في أقصى يمين الصورة- الأقواس الصغيرة للجسر التي لا تتم الإشارة إليها حتى، حيث تبقى الجغرافيا هي المسيطرة على الصورة.

وفي الوقت الذي كان فيه العثمانيون يسعون إلى إعادة تعريف هيمنة إمبراطوريتهم في الولايات العربية، خدمتهم قدرة الكاميرا على توثيق مساحات شاسعة من الأراضي بشكل جيد، حيث أكدت صور المشاهد من مرتفعات طبيعية ومرتفعات من صنع البشر ملكية العثمانيين لتلك المناطق. وفي ألبومات جُمعت بحسب سرديات مختلفة (على سبيل المثال توثيق طريق معينة، أو توفير معلومات عن عملية إنشاء أو الاحتفاء بالسلطان)، عززت صور مشاريع خط سكة الحديد توجهات القوى الإمبراطورية. وبغض النظر عما إذا نُشرت هذه المناظر في الدوريات المصورة المشهورة كصور منفردة أو كجزء من سلسلة صور، أو حتى إن تم تداولها كصور منفردة، كانت الرسالة دائماً هي ذاتها. فمن مركز الإمبراطورية وحتى أقاليمها بينت هذه الصور للمتفرجين في العالم نطاق نفوذ الإمبراطورية السياسي والمناطقي.

وإضافة إلى ذلك، تم التأكيد على قوة الإمبراطورية من خلال تصوير المشاهد المكتظة بالناس، حيث تضمنت هذه الصور معلومات قيمة عن البنية الاجتماعية وطبيعة العمل. وفيما لا يمكن استخلاص حجج قاطعة من المشاهد التي تُبيّن البشر، والتي تستفز وتستثير ميل المشاهد للتفسير، إلا أنها تبقى

فـي الوقـت ذاتـه مفيـدة لتوسـيع رؤيتنـا. وممـا لا شـكّ فيـه أن الرجـال الذيـن طُلـب منهـم الوقـوف أمـام الكاميـرا (ببسـاطة بهـدف توضيـح حجـم الإنشـاءات) يفرضـون وجودهـم الدائـم علـى المشـهد، مسـتثيرين أفـكاراً حـول الديناميكيـات الاجتماعيـة. ويبـدو واضحـاً أن هـؤلاء الرجـال ينقسـمون إلـى مجموعتيـن هرميتيـن: الضبـاط العثمانيـون الذيـن يسـهل تمييزهـم مـن حللهـم الأوروبيـة وطرابيشـهم وأحذيتهـم الفاخـرة الذيـن يقفـون إلـى جانـب العمـال العادييـن. كذلـك يُصّنـف العمـال إلـى فئتيـن: العسـاكر العثمانيـون الذيـن كانـوا يقبضـون الرواتـب والذيـن كان يتـم تخفيـض خدمتهـم العسـكرية سـنة واحـدة كتعويـض عـن عملهـم المضنـي، والعمـال المحليـون (دافعـو الضرائـب).[9] وكان الضبـاط العثمانيـون دائمـاً يظهـرون فـي المقدمـة، حيـث يمكـن التَعـرُّف علـى الأشـكال نفسـها فـي صـور عـدة، ويتميـزون عـن عمـوم الإدارييـن والمشـرفين بالهويـة الفريـدة التـي اكتسـبوها فـي الصـور (الشـكل 4). فإضافـة إلـى موقعهـم البـارز فيهـا، توحـي قاماتهـم المنتصبـة بالثقـة بالنفـس، والسـيطرة علـى العمل المنجـز. وبعكـس الضبـاط الرسـميين، وعددهـم محـدود نوعـاً مـا، يظهـر العمـال فـي الخلفيـة بأعـداد كبيـرة وهـم علـى رأس عملهـم، مـع أنـه مـن الواضـح أنـه قد تـم ترتيـب وضعيتهـم مـن أجـل الصـورة، حيـث يظهـرون وهـم يحملـون الحجـارة علـى ظهورهـم، والفـؤوس فـي أيديهـم. وفـي صـورة أخـرى يظهـر العمـال وهـم يبنـون سـطح محطـة معـان (انظـر الشـكل 5). توحـي مواقـع النـاس فـي الصـور الثابتـة بمشـقة العمـل الـذي يقومـون بـه (الشـكل 5). كمـا إن فكـرة كبريـاء الإمبراطوريـة تبـدو واضحـة فـي إحـدى اللقطـات التـي يظهـر فيهـا أحـد الضبـاط وهـو يشـير بإصبعـه للسـكة فـوق الجسـر. وتؤكـد هـذه الصـور مجتمعـة علـى حـق الإمبراطوريـة فـي فلسـطين، وتُبيّـن سـيطرتها علـى الأرض كمـا تُلمّـح للبنيـة الاجتماعيـة هنـاك.



الشـكل5: صـورة تبيـن بدايـة جسـر سـكة الحديـد، يظهـر اثنـان منهمـا بطرابيـش وبـدلات سـوداء. يشـير أحدهمـا إلـى السـكة. التعليـق: «بنـي الجسـر تحـت شـلال نهـر اليرمـوك بالقـرب مـن قريـة زيـزون علـى الكيلومتـر رقـم 133 مـن خـط حيفـا علـى السـكة العظيمـة.

رسم الخرائط وبناء الإمبراطورية

كان التوثيق من خلال رسم الخرائط مفيداً جداً للأيدولوجيات الاستعمارية والإمبريالية، حيث يقول ماثيو إيدني صراحة عن السيطرة البريطانية على الهند: «كما تتشابك الجغرافيا والإمبراطورية بشكل وثيق ودقيق ... تتحدد المعرفة بالمنطقة بالتمثيلات الجغرافية، وبخاصة الخريطة»، واختتم قائلاً: «تتقاطع الإمبريالية وصناعة الخرائط على المستوى الأساسي، فكلاهما يهتم بشكل أساسي بالمناطق والمعرفة».[10] وإضافة إلى ذلك، وكما يقول دانيال فوليارد، في إشارة مرة أخرى لنشاط بريطانيا في رسم الخرائط: «تقول الخرائط الكثير عن الخيالات والأيديولوجيات»، ولكن معناها يرتبط أكثر بأولئك القائمين على رسمها، وليس بالضرورة بالأراضي التي تظهر فيها، أو الناس الذين يسكنون فيها، حيث يعطي «تجميع الخرائط وسيميائيتها ونشرها وتَقبُّل الناس لها فكرة عن «الخيالات والأيدولوجيات» التي تقف وراء إنتاجها».[11] يقترح علم رسم الخرائط الحديث دراسة الخرائط باعتبارها «أداءات وعمليات»، أي الانتباه إلى التحولات التي تطرأ عليها خلال تداولها واستخدامها وتفسيرها. وبحسب تحليل كارين كولكاسي، فإن هذا يعني «موضعة وانتقاد الخرائط من خلال الخطاب التاريخي المُعقّد الذي تطورت فيه، مع البحث عن الاستمراريات والتغيرات في الوقت ذاته». ومن الأمثلة التي توردها كولكاسي فيما يتعلق بخرائط الإمبراطورية العثمانية خريطة «سايكس بيكو» (1916)، التي تُبيّن هذه النقطة بوضوح، حيث حولت الخريطة التي تم تركيبها على خريطة قديمة، حملت اسم «خرائط شرق تركيا في آسيا وسوريا وغرب إيران»، أعدتها الجمعية الجغرافية الملكية سنة 1910، الخريطة الأصلية لتخدم غرضاً جديداً بتقسيمها للأراضي العربية بفجاجة (غير ناضجة) بين فرنسا وبريطانيا. استُخدمت خريطة سايكس بيكو كأساس للمفاوضات لاحقا، على الرغم من ظهور خرائط أخرى بعدها تقترح تقسيمات مختلفة.[12]

لا تخرج الخرائط العثمانية للشرق الأوسط التي رُسمت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عن هذا الإطار العام للعلاقة ما بين الإمبراطورية ورسم الخرائط. ويوفر إنشاء مقطع حيفا من سكة حديد الحجاز في العام 1905 منصة جيدة يمكن من خلالها دراسة محاولات العثمانيين المنهجية الأوسع لرسم خريطة لفلسطين ككل، حيث يمكن تحليل خرائط سكة حديد الحجاز من ثلاثة منظورات مختلفة: أولاً. تظهر سكة حديد الحجاز في خرائط الإمبراطورية التي تُبيّن كيف ستصل السكك المنجزة والمتوقعة ما بين أرجاء الإمبراطورية العثمانية كافة. وحدد يوفال بن باسات ويوسي بن آرتزي خمس مجموعات من الخرائط تُبيّن شرايين الإمبراطورية، وبخاصة طرقاتها وسككها الحديدية.[13]

ويبين الإنتاج الكبير لخرائط سكك الحديد أهميتها في مركزية الإمبراطورية واستعراض سلطتها على الأقاليم القريبة والبعيدة. وعلى الرغم من أن معظم هذه الخرائط أنتجت باللغة التركية العثمانية، فإن بعضها يتضمن، أيضاً، أسماء المواقع الجغرافية باللغة الفرنسية، ما يعكس أثر رسامي الخرائط الفرنسيين في تعليم الجغرافيا وعلم رسم الخرائط في الإمبراطورية العثمانية.[14]

ثانياً. تتضمن مخططات إنشاءات سكك الحديد مسوحات طبوغرافية مفصلة للمنطقة، تشير إلى المدن والقرى التي تمر فيها سكة الحديد، أو التي يُفترض أن تمر فيها.[15] وعلى الرغم من أن المخططات والإشارات الموجودة عليها كانت مكتوبة باللغة الفرنسية، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن الأوروبيين هم الذين أعدوا هذه الخرائط، وبخاصة أن المسّاحين ورسّامي الخرائط العثمانيين شاركوا، بشكل فاعل، في عملية مسح الأراضي.[16] فمثلًا، تبين خريطة تُظهر سكة الحديد المخطط لها على مسح طبوغرافي مُفصّل لطريق الحج في الإمبراطورية من دمشق إلى مكة، بوضوح، الدور المهم الذي قام به المسّاح العثماني، الحج مختار بيه، ورسام الخرائط وقائد المدفعية، عمر زكي، والملازم حسن معيّن في تطوير مخططات الإنشاء. والأهم، أن البحرية أنتجت نسخاً مختلفة من الخريطة باللغتين العربية والتركية العثمانية، ما يشير إلى الأغراض المتعددة والجمهور المستهدف داخل الإمبراطورية وخارجها.[17]

يبين الإنتاج الكبير للخرائط محاولات الدولة العثمانية لنشر المعرفة في مجال رسم الخرائط التي

تتناول الإمبراطورية بين الجمهور. وهذا يُنبئ بالجانب الثالث والأخير من تحليل سكة حديد الحجاز: وهو استخدامها كأداة في الماكينة الإعلامية للدولة العثمانية خلال العهد الحميدي. فقبل بناء خط حيفا في سكة حديد الحجاز سنة 1905، تم إنتاج الخرائط العثمانية الليثوغرافية بأعداد كبيرة، وبيعها بمئة قرش، أي دولار واحد بعملة اليوم (الشكل 6).[18] تبين الخريطة سكة الحجاز الأساسية كاملة في مكة، على الرغم من أن السكة ما بين المدينة ومكة لم تُبنَ أبداً. كما إنها تُبيّن متصرفية القدس في ملحق مُكبّر لخط القدس–يافا الذي أُنشئ سنة 1892. تتضمن الخريطة الأخيرة، كذلك، مربعاً نصياً باللغة التركية العثمانية يتضمن دليلاً غنياً بالمعلومات العملية للحجاج المتوجهين إلى مكة. وعند التفكير في هذه الخريطة، إلى جانب إنتاج الصور كبطاقات بريدية، نجد أن هذه الخريطة هي جزء من محاولات أوسع قامت بها الدولة الحميدية لحشد إنتاج المعرفة البصرية حول سكة حديد الحجاز والتحكم بها ونشرها؛ أي إنها، بكلمات أخرى، كانت ماكينة دعائية على مستوى عالمي.

ترتبط خريطة سكة حديد الحجاز، التي تم إنتاجها بأعداد كبيرة، بثلاث خرائط قديمة على الأقل. وهي لا تشير إلى التقسيمات الإدارية في الإمبراطورية، لأنها نُشرت من قبل البحرية لخدمة الناس (umumun istifadesi) حتى تُظهر إمبراطورية موحدة. وفي المقابل، تشير خريطة أقدم تحمل عنوان «أرض سوريا» نشرت باللغة العربية في بيروت سنة 1889، بشكل واضح، إلى التقسيمات الإدارية من خلال ترسيم الحدود واستخدام لون مختلف لكل ولاية (الشكل 7).[19] تم حفظ هذه الخريطة في الأرشيف مع خريطة أقدم تحمل عنوان «ولاية سوريا» نُشرت باللغة التركية العثمانية سنة 1880؛ وتبين الخريطة الأخيرة القدس كسنجق في سوريا، بدلاً من متصرفية مستقلة.[20] وهناك خريطة رابعة للمنطقة من سنة 1890 تحمل عنوان «خريطة ولاية بيروت» باللغتين التركية العثمانية والفرنسية، أعدها مهندس فرنسي كان يعمل في ولاية بيروت (بشارة).[21] وهي تشبه الخريطتين سابقتي الذكر، باستثناء بعض المعالم المميّزة. فهي، أولاً، تتضمن خصائص طبوغرافية مُفصّلة، قد يكون بشارة جمعها بنفسه، أو من قبل مسّاحيه في المنطقة، أو إنه قد يكون نسخها عن الخرائط الأوروبية المتبادلة أو خريطة الحج مختار بيه لمشروع سكة حديد الحجاز. ثانياً، تشير هذه الخريطة بالتفصيل إلى التعداد السكاني لولاية بيروت، في جدول موجود في الزاوية اليمنى أسفل الخريطة. وفيما تم نشر خريطة «ولاية سوريا» (1880)، و«أرض سوريا» (1892) على نطاق واسع على مستوى الولايات، ووجدت طريقها أيضاً إلى أرشيف قصر يلدز، أُنتجت «خريطة ولاية بيروت» (1890) لأغراض الدولة وأغراض إدارية، ولم يتم تداولها إلا في نطاق محدود، بينما نشرت خريطة سكة حديد الحجاز التي أُعِدت في مرحلة لاحقة (ما بين 1902–1905) في إسطنبول، ونُشرت على نطاق واسع. وتشير هذه الخرائط، بشكل واضح، إلى تجميع المعرفة الخاصة برسم الخرائط في الإمبراطورية العثمانية، حيث تم استخدام المعلومات التي وردت في خريطة ولاية سوريا الأقدم وتحديثها في الخرائط اللاحقة لأغراض مختلفة.

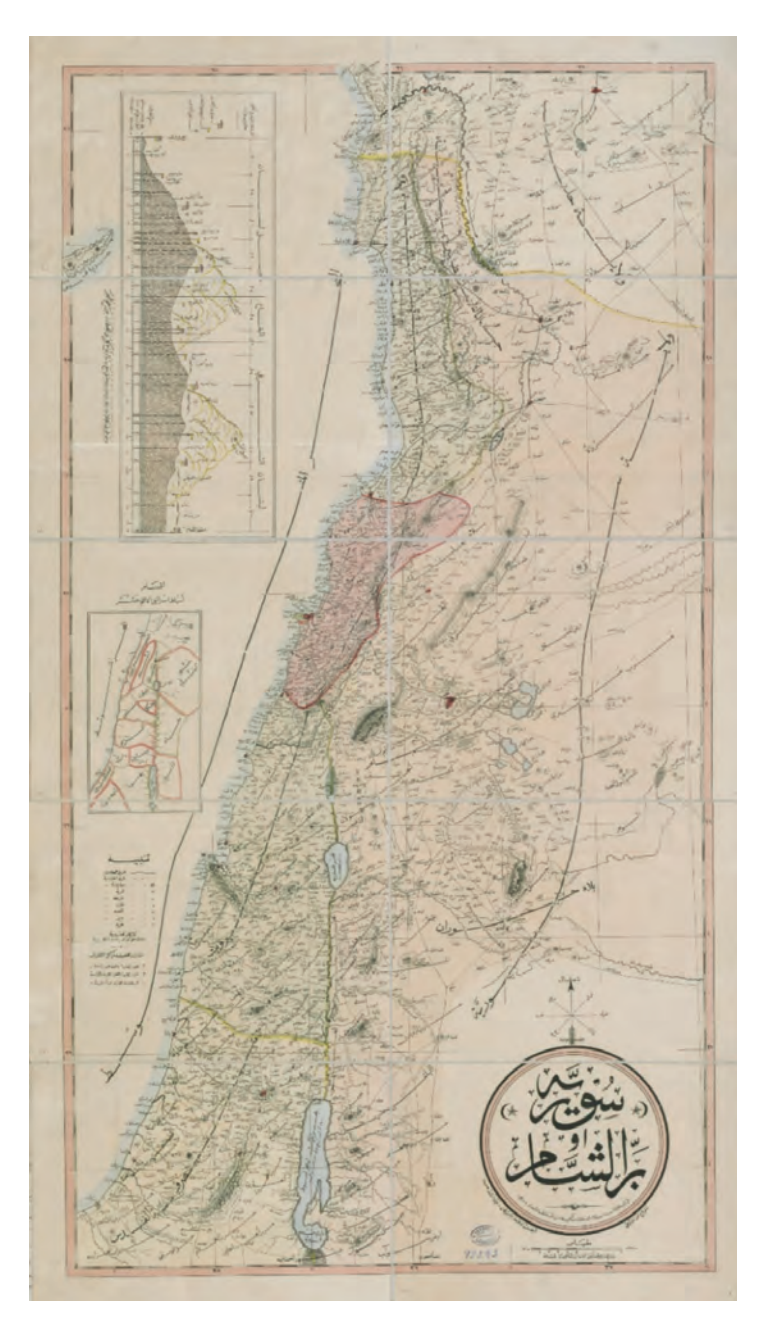
تتضمن آخر خريطة في سلسلة خرائط «أرض سوريا» معالم مميّزة تعكس الطريقة التي كانت فيها الدولة العثمانية تتخيل فلسطين، إضافة إلى تأثير الانتشار العالمي لأفكار وعلم رسم الخرائط على هذا المجال في الدولة العثمانية (الشكل 7). وفي أيسر الجزء الأوسط من الخريطة، نرى تقسيماً لمنطقة الساحل التي تمتد من صيدا إلى غزة، وتظهر عليها تسمية «تقسيم أسباط إسرائيل الاثني عشر». يشير هذا الجزء من الخريطة إلى الأماكن التي كان سيعيش فيها هؤلاء الأسباط على ضفتي نهر الأردن بغض النظر عن التقسم الإداري العثماني المعاصر وقتها، الذي كان يُقسّم فلسطين إلى ولاية بيروت ومتصرفية القدس. وتقع واحدة من هذه التقسيمات الاثني عشر في المنطقة المحيطة بمدينة غزة الساحلية وميناءها، التي سميت على الخريطة «بالفلسطين» (al-Filistin). وتدعم هذه التفصيلة حجة سليم تماري بأن تقسيم فلسطين في ثقافة رسم الخرائط العثمانية يتوافق مع المسميات الأوروبية «للأراضي المقدسة»، الأمر الذي يظهر جلياً في الإدراك الواضح لها واستخدام الإشارات التوراتية ورسم الخطوط في هذه الخريطة.[22] وإضافة إلى التداول الواسع للأفكار والمعرفة برسم الخرائط،



الشكل6: خريطة ليثوغرافية لسكة الحجاز كانت تباع بمئة قرش. تنقسم الخريطة إلى ثلاثة أجزاء، فعلى الجهة اليسرى تظهر خريطة لسكة الحديد والشوارع من دمشق إلى مكة مبينة المدن والقرى على الطريق. وعلى الزاوية اليسر في الأعلى، تظهر صورة مقربة تبين المقطع من بيروت إلى القدس، إضافة إلى السكة من القدس إلى يافا. وعلى الجزء الأيسر في الأسفل يظهر دليل مفصل للحجاج باللغة العثمانية التركية. Hrt_1932 (BOA).

فإننا، أيضاً، نستطيع تتبع أثرها على تنفيذ التقسيمات الإدارية. فلم يتعامل العثمانيون مع متصرفية القدس كجزء من فلسطين، حيث إنهم قسموا عمداً الجزء الأكبر من فلسطين إلى قسمين إداريين، بحيث يقع الجزء الشمالي ضمن ولاية بيروت. وكان تقسيم فلسطين مقابل توحيدها في ولاية واحدة بنداً أساسياً في النقاشات التي ركزت على هدف ضمان السيطرة الكاملة على الولاية ومقاومة أي تدخلات أجنبية. دارت هذه النقاشات على المستويات المركزية ومستوى الولايات في الفترة ما بين 1872 -عندما تم إنشاء ولاية القدس المستقلة لأول مرة، ومن ثم ألغيت ليتم استبدالها في النهاية بمتصرفية القدس المستقلة في السنة نفسها في فترة رئاسة مدحت باشا- والحرب العالمية الأولى.[23]

وفيما شجعت الدولة العثمانية الحج المسيحي لفلسطين من خلال خط الحجاز، فإن تقسيم المنطقة الإداري كان يهدف إلى التأكيد على سيطرة إسطنبول على متصرفية القدس، والحد من التأثير والتدخل



الشكل7: خريطة للتقسيمات الإدارية في ولاية بيروت على ساحل البحر الأبيض المتوسط، تظهر فيها متصرفية القدس في المقطع الجنوبي وحتى نهاية البحر الميت. وتظهر في أعلى الخريطة في الزاوية اليسرى الارتفاعات والمسافات بين القرى والمدن الرئيسية في ولاية بيروت. والناحية اليسرى من وسط الخريطة يبدو تقسيم أسباط إسرائيل حول بحيرة طبريا والبحر الميت. تحمل الخريطة عنوان «أرض سوريا»، ونشرتها دار النشر الأمريكية (Al-Amirakan Publication House) سنة 1892 IUMK 92293_1.

الأوروبي فيها في الوقت ذاته.

وتوضح بطاقتان بريديتان تظهر عليهما صور خرائط للمنطقة، الانتشار الكبير للخرائط التي تُبيّن التقسيمات الإدارية في الإمبراطورية العثمانية، وأهمية سكة حديد الحجاز فيها. وبينما تُظهر البطاقة البريدية الأولى ولاية بيروت كخريطة مبسطة عن خريطة «أرض سوريا» (الشكل 7)،[24] تعكس الثانية التي تُظهر متصرفية القدس (الشكل 8) حجم الإنتاج الضخم لخرائط سكة حديد الحجار في المنطقة[25] (الشكل 6). ويؤكد إبراز سكة حديد الحجاز وخط حيفا باللون الأحمر على كلتا البطاقتين أهمية سكك الحديد بالنسبة للدولة العثمانية والإيحاء بقوتها. وهذه البطاقات البريدية هي جزء من مجموعة أكبر نشرتها مكتبة الجيش (Kütüphane-i Askeri) وإبراهيم حلمي باشا (Tüccarzade) التي أظهرت جميع ولايات الإمبراطورية العثمانية.[26] وفيما أدرك الأكاديميون أن العثمانيين كانوا يستخدمون البطاقات البريدية لنشر صور سكة حديد الحجاز، فإن نشر سلسلة البطاقات البريدية هذه تبين كيف استغل العثمانيون المعرفة برسم الخرائط على مستوى واسع لاستعراض سيادتهم على المساحات الظاهرة في الصور، بما فيها فلسطين.[27]

وكما هي حال المناطق الأخرى في الولايات العربية،





الشكل8: بطاقة بريدية تبين متصرفية القدس وحدودها الجنوبية مع صحراء سيناء، التي لم يتم ترسيمها بشكل واضح. يظهر خط سكة الحديد من القدس إلى يافا باللون الأحمر. نشرتها مكتبة الجيش وإبراهيم حلمي. تحمل الخريطة عنوان «متصرفية القدس»، مكتبة أتاتورك Krt_028343.

انعكست الأهمية الجديدة التي اكتسبتها فلسطين في الخرائط، حيث قامت مؤسسات عدة في الدولة برسم خرائط لفلسطين لأغراض مختلفة: فمثلاً أعدت البحرية خرائط للمدن المينائية،[28] بينما أعدت الدولة خرائط لسكة حديد الحجاز، وأعدت حكومات الولايات وخزينة مخصصات الدولة الحميدية خرائط للأغراض الضريبية.[29] ومن ضمنها خريطة صيدا في الفترة ما بين 1848–1849 (1265)، التي تُسمي المساحة ما بين الرملة ويافا بشكل عام بـ»أرض فلسطين« (Filistin ülkesi). ومن الملاحظ عدم وجود أي حدود في الخريطة على الإطلاق[30] .

تُسلّط مجموعة أخرى من الخرائط المهمة الضوء على النزاع المتعلق بالحدود الفلسطينية-المصرية، الذي تم حله سنة 1906 بعد مفاوضات بين العثمانيين والبريطانيين.[31] تُبيّن مجموعة من 6 خرائط طموحات الدولة في مجال رسم الخرائط وكيفية توظيفها لها.[32] تعود هذه الخرائط لما قبل سنة 1872، فهي تصور فلسطين كمتصرفية تابعة لولاية سوريا، وتضمنت معلومات عن سنجق القدس، ما يبين مكانة المنطقة لدى الدولة العثمانية، حتى قبل إنشاء متصرفية القدس المستقلة. تظهر الخرائط معلومات مختلفة عن كامل رقعة الإمبراطورية العثمانية، ابتداء من السكان، وحتى معدلات الجريمة، واستخدامات الأراضي الزراعية[33]. ومن الجدير بالذكر أن الخرائط الديموغرافية بيّنت التوزيع السكاني بحسب السن فقط، وليس بحسب الانتماء الديني.[34] وفيما جمعت المسوحات العثمانية معلومات حول الانتماء الديني، فإن تمثيلها في الخرائط لم يظهر إلا في عهد تركيا الفتاة (1908 – 1918). عرّف مجلس رسم الخرائط التابع لدائرة رسم الخرائط، الذي أنشئ سنة 1909، هدفه الأساسي بأنه: «إنتاج خرائط للأراضي العثمانية كافة»؛ كما تضمنت أهدافها الثانوية «البحث الجغرافي من المنظور الإثنوغرافي في الأراضي العثمانية».[35]

وفي سياق رسم الخرائط العثمانية، يعد كُتيّب «نهضة فلسطين» (Filistin Risalesi) كتيباً بارزاً يستوفي كافة المعايير التي وضعتها الدائرة، على الرغم من تأخر صدوره، حيث تم نشر الكتيب، الذي يعكس التغير في السياسات العثمانية نحو الولايات العربية، سنة 1915 من قبل الجيش الثامن، تحت وصاية جمال باشا المرسيني، قائد الجيش الثامن وأحمد كمال باشا، حاكم سوريا، لأغراض الاستخدامات العسكرية.[36] إضافة إلى ذلك، كان الإصدار مليئاً بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والإثنية والدينية ومعلومات عن البنى التحتية. فعلى سبيل المثال، حدد الجزء المتعلق بالجغرافيا ظروف المياه وأنواع الإنتاج الزراعي. أما الجزء التاريخي، فهو يجمع ما بين المعلومات المتعلقة بالأحداث المهمة من الماضي مع إشارات عشوائية للغزوات الكنعانية والفلسطينية القديمة والعبرانية والبابلية والعربية والإسلامية. كما ذكر عدداً من المعالم المعمارية التي تعود لعهود تاريخية مختلفة ووصف حالتها الحالية؛ إضافة إلى عدد من المعالم المهمة (كقبة الصخرة، وكنيسة القيامة في القدس)، وأشار النص إلى بقايا مبانٍ أقل أهمية. كما أشار الكُتيّب إلى الثقافة المحلية في بعض الأحيان، كبئر بعمق 33 متراً تعود إلى زمن المسيح، يقال إن مياهها لا تجف أبداً.[37]

وتُلخص الخرائط الثلاث (الملونة) في آخر الكتيب البيانات وتوضحها برسوم بيانية. فالخريطة الأولى هي خريطة المرتفعات مصحوبة برسومات مقطعية (irtifa haritasi) توضح الجانب الطبوغرافي)؛ أما الثانية فحددت المناطق التي عاشت فيها المجموعات الإثنية المختلفة (الشكل 9)؛ وبيّنت الثالثة الشوارع. عكست الخرائط الجغرافية وخرائط البنى التحتية بتفصيل مبهر المستقرات البشرية الرئيسية التي برزت في النقاشات النصية حول الجغرافيا والتاريخ. وكان تعقيد البنية الإثنية للإمبراطورية التي تضمنت السوريين والدروز والنصيريين واليونانيين والأرمن والأقباط والشيعة والأتراك واليهود موضوع الخريطة الثانية.



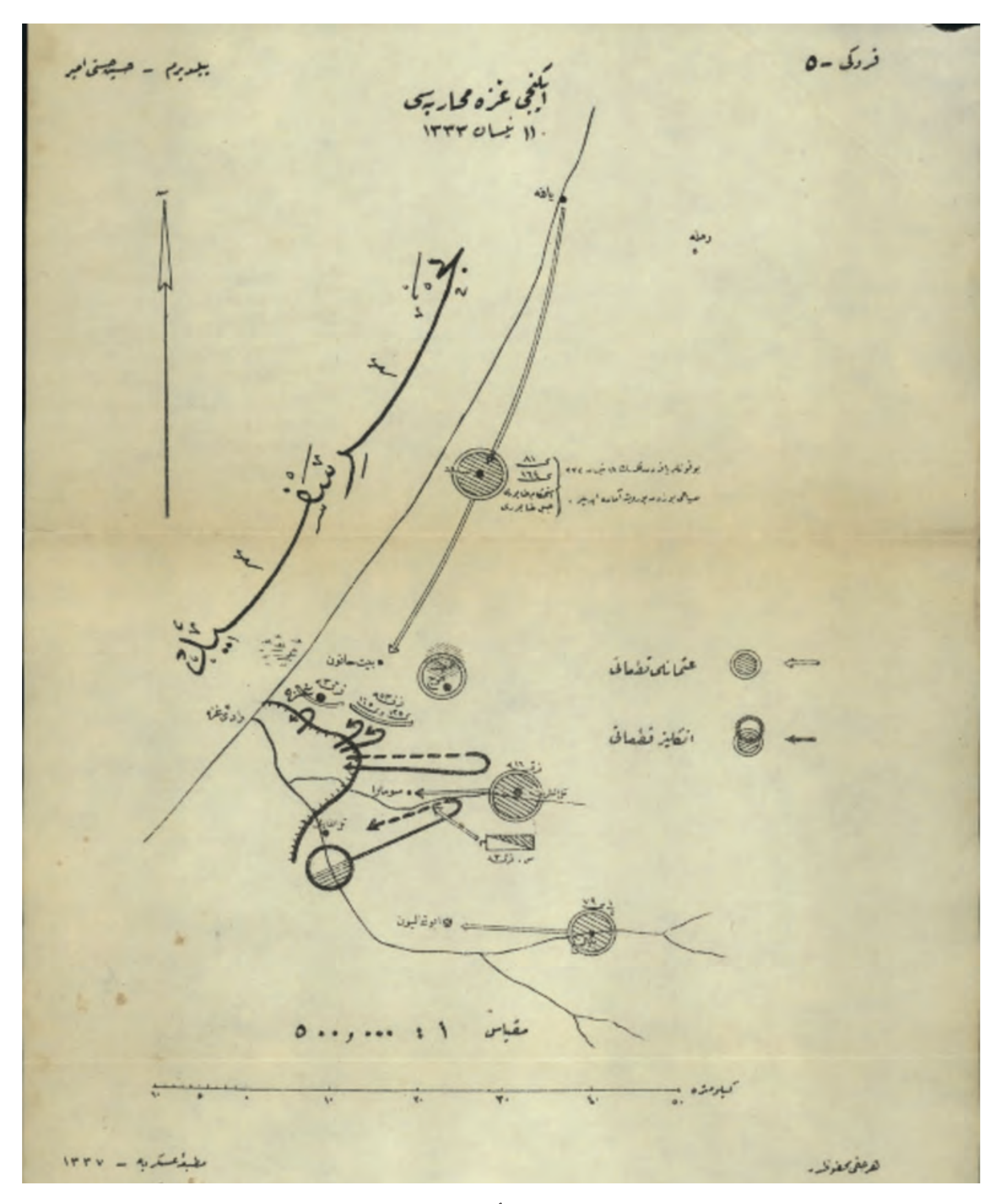
الشكل 9: خريطة التوزيع الديني والإثني - (Filistin Risalesi).

هنـا، رسـمت الخريطـة صـورة أكثـر تعقيـداً مـن النـص، ولفتـت النظـر إلـى التداخـلات بيـن المسـتقرات البشـرية الإثنيـة والحـدود غيـر الواضحـة بينهـا.[38]

زادت الحـرب العالميـة الأولـى مـن تركيـز نشـاط رسـم الخرائـط فـي الشـرق الأوسـط بجوانبـه المختلفـة. فحتـى قبـل الحـرب، كان البريطانيـون قـد أعـدّوا العديـد مـن الخرائـط التـي ارتبطـت بمصالحهـم الدينيـة فـي الأراضـي المقدسـة؛ ولكنهـا أوحـت، أيضـاً، باهتمامهـم المتزايـد بالغـزو. فعلـى سـبيل المثـال، قـام صنـدوق استكشـاف فلسـطين بإجـراء مسـوحات منهجيـة فـي الفتـرة مـا بيـن 1872 و1877، ومـع الوقـت انخـرط مكتـب الحـرب البريطانـي أكثـر فأكثـر فـي أعمـال صنـدوق استكشـاف فلسـطين.[39] وفـي مشـروع مـواز نُفِـذ خـلال سـنوات الحـرب، اسـتمرت دائـرة رسـم الخرائـط فـي الجيـش العثمانـي بالقيـام بالعمـل الميدانـي وإعـداد خرائـط للإمبراطوريـة. كان النشـاط مكثفـاً جـداً، واسـتمر طـوال 1917، ابتـداء مـن الروميلـي وحتـى الأناضـول، ووصـل إلـى جبهـة الحـرب فـي غـزة فـي أيـار وتمـوز. ومـرة أخـرى وبدعـم مـن كمـال باشـا، تمـت طباعـة خرائـط غـزة والقـدس ويافـا ونابلـس وحيفـا فـي فلسـطين (إضافـة إلـى مـدن أخـرى فـي المنطقـة) بمقيـاس 200,000/1.[40] وتضمنـت مجموعـة مثيـرة للاهتمـام مـن الخرائـط رسـومات بيانيـة توضـح العمليـات اليوميـة لوحـدات الصاعقـة (Yıldırım Ordusu)، التـي سُـميّت نسـبة لهجماتهـا السـريعة علـى القـوات البريطانيـة التـي كانـت تتبـع اسـتراتيجية «حـرب الخنـادق». كان الجنـرال الألمانـي إريـخ فـون فالكينهايـن يتـرأس «وحـدات الصاعقـة»؛ وهـي جـزء أساسـي مـن المسـاعدات العسـكرية التـي قُدمـت للإمبراطوريـة العثمانيـة. فبحسـب حسـين هونسـو أميـر، نائـب رئيـس الأركان فـي وحـدات الصاعقـة، تـم تنظيـم المجموعـة بحسـب القواعـد الألمانيـة، وتولـى ضبـاط ألمـان المراكـز الرئيسـية فيهـا. تألفـت قيـادة الوحـدات مـن 65 ضابطـاً ألمانيـاً و9 ضبـاط أتـراك، كان لواحـد منهـم فقـط رتبـة عاليـة. وفـي سـرده المفصـل الـذي نُشـر بعـد الحـرب، ربـط أميـر مـا بيـن ضيـاع فلسـطين وهـذه البنيـة غيـر المتوازنـة فـي القيـادة، وحقيقـة أن وحـدات الصاعقـة جـاءت إلـى تركيـا كقـوات ألمانيـة، وحافظـت علـى ألمانيتهـا حتـى النهايـة. لـم يكـن الجيـش التركـي يثـق بالشـخصية الألمانيـة لقـوات الصاعقـة، وهـو شـعور تفاقـم مـع مـرور الوقـت.[41] يعـرض كتـاب حسـين هوسـنو أميـر، «وحـدات الصاعقـة» أو «يلديريـم»، تفاصيـل وسـرداً مهمـاً عـن الجبهـة الفلسـطينية. ويعـد الكتـاب الـذي نشـر سـنة 1921 مصـدراً أساسـياً عـن الجبهـة السورية-الفلسـطينية ووحـدات الصاعقـة العسـكرية.[42]

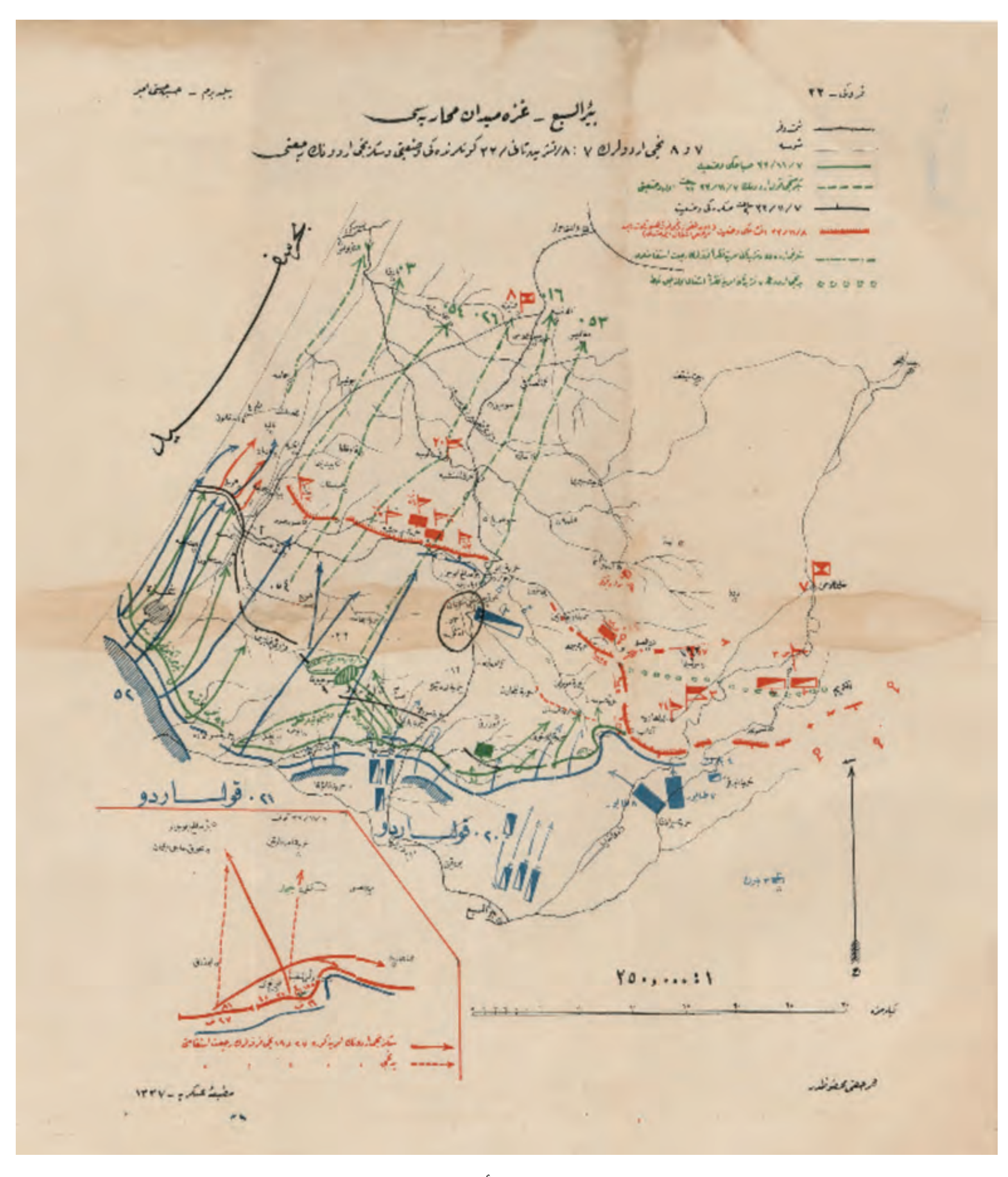
وتتنـاول مجموعـة خرائـط يلديريـم فلسـطين بمقياسـين، وتعـرض كلتـا المجموعتيـن بيانـات تتعلـق بالحـرب وعـدداً مـن الخصائـص الجغرافيـة: حيـث تبيـن الخرائـط الكبيـرة مسـاحة الأراضـي، بينمـا تركـز خرائـط المناطـق علـى تفاصيـل العمليـات العسـكرية. وتتضمـن الفئـة الأولـى خريطـة عامـة لفلسـطين (Filistin Haritasi) تبـدو فيهـا العناصـر الجغرافيـة بـارزة بوضـوح. أمـا تفاصيـل شـبكة البنيـة التحتيـة، فهـي تظهـر فـي خريطـة أخـرى بعنـوان خارطـة طـرق فلسـطين (Filistin Yol Haritasi)، التـي تتضمـن الطرقـات البريـة إضافـة إلـى سـكك الحديـد، مـع أسـماء المسـتقرات البشـرية الكبيـرة والصغيـرة. وفـي ملاحظـة مثيـرة للاهتمـام، حـددت الخريطـة موقـع «الآثـار القديمـة» (eski harabeler) وبخاصـة جنـوب غـرب البـلاد. وتكشـف نظـرة سـريعة علـى الخرائـط المُفصّلـة الهجمـات والمكاسـب والخسـائر لـكل معركـة علـى حـدة، حيـث تبيـن واحـدة مـن الخرائـط، علـى سـبيل المثـال، أنـه فـي 1917/3/26 (26 مـارس 1333)، وخـلال المعركـة الأولـى فـي غـزة، نفـذت القـوات العثمانيـة (المُمثّلـة بالدوائـر) هجومـاً ركـز علـى 3 نقـاط، وأجبـرت القـوات البريطانيـة (المُمثّلـة بالأسـهم السـوداء) علـى التراجـع (الشـكل 10). وتبيـن خريطـة أخـرى الانتصـار فـي المعركـة الثانيـة فـي غـزة فـي 1917/4/11 (11 نيسـان 1333) الـذي ارتبـط بوصـول القـوات العثمانيـة مـن يافـا (والمُمثّلـة بالأسـهم البيضـاء) .وفـي خريطـة تُبيّـن موقـع الجيشـين السـابع والثامـن فـي 1917/10/8، وهـو تاريـخ معركـة بئـر السـبع-غـزة، كان الوضـع مختلفـاً نوعـاً مـا، حيـث سـجل الجيـش الثامـن (المُمثـل بالأسـهم الخضـراء) تراجعـاً كبيـراً (الشـكل 11: Hrt_011247). وبعـد شـهرين فـي 7-1917/12/9،

وفي أوج «معركة القدس»، وصل البريطانيون إلى أسوار القدس، وبدأوا بالتقدم على جميع الجبهات. كانت هذه نهاية الوجود العثماني في فلسطين، حيث دخل الجنرال ألنبي القدس في احتفال مهيب في 11 كانون الأول. وسجلت الخريطة التي لخصت الوضع في 1918/1/27 الهزيمة الأخيرة، حيث سقطت القدس ويافا في قبضة القوات البريطانية، بينما بدأت الجيوش العثمانية بالتراجع شمالا.



الشكل 10: خريطة يلدريم، توثق العمليات في 1917/4/11، مكتبة أتاتورك Hrt_011271.

تتتبع خرائط يلدريم تحركات الجيشين السابع والثامن سنة 1917 بأدق التفاصيل، إلا أنها توفر كذلك سجلاً شاملاً لفلسطين، ابتداء من عناصرها الجغرافية وحتى أصغر المستقرات البشرية، بعد أن وضعتها جميعها بشكل دقيق ضمن سياقات أوسع وضمن محيطها المباشر. ونستطيع أن نقول بموضوعية إن العثمانيين لم يتعاملوا مع فلسطين بهذه الحميمية من قبل، ولم يظهر هذا الشعور لديهم إلا عندما قاربت على الإفلات من قبضتهم. ويُعد كتاب حسين هوسنو أمير، الذي نُشر سنة 1921، عشية إعلان الجمهورية التركية، نهاية لعهد لن يعود.



الشكل 11: خريطة يلدريم، توثق العمليات في 7-1917/12/9، مكتبة أتاتورك Hrt_011247

الصور الجوية ورسم الخرائط

أشار حسين هوسنو أمير إلى واحدة من خرائط مجموعة يلدريم، رُسمت بمساعدة الصور التي التقطتها الطائرات الألمانية في 1917/10/27 (1333) (الشكل 27)، فبحسب ما كتب، كانت وحدات الصاعقة العسكرية بحاجة ماسة للطائرات، ولكن، للأسف، فإن الوضع المزري لتكنولوجيا الطيران العثمانية أدى إلى المغالاة في الاعتماد على القوات الألمانية. وبالتأكيد، «فإن جميع الطائرات على الجبهة الفلسطينية كانت تابعة للألمان».[43] ولكن اهتمام الجيش العثماني بالطائرات يرجع إلى تقرير صدر في 1909/12/20، أكد أن لا غِنى عن الطائرات في المعارك الضارية، وأن على الجيش أن يُؤمّن هذه الطائرات بأسرع وقت ممكن. بدأت المبادرة العثمانية لتدريب الطيارين في 1911، حيث أرسلت ضابطين شابين؛ الرائد محمد فيسا والملازم يوسف كنان، إلى فرنسا ليتدربا على الطيران. وتم إنشاء مدرسة للطيران سنة 1912 في يشيل كوي بعد عودتهما إلى إسطنبول[44] (الشكلان 12). وبعد سنة من ذلك، تحدث مقال نُشر في مجلة شهبال المصورة عن منظر الطائرة وهي تحلق في سماء إسطنبول، يقودها فتحي بيه، وسرد معلومات حقيقية عن هذه التجربة، حيث أفاد التقرير، على سبيل المثال، أن الطيران يشبه قيادة السيارة بسرعة 100 كم/الساعة، وأنه حتى بعد أن تُحلّق الطائرة على ارتفاع 800 – 900 متر، يستطيع الطيار أن يُميّز أشكال الناس والحيوانات على الأرض، ويبين صورة لفتحي بيه مع رجل آخر (كياري؟).[45]

شارك الطيارون العثمانيون في حروب البلقان بشكل محدود باستخدام طائرات استأجروها من ألمانيا وفرنسا.[46]

كان الأتراك يأخذون الطيران على محمل الجد، وخططوا لرحلة طموحة من إسطنبول إلى حلب عبر الأناضول، ومن ثم أبعد من ذلك جنوباً إلى القدس وبورسعيد. وكان من المفترض أن تتم

الشكل 12: صورة جوية تبين مدرسة الطيران في يشيل كوي. مجموعة باهاتين أوزتوناكاي.

الرحلات التي تحط بالنهاية في القاهرة في الفترة ما بين 8 شباط وحتى 22 أيار 1914 (الشكل 13). وكان يتخلل الرحلة التي تمتد على مسافة 2،515 كم محطات عدة في المستقرات البشرية الرئيسية، وكانت أطول مسافة مستمرة تقطعها الطائرة هي 220 كم ما بين إسطنبول وإسكي شهر، ومسافة 300 كم ما بين حمص وبيروت. وكان الطيارون المسؤولون عن هذه الرحلات هم الرائدان فتحي بيه وإسماعيل حقي بيه والملازمان راشد صادق ونوري بيه. ولكن تحولت هذه الرحلة إلى مغامرة شاقة ومميتة، حيث تسببت الرياح العاصفة في 1914/2/27 بسقوط طائرة فتحي بيه وصادق بيه (التي أُطلق عليها اسم Muavenet-i Milliye)، وتحطّمها بالقرب من بحيرة طبريا خلال رحلتها من دمشق إلى طبريا، وتسبب الحادث بمقتل الرجلين. كما تحطمت طائرة أخرى في يافا في 1914/3/11 مودية بحياة نوري بيه. وتم دفن الطيارين الثلاثة في مقبرة المسجد الأموي في دمشق، وبناء نُصُب لهم في إسطنبول. أما المرحلة الأخيرة من الرحلة إلى القاهرة، فلم تتم بسبب الأحوال الجوية.[47]



الشكل 13: “Süvey ve Havalisinde Tayyarelerimizin Faaliyeti ve Tayyareden Alınan Fotograflar,” Harb Mecmuası, v. 1, no. 14 (TeŞrinisani 1332/Safer 1335/November/December 1916), 220-221.

غطت مجلة الحرب؛ وهي مجلة أسبوعية كانت تنشرها وزارة الحرب (1915 1918-)، بفخر، نشاطات الطيارين العثمانيين وقت الحرب. تضمنت هذه النشاطات التقاط صور جوية مهمة، منها صور قناة السويس التي ظهرت فيها محطات القطار، وعدد من المباني التي أنشأها البريطانيون، إضافة إلى السفن التابعة للبحرية البريطانية. وبمساعدة هذه الصور، تمكن الطيارون العثمانيون «الشجعان» من قصف مواقع عدة، متسببين بموت الجنود البريطانيين وتدمير أسلحتهم ومعداتهم في المخازن. وبما أن الطيارات كانت قادرة على التحليق على مسافات منخفضة، فهي كانت، بالتالي، قادرة على إطلاق النار على القوات الأرضية.[48] وبينت الصور التي ظهرت في التقارير مناظر جوية لبورسعيد والمعمل الإنجليزي الذي دمرته قوات الجو العثمانية. كما عرضت صفحات أعداد أخرى من المجلة صور الطائرات البريطانية التي قصفتها المدفعية التركية في أرضها، في أيار وآب 1917 على سبيل المثال (الشكل 14). ظهرت الصورة الأولى على الصفحة نفسها بجوار صورة أخرى لا تُنسى لدبابة بريطانية مدمرة اعتُبرت (عربة مدرّعة)، أما الثانية فبينت حطام الطائرات البريطانية، إضافة إلى لقطة للملازم البريطاني الذي أُخذ أسيراً[49] (الشكل 15).



صحیفه ۲۹۱ — حرب مجموعه سی — صایی ۱۹

ایسه زرهلی قله وانداخت مازغاللری وآرقه لرنده دخی دومن وظیفه وتأثیر-نی حائز بر دیشلی چرخ بولنور. ثابت برشکل وجسامته تابع بولنمیان اشبو زرهلی اوتوموبیللرك ابعادی دخی مختلفدر. طوللری (۵،۴-۹)، عرضلری ۱،۵-۴ وارتفاعلری ۲-۳،۵ متره سرت یوللرده کی سرعتلری ساعتده (۵-۶)، یوموشاق طوپراقلرده کی ایسه (۱-۲) کیلومترهدر.

بو اوتوموبیللر، بویندن دها اوزون بیضی و... تکرلکلرندن عبارت اولان وسائط محرکه سی سایه سنده دارخندکلرله اوفاق موانع طبیعیه یی بلا محذور کچه بیلورلر سه ده دومن جهازی کفایه سزلکندن سهولتله دونه مز و بو جهاز اطرافنده کی اقسامك نسبةً ضعیف اولمسندن قولایلقله قیرلق ویارده لنمکه محکوم بولنیورلر.

درد نجی اردو انطباعاتندن:

۱ – غزه ملحمه سنده عثمانلی طوپجیسی طرفندن تخریب ایدیلن بر انکلیز (تانق)ی «زرهلی اوتوموبیلی»

۲ – غزه محاربه سنده عثمانلی طوپجیسنك اسقاط ایتدیکی بر دشمن طیاره سی.

تانق — زرهلی اوتوموبیل

غرب جبهه سی محاربات اخیره سنده اولا انکلیز و متعاقباً فرانسزلر طرفندن قوللانیلان زرهلی اوتوموبیللرك موده لری متعدد و اساس شکللری ایسه مکعب، بیضی، منشور .. کبی مختلفدر.

اوتوموبیلك یانلرنده تکرلك قوشاقلری واوزرنده

Figure 14. A British destroyed “armed automobile” and destroyed plane in *Harb Mecmuası* 2, no. 19 (Mayıs 1333 / Subat 1335 / May 1917), 291.

وتتوافـق انتصـارات العثمانييـن المبكـرة خـلال حـرب غـزة، التـي كتبـت عنهـا مجلـة الحـرب، مـع الوقائـع التـي سـردها حسـين هوسـنو أميـر. ولكـن سـرعان مـا انقلـب الوضـع، وأثبتـت القـوات البريطانيـة تفوقهـا. وكانـت الخسـائر العثمانيـة علـى الجبهـة الفلسـطينية كبيـرة، وتسـببت الغـارات الجويـة بمقتـل العديـد مـن الجنـود، وبخاصـة فـي مراحـل الحـرب الأخيـرة.[50]

تعـدى دور الطيـران خـلال الحـرب العالميـة الأولـى القصـف فقـط، حيـث كانـت الطائـرات بمثابـة «عيـن في السـماء» تقـوم «بالاسـتطلاع الجـوي». واسـتُخدمت لتوثيـق الوضـع علـى الأرض، لأغـراض إعـداد الخرائـط وإتاحـة التخطيـط للمزيـد مـن المعـارك.[51] أدرك العثمانيـون أهميـة مثـل هـذه الاسـتراتيجيات والحاجـة للتكنولوجيـا المتقدمـة، مـع أن هـذا الإدراك جـاء متأخـراً بعـض الشـيء، حيـث تنـاول مقـال نُشـر سـنة 1927، علـى سـبيل المثـال، الاهتمـام التركـي الجديـد برسـم الخرائـط، الـذي تطـور بمسـاعدة الصـور الجويـة؛ وبيّـن المقـال أنـه باسـتخدام بعـض «المعـدات الخاصـة»، تمكـن علمـاء الطبوغرافيـا الأوروبيـون مـن اسـتخدام المعلومـات التـي تظهـر فـي الصـور لإعـداد الخرائـط.[52]

حرب مجموعه‌سى صايى ٢١

ن حزنى پيرته‌رق اطرافه داغيلدى .
يملرله يورويه‌ن دينج ، پر وقار
نده كوزلرى وطنك حرمكاهنه صو-
شكلر ، آتشلر صاچان بر قطعه .
يله حصوله كلن
رى دويمايه-
ن صباح
تمامنه بيله
رك يشيل
وستريلن
ك ايچون
وآمرانه
تبخراتى
ولو نقطه
صوله ،
يوكسك،
داغ طير-
سافه‌نك
ت يوزيمى
منديله
لايه‌ميه‌جغم
ازيلدى.

ناموسلرى پايمال ، اختيار والده‌لرك بياض صاچلرى تحقير ايدلمكدنسه
سنك؛ بالخاصه سنك ! اى خيال لطيف؛ دشمن قوجاغنده چير-
پينديغنى دويمقدنسه ، شو يوكسك تپه‌نك بولوطلره قاريشمش
شاهقه‌لرنده بايراغم كبى قيرمزى قانلره بويانه‌رق ئولمكى ايسترم، ديدم.
ايتديكم بو آندى اوزاقلردن دويولان
دشمن مرميلرينك بوغوق
سسلرى تأكيد و تتويج ايتدى.
مرتفع ، حاكم ، سمالره
قاريشان تپه‌نك اويولمش باغرنده
كيرديكمز سيپرلردن ؛ اوكمزده
كوش پيريلتيلريله آقان دره‌نك شعرى





سينا جبهه‌سنده : هوائى محاربه‌ده اسقاط ايديلن ايكى انكليز طياره‌سنك انقاضيله بونلردن بريسنك راكبى اسير انكليز ضابطى ملازم ثانى « قلودووتين »

الصورة 15: بقايا طائرتين بريطانيتين وضابط بريطاني أسير في جريدة الحرب 2، 21 (آب 1333/ 1335 Şevval/ آب 1917)، 330.

أي إن الأتـراك كانـوا مدركيـن لإمكانيـة «الاسـتبصار» التـي تتيحهـا الصـور الجويـة وقدرتهـا علـى تعزيـز السـلطة والهيمنـة والسـيطرة لأولئـك الذيـن يمتلكـون التكنولوجيـا ويسـتخدمونها بنجـاح. ولكـن الكفـاءة والسـرعة التـي تـم فيهـا تبنـي مثـل هـذه التكنولوجيـا الجديـدة، أخـل بميـزان القـوى فـي العلاقـات الدوليـة، وخـدم أهـداف التوسـع الاسـتعماري أكثـر مـن أهـداف الإمبراطوريـة العثمانيـة. وبالطبـع، فـإن القصـة أكبـر مـن ذلـك بكثيـر وأكثـر تعقيـداً، ولكـن إن تمكنـت بريطانيـا مـن السـيطرة علـى فلسـطين بعـد الحـرب، فـإن هـذا يعـود إلـى حـد مـا إلـى الطـرق المتعـددة التـي ركـزت فيهـا علـى الطيـران، وعلـى أشـكال التقـدم الإلكترونـي الأخـرى، وفـي مقابلهـا بهتـت مطالبـة العثمانييـن بحقهـم فـي فلسـطين، مـن الناحيـة العسـكرية والتكنولوجيـة، وفـي مجالـي رسـم الخرائـط والتصويـر.

زينب تشيليك أستاذة مرموقة في هندسة العمارة في معهد نيو جيرسي للتكنولوجيا وأستاذة مساعدة في التاريخ في جامعة كولومبيا.

زينب آزيرباديجان طالبة دكتوراة في كلية التاريخ في جامعة كولومبيا تحضر رسالة حول العراق في الفترة العثمانية.

الهوامش:

1 د. أكارلي «محاولة عبد الحميد الثاني دمج العرب في النظام العثماني» في مقالة ديفيد كوشنير ، فلسطين في أواخر العهد العثماني :التحولات السياسية الاجتماعية والاقتصادية -ديفيد كوشنير- 1986.

2 التاريخ العثماني – ايفنر ضياء قارال، انقرة: المؤسسة التاريخية التركية، 1962.

3 تصوير البناء في خدمة العلاقات العامة الدولية: الروابط الفرنسية.» في ميشلين نيسلين، الصور الفوتوغرافية والعمارة في القرن التاسع عشر – توثيق التاريخ ورسم التقدم واستكشاف العالم (حررت بواسطة كلود بيلارجون - 2013).

4 تصوير البناء –كلود بيلارجون 145.

5 الإمبراطورية الثانية بالصور – كاثرين جرانجر، مصورون للإمبراطور: ألبومات نابليون الثالث، 2004.

6 هناك الكثير من الأدبيات التي تتعلق بخط سكة حديد الحجاز، انظر على سبيل المثال:
Ufuk Gursoy, Hicaz Demiryolu, Istanbul: Eren, 1994); Murat Özyüksel, Hicaz Demiryolu, Istanbul: Tarih Vakfı Yurt Yayınları, 2000); and Zeynep Çelik, Empire, Architecture, and the City: French—Ottoman Encounters, 1830-1914, Seattle, WA and London, UK: University of Washington Press, 2008, Chapter 1; Vahdettin Engin, Ahmet Uçar, and Osman Doğan, eds., Osmanlı'da UlaŞım, Istanbul: Çamlıca, 2012, 237-286.

7 يوجد الألبوم الآن ضمن مجموعة عمر كوتش، للاطلاع على تاريخ إنجاز هذين الجزأين راجع: إنجين وآخرون، النقل في الإمبراطورية العثمانية، 269، 330. وللاطلاع على تحليل للألبوم، الذي اعتمدنا عليه هنا، انظر:
Zeynep Çelik, "Photographing Mundane Modernity," Zeynep Çelik and Edhem Eldem, eds., Camera Ottomana: Photography and Modernity in the Ottoman Empire, 1840-1914, Istanbul: Koç University Press, 2015, 154-168.

8 متحف متروبوليتان للفنون – ماريا موريس هامبورغ، فرانسواز هيلبورن،وفيليبس نياغو،نادار،نيويورك-1995.

9 سكة حديد الحجاز: البوم صور: وثائقي تاريخي من إسطنبول الى المدينة المنورة -إبراهيم أصول، 1999.

10 Matthew Edney, Mapping an Empire: رسم خرائط إمبراطورية: البناء الجغرافي للهند البريطانية، 17765-1843، ماثيو إيدني، 1997.

11 خلع الشرق- الخرائط البريطانية وصناعة الشرق الأوسط 1854-1921، دانيال فوليارد - 2017.

12 ترتيب مضطرب: رسم خرائط تقسيمات الإمبراطورية العثمانية -كارين كولكاسي - 2014.

13 وهذه هي:
BaŞbakanlık Osmanlı ArŞivi, BOA Hrt_337, Hrt_374, Hrt_1489, Hrt_406, Hrt_2577. For more detailed discussion see: Top of Form Ben-Bassat, Yuval, and Yossi Ben-Artzi. 2018. "Ottoman Maps of the Empire's Arab Provinces, 1850s to the First World War," Imago Mundi, v. 70, no. 2 (2018): 199-211.Bottom of Form.

14 كما سنناقش لاحقاً، أرسلت بعثة رسم الخرائط سنة 1980 لفرنسا ليتمكن أفرادها من تملُّك أحد أساليب رسم الخرائط.

15 (BOA Hrt_1645) تتضمن المخططات 14 صفحة تبين كامل مشروع سكة حديد الحجاز من دمشق إلى مكة.

16 أعيد إنتاج (BOA Hrt_1645) باللغة التركية لقصر يلدز وعبد الحميد الثاني. ولم تتضمن النسخة الثانية المعالم الطبوغرافية وهي تبين مسار السكة والمحطات الموجودة عليها فقط بحسب المقياس الحقيقي: انظر: İÜMK 92423.

17 النسخة العربية موجودة في الجمعية الجغرافية الملكية، أما النسخة التركية، فظهرت في كتاب جايمس نيكلسون حول سكة حديد الحجاز. ولا يذكر نيكلسون من أي أرشيف أخذ الخريطة. ولكن نرى في الزاوية اليمنى أعلى الصفحة أن الخريطة هي مرفق في رقم 252 pf 6404 الخاصة بسير ن. أوكونور. تمت ترجمة المعلومات إلى الإنجليزية بالحبر الأحمر بجانب الكتابة العثمانية التركية. نيكولاس أوكونور كان سفير بريطانيا لدى الباب

العالـي فـي الفتـرة مـا بيـن 1898 لحيـن وفاتـه سـنة 1908. انظــر:
Royal Geographical Society, Ms Asia Div.186; James Nicholson, The Hejaz railway. London: Stacey International (2007): 13.

18 BOA Hrt_806_2 and İstanbul Üniversitesi Merkez Kütuphanesi, İÜMK 92293
يسـاوي أقـل مـن جنيـه إسـترليني واحـد أو حوالـي دولار أمريكـي واحـد باسـتخدام الأسـلوب المذكـور أدنـاه: تحويل العملـة باسـتخدام 100 بسـعر الصـرف للجنيـه الإسـترليني (1841 – 1903) بحسـب:
Şevket Pamuk, Monetary History of the Ottoman Empire,. New York: Cambridge University Press, 2000, Table 12.1, p.191: http://www.measuringworth.com/ukcompare/

19 İstanbul Üniversitesi Merkez Kütüphanesi, İÜMK 92293-1.

20 İÜMK 92292-2.

21 (BOA Hrt_521). نوقشت هذه الخريطة في:
Ben-Bassat and Ben-Artzi, "Ottoman Maps of the Empire's Arab Provinces,": 213 (Plate6).

22 Salim Tamari, "Conceptions of Palestine Part 2: Ethnography and Cartography," Jerusalem Quarterly 48 (December 1, 2011): 6.

23 Bussow, Johann. 2011. Hamidian Palestine: politics and society in the District of Jerusalem 1872-1908. Leiden: Brill.Bottom of Form: 9-11

24 Atatürk Kitaplığı, AK Krt_016834.

25 AK Krt_028343.

26 إبراهيـم حلمـي (Tüccarzade) كان ناشـراً مشـهوراً فـي نهايـة العهـد العثمانـي وبدايـة عهـد الجمهوريـة التركيـة.

27 تـم تحديـد مـا مجموعـه 40 بطاقـة بريديـة فـي مكتبـة أتاتـورك كجـزء مـن مجموعـات البطاقـات البريديـة هــذه. انظــر:
AK Krt_016835(Egypt), Krt_016839 (Cyprus), Krt_028333 (Crete).

28 İÜMK 93565: Muhiddin, YüzbaŞı "Sur portlanı: Akka ve Hayfa portlanı".
تظهـر هنـا حيفـا وعـكا. وهــذه جـزء مـن سلسـلة مـن الخرائـط (93551 – 93566) لحـوض البحـر الأبيـض المتوسـط. 93562 – طرابلـس 93564 – بيـروت وصيـدا.

29 للاطلاع على خرائط الأراضي الميري، انظر:
(BOA): Hrt_1501 and Hrt_1568, للاطـلاع علـى الخرائـط التـي أعدتهـا Hamidian Privy Purse (Hazine-yi Hassa) انظـر: (BOA) Hrt_528, and Hrt_529.

30 (BOA Hrt 520)، نُوقشت هذه الخريطة في:
Ben-Bassat and Ben-Artzi, "Ottoman Maps of the Empire's Arab Provinces," 207.

31 Ben-Bassat, Yuval, and Yossi Ben-Artzi, "The collision of Empires as seen from Istanbul: the border of British-controlled Egypt and Ottoman Palestine as reflected in Ottoman maps," Journal of Historical Geography, 50 (2015): 25-36.
يشـير بوسـوف أنـه ابتـداء مـن 1881 كان هنـاك بعـض المخـاوف فـي إسـطنبول حـول عـدم توفـر خرائـط دقيقـة لصحـراء فلسـطين الجنوبيـة بعـد الاحتـلال البريطانـي لمصـر، وعـدم وضـوح وضـع الحـدود بيـن قضـاء القـدس ومصـر. بوسـوف، فلسـطين الحميديـة، 55.

32 BOA Hrt_2577.

33 فيمـا يلـي الخرائـط التـي تشـملها هــذه المجموعـة بالترتيـب: (1) الخريطـة الديموغرافيـة للإمبراطوريـة؛ (2) الرسـوم البيانيـة التـي توضـح توزيـع السـكان بحسـب السـن فـي كل إقليـم؛ (3) خرائـط إحصـاءات الجرائـم فـي الإمبراطوريـة؛ (4) خريطـة المـدارس الحكوميـة فـي الإمبراطوريـة؛ (5) الأراضـي المسـتخدمة للأغـراض الزراعيـة فـي 1313 (1895 – 96)؛ (6) رسـم بيانـي يبيـن الـواردات مـن كل إقليـم؛ (7) خريطـة سـكة الحديـد والطرقـات الموجـودة فـي الإمبراطوريـة؛ (8) خريطـة التقسـيمات الإداريـة فـي الإمبراطوريـة تتضمـن بعـض المعلومـات الطبوغرافيـة.

34 BOA Hrt_2577_2.

35 تاريـخ رسـم الخرائـط التركيـة – عبدالرحمـن أيغـون. ميـر عـام الخريطـة.
بـرز رسـم الخرائـط التـي توثـق أراضـي الإمبراطوريـة كأولويـة بعـد التنظيمـات العثمانيـة وارتبطـت بأجنـدة الإصلاحـات ضمـن الهيكليـات العسـكرية. وبحسـب آيجون، فـإن جهـود مأسسـة رسـم الخرائـط الحديـث تعـود إلـى نهايـة 1830، عندمـا نشـأت فكـرة دائـرة لرسـم الخرائـط، علـى الرغـم مـن أن الدائـرة أنشـأت بالفعـل سـنة 1909. وعلـى مـر 7 عقـود، وفـي عهـد السـلطان عبـد الجميـد (1839–1861) والسـلطان عبـد الحميـد الثانـي، تمـت طـرح صناعـة الخرائـط مـن خـلال مسـاقات الطبوغرافيـا والجيوديسيا وعلـم الفلك في مناهـج الكليات العسـكرية العليـا. تـم إنشـاء هيئـة لرسـم الخرائـط سـنة 1887، وكان يتـم إرسـال الطـلاب لفرنسـا ليتعلمـوا صنـع الخرائـط.

36 تصـورات عـن الجـزء الفلسـطيني مـن الإثنوغرافيـا ورسـم الخرائـط -سـليم تمـاري، فصليـة القـدس 47، 2011.

37 Filistin Risalesi, Jerusalem: 8. Kolordu Matbaası, 18 ,11-13 ,1-11 ,1915/ 1331.

38 أثار تماري هذه النقطة في «تصورات فلسطين، الجزء 2» (Conceptions of Palestine Part 2), 10–11.

39 Foliard, Dislocating the Orient, 9, 247.

40 Aygün, Türk Haritacılık Tarihi, 94-95

41 Hüseyin Hüsnü Emir (Erkilet), Yıldırım, Ankara: Genelkurmay Basim Evi, 2002, 13-15.
تم رسم الخرائط في هذه العُدد فوق الخرائط الأصلية، الموجودة في مكتبة أتاتورك في إسطنبول. ويعد حسين هوسنو أمير شخصية خلافية، حيث يعرف بقوميته العالية وإعجابه بهتلر.

42 Hüseyin Hüsnü Emir, Yıldırım, Dersaadet (Istanbul): Matbaa-i Askeriye, 1337 (1921).
يتضمن هذا العدد نسخاً عن الخريطة الأصلية.

43 حسين حسين أمير (إركيليت) يلدريم.

44 التسلسل الزمني للطيران التركي-تسلسل زمني للطيران التركي -ستيوارت كلاين، 2002.

45 القيادة الجوية العثمانية – سيهبل – السنة الخامسة.

46 عن الطائرات العثمانية، 15 عثمان يالتشين، «عملية الانتقال إلى المدرسة الجوية والمدرسة العسكرية في تاريخ القوات الجوية التركية»، نظرة عامة أكاديمية.

47 مؤسسة القوات التركية الجوية، اول رحلاتها وصعودها – عثمان يالشين.

48 ”نشاط الطائرات في محيط سوفي، صور مأخوذة من القمة، مجلة حربية.

49 Harb Mecmuası, v. 2, no. 19 (Mayıs 1333 / Subat 1335 / May 1917), 291 and Harb Mecmuası, v. 2, no. 21 (Ağustos 1333 / Şevval 1335 / August 1917), 330.

50 Yalçın, Türk Hava Gücü, 276, 311.

51 جيمس ستريكفوس «لماذا كانت الحرب الجوية مهمة حقا: دليل لفهم أهمية الطيران في الحرب العالمية الأولى».

52 مجلة ضمان المدينة – «هل من نافع ان تأخذ بلادنا خريطة بالطائرة؟».- 1927.

ما بعد حدود «أرض الغزال»

جغرافيّات فلسطينيّة ونقد الربط الصهيونيّ الكولونياليّ

آفي - رام تزوريف

ملخص

في مقال نشر في حزيران 1930، دعا محمد روشان أخطر، محرر صحيفة فلسطين اليومية الناطقة باللغة الإنجليزية إلى تأسيس فدرالية عربية، معتبراً اليهود جزءاً لا يتجزأ من المجتمع السياسي الذي تمتد أراضيه «من البصرة إلى يافا». وقد لاقى مقال أخطر رد فعل حماسياً لدى المؤلف وكاتب المقالة يهوشوا رادلر فلدمان (والمعروف أيضاً ر. ب. بنيامين). وقد اعتبر ر. ب. أنَّ المساحة الشاسعة الواقعة بين البصرة ويافا - والتي يُفترض أن تشكّلَ أساسَ وحدة الأراضي العربية ضدّ الاستعمار - تشكّل أساساً لتفكير مختلف حول الوجود اليهودي في فلسطين تحديداً والشرق الأوسط عموماً. وقد تنبّأ بوجود جماهير يهودية منتشرة في شتّى أنحاء المنطقة، حيث ستلعب المجتمعات اليهوديّة الشرق أوسطيّة دوراً مهماً. ويركّز المقال على بلورة النظرة المكانيّة الخاصة بـ ر. ب. خلال فترة الانتداب البريطاني، والأهمّية التي رآها في الارتباط بالنضال ضدّ الاستعمار، والتشابه بين هذا التوجّه وبين مواقف المفكّرين الفلسطينيين والنشطاء السياسيّين. كما يبحث المقال النظرة اللاهوتيّة لأرض إسرائيل و»الأراضي المتاخمة لها»، والتي تضع أسس المنطق المكاني الذي قام ر. ب. بوضعه.

كلمات مفتاحيّة

ثنائيّة القوميّة، مكافحة الاستعمار، الاستقلال، الصحافة الفلسطينية، الصهيونيّة، تحالف السلام (بريت-شالوم)، الثورة السوريّة، الاستشراق، اللاهوت السياسي، الاستعمار البريطاني

في حزيران 1925، انتقد مقال نشر في صحيفة هآرتس أعضاء اليشوف[1] لسماحهم لـ "عفودا زارا»، وهو مصطلح يعني الشرك، ولكنّه يعني هنا حرفياً «العمالة الأجنبية»، طالما أنّها لا تنافس بشكل مباشر العمالة العبريّة.[2] يعكس استخدام

المصطلح بمعناه الحرفي قدراً أكبر من العلمنة والتوطين للمصطلحات والممارسات اليهودية التقليديّة في الخطاب الصهيوني. وقد تمّت إعادة بناء الحظر الديني للشرك كمصطلح قومي تأسيسي من أجل تطوير اقتصاد عبري منفرد إثنياً ورافض لأيّ شكل من العمالة العربيّة. وقد عكس هذا عمليّة بناء الاقتصاد القومي كمساحة مقدّسة، حيث يُحظر انخراط الأجنبي (أي غير اليهودي) في العمل – وهو أمر يُفهم على نحو وطني وعلماني. أشار كاتب المقال الرافض لمنطق الاقتصاد القومي المنفرد إلى هذا اللاهوت السياسي من خلال استخدام اسم مستعار وهو «مين» (ويعني الهرطوقي باللغة العبريّة).

كان «مين» هو يهوشوا رادلر- فيلدمان، وهو يهودي متديّن، ومؤلّف وكاتب مقال، عُرف أيضاً باسم ريب بنيامين (1880-1957، ويشار إليه هنا باسم ر. ب.). ولد ر.ب. في زبوروف في هابسبورغ، غاليسيا سنة 1880. غادر ر. ب. غاليسيا سنة 1900 متجهاً إلى برلين، حيث تابع دراسته في الجامعة الزراعية في برلين (Königlichen Landwirtschaftlichen Hochschule zu Berlin). في سنة 1906، انتقل إلى لندن ثم هاجر إلى فلسطين في السنة التالية. وحيث أنّه نشأ في امبراطورية هابسبورغ متعدّدة القوميات، حيث يتقاطع الانتماء القومي مع الولاءات المحليّة والإمبراطوريّة، يبدو أنّ ر. ب. انجذب نحو فهم الشراكة المدنيّة المحليّة كأساس للتعامل في فلسطين العثمانية خلال تلك الفترة. وقد شدّدت هذه الأفكار على المواطَنة العثمانية المصاحبة لارتباطات محليّة وجماعيّة أخرى كنقطة مشتركة لتعريف العثمانيّين المسلمين، والمسيحيّين واليهود. وكان هذا مفيداً بشكل خاص للعثمانيّين الفلسطينيّين اليهود الأشكناز(الغربيّين) والسفارديم (الشرقيّين)، والذين عرّفوا أنفسهم بوصفهم «أبناء البلد» (بناي هآرتس).[3] وكان هذا المفهوم للانتماء منسجماً مع مخيّلة مكانيّة مختلفة عن النموذج الانفصالي الذي كانت القيادة الصهيونيّة تروّجه.

سعى الييشوف الصهيوني في فلسطين العثمانية إلى خلق مساحة يهوديّة مميّزة -وخصوصاً بعد تأسيس مكتب فلسطين سنة 1908. فكانت السياسات الاستيطانية الاستعماريّة المكانيّة والاقتصاديّة، والمعروفة عموماً «بغزو الأرض» و«غزو العمل»، تسعى إلى إيجاد حيّز فريد و«نقي» داخل فلسطين، بحيث يمكن أن يميّز نفسه ثقافياً ولغوياً عن محيطه العربي واليهودي الأصلي.[4] وعلى الرغم من أنه خدم كمسؤول رسمي في مكتب فلسطين، إلاّ أنّ ر. ب. كان ناقداً حاداً لتلك السياسات. حاولت جهود الهيمنة الصهيونية الاستعماريّة الاستيطانيّة غرس مجتمع يهودي أوروبي في غالبه وإرسائه كمجتمع «أصلي»، وذلك بالدرجة الأولى من خلال شراء الأراضي وطرد الفلّاحين الفلسطينيّين منها، وبناء اقتصاد منفصل، والدفاع عن «نقاء» اللغة العبريّة. غير أنَّ ر.ب. وضع مفهوماً مختلفاً للانتماء اليهودي في فلسطين: فقد اعتمد مفهومه على رؤية استعادة الصلات مع الأقارب، ومن هنا شدّد على الروابط الثقافيّة اليهوديّة - العربيّة والدينيّة اليهوديّة - الإسلاميّة. كما انتقد نفي الصهيونية المهيمنة للوجود الفلسطيني المحلي واليهودي المتصل بالمنفى (غير السيادي، والتقليدي والديني).

إنَّ الحرب العالمية الأولى، وانهيار الإمبراطورية العثمانية، والانتداب البريطاني أوجدت جميعها ظروفاً جديدة أمام الييشوف الصهيوني. فبينما دعم الانتداب الحركة الصهيونيّة وسمح بإقامة مؤسّسات قوميّة يهوديّة منفصلة في فلسطين، فقد عارض أيّة إمكانيّة لإقامة مؤسّسات سياسيّة محليّة تعبّر عن التطلّعات السياسيّة والقوميّة الفلسطينيّة. لذا، روّجت حكومة الانتداب البريطاني السياسات الاستعماريّة التي أخضعت الفلسطينيّين العرب للمستوطنين اليهود الصهاينة بشكل متزايد.[5] فكان الالتزام البريطاني بوعد بلفور، والذي أيّد إقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين، يعني إنكار التطلّعات القوميّة للفلسطينيّين العرب. وتحوّل وضع الحركة الصهيونيّة من مجموعة انفصالية تسعى للتكيّف مع الدولة العثمانية والتمسّك بروابط غامضة نوعاً ما بالقوى الاستعماريّة الأوروبيّة، إلى حليف للنظام الاستعماري المسيطر على فلسطين سيطرة مباشرة.

بعد الحرب الكبرى، وبوحي من كتابات روبندرونات طاغور وموهنداس كرماشاند (مهاتما) غاندي المعادية للاستعمار، وجّه ر.ب. انتقاده للتعاون الصهيوني مع الأنظمة الاستعماريّة ومساعيها نحو السيادة.

وفـي مقالـه المنشـور فـي هآرتـس فـي تمـوز 1025، دعـا ر.ب. «مـن لديهـم روحٌ كَروحنـا» إلـى الانضمـام إلـى الجماعـة الجديـدة، فشـكّل ذلـك الإعـلان الأوّل عـن حركـة بريـت شـالوم ثنائيّـة القوميّـة. وقـد اقتبـس ر.ب. مـن هوغـو بيرغمـان - أحـد رفاقـه المسـتقبليّين فـي بريـت شـالوم - والـذي انتقـد قيـام القائـد حاييـم وايزمـان بالتوسّـل إلـى رجـل الدولـة البريطانـي دافيـد لويـد جـورج، طالبـاً منـه المسـاعدة فـي إقامـة علاقـات يهوديّـة - عربيّـة فـي فلسـطين. وقبـل ذلـك بشـهر، فـي حزيـران 1925، كان بيرغمـان قـد وصـف دعـوة وايزمـان فـي صحيفـة دافـار علـى النحـو التالـي:

> «هـذا يـدلُّ علـى أنَّ وايزمـان، حيـث يجثـم فـي لنـدن، هـو غيـر قـادر علـى فهـم مـا الـذي يحـدث فـي الشـرق... تحـدّث اليـوم مـع الفلسـطينيّين العـرب واسـتمع إليهـم وهـم يتحدّثـون باعتـزازٍ عـن عبـد الكريـم وحملتـه ضـدّ فرنسـا، لتفهـمَ أملهـم فـي الحركـة الوطنيّـة الهنديّـة، وقيـادةَ الأخويـن علـى وغانـدي. لقـد أصبحـت أرض إسـرائيل جـزءاً لا يتجـزأ مـن الشـرق ككلّ مـن خـلال الآمـال والتطلّعـات المشـتركة لجميـع العـرب.[6]

بالنسـبة لــ ر.ب. وبيرغمـان، يُعتبـر اعتمـاد الصهيونيـة علـى الإمبرياليّـة الأوروبيّـة خطـأً جوهريـاً فـي علاقـات الصهيونيّـة بالعـرب ككلّ، وسـوء فهـم للتبعـات التاريخيّـة للاضطرابـات السياسـيّة التـي تهـزّ الشـرق الأوسـط وآسـيا، وإخفاقـاً فـي إدراك قـوة الدعـوة إلـى حمـل السـلاح لمكافحـة الإمبرياليـة. أشـار بيرغمـان إلـى أنَّ التشـخيص السياسـي للنضـال ضـد الاسـتعمار يسـتخلص أنَّ فلسـطين ليسـت سـاحة فريـدة ومنفصلـة فـي المحصّلـة، وهـي سـتصبح مـن خـلال المشـاركة فـي الانتفاضـة العالميّـة ضـدّ الغـرب، «جـزءاً مـن الشـرق».

إنَّ قـرار ر.ب. اسـتخدام كلمـات بيرغمـان بهـذا القـدر مـن الوضـوح فـي الدعـوة العامـة للانضمـام إلـى مـا سـيصبح بريـت شـالوم، إنّمـا يؤكـد علـى الأهمّيـة التـي كان ر.ب. يوليهـا لتخيّـل بديـل جغرافـي يشـكّل فيـه النضال ضـدّ الاسـتعمار أساسـاً مشـتركاً للتعـاون القابـل للعيـش بيـن اليهـود والعـرب فـي فلسـطين. وفـي ختـام مقـال هآرتـس، كتـب قائـلاً: «إنَّ الشـرق العظيـم يسـتيقظ، ويفتـح أعينـه وينظـر إلينـا، أيضـاً... قـادة الـرأي هـم علـى وشـك تحديـد مواقفهـم تجاهنـا. وكلُّ مـا لديهـم هـو سـؤال واحـد: هـل أنتـم معنـا أم ضدّنـا؟».[7] كانـت تلـك هـي اللحظـة، علـى حـدِّ زعمـه، التـي تقـوم فيهـا الصهيونيـة باتّخـاذ القـرار حـول ولائهـا فـي المنطقـة، والموقـع الـذي ترغـب فـي إرسـاء جذورهـا فيـه.

إنَّ إصـرا ر.ب. وبيرغمـان علـى توسـيع النطـاق المكانـي، وعلـى نظرتهمـا لفلسـطين كجـزءٍ مـن الـكلّ الجغرافـي العربـي الأكبـر، ومطالبتهمـا بـأن ترتبـط الحركـة الصهيونيـة بالنضـالات الإقليميّـة ضـدّ الاسـتعمار، يكشـف عـن دور مكافحـة الإمبرياليـة فـي بلـورة نقـد بريـت شـالوم لهيمنـة القيـادة الصهيونيـة المعاصـرة. أظهـر أمنـون راز-كراكوتزكيـن مركزيـة المواقـف المعاديـة للاسـتعمار والمطالبـة بالوقـوف «إلـى الجانـب الصحيـح مـن المتـراس» فـي أطروحـات غيرشـوم شـوليم حـول ثنائيّـة القوميـة، مبيّنـاً «التـآكل المتسـارع فـي قيَـم الاسـتعمار»... الأمـر الـذي مكّـن مـن محـو اليهـود مـن أوروبـا».[8] كذلـك أشـار زوهـار مـاور إلـى النقـد المعـادي للاسـتعمار فـي كتابـات كلٍّ مـن هانـس كـون، وهوغـو بيرغمـان، وغيرشـوم شـوليم، وكيـف أنّـه شـكّل البنيـة التحتيّـة لنقدهـم للنمـوذج العلمانـي الأوروبـي للدولـة القوميّـة».[9] إنَّ رفـض الاعتمـاد علـى القـوّة الإمبرياليّـة شـكّل بالنسـبة لهـم عامـلاً حاسـماً يهيّـئ لإيجـاد نمـوذج سياسـي بديـل ليهود فسـطين. كمـا أنَّ هذا النمـوذج غيـر الإمبريالـي سـيرفض أيضـاً الأسـاس المعاصـر للدولـة القوميّـة ونماذجهـا للسـلطة، وسيشـكّل مبنـىً سياسـياً مختلفـاً وعابـراً للقوميّـات، يمكـن أن يكـون قوميّـاً آسـيوياً pan-Asian فـي حالـة يهـود فلسـطين علـى سـبيل المثـال، كمـا اقتـرح هانـس كـون. إلاّ أنَّ العديـد مـن هـذه المحـاور حافظـت علـى تمييـز واضـح بيـن المشـاعر الرومانسـيّة تجـاه الثـراء المفتـرض لثقافـات وفلسـفات الشـرق الأقصـى، وبيـن ازدراء غيـر مـدروس للعـرب والمسـلمين.[10] قـد تسـاعد مراجعـة كتابـات ر.ب. وإعـادة قـراءة المـوادّ الناقـدة لبريـت شـالوم مـن

هـذا المنظـور علـى رصـد الحلقـة المفقـودة بيـن إطـار الدولـة القوميّـة وإطـار القوميّـة الآسـيوية: التخيّـل المكانـي للوحـدة العربيـة. يجـب فهـم هـذه الكتابـات ضمـن السـياق السياسـي المعاصـر الأوسـع للنضـال ضدّ الاسـتعمار، وللحملـة العربيـة الهادفـة لتوحيـد المناطـق التـي قـام المسـتعمرون الذيـن رسـموا الخرائـط بتقطيـع أوصالهـا. إنَّ محاولـة إعـادة قـراءة حركـة التاريـخ مـن وجهـة نظـر ر.ب.، تسـلّط الضـوء علـى الفـوارق القائمـة بيـن موقفـه وبيـن مواقـف باقـي أعضـاء الحركـة، مـا يكشـف عـن جوانـب مهمّـة فـي أنشـطة بريـت شـالوم-والحركات ثنائيّـة القوميـة الأخـرى التـي تـمّ تأسيسـها لاحقـاً، مثـل كيدمـا ميزراحـا Kedma-Mizraha، ورابطـة التقـارب اليهـودي العربـي League for Jewish-Arab Rapprochement، و إيهـود Ihud - والتـي غالبـاً مـا يتـمّ إغفالهـا. تطعـن هـذه الجوانـب؛ أي تحديـداً التشـديد علـى الوحـدة العربيّـة المكانيّـة ونقـد التعـاون الصهيونـي – الاسـتعماري - فـي أطـر التحليـل القائمـة والمتعلّقـة بدورهـا فـي التاريـخ الفكـري والسياسـي لإسـرائيل/ فلسـطين.

إنَّ الشـراكة اليهوديّـة - العربيّـة، والمرتبطـة بمجتمعـات اليهـود الأصليّيـن فـي فلسـطين، والنظـرة المتشـددة، أو «القصـوى» تجـاه هجـرة اليهـود مـن أوروبـا إلـى الأراضـي العربيـة حيـث انطلقـت دعـوة ر.ب. للصهيونيـة لكـي تتخيّـل اندمـاج يهـودي فـي الإطـار المسـلم الواسـع، عوضـاً عـن الإطـار المكانـي «الآسـيوي» فحسـب، وإيجـاد قضيّـة مشـتركة مـع العـرب المعارضيـن لتقسـيم الأراضـي العربيـة بحـدود اسـتعمارية فـي أعقـاب الحـرب العالميّـة الأولـى. أقـرَّ ر.ب. فـي كتاباتـه الأولـى، بأوجـه الشـبه الدينيّـة والثقافيّـة بيـن اليهوديّـة والإسـلام، واسـتخدمها كحجّـة مركزيّـة وكمصـدر لشـراكة يهوديـة - عربيـة.[11] كمـا أنَّـه اشـترك فـي مخيّلـة مكانيّـة مشـتركة مـع اليهـود الأصليّيـن فـي فلسـطين، والذيـن رفضـوا الفكـر الانفصالـي الصهيونـي المهيمـن. (كمـا يزعـم كلٌّ مـن أبيجيـل جاكوبسـون وموشـي نـاور، انتقـد بعـض اليهـود الشـرق أوسـطيين سياسـات القيـادة الصهيونيّـة خـلال فتـرة الانتـداب أيضـاً.[12] لكـنَّ آخريـن تبنّـوا المقاربـة المكانيّـة الصهيونيّـة كمـا سـنناقش لاحقـاً).[13] كذلـك كانـت رؤيـة ر.ب. رؤيـة للصهيونيّـة تتّسـم بتبنّيهـا للحـدّ الأقصـى، حيـث أنّـه اعتبـر فلسـطين مسـاحة محـدودة جـداً لاسـتقبال اليهـود الأوروبيّيـن الذيـن اضطهـدوا فـي مواطنهـم، وبالتالـي هـم بحاجـة إلـى كل الأراضـي العربيـة كمقصـد لهجـرة هـؤلاء اليهـود. شـخّص ر.ب. فـي كتاباتـه منـذ سـنة 1923؛ أي بعـد خمـس سـنوات فقـط مـن الاحتـلال البريطانـي الـذي أنهـى قرونـاً مـن الحكـم العثمانـي، قائـلاً إنَّ التحـدي الأكبـر الـذي يواجـه الحركـة الصهيونيـة «يتعلّـق بالشـرق؛ أي: عـدم الانسـحاب إلـى داخـل حـدود «أرض الغـزال» Eretz Hatzvi.[14] إنَّ نقـد ر.ب. للإطـار المرجعـي المكانـي الضيـق، ومفهومَـه للسـاحة الإسـلاميّة - العربيّـة الموحَّـدة، ودعوتَـه للصهيونيّـة للاصطفـاف إلـى جانـب النضـالات ضـد الاسـتعمار، يتطلّـب الجمـعَ والمقارنـة مـع الكتابـات الفلسـطينيّة المعاصـرة لـه، كمـا يتطلّـب تحليـلاً لكيفيّـة تخيّلـه لمسـتقبل فلسـطين/ أرض إسـرائيل فـي مثـل هـذا الإطـار مـا بعـد الإمبريالـي، حيـث إن هـذه الإعـادة لوضـع الأمـور فـي سـياقها، تسـلّط الضـوء علـى تحـوّل ر.ب. نحـو تجـاوزِ الحـدود المفاهيميّـة والمكانيّـة التـي فرضهـا الاسـتعمار الأوروبـي، واسـتبدالَها بأطـر عمـلٍ إقليميّـة بديلـة، تضـع مفهومـاً للمسـاحة العربيّـة - الإسـلاميّة باعتبارهـا وحـدة واحـدة متواصلـة، يمكـن أنْ تتعايـش فيهـا أعـداد كبيـرة مـن المسـاعي المحليـة للتحـرّر.

الصهيونية كرمز لحكم الإنجليز

نشـر ر.ب. بعـد أسـبوعين مـن افتتاحيتـه المذكـورة أعـلاه فـي هآرتـس فـي تمـوز 1925، مقـالاً قصيـراً آخـر فـي صحيفـة «هيـد ليتـا» الصهيونيـة اليوميـة الصـادرة فـي كاونـاس، ليتوانيـا.[15] وقـد زعـم ر.ب. فـي ذلـك المقـال أن معاهـدة فرسـاي، التـي تتبنـى «حـق تقريـر المصيـر»، بالفعـل منحـت الحقـوق السياسـية للكثيـر مـن الشـعوب الأوروبيّـة، إلا أنَّهـا سـحبتها مـن شـعوب الشـرق عـن طريـق النظـام الانتدابـي. واعتبـرت عصبـة الأمـم التـي كانـت حديثـة النشـأة آنـذاك، شـعوب الشـرق «شـعوباً مـن الدرجـة الثانيـة، بحاجـة إلـى وصايـة الشـعوب

الأوروبيـة». كمـا زعـم ر.ب. أنّـه لا يمكـن تجنّـب الشـعور بـأن «المسـألة تتعلّـق بالمسـيحيّة وعلاقتهـا بالإسـلام» فـي هـذه النتائـج. أدى هـذا الفهـم للسياسـة العالميـة مـا بعـد الحـرب بشـعوب الشـرق إلـى إدراك أن «الغـرب بأكملـه ينظـر إلـى الشـرق كمـادة للاسـتغلال»، وأنَّ «مهمـة الشـرق فـي المسـتقبل القريـب هـي التحـرّر مـن عـبء الغـرب». ولهـذا السـبب، وبحسـب ر.ب.، «تديـر مقاومـة الشـرق (أبصارهـا) أوّلاً وقبـل كلّ شـيء نحـو إنجلتـرا»، المملكـة التـي تقـع «فـي رئاسـة النظـام الانتدابـي».[16]

وفـي هـذا الخصـوص، كمـا يزعـم ر.ب.، كان موقفـه يعكـس المواقـف المعاصـرة فـي الأراضـي العربيـة، «كل هـذه المنطقـة موحـدة فـي لسـانها العربـي»، و«تعتبـر فـي الفكـر وفـي المشـاعر وحـدة واحدة. الانسـجام الثقافـي يوحّـد جميـع القبائـل. كلهّـم يتشـاركون فـي التطلّـع نحـو التحـرّر ومقاومـة الغـرب. وبشـكل خـاص ضد الإنجليـز». أدرك ر.ب. كراهيـة العـرب والمسـلمين للصهيونيـة فـي ظـل تلـك الظـروف. لـم يكـن القـادة العـرب والمسـلمون يعارضـون الصهيونيـة علـى أسـاس «كراهيـة خفيـة لليهـود»، ولكـن بسـبب حقيقـة أنَّ «الصهيونيـة تبـدَّت كرمـز لحكـم الإنجليـز - وخاصـة فـي اللحظـات التـي كان الغضـب ضـد الإنجليـز فـي تصاعـد».[17]

كانـت أشـد المتاعـب التـي تواجههـا الحركـة الصهيونيـة بحسـب ر.ب. هـي اعتمادهـا علـى السـلطة الاسـتعمارية البريطانيـة. فقـد أدَى هـذا الاعتمـاد إلـى اعتبـار الصهيونيـة الـذراع القـوي لبريطانيـا؛ أي مبغوضـة مـن السـاعين للتحـرّر مـن الاسـتعمار. قامـت القـوى الاسـتعمارية الأجنبيّـة بتقطيـع المنطقـة وحكـم أجزائهـا، وغرسـت الحركـة الصهيونيـة كشـريك متواطـئ، ومنحتهـا القـوة لتحقيـق غاياتهـا، الأمـر الـذي بـدوره جعـل الصهيونيـة محـلّ كراهيـة. وقـد شـدد ر.ب. مـراراً وتكـراراً علـى أن اندمـاج الصهيونيـة يتطلـب التماهـي مـع حـركات التحـرّر:

> «يواجـه الشـرق شـعب إسـرائيل بالسـؤال: هـل أنـت واحـد منّـا أم مـن أعدائنـا؟ بمعنـى آخـر: هـل يجـب علـى اليهـودي الـذي يذهـب إلـى أرض إسـرائيل أن يحـدّد علاقاتـه وموقعـه... إن كان ينتمـي للغـرب أو للشـرق. فلَئـن اختـار الأول، فهـو يصبـح بالطبـع مرتبطـاً بمصيـر الغـرب، ويجـب عليـه أن يفقـد أي فرصـة للتمتـع بعلاقـة طيبـة مـع الشـرق».[18]

زعـم ر.ب. أن الصهيونيـة لا يمكنهـا أن تواصـل ترددهـا: بـل يجـب عليهـا أن تضـع ثقلهـا علـى أحـد جانبَـي الصـراع، فإمـا أن تنحـاز إلـى جانـب شـعوب الشـرق المناضلـة مـن أجـل التحـرر، أو إلـى جانـب مضطهديهـم المسـتعمِرين. إنَّ محاولـة الحركـة الصهيونيـة الجلـوس فـوق السـور، وطـرح نفسـها علـى أنّهـا حركـة تسـعى لنهضـة اليهـود فـي الشـرق، والاسـتمرار فـي الوقـت نفسـه فـي التمسّـك بأذيـال الغـرب، يجـب أن تفضـي بهـا إلـى اتخـاذ قـرارٍ واضـح فـي المحصّلـة.

الصهيونية في ظلّ المقاومة العربيّة ضدّ الاستعمار: المراسلات مع بولس شحادة

يمكـن الاطّـلاع علـى رؤيـة ريـب بنياميـن (ر.ب) تجـاه الالتـزام بالنضـالات المناهضـة للاسـتعمار فـي العالـم كأسـاس للتعـاون اليهـودي العربـي فـي فلسـطين فـي سلسـلة مـن التبـادلات العامـة مـع بولـس شـحادة (1882-1943)، محـرّر الصحيفـة الفلسـطينية مـرآة الشـرق، خـلال شـهر تشـرين الثانـي 1925.[19] كان ر.ب علـى اطـلاع وثيـق بالصحافـة الفلسـطينية الناطقـة باللغـة العربيـة، حيـث أنّـه تـرأس فـي السـنوات الأخيـرة مـن الحكـم العثمانـي دائـرة الصحافـة العربيـة فـي مكتـب فلسـطين، والـذي تأسّـس عـام 1910، وكان الـدور المحـدد للدائـرة هـو متابعـة مناقشـة الييشـوف فـي الصحافـة الفلسـطينية، والمشـاركة فـي هـذه النقاشـات لصالـح الاسـتعمار الصهيونـي فـي عـدة مناسـبات.[20]

بالنسـبة لــ ر.ب، فقـد وفّـرت لـه الدائـرة فرصتَـه الأولـى للتعـرّف علـى التّوجهـات السياسـيّة والثقافيّـة

التـي كانـت تتبلـور بيـن الفلسـطينيين.[21] غالبـاً مـا تضمـّنت كتاباتـه النقديـة للسياسـات الاسـتيطانية الصهيونيـة ترجمـات مـن الصحافـة الفلسـطينية، متضمّنـة انتقـادات للمسـؤولين الحكومييـن العثمانييـن الذيـن تـمّ إلقـاء اللـوم عليهـم لتخلّيهـم عـن الفلّاحيـن الفلسـطينيّين المحليّيـن، بينمـا قامـت المؤسّسـات الصهيونيـة بشـراء الأراضـي وطـرد السـكان المحلييـن. سـعى ر.ب مـن خـلال تأديـة عملـه كـ «كصـدى» للصحافـة العربيـة، إلـى فتـح مـا اعتبـره آذانـاً مغلقـة لليشـوف الصهيونـي تجـاه النظـرة الفلسـطينيّة للصهيونيّـة.[22]

لعبـت المجـلات والصحـف الفلسـطينية دورًا مهمًـا فـي قيـادة المعارضـة الفلسـطينية للاسـتعمار الصهيونـي منـذ تأسيسـها بعـد تجديـد الدسـتور العثمانـي عـام 1908 - وخصوصـاً منـذ نهايـة عـام 1910 وبدايـة عـام 1911.[23] وكانـت الصحـف، مثـل صحيفـة نجيـب نصـار الكرمـل تتحـدث يوميـاً عـن شـراء الصهاينـة للأراضـي وطـرد الفلاحيـن وتحـذر مـن مخاطـر السياسـة الصهيونيـة فـي الاسـتيلاء علـى الأراضـي. أمّـا صحيفـة فلسـطين - والتـي أسّسـها ابنـا العـمّ عيسـى العيسـى ويوسـف العيسـى، عـام 1911 – فقـد اتّبعـت نهجًـا أكثـر تناقضًـا اتجـاه الاسـتعمار الصهيونـي فـي السـنة الأولـى مـن صدورهـا، مشـيرةً إلـى فوائـده المحتملـة كقـوة لإدخـال «الحداثـة» علـى المناطـق الريفيـة، ومفسـحةً المجـال للكتّـاب الصهاينـة للـرّد علـى التحليـلات النقديّـة للاسـتعمار الصهيونـي. ولكـن صحيفـة فلسـطين أصبحـت أيضًـا أكثـر انتقـادًا للتهديـدات الصهيونيـة للمسـتقبل السياسـي والاقتصـادي للعـرب الفلسـطينيين، وخصوصًـا بعـد الاشـتباك الدامـي فـي عـام 1913 بيـن المسـتعمرين اليهـود فـي رحوفـوت وقريـة زرنوقـة المجـاورة، وأصبحـت فـي النهايـة وسـيلة إعلاميـة رئيسـيّة للمعارضـة الفلسـطينيّة للاسـتعمار الصهيونـي.[24]

خـلال الحـرب العالميـة الأولـى، أغلقـت السـلطات العثمانيـة المجـلات والصحـف الفلسـطينية، ولكـن بحلـول عشـرينيات القـرن الماضـي، تعافـت الصحافـة الفلسـطينية مـن شـلل أوقـات الحـرب، وظهـرت كموقـع رئيسـيّ للتعبيـر الكتابـي السياسـي الفلسـطيني. خـلال هـذه الفتـرة، لعبـت صحيفـة بولـس شـحادة مرآة الشـرق دورًا مهمًـا. انطلقـت مـرآة الشـرق فـي أيلـول 1919، وشـكّلت الناطـق السياسـي الرئيسـي للمجموعـة السياسـية المرتبطـة بعائلـة النشاشـيبي، والمعروفـة أيضًـا باسـم (المعارضـة) للحسـينيّين والمجلـس الإسـلامي الأعلـى، والـذي كان يتمتـع بالرعايـة الاسـتعماريّة. وعلـى الرغـم مـن أنّ الصحيفـة تبنّـت موقفـاً عامـاً تصالحيـاً مـع السـلطات الاسـتعمارية البريطانيـة، إلاّ أنَّهـا كانـت أيضـاً «تنتقـد السياسـات البريطانيّـة فـي كثيـر مـن الأحيـان»، واتّخـذت جنبًـا إلـى جنـب مـع الصحـف الفلسـطينية الأخـرى، خطـاً معارضـاً فيمـا يتعلـق بمسـألة الصهيونيـة.[25] وبينمـا تركّـزت معارضـة الصهيونيـة فـي أواخـر العهـد العثمانـي بشـكل أساسـيّ علـى شـراء الأراضـي وطـرد الفلّاحيـن، أدّى قيـام الانتـداب البريطانـي إلـى ارتبـاط الصهيونيّـة بالسـلطة الاسـتعماريّة، وأصبـح وعـد بلفـور بشـكل خـاص رمـزاً للعلاقـة بيـن الصهيونيّـة والقـوى الاسـتعماريّة.[26]

فـي عـام 1925، بـرزت الثـورة السـورية الكبـرى كرمـز للمقاومـة العربيـة المنظّمـة ضـدّ الاسـتعمار، حيـث شـارك فيهـا الفلاّحـون مـن الريـف، وتجّـار المـدن، وضبّـاط الجيـش، وقامـت باختـراق الحـدود التـي فرضتهـا سياسـات «فـرّق تسـد» الاسـتعماريّة.[27] واحتـلّ المطلـب السـوري بالتحـرّر مـن العـبء الاسـتعماري الفرنسـي، وتطلّـع سـورية إلـى إعـادة تأكيـد اسـتقلال بـلاد الشـام بأكملهـا (المقسّـمة إلـى مناطـق الانتـداب الفرنسـي والبريطانـي) كوحـدة جيوسياسـية واجتماعيـة اقتصاديـة واحـدة، موقعـاً رئيسـياً فـي الصحافـة العربيـة الفلسـطينية. فقامـت مـرآة الشـرق بتغطيـة الثـورة أسـبوعياً، وكمـا زعـم فوسـتر - «لـم تتـرك فرصـة إلّا وانتهزتهـا للإشـادة بالمتمردّيـن السـوريين».[28]

وانتقـد شـحادة فـي رسـالة مفتوحـة بعنـوان «إلـى الصحافـة العبريـة» صـدرت فـي تشـرين الثانـي 1925، بشـدّة طريقـة تنـاول الصحـف الفلسـطينية الناطقـة بالعبريـة للانتفاضـات الشـعبية فـي جبـل الـدروز ودمشـق ضـد النظـام الاسـتعماري الفرنسـي، والثـورة التـي قادهـا عبـد الكريـم الخطابـي ضـدّ الفرنسـيين والإسـبان فـي منطقـة الريـف بالمغـرب. وبينمـا تحدّثـت الشـخصيات العامّـة الصهيونيّـة فـي كثيـر مـن الأحيـان عـن تطلّعاتهـا الخاصـة لتحقيـق تفاهـم متبـادل بيـن اليهـود والعـرب، مؤكّـدة علـى الارتبـاط السـاميّ المشـترك بيـن

المجموعتيـن، أوضـح شـحادة أنّهـم يقوّضـون هـذا الاحتمـال بالـذات مـن خـلال الوقـوف إلـى جانـب مضطهـدي العـرب ضـدّ التطلّعـات المشـروعة للتحريـر:

> «رأينـاك فـي الحـرب الريفيـة قـد اتخـذت جانـب فرنسـا وإسـبانيا... ونسـيت مـا فعلتـه بـك الأخيـرة منهمـا، ولـم تظهـري شـيئاً مـن العطـف علـى الريفييـن. رأينـاك فـي الثـورة الدرزيـة قـد اتخـذت جانـب فرنسـا ولـم تظهـري شـيئاً مـن العطـف علـى الـدروز وعلـى السـوريين ونسـيت أن السـوريين والـدروز سـاميون مثلـك، نسـيت أن رابطـة الجـوار تجمعـك بهـم، نسـيت أنـك عائشـة كالجزيـرة الصغيـرة فـي وسـط أوقيانـوس عربـي كبيـر، نسـيت أنـه لا يجمعـك شـيء بالفرنسـيين لا مـن حيـث القوميـة ولا مـن حيـث اللغـة ولا مـن حيـث الديـن، نسـيت أنـك بعملـك هـذا تكذبيـن مـا يـردده زعمـاؤك مـن وقـت لآخـر.»[29]

اسـتند نقـد شـحادة لموقـف الصحافـة العبريـة المؤيّـد للاسـتعمار فـي تغطيتـه علـى النسـيان -تناسـي العلاقـات بيـن الأنظمـة الأوروبيـة واليهـود عبـر التاريـخ، وتناسـي التماثـل التاريخـي لليهـود مـع الشـعوب المضطهَـدة، ونفـي الطريقـة التـي اتبعتهـا الصهيونيـة فـي تقديـم نفسـها للعـرب. بحسـب شـحادة، يعكـس موقـف الصحافـة العبريـة مـن هـذه النضـالات محاولـة الصهيونيـة لمحـو التاريـخ اليهـودي، الأمـر الـذي يجـب أن يضـع اليهـود بقـوّة فـي صـف العـرب المتمرديـن علـى أسـيادهم المسـتعمِرين الغربييـن.

لقـد أثـار التعبيـر المجـازي لشـحادة عـن الييشـوف الصهيونـي علـى أنـه يعيـش «كالجزيـرة الصغيـرة فـي وسـط أوقيانـوس عربـي كبيـر» خيـالًا مكانيًـا رافضـاً للتصالـح مـع الجغرافيـا الاسـتعمارية الناشـئة. زعـم شـحادة أنّـه لا ينبغـي تقييـم أنشـطة اليهـود الصهاينـة فـي فلسـطين الانتدابيـة وفقًـا لهـذه الوحـدة الجغرافيـة المحـدودة، بـل وفقًـا لكيفيـة نظرهـم إلـى حـركات التحـرّر التـي تندلـع فـي جميـع أنحـاء «الأوقيانـوس العربـي الكبيـر». بتحالفهـم مـع الفرنسـيين والإسـبان، خـان الصهاينـة رغباتهـم فـي إعـادة إنشـاء الييشـوف كحيّـز أوروبـي مميّـز مـن خـلال خلـق تعـارض بينهـم وبيـن محيطهـم الجغرافـي، والثقافـي والسياسـي الشـرق أوسـطي.

نشـر العـدد التالـي مـن مـرآة الشـرق مقتطفـات مـن ردّ ر.ب، والـذي قـال إنَّ شـحادة اعتمـد علـى افتتاحيتَـي صحيفتَيـن همـا دوار هايـوم (Do'ar Hayom) وبالسـتاين ويكلـي (Palestine Weekly) -واللتَيـن كانتـا بالفعـل معاديتَيـن للانتفاضـات المعاديـة للاسـتعمار، واشـتهرتا بالوقـوف إلـى جانـب القـوى الاسـتعمارية. كشـفت تقاريـر دوار هايـوم حـول الثـورة السـورية عـن قلـق عميـق بشـأن احتمـال انتشـار الانتفاضـات إلـى فلسـطين الانتدابيـة - وهـي منطقـة وفقًـا للصحيفـة «حقّقـت للتـو بعـض السـلام والصفـاء» بفضـل الحكـم البريطانـي. و علّقـت الصحيفـة آمالهـا علـى «السـلطات الفرنسـية وقوتهـا فـي إخمـاد الثـورة قبـل أن تتّسـع وتنتشـر عبـر الحـدود».[30] إلا أنَّ ر.ب زعـم أنَّ أغلبيّـة كبيـرة مـن اليهـود اعترضـت علـى هـذه الآراء وسـعت إلـى فـرض الرقابـة عليهـا.

أشـار ر.ب إلـى صحيفتـي هآرتـس ودافـار كنموذجيـن معاكسـين لموقـف مختلـف، وأكثـر تعاطفـاً مـع النضـالات، وأكثـر تمثيـلاً للـرأي العـام الفعلـي بيـن يهـود فلسـطين.[31] اعتمـدت صحيفتـا هآرتـس ودافـار علـى الصحافـة العربيـة فـي تقاريرهمـا، واعترفتـا بالدمـار الكبيـر والخسـائر العديـدة التـي ألحقتهـا الغـارات الجويـة الفرنسـية بدمشـق فـي تشـرين الأول، حتّـى أنَّهمـا قامتـا بتبريـر الثـورة «بالتجربـة المريـرة التـي مـرَّ بهـا الـدروز. . . تحـت الحكـم الاسـتبدادي لكاربيليـه، [الـذي عيّنـه الفرنسـيّون] حاكـم الجبـل».[32]

بعـد ذلـك ميّـزت الصحافـة العربيـة بيـن «التغطيـة المواليـة للفرنسـيين» فـي دوار هايـوم وبيـن النهـج الأكثـر تحفظًـا الـذي اتبعتـه هآرتـس، مشـيدةً بالأخيـرة كصحيفـة تتمتـع بقـدر مـن الأخـلاق الأساسـيّة اللازمـة لنقـل «الحقيقـة الواضحـة».[33] ومـع ذلـك، فـإنَّ تلميـح ر.ب بـأنَّ غالبيّـة الييشـوف كانـوا متعاطفيـن مـع قضيّـة

الـدروز كان مبالغًـا بـه. فباسـتثناء نشـرها لمقـالات كتبهـا هوغـو بيرغمـان و ر.ب نفسـه، مـن المسـتحيل القـول إنَّ هآرتـس كانـت متعاطفـة فعليـاً مـع الثـورة وأهدافهـا المعلنـة.

ومـن جانبـه، سـعى شـحادة لفضـح مزاعـم ر.ب علـى أنهَّـا مجـرّد أمنيـات، حيـث وصـف ر.ب بأنّـه «أحـد اليهـود الأرثوذكـس. . . والذيـن تختلـف تطلّعاتهـم تمامـاً عـن تطلّعـات الصهاينـة».[34] نقـل شـحادة لقرائـه، مـن خـلال ترسـيخ التمييـز فـي المخطّطـات بيـن الصهاينـة واليهـود الأرثوذكـس، ونسـب آراء ر.ب إلـى انتمائـه إلـى المجموعـة الأخيـرة، السـياق المحـدود الـذي يجـب أن يأخـذوا فيـه كلمـات ر.ب.، كمـا ادّعـى شـحادة أنَّ اليهـود لـم يطمحـوا أبـدًا لأن يكونـوا مسـتقلّين سياسـيًا طـوال تاريخهـم، بـل إنّهـم سـعوا إلـى الاسـتقلال الدينـي والاقتصـادي داخـل الكيانـات السياسـية التـي يحكمهـا غيـر اليهـود بـدلاً مـن ذلـك. كان ذلـك بالضبـط هـو الاختـلاف بيـن اليهـود الصهاينـة فـي فلسـطين وبيـن نظرائهـم: كان برنامجهـم السياسـي مـن أجـل تحقيـق «السـيادة اليهوديـة [مملكـة]»، وهـو هـدف لـن يتحقـق إلاّ عندمـا يحققـون الهيمنـة الكاملـة علـى إقليـم مـا. وبالتالـي، لـن يقبـل الصهاينـة فـي فلسـطين بأقـلّ مـن واقـع سياسـيٍّ يفتقـر فيـه العـرب إلـى سـلطة سياسـية ذات مغـزى. ولهـذا السـبب قـال شـحادة أنَّ الصهاينـة «سـيكونون سـعداء بـأي مأسـاة (نكبـة) أو مشـكلة» قـد تحـلُّ بالعـرب، كمـا أوضحـوا دعمهـم للقـوى الاسـتعمارية - التـي وعـدت بإقامـة دولـة يهوديـة[35].

يذكّرنـا تمييـز شـحادة بيـن الصهاينـة واليهـود الأرثوذكـس، الـذي يكمـن فـي هـدف الجماعـة السـابقة المتمثّـل فـي السـيادة الكاملـة التـي تتجلّـى فـي دولـة يهوديـة، بالتمييـز الأوروبـي بيـن الديـن والقوميّـة، وإن كان لا يعادلـه. فعلـى عكـس الصـورة الأوروبيّـة لليهوديّـة كديانـة؛ أي لا سياسـيّة بطبيعتهـا، ركّـز تمييـز شـحادة بيـن اليهـود الأرثوذكـس والصهاينـة علـى الأطـر السياسـيّة المختلفـة التـي سـعَوا مـن خلالهـا إلـى الاسـتقلال الجماعـي - إمّـا ضمـن إطـار سياسـي أكبـر أو علـى شـكل دولـة يهوديّـة منفصلـة ذات سـيادة تعتمـد على القـوى الاسـتعماريّة. وهكـذا رأى شـحادة أنَّ سياسـة ر.ب هـي أبعـد مـا تكـون عـن الصهيونيـة لدرجـة أنَّـه اعتبـره «أرثوذكسـيّاً». لا يمكـن وصـف الاسـتعداد للتعاطـف مـع الثـوّار السـوريّين علـى الإطـلاق بأنَّـه «صهيونـي» لأنَّ مصيـر الصهيونيـة فـي جوهرهـا كان مرتبطًـا بالإمبرياليّـة حسـب شـحادة، وبالتالـي كانـت الحركـة قلقـةً مـن أيّ سـيناريو يتضمّـن خـروج القـوى الأجنبيـة مـن المنطقـة. وبالنسـبة لشـحادة، كان ر.ب يهوديـاً ملتزمـاً، ولـم يتبـنَّ مطلقـاً التطلّعـات السياسـيّة الصهيونيّة للسـيادة، وبالتالـي كان قـادراً علـى التعاطـف وحتـى علـى مشـاركة الفهـم الشـرقي لأهـداف الثـوار فـي الريـف وفـي سـوريا والتعاطـف معهـم.

تضمـن العـدد التالـي مـن مـرآة الشـرق رسـالة أخـرى مـن ر.ب رفـض فيهـا نظريّـة شـحادة بـأنَّ مواقـف كلٍّ مـن الصهاينـة واليهـود الأرثوذكـس تجـاه العـرب متعارضـة. ذكـر ر.ب مـرّةً أخـرى هآرتـس ودافـار، وأكّـد أنّهمـا صحيفتـان صهيونيّتـان، وأنَّهمـا «بشـكل غيـر متوقَّـع، تنظـران إلـى العـرب بشـكل عـام وتنظـران لمسـألة الريـف والـدروز باحتـرام وتعاطـف».[36] واختتـم قائـلًا:

> إنَّ الصهيونـيّ الحقيقـي يحـبّ أمّتـه، كمـا يحتـرم ويحـبّ سـائر الأمـم والشـعوب سـيّما تلـك التـي تجاهـد فـي سـبيل حريّتهـا. الصهيونـي الحقيقـي يعلـم حـقَّ معرفـة بـأنَّ سـعادة العالـم كلـه مرتبطـة بحريّـة الشـعوب وبتقدّمهـا فـي سـبيل الاسـتقلال.[37]

وهكـذا سـعى ر.ب إلـى اسـتعادة مصطلـح «الصهيونيـة» مـن السياسـة الموالية للإمبرياليـة التـي ارتبطـت بهـا. وبحسـب ر.ب، لـم تـأت المشـاعر الوطنيـة علـى حسـاب التضامـن مـع النضـالات القوميّـة الأخـرى بـل علـى العكـس مـن ذلـك: «الصهيونـي الحقيقـي» يتماهـى «خاصّـة» مـع الشـعوب المسـتعمَرة التـي تناضـل مـن أجـل تحريرهـا. ظهـر هـذا الفهـم لــ «الصهيونيّـة الحقيقيّـة» المتوافقـة مـع النضـال العربـي ضـدّ الاسـتعمار فـي أنشـطة ر.ب كعضـو فـي بريـت شـالوم.

بريت شالوم والتعاون البريطاني الصهيوني «والأمّة العربية الكبرى»

عمل ر.ب. كسكرتير لبريت شالوم وكمحرر مشارك مع هانز كوهن وهوجو بيرغمان في مجلّتها الرسمية، شيفوتينو (She'ifotenu). في مقال نُشر عام 1928 في تلك المجلة، وقف ر.ب. ضدّ السياسات الصهيونية المصمَّمة من أجل تحقيق أغلبية يهوديّة في فلسطين، حيث اعتبرها طموحًا لا يخفى لوضع العرب الفلسطينيّين في وضع الأقليّة داخل نظام سياسي ذي أغلبيّة يهوديّة، وهو وضع يشكّل دافعاً للحروب والصراعات[38]. وأضاف أنَّ الرغبة في تحقيق أغلبيّة يهودية تشكل هدفاً سياسياً خاطئاً لأنّها تبطل أي نهج تعاوني وتفسر على أنَّ المجموعتين لديهما مصالح متعارضة ولا يمكن تلبية أي منهما إلاّ على حساب المجموعة الأخرى. وزعم أنَّ التحول نحو ضمان أغلبية يهودية في فلسطين الانتدابية يتعارض مع الأجندة السياسية الأصلية للصهيونية المتمثلة في البحث عن «حلّ جذري للقضية اليهودية» من خلال «إزالة الملايين - خلال فترة جيل واحد». لقد تطلب السياق السياسي الجديد إعادة حساب للثمن الذي يجب على الصهاينة دفعه لـ «حل القضية اليهودية»:

> السؤال الأول: لمن؟ الإجابة (وأنا أتحدث فقط عن نفسي): للأمة العربية العظيمة. السؤال الثاني: ما هو جوهر الثمن؟ جوابي: يد ممدودة حقيقية، بناء أخوّة، ليس في التصريحات الشاعرية، بل في الواقع الفعلي، والاعتراف بالأخوّة الساميّة كعامل عظيم، وتشكيل منيان minyan، وخلق بنية سياسية عظيمة ومشتركة، مبنى سيؤوي سقفه شعبَين كبيرَين ويحل قضية اليهود الذين يعيشون تحت سقفه، حيث لا يسأل أيٌّ من الشعبَين اللذين يعيشان تحته من في المقدمة ومن لديه «الأغلبيّة». . . هنا ستُبعث رؤية هرتزل بلون مختلف.[39]

لم تقتصر رؤية ر.ب. للمساحة الوطنية على حدود «أرض الغزال»، بل كانت موطنًا لـ «الأمة العربية العظيمة» ككل. ابتعد ر.ب. عن الحدود المقيّدة للترتيبات السياسية التي أعقبت الحرب والتي خصّصت فلسطين كأراضٍ لإقامة وطن قومي لليهود، وعوضاً عن ذلك تصوّر المساحة الكبيرة التي طرحها دعاة الوحدة العربية كجغرافيا بديلة.[40] لا ينبغي لأولئك الذين يفكرون بجدية في الحل الجذري لإزالة ملايين اليهود من أوروبا، أن يحكموا عليهم بالتركز في أراضٍ محدودة بموجب النظام الانتدابي، بل عليهم السماح لهم بالانتشار في جميع أنحاء أراضي «الأمة العربية الكبرى» بدلاً من ذلك. رأى ر.ب. في الأخوّة الساميّة محفزاً رئيسياً في هذا الإطار السياسي، وهو بالتالي أبطل التطلع إلى السيادة اليهودية على أساس الأغلبيّة القوميّة، والتي اعتبرها السبب الجذري للنزاع الأزلي.

وبالتالي، رغب ر.ب. في تبنّي مبادرة هرتزل لحلّ «القضيّة اليهوديّة»، مع تغيير إطار العمل السياسي الذي يشكّل الأداة لتحقيقها - ليس «كجزء من خندق أوروبا في مواجهة آسيا» كما تصوّر هرتزل، ولكن عبر الاندماج في إطار عمل سياسي غير أوروبي.[41]

لذلك اعتبر ر.ب. الحكم البريطاني إملاءً أجنبياً على المنطقة لا يمكن أن يحكّم بين اليهود والعرب كما طلب وايزمان من لويد جورج. بل على العكس، كان موقف ر.ب. تجاه السلطات الاستعمارية متجذرًا في رؤيته لليهود والعرب كشركاء طبيعيين في النضال ضد الإمبراطورية البريطانية. من هذا المنظور، يشير ر.ب. إلى حاجة كل من اليهود والعرب إلى «مساعدة ودعم» البريطانيّين، مع التأكيد على ضرورة النضال المشترك ضد «أخطائها، وعيوبها وأضرارها». ابتعد هذا النهج عن المواقف الصهيونيّة السائدة تجاه البريطانيين باعتبارهم السلطة التي تمتلك قوة، كما تمتلك الحقّ أيضاً في تشكيل مستقبل فلسطين، وبالتالي في إدارة العلاقات بين الصهاينة وعرب فلسطين.

اعتبر ر.ب. تقارب الصهاينة مع بريطانيا قائماً على الحسابات السياسيّة المؤقّتة أكثر من كونه قائماً على الرؤية أو المبدأ طويليّ المدى. وفي وقت لاحق، كتب ر.ب. مقالاً في مجلة شيفوتينو عام

1928، هاجم فيه إبراهيم المالح بشدة. كان المالح يهودياً شرقياً (سفارديم) بارزاً، وكان من أشدّ منتقدي الصهيونية الأوروبية خلال الحكم العثماني وتجاهلها لمسألة العلاقات اليهودية العربية. لكنَّ وجهات نظره في أواخر عشرينيات القرن الماضي عكست بديهيّات السياسات الصهيونية الساعية للهيمنة نفسها، والتي كان ر.ب. ينتقدها بشدّة.[42] أنذر تغيير موقف المالح بتحوّل مثير للقلق لدى يهود الشرق الأوسط (وليس اليهود الأوروبيين فقط) تجاه العرب في أعقاب انهيار الإمبراطورية العثمانية وبعد عقد من الاحتلال البريطاني لفلسطين.

صاغ المالح تصورًا مكانيًا مخالفًا تمامًا لتصور ر.ب.، وهو تصور يزدهر فيه الييشوف «داخل زاويتنا الصغيرة، دون أي صلة بأي دولة أخرى مجاورة»، استنادًا إلى وجهة النظر القائلة باستحالة التوفيق بين التطلّعات القوميّة اليهودية والعربية، وأنّ الواحدة منهما تلغي الأخرى: «أيّ شيء يعتبره العرب جيدًا لأنفسهم هو إكسير الموت بالنسبة لنا».[43]

اعتبر ر.ب. أنّه من الواضح أنّ تحوّل مواقف المالح تجاه العرب نتج عن تغيّر الحكومة في فلسطين، على الرغم من أنّه لم يعترف بذلك بصراحة.[44] لم يكن ترويجه السابق للتفاهم المتبادل بين اليهود والعرب ناجماً عن المبادئ والقناعة السياسية، بل نتيجة الحسابات الباردة للمنفعة السياسية.[45]

عنى الضعف النسبي لليهود وتراكم القوة لدى العرب خلال أواخر العهد العثماني أن الحفاظ على العلاقات الودية شكّل أولويّة صهيونية. إن التحول في الظروف السياسية الآن يعني أن الجهود المبذولة لتنمية العلاقات الجيدة أصبحت غير ضرورية، حيث أنّها بالنسبة للمالح لم تنبع أبدًا من قناعة بأن كلا الشعبين كانا شريكَين في إطار سياسي مشترك، بل كانا خصمَين في المنافسة. بالنسبة إلى ر.ب.، أوضح تحوّل المالح المعنى المهم الذي حمله تغيّر الحكومة. جاء انشغال الحركة الصهيونية بالعهد السياسي للقوى الإمبريالية الجديدة في المنطقة، والحكومة الاستعمارية البريطانية في فلسطين على وجه الخصوص، على حساب الاندماج مع العامل المستقر الوحيد في المنطقة وتنمية الروابط معه – وهو العرب. ففي نظر ر.ب، يجب أن يكون العرب حلفاء لليهود إن كان هناك أيّ أمل في تحقيق أهداف الصهيونية.

زعم ر.ب. أن تعليق الآمال على الدعم الحكومي بدلاً من الاندماج مع العرب المحليين، لم يكن جديدًا تمامًا على القيادة الصهيونية في فلسطين، بل إنّه كان نمطًا قائماً طوال الحقبة العثمانيّة. وكمثال على ذلك، استذكر ر.ب. اجتماعًا بين السياسيين اليهود والعرب كان من المقرر عقده في برمانا، في لبنان عام 1914. وقد تم تحديد هذا الاجتماع، الذي نظمه المسؤول الصهيوني حاييم مرغاليوت كالفاريسكي (Hayyim Margaliot-Kalvarisky)، كمتابعة لاجتماع سابق عُقد في دمشق، في منزل محمد كرد علي. ومع ذلك، تمّ إلغاء اجتماع برمانا بعد أن ادّعى اليهود الذين تمّت دعوتهم للمشاركة فيه بأنَّه «ما من داع للاجتماعات مع العرب طالما أنّ الحكومة تقف إلى جانبنا». بدا ردّ ناصيف الخالدي المزعوم على هذا الإلغاء وكأنَّه تلخيص لما رآه ر.ب. عبرةً للقصة: «احذروا أيها السادة الصهاينة، الحكومات تأتي وتذهب، أما الشعوب فهي باقية».[46]

أصبح الاختلاف بين المقاربة الصهيونية المهيمنة لتفضيل العلاقة مع سلطة الدولة على العلاقة مع الجماهير العربية ووجهات النظر التي يتبناها ر.ب.، وبريت شالوم بشكل عام، حادًا بشكل خاص في أعقاب المواجهات العنيفة التي اندلعت في آب 1929 -» العام صفر» للصراع العربي الإسرائيلي، على حدّ تعبير هيليل كوهين.[47] وقد انتقدت بريت شالوم دعوات الصهيونية للقوّة وللشرف القومي التي كانت تطلقها قبل الأحداث وبعدها، والتي اعتبرتها دليلاً على استهتار الييشوف المتواصل بالعرب وتعاونهم مع البريطانيين. أكدت الرواية الصهيونية المهيمنة على الحاجة إلى «الانضباط القومي»، بينما رأى أعضاء بريت شالوم في اندلاع العنف سببًا لإعادة تقييم السياسات الصهيونية والتعاون مع السلطات الاستعمارية.[48] اعتبرت القيادة الصهيونية هذه المواقف خيانة، وقامت بفرض الرقابة عليها. ووفقًا لبيرل

كاتزنيلسون، وهو زعيم صهيوني ومحرر صحيفة دافار، كانوا في الييشوف «يكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة»، ولا يمكن السماح بنشر مثل هذا النقد في حالة الطوارئ هذه.[49]

قام ر.ب. بتحرير عدد شيفوتينو المنشور بعد فرض الرقابة من قبل «الانضباط القومي»، بعد ثمانية أشهر من أحداث عام 1929، حيث انتقد في افتتاحيته الفهم الصهيوني للأحداث باعتباره مواجهة حتمية يقودها العرب:

> كانت هناك أوقات مدَّ [العرب] فيها أيديهم للسلام وكانت أيديهم تلوّح في الهواء. . . وايزمان.. الذي لا يجد أيديه وأرجله عندما يتعلق الأمر بمسألة العرب. . . يقول إنّه لن يتفاوض مع العرب ما لم يعترفوا بحقوقنا ويوقفوا العنف. . . هذا هو الوضع، في الواقع، عندما يكونون هادئين . . . نتجاهلهم، وننظر إليهم من علٍ وننتفخ مثل الديوك الرومية، وعندما يستيقظون بمشاعر طبيعية أولية، نفعل نحن الشيء نفسه مرة أخرى. ليست هذه هي الطريقة.[50]

وبينما فسّرت القيادة الصهيونية الحدث على أنه انفجار يجب السيطرة عليه وضبطه من خلال التحالف مع القوة الاستعمارية، فقد فسّره ر.ب. على أنّه قضية تستدعي التفكير. شكل النهج السياسي الصهيوني الذي سبق الأحداث قاعدة لقيام الصهيونية بإنكار العرب وتطلّعاتهم القومية، ولهذا «التضخم» في الكبرياء القومي، والذي رأى في الالتفات نحو العرب مظهرًا من مظاهر يهودية المنفى. كان من المفترض أن تشكّل لحظة العنف دليلاً على أنَّ هذا النهج الصهيوني بحاجة إلى مراجعة، على حدِّ قول ر.ب.

«من البصرة إلى يافا»

ينبغي بحث طلب الوقوف ضد النظام الاستعماري البريطاني وتجاوز الحدود التي وضعها، بالعلاقة مع المقاربات الشبيهة التي ظهرت خلال تلك السنوات داخل الحركة الوطنية الفلسطينية نفسها. فقد استخدمت الإدارة البريطانية أساليب حكم وإشراف قائمة على «الاعتماد على النخب الأصلية»، وأحياناً على طبقات اجتماعية أخرى، للمشاركة في هياكل الحكم غير المباشر».[51] وظهر في فلسطين الانتدابيّة، هذا النمط في إعادة توضيب المؤسسة السابقة لمفتي القدس بوصفه «المفتي الأكبر لفلسطين»، وفي تعيين الحاج أمين الحسيني في موقعه المتنفّذ الجديد. ورفض البريطانيون في الوقت نفسه، الاعتراف بالهيئة التنفيذية العربية للمؤتمر الفلسطيني الأوّل (Arab Executive of the) Palestine Arab Congress)، وهو هيئة شعبية سياسية طالبت بالحقوق الوطنيّة للأكثريّة العربية في فلسطين، وهي أجندة كانت تتحدّى السلطة المطلقة للبريطانيّين.[52] وأدّى إخفاق كلا النهجَين في تحقيق نتائج للفلسطينيّين العرب في أوائل ثلاثينيات القرن الماضي، إلى ظهور قوى سياسية لا تراهن على اعتراف البريطانيين بها، بل على نشوء طبقة متعلّمة ومهنيّة، وحركات شبابيّة، وقواعد مناصرة أخرى داخل المجتمع الفلسطيني. فتأسّس حزب الاستقلال سنة 1932، وتمركز في نابلس (وليس في القدس، والتي كانت نخبها العائلية تهيمن على القيادة المعترف بها والمرتبطة بالمجلس الإسلامي الأعلى وعلى «المعارضة» أيضاً)، وشكل أحد أهمّ تجلّيات ذلك التيار الذي شكل منبراً واضحاً ضدّ الاستعمار.

واختلفت أجندة حزب الاستقلال من حيث عدم التعاون مع السلطات البريطانية عن تلك الخاصة بـ ر.ب. وأعضاء بريت شالوم الآخرين. فبينما شكلت الأولى جزءاً من مجموعة الأكثرية في البلاد والتي تمَّ رفض مطالبها من جانب السلطات البريطانية رفضاً قاطعاً، فقد شكلت الثانية جزءاً من حركة قومية تعتمد إلى درجة كبيرة على النوايا الحسنة لدى السادة المستعمِرين وتعاونهم. ولكن يمكن ملاحظة عدد من النقاط المشتركة بين الحزبين، حيث إنَّ مثل هذه المقارنة قد تساعد على فهم أفضل لمعنى

المواقـف المناهضـة للحكـم البريطانـي بالنسـبة للأطـراف المختلفـة، وكيـف أثّـرت مواقـف كلٍّ منهـم علـى تعبيراتهـم وتخيّلاتهـم للمـكان بـدون اسـتعمار.

يزعـم ويلـدون ماثيـوز أن الشـخصيّات العامّـة الفلسـطينيّة المرتبطـة بحـزب الاسـتقلال ركّـزت بالدرجـة الأولـى علـى مقاومـة التعـاون بيـن القيـادة الفلسـطينية والحكـم البريطانـي. وقـد اعتبـر هـؤلاء مقاومـة الاسـتعمار فـي الهنـد بزعامـة حـزب المؤتمـر الهنـدي تحـت قيـادة غانـدي، وحـزب الوفـد فـي مصـر بقيـادة سـعد زغلـول، نمـاذج قويـة للنضـال الفعـال والشـعبي ضـد الاسـتعمار البريطانـي، إلا أن القيـادة الفلسـطينية المعتـرف بهـا رسـمياً أثبتـت أنهـا غيـر قـادرة علـى قيـادة حركـة معارضـة غيـر متعاونـة علـى طـراز غانـدي.[53] كذلـك رفـض الاسـتقلاليّون إطـار العمـل الجغرافـي الفلسـطيني الضيّـق الـذي تبنّتـه القيـادة الرسـمية، معتبريـن أنَّ قبـول النـوع المحلّـي للقوميّـة، والـذي قـام المسـتعمِر برسـمه تعـاون غيـر مقبـول مـع النظـام البريطانـي.[54] كان حمـدي الحسـيني، وهـو سـليل إحـدى أكبـر العائـلات فـي غـزة، أحـد أهـم الشـخصيّات فـي حـزب الاسـتقلال. وكمحـرّر لصحيفـة صـوت الحـق، روّج الحسـيني لأجنـدة عـدم التعـاون. كمـا كان عضـواً فـي العصبـة المناهضـة للإمبرياليّـة، ومقرّهـا برليـن، والتـي أيـدت شـنة حـركات التحـرر مـن الاسـتعمار فـي العالـم. وتـم فـي سـنة 1929، ترشـيح الحسـيني لمنصـب سـكرتير العصبـة فـي مجمـل الأراضـي العربيـة.[55] وعُقـد فـي تمـوز 1929 مؤتمـر للعصبـة فـي فرانكفـورت، تـمّ خلالـه تبنّـي قـرار، علـى حـدٍّ وصـف موشـي بيلينسـون فـي دافـار، اعتبـر الصهيونيـة «مظهـراً خطيـراً»، حيـث أنهـا «مرتبطـة بالإمبرياليّـة البريطانيّـة ضـدّ الشـعب العربـي، حيـث أنَّ فكـرة وطـن قومـي لليهـود هـي مجـرّد ذريعـة لجلـب العامـل الأوروبـي إلـى فلسـطين لكـي يخلـق إرسـتقراطية عماليّـة ضـدّ العامـل العربـي المسـتغَلّ».[56] وصـف تقريـر بيلينسـون المؤتمـر بالتابـع للطموحـات السياسـيّة للاتّحـاد السـوفييتي فـي المنطقـة، كمـا وصـف تصريحـات موفـدي العصبـة حـول النظـام الانتدابـي «بالمبالغـات».

وفـي أعقـاب تقاريـر دافـار، أرسـلت أمانـة العصبـة للأراضـي العربيـة، برئاسـة الحسـيني، بيانـاً لــ ر.ب. باللغـة العبريـة، حاولـت فيـه أن توضـح أن موقـف العصبـة هـو «بعيـد كل البعـد عـن أي شـوفينيّة دينيّـة أو قوميّـة»، وأنَّ قرارهـا ناجـم عـن التـزام ثابـت بضمـان أن «الحـق الأساسـي» فـي تقريـر المصيـر يمكـن تطبيقـه علـى «سـكان فلسـطين أو شـرق الأردن»، وهـو حـقّ ينكـره البريطانيـون دون وجـه حـقّ.[57] كان هـدف العصبـة هـو «إيجـاد عهـد جديـد للجمهوريّـات العربيـة، يتضمّـن جميـع البلـدان التـي تشـكّل الأغلبيّـات فيهـا جـزءاً مـن الشـعب العربـي... (و) إلغـاء جميـع أشـكال الانتـداب والوصايـة مـن الممالـك الإمبرياليّـة علـى هـذه البلـدان». بالنسـبة للحركـة الصهيونيـة، نـص البيـان علـى التالـي:

> إن سـبب نضـال العصبـة وأعضائهـا العـرب واليهـود ضـدّ الصهيونيّـة هـو حقيقـة أن الصهيونيـة هـي أداة لإلغـاء التطلّعـات العادلـة للجماهيـر العربيـة نحـو الاسـتقلال -كمـا أن «وعـد بلفـور» هـو مـا يعـوّل عليـه الانتـداب البريطانـي - وهـي تقـف علـى طـرف النقيـض مـن تحقيـق حـقّ تقريـر المصيـر مـن قبـل سـكان هـذه الأرض. كذلـك فـإنَّ السـبب هـو أن الصهيونيّـة تثـري بالفعـل جـزءاً صغيـراً مـن السـكّان المحليّيـن لهـذه الأرض، وتضيّـق وتهـدم مـكان أكثريـة السـكان العـرب لـلأرض... إنَّ البغضـاء والكراهيـة القوميّـة التـي جُلبَـت للبـلاد مـن خـلال منـح بلـد مأهـول بسـكّان مـن أحـد الشـعوب «كوطـن قومـي» لشـعب آخـر، دون إذن مـن سـكّان البلـد ومـن جانـب قـوّة أجنبيّـة، يضـرُّ بالسـلام فـي تلـك الأرض وفـي اسـتقرار نمائهـا. لـذا، فـإنَّ العصبـة تعتبـر النضـال ضـدّ الصهيونيـة نضـالاً ضـدّ الإمبرياليـة، وتقـرُّ بإمكانيّـة التوصّـل إلـى عهـد بيـن كافّـة الجماهيـر اليهوديّـة والعربيّـة، والتـي تتطلّـع إليهـا بـكلّ قوتهـا والمتجـذرة فـي هـذا النضـال المشـترك. غيـر أنَّ العصبـة تعـارض الفكـرة القائلـة بـأن إلغـاء «وعـد بلفـور» ممكـن فـي ظـل بقـاء النظـام الانتدابـي والإ مبرياليّـة البريطانيـة. «فلسـطين للفلسـطينيّين» «والبلـدان العربيـة هـي للعـرب» هـي شـعاراتها.[58]

وبحسب هذا البيان، كانت الصهيونية أكثر بقليل من أداة ذكية استخدمها البريطانيون القساة لتعميق الخلافات بين التطلّعات القوميّة اليهوديّة والعربيّة، وبالتالي تصعيد أسباب المواجهة بينهما - على أمل أن يؤدّي هذا إلى إطالة أمد انتدابهم لفلسطين الذي كان يفترض أن يكون مؤقّتاً، ربما إلى ما لا نهاية. إذن، كان النضال ضدّ الصهيونيّة نضالاً ضدّ سياسة «فرّق تسد» التي يمارسها النظام الاستعماري. كما أنَّ البيان الصادر بعد المواجهات العنيفة سنة 1929، أستنكر اعتقال الحسيني بعد أن «وقف بوضوحٍ وشجاعة ضدّ هذا التحريض، وأعلن عن الحاجة إلى تعبئة النضال نحو الاستقلال الكامل للبلاد».[59]

اعتبر الحسيني المواجهات التي اندلعت بين اليهود والعرب ابتعاداً عن الأهداف المركزيّة للنضال، ألا وهي طرد النظام الاستعماري البريطاني من فلسطين.

وكان اختيار العصبة إرسال البيان إلى ر.ب. يعني ضمناً أنَّه كان يعتبر شريكاً محتملاً في مقاومة التعاون الصهيوني مع الانتداب البريطاني ومع النضال ضد الاستعمار بشكل عام. غير أن هذا التوقع واجه نكسة في ضوء رسائله التي نشرت في دافار. فقد اختار ر.ب. عدم التركيز على المزاعم التي تقول إنَّ الصهيونية هي أداة استعمارية، ولا على الدعوة لإلغاء النظام الانتدابي وإقامة عهد عربي عام جديد، بل إنه ركز على الشعار الذي مهر في نهاية الرسالة «فلسطين للفلسطينيّين»، وهذا إنّما يدلّ على حدود مواقف ر.ب.، والتي لم ترقَ إلى التماهي الواضح مع الفلسطينيين في نضالهم ضد البريطانيين. وزعم ر.ب. أنه على الرغم من موافقته الأساسية على الشعار، فهو كان يرغب في الطعن في فهم كلمة «الفلسطيني» باعتبارها كلمة تستخدم فقط فيما يتعلق بالعرب الذين يعيشون داخل حدود «فلسطين»، ودعا إلى توسيعها لتشمل اليهود الذين لم يكونوا يقيمون في فلسطين في ذلك الوقت:

> «إنَّ معنى شعار «فلسطين للفلسطينيين» يمكن فهمه بشكل واسع، وشامل ومفصَّل (وهذا الفهم بالفعل يواجهنا بأسئلة صعبة تزعجني وأنا أحاول أن أجد حلولاً لها). ولكن يمكن فهمه أيضاً بطريقة ضيقة، كما يفهمه أتباع المفتي (أتباع الحاج أمين الحسيني) الذي يأخذ في الاعتبار جواز السفر فقط... وهو الطرف الذي ينفي حقّي «وحقّ اليهود الآخرين مثلي) في وطن قومي في فلسطين هذه، والتي بالنسبة لي هي أرض إسرائيل، (ومن خلال القيام بذلك) هم يخطّطون لجعلنا تعساء، ولحرماننا من الشرط المركزي لحيواتنا».[60]

ميّز البيان بين التطلعات الصهيونية وبين تلك الخاصة بسكان البلاد، كما قدم دعوةً «لعهد بين كافة الجماهير اليهودية والعربيّة» في الكفاح ضد الإمبريالية. فلئن أخذنا هذا السياق في عين الاعتبار، فإن خيار ر.ب. التركيز على كون اليهود جزءاً لا يتجزّأ ممن يعرّفون أنفسهم كـ «فلسطينيّين» ليس واضحاً تماماً. لكن يبدو أنَّ ر.ب. – الذي كان يؤمن بفكرة هرتزل الصهيونية، والتي تعتبر أنَّ الهدف الأساس هو تشجيع هجرة الجماهير اليهودية شرقاً - أراد التشديد على حقيقة أنَّ هؤلاء اليهود أيضاً، ورغم أنَّهم فلسطينيّون محتمَلون فقط، لهم الحق في الهويّة قيد النقاش. وركّز ر.ب. على ما اعتبره «حقّ اليهود في وطن قومي»، وبالتالي على مسألة شرعية هجرة اليهود المتواصلة إلى فلسطين. وقدم هذه المسألة على أنها قضية يعتمد عليها انتماؤه للعصبة. كما أنه اعترف، بين قوسين بـ «الأسئلة الصعبة» التي نشأت بسبب المفهوم الشامل والموسَّع الذي اقترحه لمصطلح «الفلسطيني» وبضرورة حلّها. يمكن اعتبار هذا الاعتراف إقراراً بالمطالبات التي أثارها البيان - وهي مطالب أكدها ر.ب. نفسه في مواقع أخرى وأكثر من مرة، لكنّه ظل متمسكاً بأنَّ إنكار «فلسطينيّة» اليهود يشكّل حكم إعدام على ملايين اليهود المرفوضين والمطرودين من أوروبا. إن طعن ر.ب. بمصطلح «الفلسطيني» ودعوته لتحويله بحيث يشمل اليهود أيضاً – بصرف النظر عمّا إن كان اليهود أنفسهم يعتبرون أنفسهم كذلك - أشار إلى قرّائه نحو هويّة مختلفة محتمَلة. فتعريف اليهود كـ «فلسطينيّين» يطعن كذلك بالأركان التي يستند إليها الييشوف الصهيوني كهوية

قومية منفردة. ولم يكن ر.ب. وحيداً فيما بين الصهاينة في مسعاه لتبني هوية فلسطينيّة تشمل اليهود ضمنها كهوية محتملة. إيتامار بن أفي، ابن أحد أوائل المهاجرين، اعتبرها أساساً لإطار عمل سياسي يهودي - عربي مشترك معارض للتطلّعات الصهيونية إلى «سيادة يهودية»، والتي تخيّلها، وبخلاف ر.ب.، ضمن الحدود الاستعمارية لفلسطين-»هذه الدولة الجديدة التي خلقها ذكاء بلفور».[61]

أمّا إفرايم حاييم بن ناحوم، وهو زميل ر.ب. في بريت شالوم والدوائر الصهيونيّة المتديّنة، والذي ولد في كركوك، العراق، فقد استخدمها أيضاً كموقع بديل للتعريف القومي.[62] وعلى الرغم من الاختلاف في نطاقها السياسي، فقد طرح كلّ من هذه الطرق المختلفة لتبنّي «الهويّة الفلسطينيّة» كشكل من أشكال الارتباط المحلي لليهود تحدّياً أمام الخطاب الصهيوني المهيمن.

بالطبع، لم تكن المبادرات الرامية لبناء تحالف عريض بين اليهود والعرب قائمة فقط على أطراف الفكر الصهيوني. ففي مقال نشر في حزيران 1930، دعا محمد روشان أخطر، وهو هندي مسلم ومحرّر الطبعة الإنجليزية من الصحيفة الفلسطينية اليومية فلسطين، إلى إقامة فدرالية عربية، زاعماً أن اليهود هم جزء لا يتجزّأ من المجتمع السياسي الممتد من «البصرة إلى يافا».[63] رفض أخطر الأفكار التي تقول إنَّ مصالح الشعبين متناقضتان، وأنّ النظام البريطاني قادر على لعب دور الحكم. فأخطر، الذي كان مثل ر.ب. ينظر إلى اليهود والعرب كشركاء، زعم أن مثل هذه الفدرالية يمكنها أن تخدم كمقصد ليهود أوروبا، حيث يتمّ الاعتراف بهم كمواطنين يتمتّعون بالمساواة. واختتم المقال بالجملة الملحّة التالية: «نحن بانتظار الجواب». وأجاب ر.ب. بحماسة، حيث أنّه «كرّس عشر سنوات من نشاطه الكتابي لترويج هذه الفكرة»، واعتبر مقال أخطر بالغ الأهمّية، متوقعاً أن يؤثر في أولئك «القادرين على تجاوز اللحظة الراهنة والتفكير في الماضي والمستقبل».[64]

وجهت بريت شالوم بعد بضعة أشهر دعوة لأخطر للتحدّث إلى أعضائها. واستهل أخطر حديثه بالقول إنه لا يمكنه التحدث بالنيابة عن العرب، أو حتى كممثل لصحيفة فلسطين، وهي الصحيفة التي أصر على كونها ممثّلاً موثوقاً للفلسطينيّين العرب - بل إنَّه يتحدّث كهنديّ مسلم «يحبّ... العرب كأيّ مسلم آخر في الهند».[65] وصف أخطر وصول اليهود إلى فلسطين على أنّه لا يجسّد «روح الشخص الذي يطوفُ ويعود إلى وطنه»، بل يجسّد «الفاتح الذي قدم إلى الأرض التي فتحها». كذلك ناقش محدوديّة الحركة الصهيونيّة ضمن حدود فلسطين

الانتدابيّة واعتبرها أمراً مضراً لهم، إن كان هدفها أولاً وقبل كلّ شيء إنقاذ اليهود الأوروبيّين من الاضطهاد واللاسامية:

> فلسطين بحدِّ ذاتها لا تمنحكم المساحة اللازمة لإنقاذ (عدة ملايين) من الاضطهاد. حتّى كل المبالغات الممكنة في التقديرات لن تصل إلى الأعداد التي تريدونها... وحتّى لو لم يكن العرب موجودين هنا، لن يمكنكم توطين كل الناس الذين يسعون إلى الهرب من هناك. إذن، من الضروري أن تجدوا شيئاً أكبر من فلسطين، يمكنه أن يدعم كل هؤلاء الناس الذين تريدون إنقاذهم من القمع ... لذا، أنتم، الصهاينة، أو لنقل يهود فلسطين، ارتكبتم خطأً جوهرياً عندما قبلتم على أنفسكم صفة الغربيّين، لكي تعيشوا في الشرق.[66]

احتاج تحقيق البرنامج الصهيوني في إنقاذ اليهود إلى منطقة جغرافية أوسع، منطقة «أكبر من فلسطين»؛ بمعنى وجوب توسيع الأفق المكاني الصهيوني شرقاً. وقد استدعى هذا الفهم بحسب أخطر، أن تتخلى الصهيونية عن هدفها في إقامة مساحة يهودية حصريّة ضمن منطقة «يهودا» التوراتية - ذات السحر المأساوي في القوة والثقافة الأوروبيّين - والانعطاف نحو وحدة مكانية مختلفة، من الخليج الفارسي إلى البحر الأبيض المتوسط، أو من «يافا إلى البصرة». وقد قارن أخطر بين فكرة اندماج اليهود في فدراليّة عربيّة تميل نحو المكانة السياسية الحصرية برعاية غربية، وبين السيادة التي تضمّنها وعد بلفور:

an Arab federation with the tendency of Western-sponsored political exclusivity and ascendancy encapsulated by the Balfour Declaration. فالأخيرة لا يمكنها أن تنتج إلا عن إقامة كيان سياسي يهودي مفصول ومنعزل، ضمن مساحة فلسطين الانتدابيّة المحدودة، وبالتالي تغرس بذور المواجهات العنيفة المطوّلة بين اليهود والعرب. وقد تقاطعت فكرة أخطر حول الفدراليّة العربيّة مع نموذج ر.ب. الصهيوني الهرتزيلي حول ضرورة إقامة شراكة سياسيّة يهوديّة - عربيّة. كتب ر.ب. في شيفوتينو، الصحيفة المركزيّة لبريت شالوم عن «المنطق الداخلي» لرؤيته ورؤية أخطر. فكلام أخطر، على حدِّ قول ر.ب.، جعل من الممكن تبيان كيف أن النموذج الصهيوني القائم على منظور هرتزل - وليس على منظور آحاد هعام، الذي اقترح إقامة «مركز روحاني» يهودي محدود بدل حلٍّ سياسي شامل للقضية اليهودية - كان بالفعل هو النموذج الذي طرح مطلباً راديكالياً يتمثل في إقامة عهد سياسي بين اليهود والعرب، كما اقترح تعاون الصهيونيّة مع شعوب الشرق في نضالاتهم. كتب ر.ب. قائلاً:

> إنَّ من يعتقد أنه من خلال مفهوم آحاد هعام يمكن للمرء أن يحقّق نظريّة بريت شالوم إنّما هو مخطئ. فعلى العكس، ثمّة مجال للقول إنّه في الحقيقة، قد يكون من الممكن الزعم أن التفاهم المشترك مع الشرق والعرب ليس أمراً ضرورياً جداً لإقامة «مركز روحاني»... ولكنَّ الأمر ليس كذلك بالنسبة للصهيونيّة الهرتزيليّة القصوى، والمعنيّة بالهجرة على نطاق واسع... فهذه مُجبَرةٌ على الأخذ في الحسبان تحديداً المنطقة العربيّة والشرق...».[67]

وبينما سيقود النهج الصهيوني الأدنى، والساعي إلى إقامة مركز روحاني داخل فلسطين الانتدابيّة، الحركة نحو الفصل والعزلة، فإنَّ النهج الأقصى، وبسبب عدم قدرته على إعادة توطين أعداد ضخمة من اليهود الأوروبيّين ضمن الحدود الإقليميّة، لا يمكنه تجاهل المكان الذي يرغب في جلب اليهود إليه. ثم عرض ر.ب. تحقيق رؤية هرتزل الصهيونيّة، ليس كأساس لكيان سياسي منفصل، يتمتع فيه اليهود بالأكثريّة القوميّة، بل كتعريف للحيّز الأكبر، غير المتجانس، والذي يمكن فيه تحقيق التطلّعات الصهيونيّة بإنقاذ اليهود المضطهدين.

وناقشت افتتاحية العدد التالي من شيفوتينو الكفاح العربي ضد القوى الاستعماريّة وموقف الحركة الصهيونية، الذي «خلال الحرب الدائرة بين صحوة عالم الشرق وبين أوروبا، يعتمد على ...أوروبا». واقترحت الافتتاحيّة توجهاً جديداً... للإيديولوجية الصهيونية»:

> الهدف هو... إقامة مركز يهودي قوي في فلسطين وتحويل الهجرة اليهودية نحو الشرق الأدنى، إلى الأراضي العربية، وأنَّ الشرط المسبق لتحقيق هذا الهدف هو موافقة الشعب العربي. إن تحقيق هذه الموافقة، ووضع عهد جديد، «وعد بلفور» جديد، من الشعب العربي ومن قبل قادته، سيشكّل الهدف السياسي للصهيونيّة المتجدّدة.[68]

كان يفترض أن يصدر هذا الإعلان الجديد عن العرب الذين يفترض استيعاب اليهود في أراضيهم؛ أي أن يكون إعلاناً من نوع آخر تماماً. فلئن صدر وعد بلفور الأصلي عن اللورد بلفور، رمز السلطة الاستعمارية البريطانيّة، فإنَّ الإعلان المقترح سيعبّر عن النوايا الحسنة واليد الممدودة لآلاف العرب.

وقارن ر.ب. في مقال لاحق، بين أميركا والشرق كمقصدَين للهجرة، وكرّر انتقاده لازدراء الصهيونيّة المهيمنة لفكرة اعتبار المساحة القائمة بين البصرة ويافا مقصداً لليهود المهاجرين. «هل ندرك حجم الحدود المحدودة والضيقة للبلد (فلسطين)؟» أكّد ر.ب.[69]، مشيراً إلى أنَّ المخيّلة المكانيّة اليهوديّة التقليديّة، مثلها مثل المخيّلة المكانيّة العربيّة، ترفض الجغرافيا المجزّأة التي فرضتها القوى الاستعماريّة

بعـد الحـرب العالميّـة الأولـى. وفـي معـرض رده علـى المزاعـم القائلـة إنَّ الشـرق لا يؤيّـد الحركـة الصهيونيـة، اسـتخدم ر.ب. حجّـة مقابلـة، مفسّـراً عـدم تأييدهـم للسياسـات الصهيونيّـة علـى النحـو التالـي:

«هـل الشـرق ضدكـم؟ طالمـا أنكـم تعتمـدون علـى أعدائـه، علـى مضطهديـه، نعـم بالطبـع».[70] مـن خـلال الاعتمـاد علـى السـلطات البريطانيـة، أوصـدت الصهيونيـة البـاب علـى احتمـال تحقيـق أهدافهـا. «المسـاحات المطلوبـة موجـودة، وهنـاك وسـيلة للإنقـاذ»، علـى حـدّ قـول ر.ب.، لكـن قصـر نظـر الحركـة الصهيونيـة فضّـل الشـراكة مـع السـلطات الاسـتعماريّة البريطانيّـة علـى الوقـوف إلـى جانـب العـرب، وهـو خيـار مصيـري حـال دون هجـرة اليهـود إلـى البلـدان العربيّـة». [71]

الخاتمة: ر. بنيامين والأراضي المتاخمة

لقـد حـدّدت آراء ر.ب.، والتـي يشـترك معـه فيهـا أعضـاء آخـرون فـي بيـت شـالوم، الطـرق التـي يمكـن مـن خلالهـا دمـج أهـداف الصهيونيـة مـع المطالـب العربيـة ضـد الاسـتعمار. وإلـى جانـب الدعـوة إلـى المتاهـي مـع هـذا النضـال، رأى ر.ب. أنَّ تيسـير الهجـرة اليهوديـة الجماعيّـة إلـى فلسـطين وإلـى الأراضـي العربيّـة عمومـاً يشـكّل جـزءاً مركزيـاً مـن الصهيونيـة «الطموحـة». كمـا أنَّ رسـالته المفتوحـة الموجّهـة إلـى حمـدي الحسـيني تبيـن العقبـات التـي وضعهـا هـو لنفسـه، بحيـث قـد يكـون وضـع عراقيـل غيـر ضروريّـة أمـام تحقيـق الشـراكة التـي كان يرغـب فيهـا. تـرك ر.ب. بريـت شـالوم فـي نهايـة عـام 1931، رداً كمـا يبـدو علـى التوجّهـات التـي ظهـرت داخـل بريـت شـالوم، والتـي اعتبرهـا ر.ب. تحـدُّ مـن المطلـب الصهيونـي الراديكالـي المتمثـل بالهجـرة الجماعيّـة لليهـود نحـو الشـرق. وبعـد انسـحابه مـن بريـت شـالوم، وصـف ر.ب. نفسـه كشـخص «يقـف وحيـداً داخـل بريـت شـالوم فيمـا هـو خارجهـا».[72]

إنَّ نهـج ر.ب. «المتشـدّد»، أو الأقصـى، مـن ناحيـة نطـاق خيالـه المكانـي، ومـن ناحيـة مناصرتـه للهجـرة الجماعيّـة علـى حـدٍّ سـواء -لـم يقنـع معظـم زملائـه فـي بريـت شـالوم، وخصوصًـا طـلّاب آحـاد هَعـام، الذيـن كانـوا يميلـون نحـو نمـوذج مختلـف للعهـد اليهـودي - العربـي، قائـم علـى وجهـة النظـر التـي تعتبـر الحركـة الصهيونيّـة حركـة ثقافيّـة - روحانيّـة أكثـر مـن كونهـا حركـة تسـعى إلـى التدخّـل فـي الشـؤون الديمغرافيّـة والسياسـيّة العالميّـة.[73]

اسـتند رفـض رب. المتجـذّر للجغرافيّـات الاسـتعماريّة وقبولـه للمفاهيـم المكانيّـة العربيّـة الموسّـعة إلـى أرضيّـة لاهوتيّـة، حيـث إنَّ الوجـود اليهـودي فـي الأراضـي المتاخمـة لأرض إسـرائيل مفضّـل علـى وجـود اليهـود فـي أوروبـا، بسـبب قربهـا مـن أرض الميعـاد، ولـذا لا ينبغـي اعتبـاره وجـوداً مرتبطـاً بالنفـي. إنَّ وجـود اليهـود فـي الأرض، علـى حـدِّ قولـه، لا يعتمـد علـى مكانتهـم السياسـيّة، أو علـى إطـار العمـل السياسـي الـذي ينتمـون إليـه، بـل إنّـه «مسـألة طبيعيّـة – دينيّـة -باطنيّـة - روحانيّـة»: يجـب أن «يشـعر أيّ يهـودي بنفسـه مربوطـاً بـالأرض بسلاسـل، مربوطـاً بـأيّ خيـط فـي حياتـه، بطريقـة يعتبـر فيهـا أيّ مغـادرة لـلأرض كمغـادرة للحيـاة - البيـت».[74]

لا تعتمـد هـذه النظـرة إلـى الوجـود اليهـودي فـي أرض إسـرائيل كمطلـب وجـوديّ علـى تغيّـر الأوضـاع السياسـية، بـل تتجلّـى فـي التوجّـه اليهـودي نحـو الأرض كمركـز، والنظـر إلـى الأراضـي المتاخمـة كانعـكاسٍ للتوجّـه نفسـه، وبالتالـي لإمكانيّـة أوسـع للوجـود اليهـودي فـي فلسـطين/ أرض إسـرائيل:

تكمـن أهميّـة الأراضـي المتاخمـة أوّلاً فـي كونهـا «متاخمـة»، وفـي أنَّهـا ...«مرتبطـة بـالأرض مثـل الارتبـاط بمركـز جغرافـي قومـي»، وفـي كونهـا تمكـن مـن التفاعـل الروحانـي اليومـي مـع الحياة الداخليـة لشـعب إسـرائيل فـي أرض إسـرائيل. يمكنـك أن تقـرأ صحيفـة البـلاد فـي نفـس اليـوم، أو فـي اليـوم التالـي. يمكنـك زيـارة الأرض فـي كل موسـم للحـجّ (regel)... علـى مـن يسـتطيع الاسـتيطان فـي الأرض أن يسـتوطنها، وعلـى مـن لا يسـتطيع ذلـك، ولكنّـه يسـتطيع أن يسـتوطن

إحدى الأراضي المتاخمة أن يفضّل ذلك على الأراضي البعيدة... إنّ المعنى الحقيقي للعلاقة التي تزدري ولا تحترم العلاقة مع الأراضي المتاخمة هو علاقة تشتّت، بينما قد يشكل تبنّي نهجٍ إيجابي تجاه هذه الأراضي أساساً للمركزيّة، لعلاقة تتطلّع من بعد المنفى نحو المركز.[75]

وفي معرِض طرحه اللاهوتي هذا لصالح الأراضي المتاخمة، استحضر ر.ب. مرّة أخرى مقولة أخطر-»من البصرة إلى يافا»، ممّا يذكّرنا بأن ر.ب. ربط فهمه للمفهوم اللاهوتي لأرض إسرائيل بالمخيّلات العربيّة والإسلاميّة المكانيّة المختلفة، وبموقع فلسطين داخلها. وإنَّ نقده لتركيز الصهيونية على فلسطين كمحاولة لخلق كيان قومي سياسي مميّز، ومنفصل، ونقيّ وذي سيادة، ينسجم مع مفهومه للصهيونيّة الماركسيّة ومع دعوته للتماهي مع النضال العربي ضدّ الاستعمار. وقد ارتبط هذا الطرح الأخير بقبول المطلب العربي بإعادة توحيد المساحة التي قطّعت أوصالها الحدود الاستعماريّة، والذي يتجلى أيضاً في فهم ر.ب. اللاهوتي لأرض إسرائيل بوصفها مركزاً، وفي نظرته الإيجابيّة للوجود اليهودي في الأراضي المتاخمة. غير أنَّ المخيّلة المكانيّة الصهيونيّة المهيمنة كانت تستند إلى فهم مختلف للمكان، وقد شكّلت نظرته الغربيّة أساساً لمفهوم استعماري ومُعَلمَن لأرض إسرائيل، لا يمكن فصله عن المخيّلة المكانيّة الانتدابيّة.

حافظ ر.ب. على هذا النهج النقدي تجاه الصهيونية المهيمنة بعد النكبة الفلسطينية وإقامة دولة إسرائيل سنة 1948، وأسّس مجلة «نير» (الشمعة باللغة العبريّة)، كمنبرٍ للمطالبة بعودة اللاجئين الفلسطينيّين. ورسم ر.ب. رؤيته لعودة اللاجئين الفلسطينيّين «كفكرة دينيّةٍ عظيمة»، معاكسة للفكرة الدينيّة المغلوطة المتعلّقة بالاستقلال القومي».[76]

لقد نظر إلى علمنة الفكرة الدينية - والتي تجلّت في إقامة وطن قومي يهودي، متجانس إثنياً ومكانياً، وثقافياً، ولغوياً، ومنفصل عن كلّ أنحاء الشرق الأوسط، ببساطة على أنَّه شرك. كما اعتبر نزع القداسة عن فكرة الدولة القوميّة العلمانيّة تحولاً ضرورياً نحو إمكانيّة مختلفة لوجود يهودي جماعي في فلسطين يروّج لعودة اللاجئين. إنّ نزع القداسة عن القوميّة الدينيّة، بالنسبة لـ ر.ب، أو «مين»، الهرطوقي، يشكّل في المحصّلة الأساس لإمكانيّة نشوء الثنائيّة القوميّة.

يدرّس أفي -رام تزوريف في دائرة التاريخ اليهودي في جامعة بن غوريون في النقب وفي معهد شيختر للدراسات اليهودية. وقد كتب هذا المقال كزميل في مرحلة ما بعد الدكتوراه في برنامج أوروبا في الشرق الأوسط - الشرق الأوسط في أوروب (*EUME*) في منتدى الدراسات الإقليمية *Forum Transregionale Studien* في برلين.

الهوامش:

1 المصطلح المستخدم في الكتابات الصهيونية لوصف المجتمع اليهودي المقيم في فلسطين قبل 1948.

2 مين، "Kol Mehatzetzim"، هآرتس، 9 تموز 1925.

3 انظر ميشيل يو. كامبوس، (الإخوة العثمانيون: المسلمون، والمسيحيون واليهود في فلسطين أوائل القرن العشرين، Ottoman Brothers: Muslims, Christians and Jews in Early Twentieth-Century Palestine (Stanford, CA: Stanford University Press, 2011); أبيغيل جاكوبسون، (من إمبراطورية إلى إمبراطورية: القدس بين الحكم العثماني والبريطاني From Empire to Empire: Jerusalem between Ottoman and British Rule (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2011), 31–40, 53–60 ميناحيم كلاين، (الحياة المشتركة: العرب واليهود في القدس ويافا والخليل)، Lives in Common: Arabs and Jews in Jerusalem, Jaffa, and Hebron (Oxford: Oxford University Press, 2014); وهيليل كوهين، (حياة وموت العربي - اليهودي: أرض إسرائيل - فلسطين وما خلفها، في الأوطان في

المنفـى: الآخـر والانتمـاء فـي الشـتات اليهـودي)
The Life and Death of the Arab-Jew: Eretz Israel–Palestine and Beyond," in Homelands in Exile: Otherness and Belonging in the Jewish Diaspora,
تحريـر أوفـر شـيف، (بئـر السـبع، معهـد بـن غوريـون للأبحـاث، 2015) 171-200.

4 أنظـر يفعـات ويـس، (القوميـة الإثنيـة الأوروبيـة)؛
"Central European Ethnonationalism and Zionist Binationalism," JewishSocialStudies11, no.1(2004):105–111
ديريـك ج. بنسـلار، (الصهيونيـة والتكنوقراطيـة: هندسـة الاسـتيطان اليهـودي فـي فلسـطين، 1870-19198)،
Zionism and Technocracy: The Engineering of Jewish Settlement in Palestine, 1870–1918 (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1991), 80–102;
أيتـان بلـوم (آرثـر روبيـن وإنتـاج الثقافـة العبريـة ا لحد يثـة)،
"Arthur Ruppin and the Production of Modern Hebrew Culture"
(أطروحة دكتوراه، جامعة تل أبيب، 2008) 1-26
وغيرشـون شـافير، (اجتمـاع أوروبـا الشـرقية واليمـن: عمّـال مثاليـون وعمّـال طبيعيّـون فـي بدايـات الاسـتيطان الصهيونـي فـي فلسـطين)،
"The Meeting of Eastern Europe and Yemen: 'Idealistic Workers' and 'Natural Workers' in Early Zionist Settlement in Palestine," Ethnic and Racial Studies 13, no. 2 (1990): 172–197.

5 أفـي - رام تزوريـف (صحـراء متخيلـة هـي بالفعـل جوهـر الييشـوف)،
"'An Imagined Desert That Is Indeed the Core of the Yishuv':
ر. بنياميـن ونشـوء السياسـات الصهيونيـة الاسـتعمارية – الاسـتيطانية (1908-14).
R. Binyamin and the Emergence of Zionist Settler-Colonial Policies (1908–14), (Simon Dubnow Institut Jahrbuch (سـيصدر قريبـاً).

6 زعـم رشـيد الخالـدي أن الفلسـطينيّين كانـوا خـلال فتـرة الانتـداب موجوديـن فـي «قفـص حديـدي»، منعهم مـن أي من خصائـص المكانـة السياسـيّة، بينمـا كان يضمـن هـذه المكانـة لليهـود، وبشـكل أكثـر دقة، للحركـة الصهيونية، رشـيد الخالدي، القفص الحديدي، قصة الصراع الفلسطيني لإقامة دولة
The Iron Cage: The Story of the Palestinian Struggle for Statehood (Boston: Beacon Press, 2007).

7 هـ. ب. "Darkey Shalom,"، دافار، 23 حزيران 1925، 2.

8 مين، "Kol Mehatzetzim"، هآرتس، 9 تموز 1925، 2.

9 (بيـن بريـت شـالوم والهيـكل: جدليّـة الخـلاص والمسـيانية بالنسـبة لغيرشـوم شـوليم) Te'oria U-bikoret 20 (2002): 105–7
وأمنـون راز - كراكوتزيـن، المنفـى وثنائيـة القوميـة: مـن غيرشـوم شـوليم وحنـة أرنـدت إلـى إدوارد سـعيد ومحمـود درويـش
Exile and Binationalism: From Gershom Scholem and Hannah Arendt to Edward Said and Mahmoud Darwish (برليـن EUME 2012)، 88-109.

10 زوهار ماور،
"Ben anti-colonialism ve-post- colonialism: bikoret ha-le'umiyut vehahilun bebrit shalom"
(بيـن مكافحـة الاسـتعمار ومـا بعـد الاسـتعمار: نقـد القوميـة والعلمانيـة فـي بريـت شـالوم)، Te'oria U-bikoret 30 (2007): 13–38.

11 ماور، «بين مكافحة الاستعمار»، 30 n27.

12 شـدّد حنـان حريـف علـى دور التوجـه الوحـدوي السـامي فـي كتابـات ر.ب.، وناقـش أهميـة دور الحـركات «الوحدويـة» المعاصـرة الأخـرى فـي تشـكيله. أنظـر حنـان حريـف،
Anashim ahim anahnu: ha- pniya mizraha bahagut hatziyonit (لنكـن إخـوة: الانعطـاف نحـو الشـرق فـي الفكـر الصهيونـي) القـدس، مركـز زلمـان شـازار، 9102) 59-012.

13 أبيجيـل جاكوبسـون وموشـي نـاور، (اليهـود الشـرق أوسـطيون والعـرب فـي فلسـطين الانتدابيـة)
Oriental Neighbors: Middle Eastern Jews and Arabs in Mandatory Palestine (Waltham, MA: Brandeis University Press, 2016), 16–120.

14 ر. بنيامين، (الشرق والغرب)
"Mizrah U-ma'arav" [East andWest] Ha-tkufa 21 (1923): 443.

15 ر. بنيامين، (العرب: رسالة من أرض إسرائيل)،
"Arav: Michtav me-eretz Yisrael" Hed Lita 37، رقـم 12 (20 تمـوز 1925).
فـي هـذا المقـال، اسـتذكر ر.ب. عـدداً مـن الحـوارات التـي أجراهـا مع الأسـتاذ جـوزف هوروفيتـز (1874-1931). وكان هوروفيتـز مستشـرقاً مرموقـاً، بالإضافـة إلـى كونـه يحتفـظ بكرسـي فـي جامعـة فرنكفـورت، كمـا كان يـدرس فـي كليـة محمديـن الإنجليزيـة - الشـرقية فـي عليكـره فـي الهنـد بيـن سـنة 1905 و1917. جـرت لقـاءات ر.ب. معـه خـلال فتـرة إقامـة هوروفيتـز فـي فلسـطين مـن أجـل تأسـيس الجامعـة العبريـة، حيـث تـم ترشـيحه لاحقـاً لتـرؤّس معهـد الدراسـات الشـرقية. وصـف ر.ب. هـذه الحـوارات لاحقـاً كإحـدى أهـم اللحظـات فـي تأسـيس بريـت شـالوم. أنظـر ر.ب. (مـن هـذا ومـن ذاك: عـن إحـدى التعقيـدات)

"Mize u-mize: al tasbich ehad" Bamishor 136,،13 (تشـرين الثانـي 1942): 3.

حـول جوزيـف هوروفيتـز والصلات بيـن السـنوات التـي قضاهـا فـي عليكـره وبيـن موقفـه مـن قضيـة العلاقـات اليهوديـة - العربيـة فـي فلسـطين، أنظـر روشـاما جونسـتون - بلـوم، (المستشـرق الألمانـي - اليهـودي جوزيـف هوروفيتـز فـي ألمانيـا، والهنـد وفلسـطين) فـي التلقّـي المسـلم للاستشـراق الأوروبـي: عكـس النظـرة، تحريـر سـوزانا هيشـيل وعمـر ريـاض، نيويـورك روتليـدج، 2019)، 83-163.

Dieses Wirklich Westostlichen Mannes': The German-Jewish Orientalist Josef Horovitz in Germany, India, and Palestine," in The Muslim Reception of European Orientalism: Reversing the Gaze

16 نيامين، (عرب). "Arav."

17 بنيامين، (عرب). "Arav."

18 بنيامين، (عرب). "Arav."

19 حـول شـحادة، انظـر مايـكل ر. فيشـباخ، (عائلـة شـحادة فـي موسـوعة الفلسـطينيين) "Shehadeh (Family)" in Encyclopedia of the Palestinians,

تحريـر فيليـب مطـر (نيويـورك: .Facts on File, Inc 444،2005).

حـول مـرآة الشـرق، انظـر زخـاري ج. فوسـتر، (العروبـة، وتركيـا، والمخيلـة الوطنيـة الفلسـطينية فـي عيـون مـرآة الشـرق (1919-1926)

"Arabness, Turkey, and the Palestinian National Imagination in the Eyes of Mir'at al-Sharq (1919–26),"

فصلية القدس 42 (2010): 61-79.

20 ياكوف روي، (المساعي الصهيونية للتأثير على الصحافة العربيـة فـي فلسـطين، 1908-1914)،

Nisyonotehem shel hamosadot hatziyoni'im le-hashpia al ha-itonut ha- aravit be-eretz Yisrael bashanim 1908-1914"

Zion 32, no. 3–4 (1967): 213–25.

21 ر. بنياميـن، (بقيـود مـن الحـب) "Be-ritmat h-ahava" Ner 4, no. 12 (1953): 7.

22 ر. بنياميـن، (مجموعـة أدبيـة) "Bereshit" [Genesis] in Benta'im: kovetz safruti، تحريـر ر. بنياميـن (يافـا، 1912) 1-100.

23 عامـي أيالـون، (الصحافـة والشـرق الأوسـط العربـي) The Press in the Arab Middle East، (نيويـورك: Oxford University Press، 1995), 50-72. رشـيد الخالـدي، الهويـة الفلسـطينية: بنـاء الوعـي الوطنـي الحديـث Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness، (نيويـورك، Columbia University Press، 1997)، 119-22؛ ايمانويـل بيسـكا، (اسـتجابات الشـخصيات العربيـة تجـاه التطلعـات الصهيونيـة والاسـتعمار قبـل عـام 1908)، "Responses of Prominent Arabs towards Zionist Aspirations and Colonization Prior to 1908," Asian and African Studies, 16 (2007): 22-44؛ ايمانويـل بيسـكا، (المعارضـة السياسـية للصهيونيـة فـي فلسـطين وسـوريا الكبـرى: 1910-1911 كنقطـة تحـول) "Political Opposition to Zionism in Palestine and Greater Syria: 1910–1911 as a Turning Point," فصليـة القـدس، 59 (2014): 54-67.

24 إيمانويـل بيسـكا، (موقـف فلسـطين المتغيّـر تجـاه الصهيونيـة قبـل الحـرب العالميـة الأولـى) "Filastin's Changing Attitude toward Zionism before World War I, فصليـة القـدس، 72 (2017): 86-101؛ صموئيـل دولبـي وشـاي هازكانـي، (هويـات مسـتبعدة: أبـو إبراهيـم وسياسـة الاحتمـالات فـي فلسـطين أواخـر الحكـم العثمانـي)، فصليـة القـدس، 63-64 (2015): 24-39. "Unlikely Identities: Abu Ibrahim and the Politics of Possibility in Late Ottoman Palestine," فصليـة القـدس، 63-64 (2015): 24-39.

25 فوستر، «العروبة»، 63-64.

26 كمـا يقـول إلـى أوشـيركوف، اتسـمت المقاومـة الفلسـطينية للصهيونيـة فـي هـذه الفتـرة بفهـم جديـد للقوميـة اليهوديـة كأداة إمبرياليـة. إلـى اوشـركوف، (علـى الزاويـة بيـن بلفـور وأحـاد هاعـام: الصهيونيـة والقوميـة والإمبرياليـة فـي الفكـر الفلسـطيني القديـم)، "Balfour pinat Ahad Ha'am: Tziyounut, le'umiyut ve-imperialism ba-mahshava hafalestinit ha-mukdemet" Te'oria u-bikoret. 49، (2017): 211-12.

27 مايـكل بروفنـس، (الثـورة السـورية الكبـرى ونهـوض القوميـة العربيـة) The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism (اوسـتن: University of Texas Press، 2005 (1-26.

28 س. خـوري، (انقسـام الـولاءات؟ سـوريا والقضيـة الفلسـطينية، 1919-39) "Divided Loyalties? Syria and the Question of Palestine, 1919–39," Middle Eastern Studies, 21، رقـم 3 (1985): 326؛ فوسـتر، «العروبـة»، 68-72.

29 إلـى الصحـف العبرانيـة، مـرآة الشـرق، 18 تشـرين الثانـي 1925، 1.

30 أفي-امـار، (ثـورة الـدروز)، "Mered ha-druzim"، دوأر هايـوم، 14 آب 1925، 1.

31 العــرب واليهــود: جــواب علــى كتّــاب، مــرآة الشــرق، 25 تشــرين الثانــي 1925، 2.

32 (فــي الصحافــة العربيــة) "Ba-itonut ha-aravit"، دافــار، 2 آب 1925، 2؛ (الفرنسـيون غادروا دمشـق) "Ha-tzarfatim yatzu mi-damesek"، دافـار، 21 تشـرين الأول 1925، 1.

33 (فــي الصحافــة العربيــة) "Ba-itonut ha-aravit"، دافــار، 2 آب 1925، 2؛ (الفرنسـيون غادروا دمشـق) "Ha-tzarfatim yatzu mi-damesek"، دافـار، 21 تشـرين الأول 1925، 1.

34 العرب واليهود.

35 العرب واليهود.

36 رابــي بنياميــن، «العــرب واليهــود أيضــاً: جــواب علــى الجــواب»، مــرآة الشــرق، 28 تشــرين الثانــي 1925، 3.

37 رابي بنيامين، «العرب واليهود أيضاً».

38 ر.ب.، (حـول النقطـة (مسـودات)) "Misaviv la-nekuda (sirtutim)"، شـيفوتينو، 1 شـباط 1928، 22.

39 ر.ب.، (حول النقطة (مسودات))، 24.

40 أشـار موشـي للمشـاكل القائمـة فـي الكتابـات التأريخيّـة للعلاقـات اليهوديّـة - العربيّـة المسـتندة إلـى قبـول «المخيّلـة الانتدابيّـة» التـي أوجـدت فلسـطين الانتدابيـة وحدودهـا الاسـتعماريّة، كأسـاس بديهـي للنقـاش. إنَّ محدوديـة النقاشـات المكانيـة والتاريخيـة تمنـع، علـى حدّ قـول بيهار، إمكانيات تحديـد العمليّات التـي قامت بهـا الحركـة الصهيونيـة ثـمَّ لاحقـاً الحـركات القوميّـة العربيّـة أيضـاً، والتـي فرضـت مـن خلالها بلـورة خطـاب قائـم علـى أسـاس مبـدأ التقسـيم، كمـا تبيّـن بوضـوح فـي قـرار لجنـة بيـل. (دولـة واحـدة، دولتـان، دولـة ثنائيّـة القوميّـة: المخيّـلات الانتدابيـة فـي فـراغ إقليمـي)، "One-State, Two-States, Bi-National State: Mandated Imaginations in a Regional Void,", Middle East Studies Online Journal, 5, رقـم 2 (2011): 97-136.

41 ثيـودور هرتـزل، (الدولـة اليهوديـة) The Jewish State, ترجمـة سـيلفي دافيغـدور، (نيويـورك، Dover Publications, 1989, 13).

42 ر.ب. (حول النقطة)، 24-26.

43 إبراهيـم المالـح، (كـي لا نـدع أرواحنـا تدخـل فـي مجلسـهم (حـول انتخابـات المجلـس التشـريعي)، دوأر هايـوم، 17 تمـوز 1928، 1. حـول المالـح وماجيـن، أنظـر جاكوبسـون، (مـن إمبراطوريـة إلـى إمبراطوريـة) From Empire to Empire, 106-7؛ وكامبـوس، (الإخـوة العثمانيّـون) Ottoman Brothers, 65-163.

44 كتـب المالـح، علـى سـبيل المثـال، الشـكر للـه لأننـا لا نعيـش تحـت رحمـة موسـى كاظـم... لأنهـم ليسـوا حـكام البـلاد ولا سـلطاتها العليـا... فقـد ولـت تلـك السـنوات التـي كان بإمـكان المـرء فيهـا أن يتحـدث بلهجـة الحكـم القائـد، ونحـن سـعداء بأنهـا لـن تعـود». إبراهيـم المالـح، (مسـألة اليـوم: حـول إحـدى الحـوارات) "Parashat ha-yom: al siha ahat" دوأر هايـوم، 1 آب 1928، 1.

45 يمكـن أن نـرى هـذا الأمـر فـي تشـديد هيفـرات ماجيـن، وهـي منظمـة سـاعد المالـح علـى تأسيسـها سـنة 1913، علـى إدارة «الخطـر» الـذي يتهـدّد الصهيونيّـة، واليهـود فـي فلسـطين عمومـاً، مـن قبـل الصحافـة الفلسـطينية. جاكوبسـون، (مـن إمبراطوريـة إلـى إمبراطوريـة) From Empire to Empire, 106؛ كامبـوس، (الإخـوة العثمانيّـون) Ottoman Brothers, 164. حـول الجوانـب المختلفـة للنشـاط السياسـي للمالـح خـلال فتـرة الانتـداب، انظـر جاكوبسـون ونـاور، (الجيـران المشـرقيّون) Oriental Neighbors, 36-38.

46 ر.ب.، (حـول النقطـة (مسـودات))،28-29. اقتبـس الخالـدي مـن موشـي مازدينـي، (عشـر سـنوات مـن سياسـة أرض إسـرائيل) -Eser shanim shel mediniyut eretz yisraelit، (تـل أبيـب، هآرتـس 1928)، 80.

47 هيليـل كوهيـن، (السـنة صفـر فـي الصـراع العربـي - الإسـرائيلي: 1929) Year Zero of the Arab-Israeli Conflict: 1929, (Waltham, MA: Brandeis University Press, 2015)، شـالوم راتزابـي، بيـن اليهودية والصهيونيـة: الدائـرة الراديكاليـة فـي بريت شـالوم، 1925-1933, Between Judaism and Zionism: The Radical Circle in Brith Shalom, 1925–1933, (Leiden: Brill, 2002)، 137-154; أدل غـوردون، هـذا ليـس إلا حبًّـاً مـن طـرف واحـد: انعـزال هانـز كوهـن عـن الحركـة الصهيونية، "En zo ki im ahava nichzevet: prishat Hans Kohn me-hatnu'a hatziyonit" فـي بريـت شـالوم والصهيونيـة ثنائيـة القوميـة: "القضيـة العربيـة" كقضيـة يهوديـة، in Brith- Shalom and Bi-national Zionism: The "Arab Question" as a Jewish Question, تحريـر أدل غـوردون (القـدس: الكرمـل، 2008)، 71-74.

48 نيتـزان ليبوفيتـش، (فلسـفة الوقـت عنـد هوغـو بيرغمـان؛ بيـن الخـلاص وبريـت شـالوم) "Filosofyat hazman shel hugo Bergman: ben geula le-brit shalom"، فـي بريـت شـالوم والصهيونيـة ثنائيـة القوميـة، تحريـر غـوردون، 16-149.

49 كوهيـن، السـنة صفـر؛ راتزابـي، بيـن اليهوديـة والصهيونيـة، 137-154؛ غـوردون، هـذا ليـس إلا حبًّـاً مـن طـرف واحـد، 71-74.

50 ر.ب.، (مـن مخطوطـات النـزوات (مسـودات علـى هوامـش المجموعـة))، "Mi-megilat shigayon (sirtutim be-shuley ha-kovetz)"، شـيفوتينو، 1 نيسـان 1930، 41-44.

51 الخالدي، القفص الحديدي، 51-52.

52 الخالدي، القفص الحديدي، 56-64.

53 ويلدون ماثيوز، (مواجهة إمبراطورية، بناء أمة: القوميون العرب والسياسة الشعبية في فلسطين الانتدابية) Confronting an Empire, Constructing a Nation: Arab Nationalists and Popular Politics in Mandate Palestine (London: I. B. Tauris, 2006), 44-74.

54 ماثيوز، مواجهة إمبراطورية، 75-101.

55 ماثيوز، مواجهة إمبراطورية، 57-62.

56 أ. جاد، (لجنة مناهضة الإمبريالية في فرنكفورت) "Ha-ve'ida Ha-anti imeprialistit be- Frankfurt," دافار، 19 أيلول 1929، 2-3.

57 بيان لأمانة الأراضي العربية في العصبة المناهضة للإمبرياليّة، الأرشيف الصهيوني المركزي، 109/A357

58 بيان الأمانة.

59 بيان الأمانة.

60 ر. بنيامين، (رسالة منشورة إلى حمدي أفندي الحسيني)، "Nekudot: Michtav galuy le-Hamdi Efendi al-Husayni" دافار، 29 تشرين الأول 1929، 2.

61 إيتامار بن أفي، الهوية الفلسطينية: النسب المشترك، "Falestiniyut: B. avotiyut meshutefet" دوأر هايوم، 6 شباط 1929، 2.

62 إفرايم حاييم بن ناحوم، (شخصيتنا القومية: دراسات وأبحاث حول الصهيونية، والقومية والهوية الفلسطينية) Tzivyonenu ha-leumi: berurim u-mehkarim al tziyonut, le'umiyut ve-eretz-israeliyut Histadrut ezrahim eretz-israelim be-eretz (القدس، ـ إسرائيل) 1935.

63 محمد روشان أخطر، (فدراليات جنينيّة) "Federations in Embryo," 7 حزيران 1930. Filastin

64 ر. بنيامين، «العرب واليهود كشركاء» "Arabs and Jews as Partners," Filastin, 14 حزيران 1930.

65 م. ر. أخطر، (الصهيونية وتطلعات الشرق) "Ha-tziyonut ve-tikvot ha- mizrah," شيفوتينو، 2 كانون الثاني 1931، 8-20.

66 أخطر، (الصهيونية وتطلعات الشرق).

67 ر. بنيامين، (شرقاً!) "Ha-mizraha!"، شيفوتينو، 2 شباط 1931، 66-67.

68 افتتاحية "Dvar ha-ma'arechet"، شيفوتينو، 2 آذار 1931، 82-83.

69 ر. بنيامين، شرقاً! (2)) "Ha-mizraha!"، شيفوتينو، 2 آذار 1931، 112-13.

70 ر. بنيامين، شرقاً! (2).

71 ر. بنيامين، شرقاً! (3)، شيفوتينو، 2 نيسان 1931، 140-41.

72 ر. بنيامين، (جواب) "Tshuva,"، شيفوتينو، 2 آب، 1931، 371-73.

73 ر. بنيامين، (من هذا وذاك: حول إحدى التعقيدات). "Mize u-mize: al tasbich ehad", 136باميشور 136، (13 تشرين الثاني 1942): 3؛ ر. بنيامين، (من هذا وذاك: البخور العطري للثانية) "Mize u-mize: ktoret ha-samim shel h-sheni"، باميشور 137 (20 تشرين الثاني 1942): 2.

74 مخطوطة لردّ ر.ب. على مقال أفراهام شفادرون في شيفوتينو، الأرشيف الصهيوني المركزي، A357/25.

75 ر. بنيامين، (توضيحات إيديولوجية (أمور بيني وبين إفراهام شفيدرون))، "Berurey ideologia (dvarim she- beni u-ben Avraham Shvadron)" دافار، 5 آب 1931، 3.

76 ر.ب.، (موعظة عن إسرائيل لأخينا المتسلل (رؤية ليلية)). "Neum hadash shel Israel el ahinu ha- mistanen (ba-halom hezyon layil)" نير، 7، رقم 7 (1956): 15.

من غزة إلى المجدل
عشر مداخلات فنّيّة

مجموعة من 10 صور جوية من أرشيف ولاية بافاريا حملت اسم (Küstenebene-File 10- GazaBeerseba "bir es-seba"). التُقطت هذه الصور في الفترة من بين أيلول 1917 وأيلول 1918 خلال الرحلات الاستطلاعية التي أجرتها السرية الألمانية كجزء من عمليات التحالف الألماني – التركي، وهي توثق بشكل منظم المساحة الممتدة ما بين غزة والمجدل، بما فيها قرى عراق المنشية وبيت جرجا والجية وبربرة والمجدل التي دمرت لاحقاً.

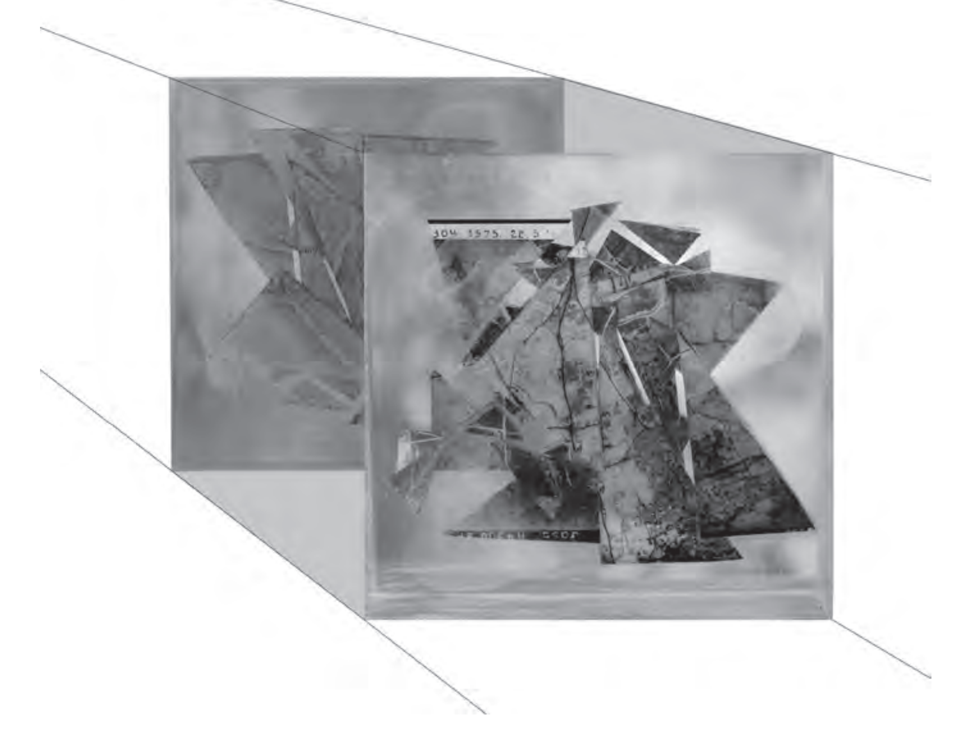
خدمت الصور الاستكشافية الجوية التي التقطت خلال العمليات الاستطلاعية غايات الألمان التكتيكية والاستخباراتية، وكذلك الأنظمة الاستعمارية التي تعاقبت على فلسطين، وأصبحت أداة لدراسة المشهد الحضري والبنية التحتية في فلسطين في نهاية العهد العثماني.

دعَونا في هذا العدد الخاص من حوليات القدس عشرة فنانين لاستخدام هذه الصور، وتطوير مداخلات فنية بناء على تَخيُّل عملية تصويرها والتقاطها من السماء. طلبنا من الفنانين الإجابة على الأسئلة التالية خلال التفكير في مداخلاتهم الفنية: هل تلقى الطيار أوامر لالتقاط هذه الصورة من خلال الاتصال اللاسلكي؟ ماذا تضمنت الرسالة؟ ما الذي كان يجول في ذهن الطيار أوروبي الثقافة لحظة التقاطه صوراً لمشهد فلسطين «المقدس»؟ ما الذي كان يراه الطيار خارج إطار الصورة؟ كيف نتجاوز الأهداف العسكرية ونُفّسر الصورة من منظور أوسع؟ هل يستطيع الفنان أن يتقمص الطيار ويتفاعل في الوقت ذاته مع هذه التجربة من منظور معاصر؟ كيف تبدو الصورة نفسها اليوم من خلال الأقمار الصناعية؟

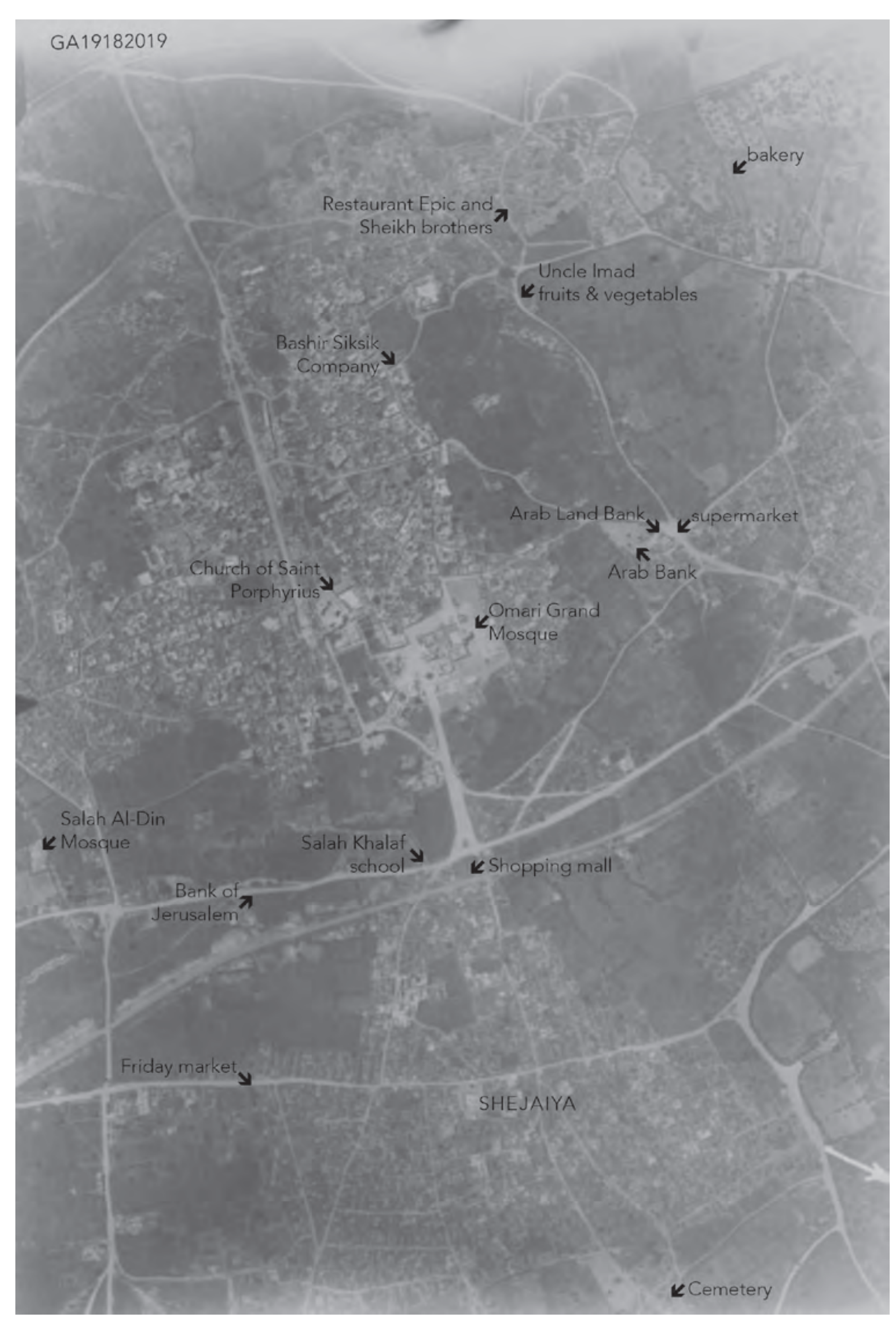
مددت رأسي بلهفة لأتامل تفاصيل مدينة غزة عبر زجاج الطائرة الأمامي، وخرائط المساح الفرنسي "بيير جاكوتين" التي رسمها لفلسطين لا تفارق مخيلتي. انظر عبر الزجاج كأنني ما زلت أقف أمام لوحات خرائطه الستة التي ما زالت معلقة على جدران غرفتي، أتأملها، أحدق بها ... محدثا نفسي "سوف اعيد رسم هذه الخرائط من جديد".

ينتابني إحساس غريب الآن وانا أغادر اجواء المدينة كأنني أخرج من فضاء مغلق... سأنظر للأسفل للمرة الاخيرة.

من مذكرات طيار
1918 - 5 - 28



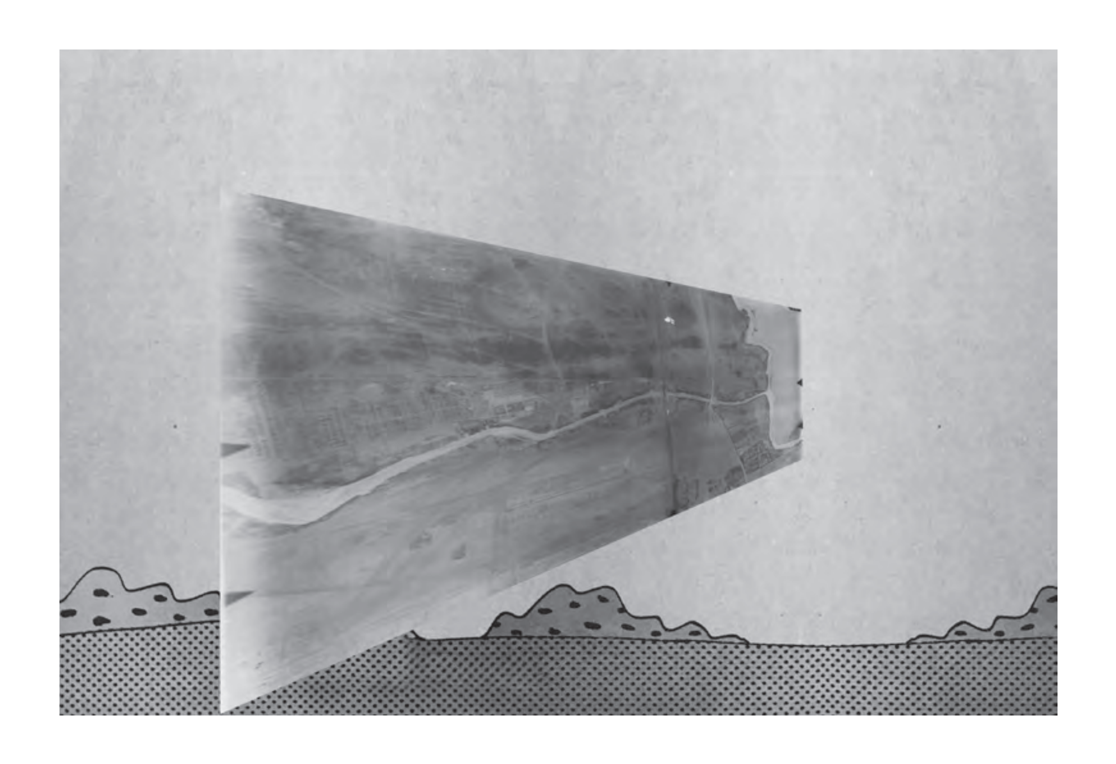
شـذى الصفـدي حـول مدينـة غـزة 1799 – 1918. بلكسـي جـلاس، كـولاج، 25 x 25 سـم، 2019. «ينتابنـي إحسـاس غريـب الآن وأنـا أغـادر أجـواء المدينـة كأننـي أخـرج مـن فضـاء مغلـق ... سـأنظر للأسـفل للمـرة الأخيـرة». مـن يوميـات طيـار (نـص مـن الفنـان)



جاك برسيكيان حول مدينة غزة المنظر الجوي لمدينة غزة 1918 – 2019، 2019



عامر الشوملي حول عراق المنشية صورة مركبة، «طبوغرافية الأرض المقدسة»، 2019.

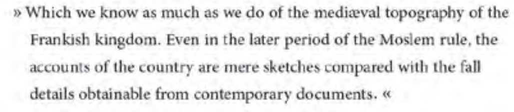


آلاء يونس حول دير سنيد اللباد يفتح عينيه بدهشة. هذا رسم للأرض التي يتخيل الهبوط عليها، تقطعها صورة جوية لدير سنيد وضعت كحاجب للريح أمام الطيار الذي يلتقط الصورة.



خالد حوراني حول الجية شاهد عيان، فيديو الجية، الحج محمد السحار.





» Which we know as much as we do of the mediæval topography of the Frankish kingdom. Even in the later period of the Moslem rule, the accounts of the country are mere sketches compared with the fall details obtainable from contemporary documents. «

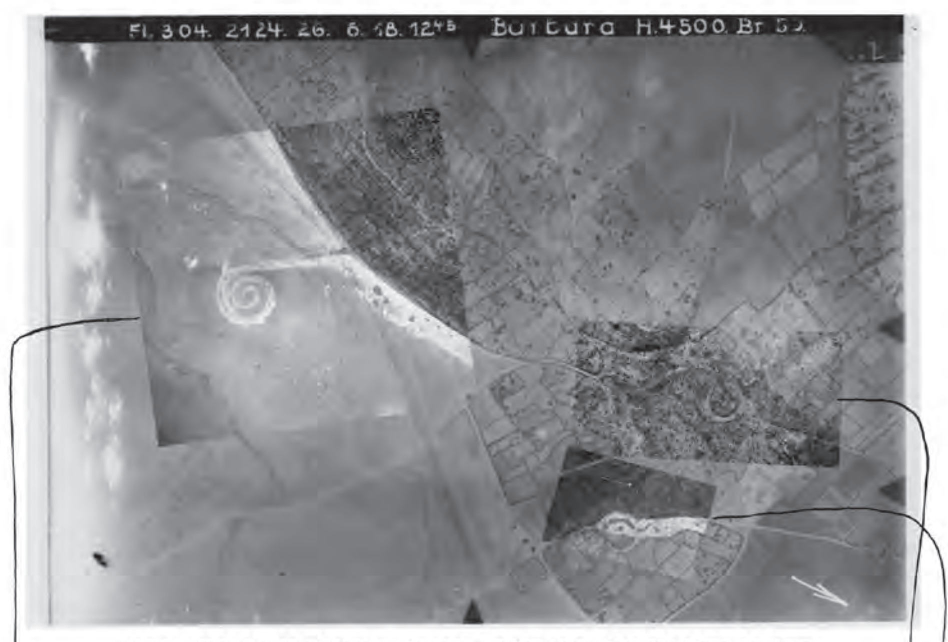




» He has also successfully identified a very large proportion of the sites, but as he apparently was not in possession of the Survey map, and as the Survey Memoirs were unpublished at the time, a considerable amount of additional identification becomes.possible, and only a very small proportion of these sites are left without location on the map. «

مهدي براغيتي حول بيت جرجة كولاج غرافيكي، 2019. النص: حوليات استكشاف فلسطين المجلد 21، 4 (1889).

Artist / Photographer / Pilot



Aerial image of the village of Barbara, 28 May 1918. Bavarian State Archives

On July 20, 1973, American artist Robert Smithson died during an aviation accident along with the pilot and a photographer when their light plane crash as they were inspecting one of his earthworks under construction (Amarillo Ramp) in the vicinity of Amarillo, Texas.

Relatively few of Smithson's major works remain intact, his best-known pieces, and probably the most famous pieces of all earthworks, are the Spiral Jetty, 1970 (1500 ft) protruding into Great Salt Lake in northern Utah, U.S. and Broken Circle/Spiral Hill, 1971 in Emmen, The Netherlands.

عيسى غريب حول بربرة الفنان/ المصور/ الطيار، 2019. مسح لصور تم دمجها بنصوص ورسومات يدوية (مقال مصور قيد الكتابة)



She told me,

Lines are many, and future is promising. I see investments and development. People will gather for commercial purposes - Peaceful, positive, progressive, and of good faith. This land is there for benefit. I think that I don't see war.

(Manira / 11,500 CFA franc)



She told me,

Thousands of years left hidden scars in its skin, spreading light into the entire world. How blessed are you to have this image! This land have diamonds and gold within, human eyes can't see. One is born soon there, an angel who will reveal its history. Change will occur. Protected are those who will keep this image.

(Ada / 9,000 CFA franc)



She told me,

This land holds powers to heal people from their sickness. Its water is sweet. Your distance is vast. This image will change your entire life. If you go there in person, you will never have any blockage in your way. And if you use this picture in your art, you will be famous. This land is your cure.

(Amita / 13,500 CFA franc)

TRANSCRIBED ENCOUNTERS WITH THREE PSYCHIC PICTURE READERS IN DAKAR, SENEGAL. DECEMBER/2019.

نور عابد حول المجدل لقاءات مكتوبة مع ثلاثة قراء صور روحانيين في دكار، السنغال، 2019.



عريب طوقان حول الجية بهجة هذه المساحة، 2019. رسم على الليزر، ورق، حبر، ألوان باستيل زيتية، أوراق معدنية.



Dots invsible to the eye
dictate the limits of the sky

Undress the letter
Un-render the script

شروق حرب حول المجدل جرد الرسالة - حرر النص، 2019.

السير الذاتية للفنانين المشاركين:

شـذى الصفـدي فنانـة بصريـة مـن الجـولان، تعيـش وتعمـل مـا بيـن الجـولان ورام اللـه، وشـذى هـي إحـدى المؤسسـين لمركـز فاتـح المـدرس للفنـون والثقافـة فـي الجـولان.

جاك برسيكيان مؤسس ومدير المعمل وجاليري قناديل في القدس.

عامر الشوملي فنان متعدد يُدّرس في كلية الفنون والموسيقى والتصميم في جامعة بيرزيت، فلسطين.

آلاء يونـس فنانـة ومنسـقة معـارض وناشـرة. تبحـث أعمالهـا فـي الأرشـيفات وبقايـا الأفـلام والممارسـات الفنيـة. عرضـت أعمالهـا فـي بينالـي فينيسـيا وإسـطنبول وغوانغجـو، وعـدد مـن المؤسسـات الفنيـة العربيـة والدوليـة. نظمـت جنـاح الكويـت فـي بينالـي فينيسـيا (2013) و«متحـف أدوات تـرد الغيـاب».

خالـد حورانـي فنـان وناقـد فنـي فلسـطيني، كمـا أنـه مؤسـس الأكاديميـة الدوليـة للفنـون المعاصـرة في فلسـطين والمديـر الأسـبق لهـا. يلعـب حورانـي دوراً رئيسـياً فـي مشـهد الفـن المعاصـر في فلسـطين.

مهدي براغيثي هو فنان بصري يستخدم العديد من الوسائط، منها الفنون الأدائية والتركيبية والكولاج.

عريـب طوقـان مثقفـة وفنانـة. حاليـاً هـي زميلـة فـي برنامـج «أوروبـا فـي الشـرق الأوسـط» فـي «ملتقـى الدراسـات العابـرة للأقاليـم فـي برليـن».

عيسى غريب فنان بصري يستخدم العديد من الوسائط منها التصوير والفيديو والفن التركيبي والنصوص.

نور عابد فنانة وباحثة تعيش في رام الله.

شروق حرب مخرجة وفنانة وكاتبة ومحررة ومنسقة معارض فنية.





أصــدرت الســلطة الفلســطينية، طابعيــن تذكارييــن بعنـوان زبلـن فـي العـام 2001، فـي الذكـرى السـبعين لرحلـة زبلـن إلـى الأراضـي المقدسـة.

